جامعة اليرموك
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
قسم اللغة العربية وآدابها

تحولات الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي

إعداد:

عامر محمد غرايبة

إشراف:

أ.د. خليل محمد الشيخ

2007/7/1م

جامعة اليرموك
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
قسم اللغة العربية وآدابها

تحولات الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي

إعداد:

عامر محمد غرايبة

بكالوريوس لغة عربية وآدابها، جامعة الزرقاء الأهلية، 1998م

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص "اللغة العربية / أدب ونقد" في جامعة اليرموك، إربد- الأردن.

لجنة المناقشة:

الأستاذ الدكتور خليل محمد الشيخ.................. مشرفا ورئيسا

الأستاذ الدكتور نبيل حداد .... عضوا

الدكتور نايف العجلوني .... عضوا

الدكتور إبراهيم أبو هشهش .... عضوا

2007/7/1م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

سورة هود آية: 88.

شكر وتقدير

يطيب لي في نهاية هذا العمل ان أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الدكتور خليل الشيخ الذي قبل الإشراف على هذه الدراسة، ووجهني لإنجاز هذا العمل، وزودني بالمراجع المتوفرة، وأعطاني من وقته الكثير، وكذلك أشكر الأساتذة الكرام الذين وافقوا على مناقشة هذا البحث، وأثروه بملاحظاتهم القيمة، وهم: الأستاذ الدكتور نبيل حداد، والدكتور نايف العجلوني، والدكتور إبراهيم أبو هشهش.

وأتقدم بالشكر والتقدير إلى والدتي الكريمة التي كانت تشجعني دائما على متابعة الدراسة، كما أتقدم بالشكر والتقدير لإخواني وأخواتي الذين وقفوا إلى جانبي دائما، وخصوصا أخي إبراهيم الذي ساعدني على كل الصعد المعنوية والمادية، وكان له دور مهم في لفت انتباهي إلى الروائي غالب هلسا، ولم يبخل علي بما كنت أحتاجه من مصادر ومراجع من مكتبته الخاصة.

كما أتقدم بالشكر وعظيم الامتنان إلى رفيقة دربي رابعة، التي وقفت إلى جانبي وساعدتني، ووفرت لي الوقت المناسب للدراسة والكتابة، وظلت على الدوام تدفعني باتجاه الإنجاز والتقدم في هذا العمل، وقامت عني ببعض الأعمال مما وفر لي الوقت الكافي للكتابة.

كما واشكر زملائي المعلمين الذين ساعدوني في أداء مهمتي، وخصوصا مدير مدرسة السفينة السيد محمد علي عنانبة، ولا أنسى صديقي السيد بسام حسين غرايبة الذي ساعدني في تجهيز جهاز الحاسوب وأشرف على صيانته، والطالب عمار بني عطا الذي قام بصيانة الحاسوب أكثر من مرة، وكذلك صديقي العزيز عمر بني عواد الذي كان له دور في تشجيعي.

واشكر كل من ساعدني ووقف إلى جانبي ونسيت أن أذكره.

عامــر.

الإهداء

- إلى والدي الكريمين اللذين ربياني صغيرا .

- إلى رفيقة دربي التي ساعدتني وجعلت حياتي سعيدة .

- إلى إخواني وأخواتي الذين وقفوا إلى جانبي دائما .

- إلى أبنائي الأعزاء ريم وعبيدة وربا، أزهار الغد المشرق .

- إلى طلابي الأعزاء في بلدة الهاشمية ومدرسة السفينة .

عامر غرايبة .

المحتـــــوى:

الموضــــــــــــوع	الصفحة

الملخص

تحولات الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي

إعداد

عامر محمد غرايبة

ماجستير لغة عربية- تخصص أدب ونقد- جامعة اليرموك2007م

إشراف

أ.د. خليل الشيخ

هذه دراسة في شخصيات غالب هلسا الروائية، الذي شكل خطابه الروائي نقطة لافتة على مستوى الرؤية والتشكيل، ليس على الصعيد الأردني فحسب، وإنما على صعيد عربي، وربما عالمي أيضا، حيث ترجمت بعض أعماله إلى لغات أخرى، وقد تتبعت الدراسة الشخصيات الروائية في روايات غالب هلسا السبع وهي: "الضحك" و"الخماسين" و"السؤال" و"البكاء على الأطلال" و"ثلاثة وجوه لبغداد" و"سلطانة" و"الروائيون"، وقام الباحث بتصنيف الشخصيات في خطاب غالب هلسا الروائي، ثم درس تشكلات الشخصية في الروايات السبع.

وقد ابتدأ الباحث بفصل تمهيدي حول الشخصية الروائية، من حيث وظيفتها وأنواعها وسماتها، وتبين للباحث أن الشخصيات الروائية عند غالب هلسا تندرج تحت خمسة أنواع من الشخصيات تقريبا؛ أخذت الشخصية الإشكالية نصيب الأسد

في شخصياته الروائية، إذ مثلت الشخصية الرئيسية في كل رواية، وكانت أقرب ما تكون إلى سيرة غالب هلسا الذاتية، كما وجد الباحث الشخصية الثورية والتي قدمها هلسا بأقرب ما يكون إلى الحيادية، حيث بدت واقعية بعيدة عن التمجيد والتحميد.

أما الشخصية النسوية والتي كان لها الدور الأبرز في خطاب غالب هلسا الروائي، فقد رصد الباحث ستة أنواع منها هي: المرأة الأم، والمرأة الحبيبة، والمرأة الحلم، والمرأة الرمز، والمرأة المقموعة، والمومس الفاضلة، حيث عالج هلسا من خلالها قضايا المرأة في المجتمع العربي، من حيث الحريات والمشاركة في بناء المجتمع والتأثير في فيه.

كما تتبع الباحث الشخصية المتشظية، والتي جاءت انعكاسا لحالة المثقف العربي في العصر الحديث، الذي لم يصمد أمام الهزائم والويلات التي ألمت بالأمة، وتركته لوحة متشظية غامضة، وكذلك الشخصية الانتهازية والتي شكلت جزءا غير يسير من خطاب غالب هلسا الروائي، وكان لها بعض وجوه إشراقها، وقد ألجأتها ظروف أقسى منها إلى هذا المصير شبه المحتوم.

وقد تعرض الباحث بالدراسة والتحليل لتشكلات الشخصية الروائية عند غالب هلسا، فتتبع مصادر تشكيل الشخصية ووظيفتها، كما بحث في مستويات الشخصية، من حيث المستوى اللغوي والحواري والثقافي والاجتماعي، كما بحث في تقنيات تشكيل الشخصية عند غالب هلسا، وخصوصا تقنيات الحلم وتيار الوعي والاسترجاع والتداعي الحر للأفكار، وانتهت الدراسة بخاتمة تعرض أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

يسعى هذا البحث إلى تقديم مقاربة تحليلية للشخصيات في خطاب غالب هلسا الروائي (1932-1989م)، إذ يشكل هذا الخطاب على مستوى الرؤية والتشكيل نقطة لافتة في تطور الخطاب الروائي، ليس على الصعيد الأردني فحسب، بل على الصعيد العربي أيضا، فتجربة غالب هلسا تنتمي إلى آفاق عربية واضحة، من حيث أفقها ومداها وتأثيراتها، ولكنها ظلت تمتح من أبعاد أردنية محلية، على صعيد تشكيل الشخصيات، وعلى صعيد بناء الرواية، الذي يظل مشتبكا في خطاب غالب هلسا الروائي بتجربته، وما شاب تلك التجربة من تحولات فكرية وحياتية متعددة، مثلما تظل معبرة عن ثقافته الواسعة، وقدرته على التجديد، والتأثير الفاعل في محيط الثقافة العربية.

وقد سعت هذه الدراسة إلى تتبع الشخصيات في روايات غالب هلسا، ضمن منهج تحليلي، يرصد التحولات التي طرأت عليها في سياق العمل الروائي، ودلالات هذه التحولات، وأثرها في الحياة العربية على صعيد التحول الاجتماعي كنتيجة لتحولات الفرد، والحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية في المجتمع العربي، في النصف الثاني من القرن العشرين، وما تبع تلك الحياة من قهر واستبداد وظلم واعتداء على أبسط حقوق الإنسان وحرياته الفكرية، مع بعض وجوه الإشراق التي قد تكون اعترت الحياة العربية في تلك الفترة.

ولما كان لغالب هلسا منهجه ورؤيته الفكرية، للكون والإنسان والحياة، فقد ظل على الدوام يَعُد الإنسان محور الحياة والكون ومركز وجوده، ويرى أن تسخر له كل الإمكانات ليعيش حياته بأبعادها ومعطياتها المختلفة، ومن هنا

فقد انشغل خطابه الروائي بالإنسان وما يجب أن يكون عليه موقفه في الحياة، وفق الرؤية الفكرية التي انطلق منها غالب هلسا، ولقي بسببها كل صنوف العنت والاضطهاد، فضلا عن المعاناة التي لازمته نتيجة تصديه للكتابة التي أبعدته عن جو العائلة الحميمي، وظل بوحدته وعذابه المستمر يعاني من أجل الإنسان حتى توفي بعيدا عن وطنه، ورجع إليه في كفن.

ولما كان غالب هلسا مفكرا ومثقفا صاحب رؤيا واتجاه وفلسفة، فقد ظل متأبيا على الانصياع لحزب أو فكرة، وقد حاول أن يجسد فكرته من خلال الحزب، ولكنه كان أضيق من أفكاره، ولذا ظل طوال حياته داخل الأحزاب وخارجها، ولم يستقر في حركة أو فكرة أو حزب أو مذهب، وكان على الدوام أكبر من الحيز الذي يحشر فيه، فظل في صراع دائم مع معطيات الفكر وبخاصة الأحزاب السياسية والأعمال الأدبية والنقدية.

وبالرغم من الحجم الهائل الذي كتب حول غالب هلسا وإنتاجه الفكري، حيث أحصى نزيه أبو نضال بعض ما كتب عن غالب هلسا من مؤلفات خاصة أو مقالات ودراسات في كتب نقدية، تناولت إبداعه في سياق دراسات عامة، فبلغت أكثر من أربعين كتابا، وقد تناولت إبداعه الروائي غير أطروحة جامعية، وعقدت حول إبداعه الروائي والقصصي والفكري ندوات كثيرة طبعت أبحاثها في كتب خاصة، إلا أن تحولات الشخصية في خطابه الروائي لم تحظ بدراسة مستقلة، في حين طرقت موضوعات قريبة منه.

فقد كتبت هيام شعبان رسالة دكتوراة بعنوان إشكالية المؤلف- السارد- البطل في أعمال غالب هلسا القصصية والروائية قدمت فيها تحليلا للأعمال الروائية والقصصية وتقنيات السرد من خلال إشكالية المؤلف- السارد- البطل، وقدمت ريم خميس الزير رسالة ماجستير بعنوان رسم الشخصية في

روايات غالب هلسا كما قدمت رسائل جامعية أخرى تناولت المكان والزمان في أعمال غالب هلسا الروائية، أو تناولت بالتحليل رواية من رواياته[1].

وقد توقفت هذه الدراسة عند روايات غالب هلسا السبع في دراستها للشخصية وهي: الضحك 1970م، والخماسين 1975م، والسؤال 1979م، والبكاء على الأطلال 1980م، وثلاثة وجوه لبغداد 1984م، وسلطانة 1987م، والروائيون 1988م، معتمدة على طبعة الأعمال الروائية الكاملة، التي صدرت عن دار أزمنة للنشر والتوزيع في عمان، بالتعاون مع البنك الأهلي الأردني، وقد رجع الباحث إلى مجموعة من المصادر والمراجع في محاولة لاستجلاء الرؤى والأفكار المختلفة، حول دلالات التحول في الشخصية عند غالب هلسا، والتي تدعم وجهات النظر المختلفة أيضا بغض النظر عن موافقتها أو مخالفتها في هذه الدلالات.

وقد أفاد الباحث في أطروحته من المنهج الاجتماعي الذي يهتم بالهموم السياسية والاجتماعية والاقتصادية للشخصية، ويرصد الرؤية الفكرية التي تميز شخصية عن أخرى، ومن المنهج النفسي وخصوصا في تحليل بعض الشخصيات ودوافعها النفسية، التي تنعكس على تصرفاتها في التخييل الروائي، ولجأت الدراسة في سبيل ذلك إلى قراءة كتب في علم نفس الشخصية

---

(1) أطروحة مينة البرقاني، (مغربية) حول رواية "السؤال"، جامعة السوربون، باريس، 1986م، أطروحة دكتوراة، المغرب، نعيمة [illegible]، جامعة بن مسيك، حول روايتي: "سلطانة" و"السؤال" (تحليل نفسي)، 1995م، اطروحة دكتوراة لباحث اردني: فهد سلامة، عن الرواية الأردنية (غالب هلسا)، لندن، 1998م، أطروحة عن غالب هلسا لباحثة مغربية زهور دوجان، اطروحة ماجستير: "بنية النص السردي عند الروائي غالب هلسا"، إعداد ثائر يوسف، جامعة دمشق، 1997م، أطروحة دكتوراة: "البنية السردية في أعمال غالب هلسا" محمود الطويسي، القاهرة، اطروحة دكتوراة لمحمد عبد الله قواسمة، "البنية الزمنية في روايات غالب هلسا"، الجامعة اليسوعية، بيروت، 2002م، صدرت حديثا في كتاب مدعوم من وزارة الثقافة الأردنية، 2006م، أطروحة دكتوراة، هوارد دوغلاس رولاند (مستعرب امريكي) "النزاع العربي الإسرائيلي كما يصوره الادب القصصي عند العرب" وتحدث عن غالب هلسا باعتباره كاتبا مصريا (أنظر الناعوري عيسى: غالب هلسا أديب من الأردن، مجلة أفكار،ع 1977،44م)، دراسة حول المكان في روايات غالب هلسا من إعداد نجود حوامدة، بيروت، ودراسة حول ادب غالب هلسا، من إعداد سحر حسين، جامعة الموصل، العراق، 2002م، ودراسة عن المكان في روايات غالب هلسا من إعداد عبد الله الخصاونة، الأردن. أنظر ابو نضال نزيه، "غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية"، ص 165.

والمنهج النفسي والحداثة والتجريب، والدراسات النقدية المختلفة، التي عنيت بالأدب الروائي بشكل عام، والرواية العربية والأردنية بشكل خاص.

جاءت هذه الأطروحة في تمهيد وفصلين وخاتمة، تناول التمهيد الشخصية الروائية بشكل عام، وذلك من حيث وظيفتها في العمل الروائي، وسماتها، وأنواعها، حيث تبين أن هلسا لم يهتم بشخصية البطل الروائي، وركز أعماله حول مجموعة من الشخصيات، وهي ما يطلق عليها الشخصية الرئيسية، كما تناول مصادر تشكيل الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي، والتي تمثلت في حياته الشخصية وحياة أصدقائه، ومسقط رأسه وقراءاته في الأدب العالمي، والسجن والمدرسة والمنتديات الثقافية ومكان العمل.

وتناول الفصل الأول تحولات الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي، والذي يعد صلب هذه الأطروحة وعمودها الفقاري، وتوزع على خمسة مباحث رئيسية، عالج المبحث الأول تحولات الشخصية الإشكالية، والتي تعد أهم شخصيات غالب هلسا في خطابه الروائي، وتمثل في الروايات المختلفة مراحل حياة غالب هلسا نفسه، بتعقيداتها وتحولاتها المختلفة.

وبالرغم من التشابه الكبير بين المظاهر الخارجية لحياة الشخصيات الإشكالية، وسيرة غالب هلسا الروائية، إلا أن الشخصيات جاءت منسجمة مع مسيرتها الروائية، وناقشت قضايا عميقة ومؤثرة في حياة الأمم والشعوب، ولم تكن تكرارا لشخصية واحدة - كما رأى بعض النقاد- وإنما كانت معبرة عن قضايا مختلفة، تطلبتها طبيعة الحياة الجديدة والظروف السياسية المعقدة، كما كان من الخطأ الحكم على حياة المؤلف واستنتاج عقد نفسية منذ الطفولة لتبرير قضية الجنس عند هلسا في خطابه الروائي، وما القيمة النقدية لمثل هذه الاستنتاجات؟!.

بينما غطى المبحث الثاني تحولات الشخصية الثورية في خطاب هلسا الروائي، حيث كانت الشخصية الثورية واقعية لهـا إنجازاتهـا وبطولاتهـا، وإخفاقاتها وتشوهاتها من جهة أخرى، وجاء المبحث الثالث بعنـوان "تشـكيل الشخصية النسوية"، حيث وجد الباحث أن الشخصية النسوية في خطاب هلسا الروائي تنضوي تحت ستة أنواع تقريبا هي: المرأة الأم، والمـرأة الحبيبـة، والمرأة الحلم، والمرأة الرمز، والمرأة المقموعة، والمومس الفاضلة.

أما المبحث الرابع فقد أفرد لدراسة الشخصية المتشظية، والتـي جـاءت انعكاسا لرؤية غالب هلسا لوضع المثقف العربي في عصر الهزائم والتراجـع والنكوص العربي، بينما جاء المبحث الخـامس تحـت عنـوان: "الشخصـية الانتهازية"، والذي تتبع الشخصية الانتهازية وتحولاتها المختلفة فـي مسـاحة خطاب غالب هلسا الروائي.

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان: "تشكلات الشخصية في خطاب غالـب هلسا الروائي"، وضم ثلاثة مباحث رئيسية هي: مستويات الشخصية، وتقنيات تشكيلها، ووظيفة الشخصية، إذ وجد الباحث أن غالب هلسا وإن انتمت رواياته إلى التجريب في الفن الروائي، إلا أنها ظلت واقعية، ولم تلتزم بأسلوب روائي محدد بل جاءت بما يناسب القص، وبشكل عفوي مفتوح على كل التجارب.

وبالرغم من الاختلاف الفكري بين الباحث والروائي غالب هلسا، إلا أن تجربة هلسا الروائية كانت على الدوام جاذبة للقراء علـى مسـاحة الـوطن العربي، على مختلف مستوياتهم ورؤاهم الفكرية، وقد بقيت نقاط اللقـاء مـع الخطاب الفكري المتمثل في الخطاب الروائي لغالب هلسا متوفرة؛ حيث ساهم هلسا بفنه الروائي المبدع في إلقاء الضوء على عـوالم الإنسـان الداخليـة، وتحرك في مساحة واسعة من الحوار مع الآخر، وكان صريحا حتـى اتهمـه الكثيرون، بالتحيز وبث روح الفرقة.

ولم يتردد غالب هلسا في فضح كل ما من شـأنه أن يحـرر الإنسـان، ويسمو به فوق القيم المادية والبراجماتية الضيقة، وناقش قضايا تتفـق عليهـا كافة التيارات الفكرية الهادفة للإصلاح؛ من مثل: احترام حقوق الإنسان فـي الوطن العربي، والحريات والحقوق السياسـية: التـداول السـلمي للسـلطة، والتعددية الفكرية والسياسية، واحترام الآخر، وحقه في التعبيـر عـن رأيـه بصراحة دون خوف أو تعتيم، ونقد السلطات الحاكمة والأحزاب المعارضـة، والسعي نحو العلم ومحاربة كل أشكال الجهـل والظـلام، وتنميـة المـوارد الاقتصادية بما يكفل حياة شريفة، بعيدة عن الذل والإهانة.

وأخيرا لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان إلى الأسـتاذ الدكتور خليل الشيخ الذي أشرف على هذه الأطروحة، ومنحنـي مـن وقتـه وخبرته وأفكاره الكثير المؤثر، وكان لتوجيهاته الأثر الأكبر في تذليل العقبات التي اعترضت طريق البحث، وتحمل نزواتي وكسـلي وإحباطـاتي، وظـل يدفعني إلى أن أنجزت هذا البحث المتواضع، كما أتقدم بجزيل الشـكر إلـى الأساتذة الكرام الذين قرأوا هذه الأطروحة وناقشوها وهم :الأستاذ الدكتور نبيل حداد، والأستاذ الدكتور إبراهيم أبو هشهش، والدكتور نايف العجلوني.

تمهيد

- الشخصية الروائية: وظيفتها ، أنواعها ، سماتها.
- مصادر تشكيل الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي.

تمهـــــــــــيد:

الشخصية الروائية:

تعد الشخصية الروائية وسيلة الكاتب لتجسيد رؤيته، والتعبير عن إحساسه بواقعه، وهي "ركيزة الروائي الأساسية في الكشف عن القوى التي تحرك الواقع من حولنا، وعن ديناميكية الحياة وتفاعلاتها، فالشخصية من المقومات الرئيسية للرواية، وبدون الشخصية لا وجود للرواية، لذا تجد بعض النقاد يعرفون الرواية بقولهم: "الرواية شخصية"[1] والروائي" يركب عددا من الكتل الكلامية بصورة غير مصقولة واصفا نفسه، مطلقا عليها اسما وجنسا، كما يختار لها ملامح معقولة، ويجعلها تتكلم بوساطة فواصل مقلوبة، هذه الكتل الكلامية هي شخصيات"[2].

و"الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية،ومحور الأفكار والأراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاص أفكاره العامة منفصلة عن محيطها الحيوي، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في المجتمع، وإلا كانت مجرد دعاية، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعي وقيمتها الفنية معا، فلا مناص من أن تحيا الأفكار في الأشخاص، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلا مع الوعي العام، في مظهر من مظاهر التفاعل ، حسب ما يهدف إليه الكاتب، في نظرته إلى هذه القيم، وفي أغراضه الإنسانية، ولا مناص من اتساق هذه الأغراض مع الغرض الفني، وهذا مظهر الصراع النفسي أو الاجتماعي، يقوم به الأشخاص ضد المجتمع وعوامل الطبيعة، وقد يقوم به الشخص ضد نفسه".[3]

وتفترق الشخصية الروائية عن الواقعية أو التاريخية بكونها أكثر تفردا وتميزا عند القارئ، ويمكنه فهمها فهما كاملا إذا رغب الروائي بذلك، فهو قادر على عرض

1- الماضي ، شكري: فنون النثر العربي الحديث، ص 30

2- فورستر: أركان الرواية ص 37.

3- هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.

حياة الشخصيات الداخلية والخارجية إلى حد معرفة أسرارها[1]، وتتعدد الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية، التي ليس لتنوعها واختلافها من حدود،[2] ويُسخر الروائي الشخصية لإنجاز الحدث، فتخضع بذلك لصرامة الكاتب وتقنيات إجراءاته وتصوراته وإيديولوجيته؛ أي فلسفته في الحياة.[3]

وتشكل أبعاد الشخصية الروائية أهمية خاصة في نقد الرواية، وتتبدى الشخصية بالتدريج وعلى دفعات وفق المنطق الذي تفرضه أحداث الرواية وجوها العام، ويكاد النقاد أن يجمعوا على أربعة أبعاد للشخصية الروائية هي: البعد المادي والبعد الاجتماعي والبعد النفسي والبعد الأيديولوجي.

وظيفة الشخصية الروائية:

يمكن للشخصية الروائية أن تؤدي وظائف متنوعة في العالم الخيالي الذي يخلقه الروائي،[4] وبما أن الرواية تركز على الإنسان وقضاياه فمن الطبيعي أن تكون الشخصيات هي محور المعاني الإنسانية، ومدار الأفكار العامة للعمل الروائي، وتكمن أهمية الشخصية في الكشف عن الصلات العديدة بين ملامحها الفردية والمسائل الموضوعية العامة، وفي إدغامها ما هو ذاتي بما هو عام وموضوعي،[5] ويمهد سلوك الشخصيات لوقوع الأحداث وتطورها.[6]

ومن أهم وظائف الشخصية في الرواية[7] :

(1) انظر فورستر، مرجع سابق، ص 39.

(2) انظر مرتاض، عبد الملك في نظرية الرواية، ص 83.

(3) المرجع نفسه ص 86.

(4) بورنوف، رولان، عالم الرواية ، ص143

(5) لوكاتش، دراسات في الواقعية، ص28.

(6) بدر، عبد المحسن، حول الأديب والواقع، ص162.

(7) انظر بورنوف، رولان، عالم الرواية، ص144.

فاعل الحدث : بما أن الحدث في الرواية هو تضارب القوى المتعارضة أو المتلاقية الموجودة في أثر معين، فإن الشخصيات الرئيسية تقوم بتجسيد هذه القوى، أو تكون مهمتها الخضوع لها، أو أن تبث فيها الحياة، ويمكن اختزالها إلى ست وظائف أو قوى هي: قائد الحركة والمعارض والموضوع المرغوب فيه أو الذي يرهب جانبه والمرسل إليه والمساعد والمحكم، وليس بالضرورة أن تتجسد هذه الوظائف جميعها دائما في الشخصيات.

2- **عنصر تجميلي:** من النادر أن تخلو الرواية من شخصيات عديمة الفائدة بالنسبة للحدث، أو لا تملك أية دلالة خاصة، وهذه الشخصيات على الرغم من أنها عديمة الفائدة، ولا وجود لها على المستوى الفني؛ إلا أنها تحتفظ بوظيفة التزويق المهمة، لأنها تتيح للروائي رسم لوحة جميلة، ويقدم في نفس الوقت فكرة عن فنه.

3- **علم النفس:** عرف علم النفس بوصفه مجموع السمات التي تميز خلق فرد أو جماعة ما، ومهما كان الهدف الذي يسعى إليه علم النفس سواء (أراد أن يكون تعبيرا عن الأهواء) أو اهتم بالسمات الخلقية أو (بأهواء النفس)أو باللاشعور أو بالسلوك، فإنه يظهر بالرواية بطريقتين مختلفتين: الإيحاء بالحياة الباطنية أو تحليلها؛ وبإمكاننا أن نؤكد أن التحليل قديم قدم الرواية نفسها، وأن نلاحظ الاهتمام بتحليل نفسية الشخصيات الرئيسية.[1]

4- **المتكلم بالنيابة:** عندما نتحدث حول الشخصية المتكلمة بالنيابة عن مؤلفها؛ لا بد أن نتجاوز إعادة التكوين، الذي له طابع الحكاية لترجمة حياة الكاتب، وأن نتخطى اكتشاف المصادر الأدبية التاريخية والتحليل السطحي للأفكار، لبلوغ مستويات في التعبير لا تكون مرئية لأول وهلة. وإن التأكيدات المتكررة والمتعلقة باستقلال الشخصية لم تمنع النقد من محاولة دراسة تطور فكر الخالقين من خلال مخلوقاتهم[2]

---

(1) انظر بورنوف، رولان، عالم الرواية ص144.

(2) المرجع نفسه، ص144.

فتصبح الشخصية وسيلة الروائي في توضيح أفكاره، وإيصال قراءته للواقع إلى ذهن المتلقي.

5 - **إدراك الآخرين والعالم**: تمكن الشخصية القارئ من معرفة الآخرين، من خلال تصرفات الشخصية في الرواية، وتعاملها مع الأحداث والمشكلات، وردود أفعالها تجاه القضايا والشخصيات الأخرى التي تعترض سبيلها، كما يدرك القارئ العالم من حوله، وما يدور به من أفكار وتصورات؛ من خلال تصوير أعماق الشخصية الفكرية والنفسية.

أنواع الشخصية الروائية

تتنوع الشخصية الروائية بحسب أطوارها عبر العمل الروائي، وهناك ضروب من الشخصيات؛ فنجد الشخصية المركزية والثانوية والخالية من الاعتبار، والشخصية المدورة والمسطحة والإيجابية والسلبية والثابتة والنامية.. .

الشخصية المدورة:

ويسميها بعض النقاد "الشخصية المكثفة" أو"النامية"، وهي الشخصية المركبة والمعقدة التي لا تستقر على حال، ولا يستطيع القارئ أن يعرف مسبقا ما سيؤول إليه أمرها، لأنها متغيرة الأحوال، ومتبدلة الأطوار، فهي في كل موقف على شأن، وهي المغامرة الشجاعة المعقدة، التي تؤثر في من سواها وتتأثر بهم أيضا.[1]

ويجمع النقاد على أنها تتكشف للقارئ بالتدريج، وتنمو وتتطور، والمعيار الحقيقي للحكم على نموها هو قدرتها على الإدهاش والإقناع،[2] وهي غالبا ما تكون الأداة التي تتمثل فيها رؤية الروائي.

---

(1) انظر بورنوف، رولان، عالم الرواية ص144.

(2) مرتاض، عبد الملك،في نظرية الرواية ، عالم الرواية، الكويت، 1998م.

وللكتاب في تصوير الشخصيات النامية طريقتان: أولاهما: أن يكون الشخص في القصة متكافئا مع نفسه، أي منطقيا في صفاته، بحيث يمكن تفسيرها كلها بالحالة النفسية والموقف، ولا يكون فيها تناقض غير مفهوم، والثانية: يحرص فيها الكاتب على ألا يكون الشخص منطقيا مع نفسه في سلوكه، ويبلغ التصوير النفسي أقصى درجات التعقيد بحيث يتعذر الحكم على الشخصيات، بإخضاع دوافعهم النفسية لمنطق معين.[1]

،وقد اتجه الكتاب الحديثون نحو تفعيل عنصر المفاجأة في سلوك الشخصيات، وهو جانب مهم في الصراع والتفاعل، وتكتسب فيه الشخصيات حيويتها، ويتحاشى الكتاب فيه التفسير والتعليل، والكشف عن الجوانب النفسية التي تتحكم في سلوك الشخصية.[2]

الشخصية المسطحة:

وهي الشخصية التي تبقى ثابتة الصفات طوال الرواية، لا تنمو ولا تتطور بتغير العلائق البشرية أو بنمو الصراع؛ الذي هو أساس الرواية، إذ تبقى ثابتة في جوهرها[3] وقد تبنى هذه الشخصية على سجية واحدة، أو حول فكرة واحدة، أو تصور بشكل كاريكاتوري مضخم،[4] ويمكن توضيحها بجملة واحدة.[5] ويعوزها عنصر المفاجأة، إذ من السهل معرفة نواحيها إزاء الشخصيات والأحداث الأخرى، وهذا النوع من الشخصيات أيسر تصويرا وأضعف فنا لأن تفاعلها مع الأحداث قائم على أساس بسيط ، لا تكشف به كثيرا عن الأعماق النفسية والنواحي الاجتماعية.[6]

---

(1) فورستر، أركان الرواية، ص 61.

(2) هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ص530.

(3) هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ص530.

(4) التبهنيرند،الوجيز في دراسة القصص، ص14.

(5) ويليك، رينيه، نظرية الأدب، ص23.

(6) إم فورستر، أركان الرواية، ص54.

وهي مفيدة للكاتب الروائي لأنه يلتقطها من الحياة ويرسمها بلمسة واحدة ، ولا تحتاج منه إلي كبير عناء في ذلك،ويجد القارئ فيها فائدة لأنها تذكره ببعض معارفه،(1) فهي " تتبدل نتيجة الظروف، إنها تتحرك من خلال الظروف التي تمنحها صفة استعادة حوادث الماضي".(2)

وتستخدم الشخصية المسطحة لإلقاء الضوء على الشخصية الرئيسية أو البطل، عن طريق إبراز تطوره وتفاعله الديناميي مع الحياة، في مقابل ثبات الشخصية المسطحة، أو لتساعد البطل على كشف آرائه وآماله للشخص الثانوي،(3) وقد يلجأ الكاتب لاستخدامها كي يخلق لدى القارئ إحساسا بتنوع الشخصيات أو ليعبر بواسطتها عن رؤية معينة في الحياة،(4) رؤية قد ترتبط بالمثالي والثابت والمطلق في مقابل الرؤية التي تؤمن بديناميية الحياة وتطورها وتحترم فردية الإنسان.(5)

البطل/ الشخصية الرئيسية:

يقود الحديث عن الشخصية إلى مسألة "البطل في الرواية"، ففي كل قصة شخص أو أشخاص يقومون بدور رئيسي فيها، إلى جانب أشخاص ذوي أدوار ثانوية، وقد كان من المألوف في القصة أن يقوم شخص بدور البطولة في أحداثها، وينال من الكاتب عناية كبرى، وقد يعبر عن طبقة معينة، أو اتجاه إيجابي أو سلبي،(6) ويصور الروائي هذا البطل وهو يتفاعل مع الواقع ويتحداه، مع إدراكه بمحدودية محاولته أو صعوبتها، أو عدم فوزه في النهاية، إلا أنه يواصل المحاولة".(7)

---

(1) هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ص529.

(2) نجم، محمد يوسف، فن القصة، ص85.

(3) فورستر، أركان الرواية، ص85.

(4) التبنبرند،مرجع سابق، ص14.

(5) موير، إدوين ص21.

(6) بدر، عبد المحسن طه، تطور الرواية العربية في مصر ، ص 21.

(7) هلال، محمد غنيمي، ص533 .

ولكن بدأ إهمال البطل- عند الأوروبيين- منذ الطبيعيين والواقعيين، وصار الكاتب يعمد إلى تصوير عدة أشخاص لا يخص أحدا منهم بصفة "البطل"، وقد يتفاوتون فيكون من بينهم شخصية رئيسية، ولكنهم يتقاربون في العناية، ويقصد الكاتب في هذه الحالة الكشف عن وعيهم جميعا، بالقياس إلى الموقف العام في القصة، وبهذا تصبح غاية القصة الكشف عن جوانب الموقف، وأصدائه النفسية، وهم لا يهملون تصوير الحالات النفسية لأشخاصهم، ولكنهم يعنون بتصوير الحالات الواعية تجاه الموقف الخاص.(1)

والروايات الحديثة - عموما- تهمل فكرة البطل، "وتهتم بتصوير الوعي الاجتماعي لمجموعة من الأفراد ممثلة لاتجاه خاص في المجتمع، وتنزع نحو الواقع الاجتماعي، وتصوير الوعي الإنساني، مع تعميق هذا الوعي بالطرق النفسية والفلسفية التي عنيت بها القصة".(2)

الشخصية النموذجية:

وهي الشخصية التي يرسمها الروائي بوصفها ممثلة لجيل أو طبقة أو فئة أو مجتمع، وتبرز فيها اتجاهات ما يمثله وسماته المميزة، وتمتاز عن الشخصية العادية بأنها تختزل سجايا الطبقة أو الفئة التي تمثلها، ويهدف الروائي منها إلى بيان رؤيته نحو الفئة المستهدفة التي تختزل سماتها في هذه الشخصية.(3)

الشخصية المحورية:

قد تفتقد الرواية للصراع، ويغيب عنها الحدث، وبهذا تفتقد "البطل" ويظهر فيها ما يطلق عليه النقاد الشخصية المحورية،(4) وتسخر الأحداث والحوار والشخصيات

(1) غولدمان، لوسيان، البنيوية التكوينية، ص104.

(2) هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ص534 .

(3) المرجع نفسه، ص507.

(4) سماحة، فريال، رسم الشخصية في روايات حنا مينا، ص25.

الأخرى لإضاءة هذه الشخصية خارجيا وداخليا سلوكا وأقوالا، وتهيمن هذه الشخصية على الأحداث والأزمنة والأمكنة وتتفاعل معها، وتكون وظيفة الشخصيات الأخرى التي تلتقيها أو تصادفها إبراز التحولات النفسية والذهنية التي مرت بهذه الشخصية، وهذا لا يعني أن الشخصيات الأخرى بلا فاعلية، فقد تكون الشخصية الفاعلة هامشية، وهي التي تحرك الأحداث والشخصية المحورية، أو الرئيسية هي التي تدفعها للعمل.(1)

الشخصية الثانوية:

إلي جانب الشخصية الرئيسية هناك شخصيات أخرى ذات دور أو أدوار ثانوية، لا بد أن يقوم بينها جميعا رباط يوحد اتجاه القصة، ويتضافر على ثمار حركتها، وعلى دعم الفكرة أو الأفكار فيها، وذلك بتلاقي الشخصيات في حركتها نحو مصائرها، وتجاه الموقف العام في القصة، ولا تكون الشخصيات الثانوية أقل حيوية وعناية من الروائي، فهي كثيرا ما تحمل آراء المؤلف، وكل شخصية ذات رسالة تؤديها كما يريد منها القاص.(2)"

سمات الشخصية الروائية

السمات هي الملامح التي تميز شخصية ما عن باقي الناس، كالشجاعة والجبن والذكاء والغباء والتمرد والحقد والانتهازية ...الخ، وتظهر هذه الملامح من خلال المواقف التي توضع فيها الشخصيات، وبقدر ما يكون الروائي قادرا على تصوير الشخصية من الناحيتين: النفسية والفكرية، تزداد قدرته على إيجاد الإشكاليات التي تصنع مواقف نلمحها في أنفسنا، أو في أناس نحس بهم.

(1) انظر الموسى، خليل، التحولات النفسية والذهنية في الشخصية الروائية، مجلة المعرفة،العدد395، 1995، ص110.

(2) هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ص533.

وإذا كانت البطولة في الرواية التقليدية أو عند بطل الرومانس فرصته للتحقق والتفرد البطولي؛ فإنها في الرواية الحديثة، لا تعني أكثر من حرص شديد على التنسيق مع الآخرين واهتماماتهم، ولذلك فالشخصية في الرواية العربية الحديثة- كما هو واقع الإنسان العربي- بين: منبوذ ومتمرد وحاقد، وقتيل ومعذب، ومخنوق ومطارد ومستغل(بفتح الغين) ومتعب ومجهد ومجنون ومتصدع ومهمل، مدللة على أن ظروف القهر والاستعباد والاستبداد والتجاوز على أبسط الحقوق الديمقراطية والاجتماعية، لا يمكن أن تتيح ولادات مختلفة عن هذه المطروحة، وإذا أريد للرواية أن تفخر بشيء؛ فإنها تفخر بتطورها الفني، وبطرحها الموضوعي لمأساة الإنسان العربي ومحنته،الغريب في أرضه، المقهور في منزله، الذي تسهم العائلة، والمجتمعات، والحكومات، وقوى الاغتصاب والاحتلال جميعا في سحقه والبطش به.[1]»

وسمات الشخصية في أعمال غالب هلسا الروائية تمثل واقع الشخصية العربية من وجهة نظره، ووفق رؤيته الفكرية للقضايا والمشكلات التي واجهت الإنسان العربي منذ الخمسينات وحتى نهاية الثمانينات من القرن العشرين، بهزائمها وويلاتها وبعض وجوه إشراقها، ولذلك فإننا نجد عنده: الشخصية الإشكالية، والثورية، والانتهازية، والمتشظية، أما المرأة وهي الأكثر تواجدا في خطاب غالب هلسا الروائي فنجد: المرأة الأم، والحبيبة، والمرأة الحلم، والرمز، والمرأة المقموعة، والمومس الفاضلة.

(1) الموسوي،محسن جاسم، الرواية العربية النشأة والتحول، مكتبة التحرير، بغداد، 1986.

مصادر تشكيل الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي

تنوع إنتاج غالب هلسا الفكري من القصة القصيرة إلى الرواية إلى الدراسات الفكرية والسياسية والنقد الأدبي والترجمة، ولعل سيرة حياة غالب هلسا الحافلة بالقراءة المبكرة، والحياة الحزبية والتنظيمية العاصفة التي عاشها متنقلا بين خمسة أقطار عربية، ومشاركته في الحركة الشيوعية والتنظيمات الثورية المسلحة، قد تركت آثارها العميقة على مواقفه ورؤاه الفكرية وخياراته السياسية، وهذا التنوع في التجربة انعكس أيضا على شخصياته الروائية، فجاءت متنوعة بأبعادها ومستوياتها وانتماءاتها السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

من هنا فإن المتتبع لشخصيات غالب هلسا الروائية يعجب من هذا الكم الهائل المتنوع والممتد على رقعة العالم العربي، والأجانب المقيمين فيه، وحتى الشخصيات التراثية، ولأن حياة غالب هلسا بالغة التركيب والتعقيد(1)، فقد كانت هي المصدر الأول لشخصيات غالب هلسا الروائية، " لقد انعكست حياة غالب هلسا الحافلة على إنتاجه الفكري، وخصوصا الروائي، بل إنني أعتقد أن من الصعب فهم أدب غالب دون فهم هذه الحياة ومعرفتها، ذلك أن العديد من رواياته يمكن اعتبارها مذكرات شخصية صيغت بقالب روائي"(2).

1- حياته الشخصية:

تمثل حياة غالب هلسا الشخصية وتجاربه الذاتية، المصدر الأول والرئيس في تشكيل الشخصية الروائية، وقد جاءت الشخصية الرئيسية في روايات غالب هلسا السبعة ممثلة لمراحل معينة من حياة كاتبها، بل إن القارئ يستطيع إعادة تجميع قصة حياة غالب في مختلف مراحلها، من خلال تحولات الشخصية الرئيسية في خطابه الروائي، وكذلك تحديد

(1) انظر أبو نضال، نزيه: غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية، ص 36.

(2) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

مواقف هلسا من مختلف القضايا السياسية والفكرية، واستبطان رؤاه الفلسفية وعوالمه الداخلية السرية، من خلال تتبع الشخصية الرئيسية في رواياته[1].

في روايته الأولى الضحك يبدو الراوي (غير مذكور الاسم) هو غالب هلسا نفسه، فهو شاب أردني الأصل ذهب إلى بغداد ليتم دراسته الجامعية، إلا أنه اضطر للخروج منها بسبب مواقفه السياسية، ثم ذهب إلى مصر لإتمام دراسته الجامعية، وبقي فيها بسبب مطاردته في بلده الأصلي، الذي لم يكن يغيب عن باله، وقد كتب مذكراته في مأدبا، حيث كان مجبرا على الإقامة الجبرية في بداية الخمسينات، وفي مصر كان يرتاد ندوات المثقفين، ويعيش حياة المثقف الثوري القريب جدا من التنظيم الشيوعي دون أن يكون عضوا فيه، وقد وجه سهامه النقدية لنظام الحكم العربي كما وجهها للأحزاب والتنظيمات السياسية، ولا سيما الشيوعية منها.

وفي رواية "الخماسين" تمثل شخصية "غالب" مرحلة من حياة هلسا، حيث كان مثله يعمل في وكالة الأنباء الألمانية، وهو شاب أردني يكتب الرواية، ويعيش في مصر، بعد أن تخرج من الجامعة الأمريكية، وفي "السؤال" كان "مصطفى" الشيوعي القادم من الريف، ويحن إليه، قريبا جدا من وحدة هلسا في منفاه، أما في "البكاء على الأطلال" فقد كان خالد شابا أردنيا يعيش ألم الغربة والوحدة في مصر، ويحن إلى بلدته الأصلية "ماعين"، ويتذكر آمنة، والراعية البدوية.

وفي"ثلاثة وجوه لبغداد" جاء اسم الشخصية الرئيسية مطابقا (غالب هلسا)، وقد سفر من القاهرة بعد ترؤسه لندوة عن المخطط الأمريكي في المنطقة، وفي بغداد يعثر على كتابه "زنوج وبدو وفلاحون"، وفي "سلطانة" تكاد شخصية جريس أن تكون سيرة غالب هلسا الذاتية، ويمكن من خلالها تلمس مفاتيح إبداع غالب هلسا الأدبية: الطفولة، الأحلام، الكوابيس، عقدة أوديب، الجنس، الحزب، الدراسة، السجن، عمان، القاهرة، بغداد، بيروت، مأدبا، الحركات الشيوعية، وفي "الروائيون" مثل "إيهاب" الجزء الأهم من حياة

---

(1) انظر ابو نضال نزيه، غالب هلسا، ص 49.

غالب هلسا في مصر، ثم انتهى أمره بالانتحار، وتوفي هلسا بعد ذلك في دمشق، انتحر بطله الأخير، وازدادت أوضاعه النفسية سوءا وكآبة، ثم فارق الحياة.

2- الأصدقاء:

لقد تحرك غالب هلسا في حياته عبر رقعة جغرافية واسعة؛ من الأردن إلى لبنان إلى مصر إلى العراق وسورية وغيرها، وكون في هذه البلدان صداقات واسعة ذات أبعاد حميمية، حتى أن معظم أصدقائه الكتاب والأدباء في مصر- وهي مكان إقامته لمدة ثلاثة وعشرين عاما- كانوا يعتبرونه كاتبا مصريا؛ " ظل غالب هلسا حتى يوم وفاته يعتبر نفسه كاتبا مصريا. ... ليس فقط لأنه قضى في مصر ثلاثة وعشرين عاما هي زهرة عمره وذروة تألقه، بل أساسا لأنه اندمج تماما في نسيج الحياة المصرية، درس في القاهرة (الجامعة الأمريكية) واشتغل في مصر، وأحب وعشق وصادق وكان موضعا للحب والعشق والصداقة هنا، وكتب أول وأجمل أعماله، ومسودات معظم أعماله الأدبية، هنا. وكانت مصر بأرضها وناسها ومثقفيها ونسائها ورجالها، دائما، تشغل بؤرة حسه الفني وحسه الحياتي معا. ولعل من بين أسباب رحيله المبكر عنا حسه بالنفي عن مصر. ...كان غالب قد انخرط في حياتنا الثقافية، شاركنا الأمجاد والمحن، حمل السلاح في معركة قناة السويس... وعرف غالب سجون مصر وخاض معاركها الأدبية والثقافية والسياسية، وكان واحدا منا، لم يكن ضيفا ولا وافدا."[1].

وبالرغم من الغربة التي كان هلسا يعانيها في مصر وغيرها، والتي أصبحت محورا مهما في دراسة خطابه الروائي، حيث كانت شخصياته الإشكالية تعاني من صراع نفسي مرير وساحق، بين رغبة جامحة بالاندماج الكامل في المجتمعات الجديدة، وعدم القدرة على تحقيق ذلك، مع حنين جارف إلى الفردوس الأمومي المفقود، وطنه الأصلي الأردن وماعين، إلا أن صداقات هلسا كانت متجذرة وقوية، "في أواخر الخمسينيات، كنت في العشرين من عمري، هو يكبرني بسنوات. أكاد أبدأ كل شيء. هو قادم من وراء البحر،

(1) الخراط، إدوار: ثلاثة وجوه لغالب هلسا روائيا، فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 1993م، ص 249.

وحيد بالقاهرة بلا عائلة. ينهي دراسته في الجامعة الأمريكية، ويعمل بالترجمة. حياته عريضة. المدينة، والشارع، والمقهى.. الكل له أصدقاء. سعيد، جميل، ساخر، سياسي، مثقف.كاتب قبل كل شيء. رغم"أردنيته" يسبح هنا في مياه مألوفة، يحبها، وتحبه."[1]

ولم تقتصر علاقة غالب هلسا على المثقفين في مصر وسورية والعراق، فقد كتب بعضهم عن علاقتهم به الكثير، ومنهم إدوار الخراط وعلاء الديب وسليمان فياض وخيري الذهبي، وكتب هو عن آخرين، ومنهم: يحي الطاهر عبدا لله، البساطي، وعبد الحكيم قاسم والأبنودي، وجميل عطية، وإبراهيم عبد العاطي، وفهمي حسين، وعبد الله الطوخي، وصبري موسى، وفاروق منيب، وجيلي عبد الرحمن، 2 وعبد الفتاح الجمل، ومحمد برادة من المغرب وغيرهم[2]، فقد كان له أيضا علاقاته المختلفة مع الطبقات الأخرى، "ما من بيت لصديق، أو محنة في عائلة صديق، إلا كان غالب أحد شهودها. كان فضوله لاكتشاف الحياة المصرية، في البيوت من حوله، لا ينفذ. ربما ليتخذ منها أمشاجا في قصصه. ... كانت له مغامراته، وأكثر من خليلة حميمة، ... كان يريد منهن المودة، والغنى العاطفي، وسرعان ما يمل ويغير. لقد عرف واكتشف إنسانا، ... وحاله مع الناس، الرجال، كان هو الحال نفسه، مع الناس، النساء: المعرفة، والاكتشاف، ومتعة الصداقة، وللقص، والحوار الإنساني."[3]

وفي رواياته كان يأخذ الإطار العام للكثير من شخصياته من أصدقائه، ومعارفه ومحبيه، وكان ذلك يسبب له بعض الحرج أحيانا؛ "أحيانا أشعر بالذنب أنني بشكل ما أستغل أصدقائي. الغريب أن الطرف الآخر يعلم بتعاملي معه على هذا الأساس."[4]، ويلاحظ القارئ لروايات غالب هلسا أن الكثير من الشخصيات وبعض الأحداث التي تمر

---

(1) الديب، علاء: شموع من أجل غالب هلسا، فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 1993م، ص 240.

(2) نشرت مجلة أفكار الأردنية في العدد 108 عام 1992م مقتطفات مما ذكره كتاب عرب عن غالب هلسا، معظمهم تربطهم به صداقات حميمة، تحت عنوان" غالب هلسا بأقلام 60 كاتبا عربيا".

(3) فياض، سليمان: المغترب الأبدي، فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 1993م، ص 244.

(4) هلسا، غالب: حوار أجرته معه غالية قباني في جريدة (الوطن) في 1988/2/14م، ونشره أحمد خريس في كتاب: المغترب الأبدي يتحدث حوارات مع غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان،2004م، ص121.

بها هي واقعية وتصور أحداثا وقعت بالفعل،" هذا هو الجانب السلبي من الكتابة؛ أن يقبل عليك أشخاص بود، ينفتحون عليك ويدخلونك إلى أجوائهم العائلية، ثم فجأة وجدوا أنفسهم شخصيات منمطة ومدانة أحيانا في العمل الفني. هذه المسألة واضحة عندي إلى درجة أن أصدقائي في القاهرة كانوا يعرفون أصول بعض الشخصيات، وبعضهم قاطعني لأنني صورتهم، أو صورت أجواءهم العائلية. الكتابة فيها جانب غير أخلاقي!"[(1)].

ويلاحظ القارئ أن غالب هلسا يعمد إلى ذكر أسماء بعض أصدقائه في رواياته، مثل "صنع الله" وهو صديقه الروائي صنع الله إبراهيم، الذي يمر به "خالد" الشخصية الرئيسية في رواية "البكاء على الأطلال"، أثناء فترة أزمة حادة يمر بها، وقد كان معظم العاملين في دار النشر التي يعمل بها "دار الثقافة الجديدة" معتقلون، وعندما نتحدث عن صداقات غالب هلسا فإننا نجمل أيضا رفقاءه في العمل السياسي، الذين يعدون من أقرب أصدقائه.

3- **مسقط رأسه**:

شكل المكان الأردني بشكل عام، و"ماعين" بشكل خاص حضورا قويا في خطاب غالب هلسا الروائي، وإذا كانت" أجمل وليس الأحدث، والأرقى في كتابات غالب هلسا هو ما كان ترجمات ذاتية، أو تنويعات على هذه الترجمات، أو إعادة خلق لشخصيات أثرت في هذه الذات، أو انتزاع صفات منها لخلق شخصيات أخرى"[(2)] فقد انطلق غالب هلسا من بيت الطفولة، قرية أحلام الكهولة، المدعومة بزاد نقدي عال حفره - بلا شك- إعجابه الشديد بكتاب باشلار الذي ترجمه تحت عنوان"جماليات المكان".

وفي رواياته التي توصف بأنها مصرية ظلت الشخصيات الأردنية حاضرة من خلال التذكر والاسترجاع، والقطع الزماني والمكاني، أما في رواية "سلطانة" فتمثل الشخصيات المأخوذة من "ماعين" الجزء الأكبر من شخصياته الروائية، من مثل آمنة وسلطانة وأميرة

---

[9] (1) هلسا، غالب: حوار أجرته معه غالية قباني في جريدة (الوطن) في 1988/2/14م، ونشره أحمد خريس في كتاب: المغترب الأبدي يتحدث حوارات مع غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان،2004م، ص119.

[10] (2) الذهبي، خيري: المكان عند غالب هلسا، عالم غالب هلسا، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1996م، ص 130.

وصليبا وزوجته صبحا وسلمى ويوسف وعبد الكريم وتركي العماشنة وزعيل السالم وعامر وهزيم وغيرهم كثير مما تزخر به الرواية.

وقد ظلت النقطة الأساسية التي ينطلق منها هلسا في سلطانة "هي أن البيت القديم، بيت الطفولة، هو مكان الألفة، ومركز تطييف الخيال. وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه، ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية ذلك الإحساس بالحماية والأمن اللذين كان يوفرهما لنا البيت، أو هو - البيت القديم- كما يصفه باشلار(يركز الوجود داخل حدود تمنح الحماية). إننا نعيش لحظات البيت من خلال الأدراج والصناديق والخزائن التي يسميها باشلار (بيت الأشياء). العش يبعث إحساسا بالحياة لأنه يجعلنا (نضع أنفسنا في أصل منبع الثقة بالعالم. هل كان العصفور يبني عشه لو لم يملك غريزة الثقة بالعالم؟)"[(1)].

وفي هذا الصدد يذكر غالب هلسا أن أهم ما يمكن أن يستفاد من قراءة فوكنر، أنه فتح عيون هلسا والكتاب على منجم مغفل في الحياة وهو مسقط الرأس، يقول هلسا على لسان فوكنر:" ابتداء من روايتي (سارتوريس) اكتشفت أن مسقط رأسي يستحق الكتابة وأنني لن أستطيع طيلة حياتي أن أنتهي من الكتابة عنه، وأنني من التسامي باليقيني إلى ما هو غير مؤكد أستطيع أن أستغل بحرية تامة كل موهبة في داخلي إلى الدرجة القصوى. لقد انتح أمامي منجم ذهب مدفون في الذين حولي، ولذا ابتكرت كونا كاملا من صنعي"[(2)].

4- قراءاته في الأدب العالمي:

منذ نعومة أظافره وغالب هلسا مولع بالقراءة، كان يقرأ القصص والروايات بنهم وشغف، عندما ولد غالب كان عمر والده يزيد على الثمانين عاما، وكانت أمه تقترب من الخمسين، كانوا كبارا ولا يدركون حاجات الطفل ومتطلباته الأساسية، ولأن أخاه الأكبر كان مثقفا ويمتلك مكتبة غنية، كان غالب يقرأ من مكتبته ما يشاء، كانت القراءة بالنسبة له

(1) الذهبي، خيري: المكان عند غالب هلسا، عالم غالب هلسا، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1996م، ص 130.

(2) هلسا، غالب: أنباء علموني أنباء عرفتهم، جمع وتحقيق ناهض حتر، دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع، عمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996م، ص 53.

هي زاده الأول ومهربه من عالم الكبار، " كنت أقرأ لأكون أفكارا خاطئة لم يعن أحد بتصحيحها. كنت قد أعددت نفسي للبحث عن (أرسين لوبين) لأشاركه في مغامراته. كان صديقا على نحو ما. وكنت أتصور أنه ينتظر قدومي. لم أعرف إلا فيما بعد أنه شخصية خيالية وأن (موريس لابلان) قد خلق هذه الشخصية قبل ولادتي بسبعين عاماً"[(1)13].

كان الفتى غالب هلسا يقرأ القصص والروايات فتؤثر في تنمية خياله القصصي، وتكوينه النفسي، وقد ظلت الأحداث والشخصيات من الأدب العالمي محفورة في ذهن الصبي، الذي أخذ يوظفها في خلق ورسم ملامح شخصياته قصه فيما بعد، "أستعيد الأن واحدة من أجمل متع الحياة، أعني قراءة روايات (ستيفنس): (جزيرة الكنز) و(السهم الأسود) و(سيد بالانتين) و(المخطوف) و(كاتريونا) ومجموعته القصصية (ألف ليلة وليلة). عبره أسترجع أجمل ما طفولتي، التي كانت تختنق بالرتابة والملل وعنف الكبار وضيق أفقهم. كان (ستيفنس) واحة في وسط تلك الصحراء يجتاحني عبقها فيعود إلي انتشاء الرعب اللذيذ الممتع"[(2)14].

وقد رسخ الكثير من الشخصيات في ذهن هلسا منذ عهد الطفولة، ثم جاء العديد من الشخصيات من الأدب العالمي لتزيد ثقافة الأديب الروائي المبدع، ولتشكل إطارا خاصا في تكوين شخصياته الروائية فيما بعد، أعجبته شخصية "سيلفر" في رواية "جزيرة الكنز" لـ"ستيفنس"،" لماذا تعيش هذه الشخصية في داخلي؟ أعتقد أن إعجابي بها يعود إلى ثرائها، وأهم من ذلك قدرتها على السيطرة على ظروفها. إن (سيلفر) تعبير عن توق الإنسان لأن يعيش حياته بجسارة وامتلاء دون التفات للعقبات التي تسد الطريق. إنها شخصية مشحونة بالتفاؤل وحب الحياة"[(3)15].

ولعل القارئ يعثر على ملامح من شخصية (سيلفر) في بعض شخصيات خطاب غالب هلسا الروائي، كما نجدها عند (تفيدة) في "السؤال" و"زينب" في "الروائيون"، كما

---

[13] (1) هلسا، غالب: أدباء علموني أدباء عرفتهم، ص 9.

[14] (2) المرجع نفسه، ص 17.

[15] (3) المرجع نفسه، ص 24.

تأثر غالب هلسا بهمنجواي ورَصْدِه لمظاهر العالم الخارجي، وإتاحته للقارئ أن يكتشف الخلفيات الروحية والنفسية لشخصياته، أما "جون دوس باسوس" فكان من أكثر من تأثر بهم غالب هلسا في تكوين شخصياته الروائية وفنه الروائي بشكل عام، "ولقد جاء (دوس باسوس) ليكسر رهبة الشكل الروائي ويزيل الحاجز بين تجاربي الحياتية وبين الرواية. لقد جعل العالم من حولي يدخل في الرواية، يتخللها من جميع الجهات. فأصبح كل شيء يصلح للكتابة: الأحاديث العابرة، الوجوه، العلاقات اليومية مع الزملاء، أحلام اليقظة، الممارسة الجنسية...الخ."[(1)] تأثر أيضا بـ (بلزاك) وهوس الكشف عن التفاصيل الصغيرة التي تصنع الحياة، و(كافكا) ولعنة القمع والمطاردة، و(دستويفسكي) والقدرة على فضح أدق الخبايا السرية في النفس الإنسانية.

لقد أصبح هلسا يلتقط شخصياته من حياته اليومية العادية، ويعطيها الحوار الذي يريد، ويحملها بالحدث الواقعي الذي يريد أن يرصده، ويحلل من خلالها الكثير من التصرفات، والعادات ويوجه سهامه النقدية في الأعماق، ويغوص في أعماق الشخصيات محاورا ومحللا، وقد ساعده في تكوين شخصياته إتقانه المبكر للغة الإنجليزية، وإقباله الشديد على القراءة.

5- **السجن**:

يمثل السجن مصدرا مهما من مصادر تشكيل الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي، فقد اعتقل غالب هلسا في عام 1951م في سجن عمان المركزي، ثم حول المعتقلون إلى سجن الجفر الصحراوي، وهناك التقى بمعظم المناضلين السياسيين الذين كانوا يحولون إلى هذا السجن الصحراوي النائي، وكان المساجين يمارسون هواياتهم في القراءة والمطالعة، حيث كان يسمح بإدخال بعض الكتب التراثية، وكان غالب هلسا يكب عليها وخصوصا أدب عبد الله بن المقفع، "كان من العادة أن يملأ السجناء وقتهم وخاصة

(1) هلسا، غالب: أدباء علموني أدباء عرفتهم، ص 45.

في المساء ، في شيء مفيد بأن يعقدوا أمسيات يتحدث فيها واحد منهم في موضوع ثقافي ما، وكان أن تحدث غالب عن "لينين" في أمسية من شتاء 1952م. هاجم في محاضرته تلك الستالينية وتقديس الفرد، ... ولا غرابة بأن يكرر غالب ذلك الموقف في روايته "السؤال" فيقول على لسان أحد أبطالها:- "أيه اللي يمنعنا أننا نتجاوز الإطار الستاليني ونسمح لصراع فكري حقيقي داخل الحزب" [17](1).

وكان للاعتقال والسجن والإبعاد الأثر الكبير في نمو إحساسه بالمقهورين والمظلومين والبائسين، "أطبقت رائحة السجن على وجدان غالب هلسا أيما إطباق. وأنهكته مرارا عذابات النفي والإبعاد المتكررة. وكانت معظم حكاياته ومروياته لنا تدور في هذا الفضاء المضني وأورثه هذا الأمر حساسية متحفزة إزاء الظلم، وإحساسا عميقا بالعدالة. وكان شديد العفوية والتأثر حيال المقهورين والمظلومين والبائسين" [18](2).

انتقل غالب هلسا إلى مصر، وفي القاهرة التي كانت ذات سقف عال يتسع للمواهب والإبداعات، والعمل السياسي، اندمج غالب في البنية الثقافية للمجتمع المصري، واعتقل عدة مرات وعاش تجربة السجون، كما اعتقل في العراق؛ "لقد اعتقلت في العراق وفي الأردن وفي مصر" [19](3)، وكان قد اعتقل قبل ذلك في طرابلس لبنان وفي بيروت، وفي السجن خبر غالب هلسا أنماط من يتولون التعذيب، ونمط الإنسان العادي الذي يطلب منه التعذيب، وهو النمط الذي يبكي ويتألم بعد تنفيذ المهمة، وغالبا ما يكون في حالة نفسية وعصبية سيئة.

في السجن كان غالب هلسا يلتقط الشخصيات من المسجونين بفئاتهم المختلفة؛ السياسيين بتوجهاتهم المتباينة: الشيوعيون، الإخوان المسلمون، الوفد، وأصحاب الجرائم: القتل، الاغتصاب، السرقات، المهربون، مروجو المخدرات، والأحداث، مثل شخصية

[17] (1) الحمارنة، صالح خلف:حجر الزاوية في سيرة غالب هلسا,وعي الكتابة والحياة قراءات في أعمال غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2004م، ص 269.

[18] (2) أبو فخر، صقر: غالب هلسا: البدوي المشرد، طريد المنافي وربيب التخوم، مجلة أفكار، العدد 206، عمان، 2005م، ص47.

[19] (3) هلسا، غالب: حوار أجراه معه بسام حجار في مجلة "المسيرة اللبنانية"، العدد التاسع-أيلول1980م، ونشره أحمد خريس في كتاب: المغترب الأبدي يتحدث حوارات مع غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان،2004م، ص41.

عصفور بسجن عمان المركزي في رواية "الخماسين"، كما يرصد السجانين والذين يمارسون التعذيب، "أعرف أحد هؤلاء اسمه "عبد المنعم" وكان يتولى التعذيب في سجن القلعة. مظهره يدل على أنه إنسان مسكين وغبي وشبه أبله. وعندما يبدأ بعملية التعذيب، يتوهج وجهه فجأة وتلمع عيناه ويدخل في حالة غريبة من النشوة وينضح جسده عرقا. ويبدو في حالة هياج جنسي غريبة جدا. في حالة جوع. كانت إدارة السجن تحضر له كمية من اللبن واللحم أثناء عملية التعذيب وكان يأكلها بنهم غريب. في معظم الأحيان تكون حياة هؤلاء "المعذِّبين" غير سوية لدرجة أن الأطباء يقولون أنهم لا يستطيعون العيش، بشكل طبيعي، مع زوجاتهم وأولادهم. وأن تعاملهم. غالبا، ما يكتسب طابعا ساديا"[20(2)].

في رواية ثلاثة وجوه لبغداد وظف غالب مشاهدات السجن في تكوين ملامح بعض شخصياته، مثل المهربين لبعض المواد في كيس، يكون شابا قرويا مسكينا متعلقا بأغراضه المهربة، التي يحاول أمناء الشرطة والمسؤولون الحصول عليها، وعندما يرفض التخلي عن مهرباته، يؤخذ إلى زنزانة قدامى المجرمين الضالعين في الجريمة، فيغتصب ويعامل بوحشية تحت سمع بقية المساجين، ثم يعاد إلى حجرة النزلاء المرحلين ويرمى كتلة من الدماء والثياب الممزقة، وبدون أغراضه المهربة.

أما "الأحداث" الذين يغتصبون من قبل المجرمين الكبار، ثم يجبرون على ممارسة دور الزوجة، ويندمجون مع دورهم الجديد، حيث يحتفظون بأغراض ومواد نسائية، وينظفون الزنزانة ويصنعون الطعام، وينتظرون عودة الزوج للممارسة الجنسية في الليل، فقد عبر عنهم هلسا في خطابه الروائي، وخصوصا في روايتي "ثلاثة وجوه لبغداد" و"الروائيون"، مثل الفتى "صالح" الذي كان يستغل في السجن، ثم صار الشذوذ ملازما له حيث كون علاقة مع أحد الشخصيات الثورية "حسن" بعد خروجه من السجن.

6- **المدرسة**:

---

[20] (2) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

التحق غالب هلسا بمدرسة المطران بجبل عمان، وكانت مدرسة خاصة تستقبل الميسورين من أبناء الأردن، وأقساطها مرتفعة، كان غالب هو الطالب الأصغر في صفه، وقد لقي بسبب ذلك عنتا ومعاناة، وقد بهر جو مدرسة المطران المتفتح غالب، فالمكتبة غنية بالكتب، "والمعلمون من خيرة المثقفين في البلد آنذاك، من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت وغيرها"(1)، وكان مدير المدرسة منفتحا على الطلبة يحدثهم عن الجنس بحرية تامة، وهكذا شكلت المدرسة بمبانيها وسكنها الداخلي، ومديرها ومعلميها وطلابها مصدرا مهما من مصادر تشكيل الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي.

فكثيرا ما نجد شخصية المدير في روايات غالب هلسا، وكذلك المعلمين مثل زوجته التي كانت تعمل مدرسة في نفس المدرسة، وابنته غريبة الأطوار، وبعض الطلاب من أهل عمان الذين كان يلتقي بهم أحيانا ثم يوظفهم في رواياته، ويتخذ من شخصياتهم إطارا عاما لرسم شخصياته المؤثرة، والكشف عن التفاصيل الدقيقة في حياتهم، كما يحلل شخصياتهم، وردود فعل الطلاب تجاههم، وما كانوا يحاولون غرسه في المجتمعات العربية، والأمور التي يتحملونها في سبيل ذلك.

7- **المنتديات الثقافية والأدبية**:

منذ تخرج غالب هلسا من الثانوية العامة كانت فترة تحولات كبرى تعصف بالأمة العربية، فقد تفتح أبناء جيله على أفكار وصور تقسيم فلسطين عام 1948م، ثم النكبة عام 1948م وما تلاها من نزوح اللاجئين بأعداد كبيرة، وكان ذلك إثر نهوض عام شمل العالم العربي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهزيمة النازية والفاشية، وأصبحت عمان مشحونة بالإثارة تحت سطح ساكن، "أذكر أن نشاط المثقفين في عمان كان منصبا في ناديين كبيرين أولهما كان "المنتدى العربي" وكان مركزه في شارع وادي السير ليس بعيدا عن "طلعة الحايك" في أول جبل عمان وثانيهما في "دار الندوة الأدبية" وكان مركزها في

---

[21] (1) الحمارنة، صالح خلف:حجر الزاوية في سيرة غالب هلسا.وعي الكتابة والحياة قراءات في اعمال غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2004م، ص 264.

عمارة تطل على ساحة الجامع الحسيني الكبير وكان جمهور المنتدى العربي الفئة المثقفة الغنية من المحامين والأطباء والصيادلة ورجال التربية الكبار وبعض المتنفذين من رجال الدولة وكبار المثقفين."[22](1).

في تلك المرحلة كان غالب هلسا يرتاد هذه المنتديات، ويتأثر بشكل كبير بما يحدث فيها، من نقاشات وحوارات واحتفالات، وقد شكلت هذه المنتديات معينا لشخصيات غالب هلسا الروائية فيما بعد، من مثل: موسى وطعمة ومحمود والنائب أحمد المساعد والفراش إسماعيل في رواية "سلطانة".

وفي مصر أسهم غالب هلسا بنشاط في الحياة السياسية والثقافية المصرية، وكان أحد رواد ندوة عبد الفتاح الجمل الأسبوعية في مقهى سفينكس، إلى جانب ندوة الروائي المصري الكبير نجيب محفوظ في مقهى ريش، حيث ولدت فكرة مجلة "جاليري68" التي شارك غالب بتأسيسها، ومن هذه المنتديات التقط غالب هلسا بعض شخصياته في رواياته المصرية، مثل: ليزا اليوغوسلافية ومحمد من غانا و"آدي" الأمريكي في رواية "الخماسين" ، وضابط الشرطة في "الروائيون".

8- **مكان العمل**:

شكل مكان العمل بالنسبة لغالب هلسا موردا مهما لتشكيل الشخصيات في خطابه الروائي، وكان غالب قد عمل في مواقع مختلفة في كل من القاهرة وبغداد وغيرها، وفي مركز عمله كان يلتقط الشخصيات المختلفة ويوظفها في خطابه الروائي، أو يوظف أعمالها وصفاتها المختلفة في رسم ملامح شخصياته، ففي "الخماسين" نجد مثلا كارل شميدت رئيس وكالة الأنباء، وقرني الفراش والسائق مرسي وعباس، وفي "ثلاثة وجوه لبغداد" نجد بعض شخصيات العمل من مثل ليلى وسهام ومدير المكتبة والمدير العام.

---

[22] **(1) الحمارنة، صالح خلف:حجر الزاوية في سيرة غالب هلسا،وعي الكتابة والحياة قراءات في أعمال غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2004م، ص 265.**

الفصل الأول:

تحولات الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي.

المبحث الأول: الشخصية الإشكالية

الشخصية الإشكالية هي شخصية روائية تحمل أفكارا إنسانية نبيلة، ولكنها لا تضع أفكارها موضع التطبيق، ويرى بعض النقاد أن "الإشكالي هو البطل المثقف الذي أطل على الحضارة الغربية مباشرة، فآمن بقيمها الإنسانية، ورغب في تحديث مجتمعه، ولكنه جوبه بالعداء من قبل السلطة التقليدية التي تؤيد الجهل والظلام. فاعتزل، وهمش قبل أن يهشم. فكتب مذكرات معاناته المرة في عالم بلا قيم."[1].

وتعد الإشكالية من أبرز سمات الأدب الحديث، ذلك أنها تشحنه بالتوتر والغموض، على عكس ما نجده في الآداب القديمة من اطمئنان ووضوح وصنعة فنية، ولم تعد جماليات الأدب الحديث تهتم بجماليات الأدب القديم؛ فقد بات الأدب يثير القارئ ويوقظه إزاء المشكلات التي لا يدعي القدرة على حلها، وعلى الخصوص المشكلات الميتافيزيقية والأخلاقية، وهذا التأمل في المصير الإنساني لا يتخذ شكل تأمل غيبي معزول عن الإطار الواقعي، بل إنه يحاول أن يثير مشكلة الإنسان المصيرية ضمن الواقع المعيش، ومن هنا كان الرفض الشامل للمجتمع البرجوازي.

والوجودية هي أكبر مدرسة عبرت عن إشكالية الأدب الحديث، وعلى الخصوص في فن الرواية، واهتمت بموقف الإنسان في هذا العالم. وفي نشوء الفلسفة الوجودية والأدب الوجودي على أنقاض خرائب الحرب العالمية الثانية دلالة كبرى على الحرية الإنسانية والبناء الحضاري، ولذلك ظهر مبدأ الحرية المسؤولة والالتزام[2].

وإذا كان التفاعل الحضاري مع الغرب، سواء كان بطريق التماس المباشر، أو غير المباشر - بوساطة القراءات والترجمات والكتب- هو السبب الرئيسي للإشكالية،

---

(1) اعزام، محمد، البطل الإشكالي في الرواية العربية المعاصرة، ص8 .

(2) المرجع نفسه: ص 5 .

فإن الشخصية الإشكالية عند غالب هلسا هي من النوع الثاني، أو ما يمكن أن يطلق عليه (الإشكالي الثوري)، فهو مثقف طليعي يسعى لتطوير بلده ويحمل قيما نبيلة، يبحث عنها في عالم متدهور، وتتمثل معاناة الشخصية الإشكالية عند هلسا في رغبته الملحة في التغيير لصالح رؤاه الحضارية، ولكنه غالبا ما يكتفي بالرغبة والأحلام في التغيير، دون أن يتعدى ذلك إلى مجال العمل والممارسة، ولذلك تعد الشخصية الإشكالية وصفا لمرحلة دقيقة من حياة المثقفين، وهي مرحلة رغبتهم في تغيير أخطاء المجتمع ومشكلاته الكبرى، وهو يواجه قدره بشجاعة دون أن يستطيع له تبديلا.[1]

وتهتم شخصيات الأدب"الإشكالي" بالصدى الميتافيزيقي والأخلاقي لأفعال الإنسان ومصيره، والأدب الإشكالي يُحل المشكلات التي تمس المعنى العميق للوجود محل المشكلات الاجتماعية والبسيكولوجية والتشريعية، فتناقش قضايا مثل: العناية الإلهية، والحرية، وقيمة الإنسان، والمسؤولية، والعزلة الميتافيزيقية، والنعمة... . ونجد الرواية لا تروي قصة محددة إلا لتتطرق عن طريقها وتتجاوزها إلى مشكلة كبرى ميتافيزيقية.[2]

والنص الإشكالي سعي إلى التكوين والخلق لا التصوير والتعبير، وهذا يعني أن الكاتب لا يجد الواقع جاهزا ملقى في الطرقات، وما عليه سوى التقاطه؛ فمثل هذا الفهم يرى النص محض مرآة منقطعة على التقاط مشاهدات، وأشياء عاجزة بذاتها، وإنما ينهض الفنان بعبء ترتيب جزئيات الواقع، واضعا الأشياء في سياقات جديدة، ومن هنا فهو يتدخل في الاختيار بين ممكنات، ويغير من سياقات ما يختاره، فتتغير علاقاته، وهكذا لا تكون الشخصية في هذا النص انعكاسا لشخص من لحم ودم في الواقع، وإنما هي شخصية ورقية، صاغها الكاتب تبعا لقوانين خاصة، وهو هنا يقوم

---

(1) انظر البيريس، ر.م، الاتجاهات الأدبية الحديثة، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1983، ص26 و34.

(2) المرجع نفسه: ص11.

بتكوين الشخصية من مواد متكثرة، لا تختص بشخص معين ولا بحوادث واقعية، بل قد يدمج أكثر من شخص لتكوين الشخصية، مستلهما واقعة من هنا وأخرى من هناك، وقد يحذف ويضيف، وينمي شيئا واقعيا، ويمنحه إمكانيات قد لا تحقق إلا في ظروف أخرى، وهو هنا لا ينافس الكاميرا، ولكنه يقوم بإيهامنا بواقعية ما يقصه، ويلجأ إلى وسائل عدة مرتبطة بزمان ومكان محددين تقريبا، وما يجري في إهابهما من مفهومات خاصة بالواقع.[1]

وتتمثل الشخصية الإشكالية في معظم الشخصيات الرئيسية في أعمال غالب هلسا الروائية، فالراوي وناديا في (الضحك)- وهما الشخصيتان الرئيسيتان- هما شخصيتان إشكاليتان، بالإضافة إلى شخصيات غير رئيسية أخرى كثيرة، وكذلك الأمر بالنسبة لغالب في (الخماسين)، ومصطفى في (السؤال)، وخالد في (البكاء على الأطلال)، وغالب هلسا في (ثلاثة وجوه لبغداد)، وجريس في (سلطانة)، وإيهاب وزينب في (الروائيون) وكثير من الشخصيات الأخرى، والمطلع على سيرة حياة غالب هلسا يعرف أنه كان طوال حياته الحافلة بالأحداث والسفر والمطاردة، شخصية إشكالية؛ فقد كان مهتما بواقع الإنسان ومصيره، وظل يسعى بدأب لتغيير المجتمع بما يتوافق مع رؤيته، ولكنه عجز عن مواجهة الصعوبات والمعوقات التي واجهته، وجاءت شخصياته الروائية لتخدم الفكرة الرئيسية التي تتصل بالمشكلات الإنسانية والمواقف الوجودية.[2]

وقد "عاش غالب هلسا حياة إشكالية، لم يعرف الاستقرار الاجتماعي والنفسي والأمني والسياسي والاقتصادي، ومرد ذلك الصراع بين رؤيته مفهوم الحرية ومعطيات الواقع على اختلاف مواقعه وتعدديته، وقد تجلت هذه الإشكالية متعددة الجوانب والاتجاهات والمواقف في نتاجه الإبداعي والنقدي والفكري"،[3] و"معرفة حياة الكاتب الداخلية والإلمام بسيرته تغني

---

(1)[1] أنظر بدوي، محمد، الرواية الجديدة في مصر دراسة في التشكيل والإيديولوجيا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،1993، ص85 .

(2) انظر السعافين، إبراهيم، الرواية في الأردن، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان، ص132.

(3) عليان،حسن، مرايا الحرية والإبداع في اعمال غالب هلسا الروائية، مطبعة الأجيال، عمان، 2003م. ص5.

كثيرا معرفتنا بكتاباته، وخاصة الكتابة الإبداعية، وتكشف الكثير من جوانبها الغامضة، وزواياها المعتمة، وتزداد هذه المعرفة أهمية حين تذهب الكتابة الروائية باتجاه دواخل شخصيات الرواية وعوالمها الذاتية، بكل ما يختلج فيها من مشاعر وأحاسيس وأفكار وأحلام، خصوصا في الروايات الحداثية والتجريبية، كما عند غالب هلسا.[1]»

الراوي في "الضحك":

يلاحظ المتأمل في شخصية الراوي- وهو مجهول الاسم- في رواية (الضحك) لغالب هلسا، أن هذه الشخصية مع شخصيات أخرى مثل نادية، تحاول أن تثير قضايا مهمة تتصل بالوجود الإنساني، وتبدو العلاقات المتشابكة بين الشخصيات والتي تحاصر الوجود الإنساني لاذعة السخرية، وتسعى نحو الأزمات الوجودية،[2] وهكذا فإن الراوي الذي هو قريب جدا من غالب هلسا نفسه، ينتقل في البيئات العربية المختلفة، من القرية والبادية إلى المدينة التي تحمل عفن الحياة العربية، إلى الضياع عبر شوارع المدينة التي تدع العربي بلا جذور، وتتقاطع الأحداث وتتعانق وتتشابك وتتنامى؛ والمعضلة هي الحرية، وما يتشعب عنها من هموم كثيرة لا عد لها.

والراوي هنا مثقف طليعي يبحث في معضلات الوجود والحياة والطبيعة، ويلتهم كل ما يصل إليه من الكتب التي تنمي اتجاهاته الفكرية، وتعين على إخصاب ثقافته، ويبدو جو الراوي الذي يختلط فيه الحلم بالواقع وهو يبحث عن الحب، مشحونا بالخوف والقلق والاضطراب، ففي الوقت الذي يبحث فيه الراوي عن الحلم المنشود، الذي يرمز إلى الأمثل والأكمل والاستقرار، ممثلا بتوطيد العلاقة الفكرية والروحية مع " نادية" التي تمثل السمو في التحام العلاقة الفكرية بالعلاقة الجسدية، يتعرض الراوي إلى السلبية والتمزق والقلق، كما في علاقته بالبغي التي تمثل الانفصال بين العلاقة الفكرية والجسدية، وتبقى جدلية الاتصال والانفصال قائمة طوال الرواية.[3]

(1) أبو نضال، نزيه، غالب هلسا وبيبليوغرافيا مصادره الكتابية، وزارة الثقافة، عمان، 2002،ص19.

(2) السعافين، إبراهيم، تحولات السرد، دار الشروق، عمان، 1996، ص276.

(3) السعافين، إبراهيم، تحولات السرد، دار الشروق، عمان، 1996، ص277.

وينتمي الراوي إلى الحزب الشيوعي في الأردن بلده الأصلي، وقد سجن وفرضت عليه الإقامة الجبرية، ثم انتقل إلى بغداد وعاش فيها فترة من الزمن، للدراسة الجامعية، وكان له فيها نشاط حزبي ثوري، وقد أحبها حبا كبيرا،" **في حياتي حبان عظيمان، بغداد ونادية، هما فقط عرفا كيف يمنحان بلا حدود، ومن خلال المنح غيرا ملامح جسدي، قسمات وجهي، حولاني إلى أجزاء وأعادا تركيبي ...**"[1] ولكنه يضطر إلى مغادرتها مرغما، بعد اعتقاله وطرده، فتترك في ذاكرته آثارا لا تزول، " **وعندما أرغموني على مغادرة بغداد رأيتها من خلال الدموع مثقلة بالطيب والمنح، مخدرة بالغواية، مبسوطة اليدين.. وأغمض عيني أحيانا، فأرى أني أجوس خلال شوارعها ومنحنياتها، أغوص في قسمات وجهها: أدخل تلك البيوت وأجلس، أنادي الأصحاب، أجلس في المقاهي، أتخفى في الحواري..**".[2]

ثم ينتقل الراوي إلى مصر لإتمام دراسته هناك، ولأنه مطارد في بلده الأصلي يبقى في مصر، وينخرط في الحزب الشيوعي، ونشاطاته ولقاءاته المختلفة، وفي أحد هذه اللقاءات يلتقي بنادية، " **رأيت نادية هناك أول مرة. وسط الزحام والصراخ كانت تسرق عين الداخل: العنق الناصع الطويل والشعر الأسود الفاحم، وتلك النظرة اليقظة.**"[3] ويتم التآلف بين الراوي ونادية إثر اللقاء الثالث بينهما من خلال الثقافة الثورية، فقد أعجبت نادية به نتيجة تحليلاته الثقافية، وسعة معرفته واطلاعه ومتابعته، وراحت الصلة بينهما تقوى بعد أن وجدا توافقا في نظرتهما إلى القضايا والمشكلات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وأدى ذلك إلى انسجام بينهما في السلوك والمزاج، ثم تطوعا للقتال في حرب السويس.[4] وتستمر العلاقة الروحية التي نشأت بينهما على أساس فكري واضح، تمثل في التغلب على عوامل الضعف الإنساني:

---

(1) الضحك، ص100.

(2) المصدر نفسه، ص100.

(3) المصدر نفسه، ص 19.

(4) السعافين، إبراهيم، تحولات السرد، ص278

الأنانية والخوف والضعف والتراجع والخور والطمع ... وغيره، عندما تطوعا سوية في حرب السويس، ليكتمل التلاحم الروحي باللقاء الجسدي، " **ونفذت إلي رائحتها وطغت على رائحة الأرض الرطبة، كانت رائحة الصيف: السنابل الناضجة، أكوام الليمون، الشمام الممتلئ بالشهد..رائحة صيف أريحا في الليل، ليل أزهار الليمون والبرتقال..ذلك القدر الملتهب بهوائه المسكن الكثيف الثقيل المعطر... كانت لحظة من الإضاءة الباهرة، لحظة اكتمال اللحن، والعودة المظفرة، لحظة التلاشي والبعث... كأنك ترى المحيط للمرة الأولى، تطل على وادي الأردن ساعة الغروب، مثل الإسكندرية وقد غسلتها الأمطار..**"،(1) على العكس تماما من علاقته مع المومسات اللواتي ظهرن في مواقع كثيرة خلال الرواية.

ولكن الأمور ليست بهذه البساطة، فقد بدأ بعد جديد يظهر في هذه العلاقة، ويمكن أن يلمس القارئ ذلك منذ نهايات تعقيب الراوي عن لحظة اللقاء السابق "**.. وكنا كمن يدخل بلدة غريبة: كل شيء جديد ومثير ومتحد، ونادية تسير بعيدة مستغرقة..**"(2) فقد بدأت نادية باسترجاع قضية العذرية، ونجد على لسانها " **.. وعندما رأيت قطرات الدم على قميصي بكيت، وقلت إنني أصبحت من الجنس الثالث: لسن عذارى ولسن زوجات...**"(3) وتبقى هذه القضية تلح على ذهن كل منهما وإن كانت أكثر ما تظهر في سلوك نادية، وفي تفسير الراوي لطبيعة سلوكها وتصرفاتها وكلامها، إنه لون من الانفصال بدأت، ملامحه تظهر وتلوح في أفق هذه العلاقة، التي نمت بقوة فيما سبق. وبدأ نوع من الغربة يتأكد تدريجيا في علاقة الراوي بنادية، كما نجد من حديث ناديا حول تطور وتبدل العلاقة معه " **في تلك الليلة حكى لي عن بلده البعيدة وأهله، عن الجبال والوديان والربيع .. عن النجوم التي تبكي بالليل.. بدا ذلك غريبا وعجيبا، لم يخطر ببالي أنه كان يعيش قبل أن**

(1) الضحك، ص51.

(2) المصدر نفسه، ص53.

(3) المصدر نفسه، ص69.

أعرفه... ولكنه تكشف عن غموض وبعد محيرين .. ومن خلال حديثه المشحون عن طفولته أخذت أعيش طفولتي،.. ومن معايشة تلك التجارب فقد عالمي تكراره الملول، وانفرطت ألفتي معه، وأصبحت الغرابة تطل علي من تفاصيل الحياة اليومية.."[1] كما تظهر الغربة في حديث الراوي الذي جاء مفاجئا، وكأن قوة خفية انطقته " ثم قلت لها تلك العبارة التي سأظل دائما أندم عليها، وأغرب ما في الموضوع أنها لم يكن لها صلة مباشرة بالموضوع، قلت لها أنها ليست عذراء لتتصرف هكذا، أنا نفسي شعرت بالدهشة والغضب.."[2] ومن ثم جاء رد نادية ليؤكد هذه الغربة المؤدية للانفصال،" وللمرة الثانية ضحكت تلك الضحكة القصيرة الخشنة المهينة.. قالت بسيطة. مش كدة بتقولوا في الشام. أدركت أنها لا تهدف فقط إلى تأكيد أننا من بلدين مختلفين، وإلى أنها تحس بالازدراء نحو الغرباء، وإلى أن تجاوزنا لذلك كله من خلال الفكرة الواحدة كان مجرد خطأ، بل إنها قصدت من سخف النكتة ذاتها (وهي أشد الناس حساسية للنكتة) لتعبر عن احتقارها التلقائي والبدائي لكوني من بلد آخر، غادرت حجرة النوم وأغلقت بابها خلفي وجلست في الصالة".[3]

إن علاقة اللقاء بين الراوي ونادية، والتي ترمز إلى تلاقي القوى الثورية، وتوحدها ووقوفها صفا واحدا في وجه التخلف والتخاذل العالمي أو العربي على الأقل؛ قد فشلت، فالراوي الذي غادر وطنه نتيجة لموقفه المعارض للسلطة الحاكمة في بلده، لم يستطع الاندماج في المجتمع الجديد، وإن هامش الحرية الذي كان يشعر به قد تضاءل حتى صار غير موجود، وتفرق الأصحاب، وسجن من سجن، وعذب من عذب، وتراجع من تراجع، وبقي الراوي مكتئبا غير قادر على فعل شيء. وقد صارت الثقافة عامل التشريد والمطاردة المباشر، الذي واجهه الراوي أيضا في

---

(1) الضحك، ص84.

(2) المصدر نفسه، 198.

(3) المصدر نفسه، ص199.

بغداد، ولكنها تصبح عامل تجديد وبعث وأمل في الاستقرار والاستمرار في القاهرة،"[1] من خلال اللقاء بالقوى الثورية والنضالية اليسارية، التي مثلت بارقة أمل جديدة وخصوصا اللقاءات الثقافية والأدبية التي كان الراوي يشارك بها مع أصدقاء ومعارف، والتي أثمرت اللقاء بنادية، ولكن أزمة المثقف هي نفسها في كل المساحة العربية، ولكن بوجوه مختلفة، فالمطاردة والملاحقة للمثقف والضغط على الحريات يؤدي إلى حالة من التمزق والحنين والتعب، فتصل بعض الشخصيات إلى الجنون؛ مثل عيسى وعبد الكريم، كما يصل آخرون إلى الانتحار مثل محمود و(م ن).

وهكذا تأزمت العلاقة بين الراوي ونادية، وراح هو يحلل سلوكها معه، ويبني عليها تصورات مختلفة ، كان معظم هذه التصورات غير صحيح، أو يفترض أمورا غير صائبة، إلا أن هذه التصورات كانت تعبر عن إحساسه الداخلي بقوة الانفصال، كما تعمق لديه الإحساس بالغربة والوحدة، وصار يشعر كذلك أن أقواله وأفعاله بدأت تفقد بريقها ووهجها عند نادية، وساد مكانها برود عجيب تجاه أشد القضايا حساسية وأهمية،" **قلت لنفسي: ماذا يبقى لي، أي معنى يبقى لو هجرتني نادية.**"[2] لقد بدأ يتملكه هاجس الخوف من أن تضيع منه نادية، وظل يخشى من فقدان الأمل، ويعاني حالة انكسار روحه المتعبة لو رحلت عنه.

وهنا في هذا التأزم يلجأ الراوي إلى البغي في محاولة للتعويض والهروب من الواقع المر المؤلم، إلا أنه يصدم بخيبة أمل كبيرة، فالبغي رمز للقلق والتلوث وعدم الاستقرار، وسرعان ما يكتشف أن العلاقة بها سراب خادع، يزيد التوتر والاضطراب والتشظي، فيعود إلى ناديا يناقش معها الزواج والعوائق دونه مثل عقبة الدينين المختلفين، والأموال اللازمة للزواج، واختلاف الجنسية، ولكن العلاقة تبقى تعاني من الفتور، ويبقى الراوي يعاني من الخوف والقلق والمطاردة. ثم يفقد الراوي نادية، ويعبر عن هذا الانفصام بصورة حاسمة مباشرة: " **ثم بدت لي**

---

(1) العبادي، عيسى، مضامين الرواية الأردنية (1967- 1990)، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان،2005.

(2) الضحك، ص199.

الحقيقة التالية كاكتشاف مذهل: إننا منفصلان تماما،... ونادية التي تتمدد إلى جانبي لم تكن سوى جثة آخذة في التعفن، ترس صغير من آلة الرعب والتآمر، بعيدة وشيطانية كروح شريرة. وفكرت حتى أنت يا نادية.."[1] وانتهى الراوي بنسيان نادية تدريجيا، وبعد ثلاثة أشهر صارت العلاقة بنادية تتحول إلى مقاطع صغيرة قلقة حتى أصبحت مستحيلة الفهم، غير قابلة لأن تخضع لأي معنى من كثرة التفكير فيها، بل إن محاولة استرجاع تاريخ العلاقة مع نادية أخذت تدخل دائرة الرعب فراح الراوي يتخيل أنها عشيقة رجل ذي نفوذ، أو أن قريبها سفاح محترف سيسعى للانتقام لشرف العائلة،[2] " **لقد دفعتني أمثال هذه الأوهام إلى تغيير مكان سكناي، وحتى إلى حد التفكير في مغادرة البلد...وكثيرا ما كنت وأنا أتجول في المدينة أدقق النظر باحثا عن ذلك الوجه المتربص بي مما شحن الأفراد حولي بقوى شريرة مخيفة".**[3]

و يمثل الكتاب الثاني من الرواية- ويمتد على مدى خمسين صفحة- جزءا مهما من مذكرات الراوي أثناء نفيه وإقامته الجبرية بإحدى المدن في بلده الأصلي، التي لم يذكرها غالب هلسا ولكنها- على الأغلب- مدينة مادبا في الأردن، وهي التي فرضت فيها الإقامة الجبرية على غالب هلسا عام 1952م، وتلقي هذه المادة من الرواية الضوء على جزء من حياة الراوي هناك، فقد تعرف إلى عيسى - إثر إيقافه في السجن- كان يتعرض للتعذيب والسوط يمزق جسده، رقص عيسى في عرس أخته، وعندما استعصى عليه الكلام، مزق ملابسه وبدا نصف عار، فنهض عدد من الرجال وقيدوه وضربوه ، حتى انتهى أمره إلى الجنون، في حين انتحر محمود.

أما مريم فقد كانت امرأة ناضجة، لقد رفضت "كولن"، ولم تجعل زواجها منه حلما يصرفها عن واقع أخيها عيسى، لقد كانت تراه منقذا لأخيها، فلما أخبرها أن

---

(1) الضحك، ص 293 و294.

(2) السعافين، إبراهيم، تحولات السرد، ص 281.

(3) الضحك، ص 305.

مدير البوليس طلب منه الكف عن ذلك، تعاملت معه باحتقار، وأهانته بألفاظ قاسية، وعندما غادر "كولن" حاولت أن تغوي مدير البوليس ليرسل أخاها إلى المصح، ولكن محاولتها فشلت، وقد كانت تريد أن يشفى عيسى، لأنها تعلم أنه كان قبل أن يخصى، قد بدأ بكتابة تاريخ البلدة، وإن شفي ستكون شهادته هي النار التي ستحرق البلدة ثم تعيد صياغتها، ولقد كان في البلدة صراع رهيب؛ طرفاه مريم ومدير البوليس، وقد كانت مريم تحتفظ بسهم أخير ستستعمله في النهاية، لقد كانت تنوي قتل مدير البوليس، وقد أعدت لذلك، وكان مدير البوليس لا يخشى أحدا كما يخشى مريم، فقد كان يخاف أن يقع في فتنتها، فيكون الانتقام الرهيب.

ولقد كان الراوي شاهدا على عدمية عصره وفقدان الانتماء والإدانة في فترة الخمسينات والستينات؛ فأدرج الكاتب بعض الصور السلبية التي شاهدها وعاشها الراوي تحت عنوان" وثائق لإدانة العصر" فأشار إلى الفتاة المضغوطة بين رجلين في الأتوبيس، والاعتداءات الجنسية في وسائط النقل، واللص النشال الذي يفتح حقيبة سيدة ويستولي على ما فيها، وحالات السرقة والاعتداءات الجنسية في الشارع عند انقطاع التيار الكهربائي، ولعل أقسى صورة هي ما جرى في الأتوبيس؛ حيث قام مجرم بالاعتداء على حياة رجل آخر بالطعن بسكين ظلما وعدوانا دون أن ينتصر للمظلوم أحد، فقد تركه الركاب والحاضرون يلقى حتفه بصورة تثير الاشمئزاز والمرارة معا.

لقد كانت حياة الراوي وعلاقاته وأحلامه وكوابيسه وذكرياته ومشاهداته وكل ما يخصه في رواية الضحك، دلائل على العدمية وفقدان الانتماء والإدانة الصريحة للوضع العربي في فترة الخمسينات والستينات من القرن العشرين، سواء على مستوى أنظمة الحكم ودكتاتوريتها ومصادرتها للحريات ومطاردتها للأحرار، وممارستها لأشد أنواع التعذيب والقهر والتغريب، وهزائمها السياسية والعسكرية، أو على مستوى المجتمعات والأفراد وضياعهم وتشظيهم وهزائمهم النفسية الداخلية

بهروبهم من مواجهة الواقع، وانسحاق وجودهم وكرامتهم الإنسانية تحت وطأة القهر والظلم الاجتماعي، وفقدانهم للانتماء والنزاهة، ورضوخهم للمستعمر وتقليدهم له، أو لا مبالاتهم وخوفهم وفقدانهم لحس الإنسانية، وغرقهم بالفردية والأنانية، وعزلة المثقفين وبعدهم عن النبض الحقيقي للشعب، وتخليهم عن مسؤولياتهم ودورهم .

نادية في "الضحك":

نادية هي الشخصية الرئيسية التي شاركت الراوي حياة الرواية في "الضحك"، بدأت علاقتها بالراوي إثر لقاء فكري تحول إلى إعجاب وانتهى بالحب، ففي أحد اللقاءات الأدبية الشبابية المهتمة بالثقافة الفكرية والوجودية خاصة، أحس الراوي تجاهها بالألفة والتقارب، وكان هناك توافق بينهما في النظر إلى الأمور والقضايا السياسية والأدبية، فقد قالت له حين أوصلها إلى بيتها بعد ندوة أدبية: " **أنا موافقة على رأيك، كانت قصيدة إبراهيم وحشة. كنت عايز أتكلم، بس كان كل واحد بيزعق... قلت: لو اتكلمتي أنت كانوا كلهم سكتوا..** "[10][1].

وقد ظلت نادية على امتداد الرواية صمام الأمان للراوي، وملجأ أحلامه وامتصاص عذابه، حتى صار الراوي يجد طعما جديدا للحياة، مما أوصله إلى قناعة مؤداها أن الحياة ما زال فيها ما يعاش لأجله[11][2] بعد أن عاش حياة مليئة بالقهر والمطاردة والملاحقة، في كل البلاد التي عاش فيها، فنجد على لسانه" **نظرت في المرآة وأحسست بالرضى: إن هنالك من يحبني**" [3].

وراح الراوي يخطط للزواج من نادية، ليراها أكبر فترة ممكنة في حياته، وصار يشعر بقوة وتصميم على تحقيق الهدف،" .. **لن يمنعنا شيء من العيش معا. سنبرهن للعالم كله أنه بإمكان الإنسان أن يعيش مثله لا أن يثرثر حولها وحسب،**

---

[10] (1) الضحك، ص24.

[11] (2) العبادي، عيسى، مرجع سابق، ص 222.

(3) الضحك، ص 38 .

ساحقين في طريقنا القيم التي خلقها الإقطاعيون والتجار.. الإنسان الحر سينتصر، نحن الاثنين سننتصر"[1]، لقد أضفى غالب هلسا على شخصية ناديا في الضحك صفات الأمومة التي يحتاجها - صفات والدته التي يحن إليها- إنها وبفعل روحها الواعية والمدركة لأبعاد النفس الإنسانية في حالات خيرها وشرها، وبسماتها التي لا تتأتى إلا لأم تتصف بصفات مثالية مطلقة، خلعها هلسا على نادية، وعنها صدرت في رؤاها، وأنماط سلوكها، ومواقفها، فهي تؤثر في الآخرين، وتزيل توترهم المشحون بالانفعال.[2]" **عندما كنا نكلمها، كانت وجوهنا تتقلص، وأجسادنا تتلوى وتئن بالحماس والتوتر واللهفة بينما تجلس هي بيننا شامخة، معتمدة، واثقة تصغي.(لو مدت يدها في وسط هذا الجو المتوتر الغبش لساد الصمت، واختفى دخان السجاير، وتلاشت رائحة الأجساد الحريقة) وصوتها هادئ واثق يذكرك بإنسان حنون وقوي عرفته منذ زمن بعيد (كل الذين يتكلمون بثقة وهدوء ويصغون بحنان يذكرونك بإنسان عرفته منذ زمن بعيد)"**[3].

كما تمثل نادية المعادل الموضوعي للأرض والوطن والوجود والحياة، وهي معادل العودة من عالم الاغتراب إلى عالم الحياة الحقيقي الواقعي، إنها مفتاح حل المشكلات، والمنقذة من التيه الأكبر، ومن الضياع الإنساني الكلي، وهي الحب الأفلاطوني الذي لا يريده أن يتداعى أو ينهار.[4]

وتلخص شخصية نادية القضايا التي تؤزم المثقفين؛ مثل: قضية الشك، وابتعاد الجماهير عن التنظيمات والأحزاب السياسية، والتهم الجاهزة المتبادلة التي تكال لهذا التنظيم أو ذاك بالعمالة والتبعية لأجهزة الدولة، والتجسس على الآخرين لحساب هذا الاتجاه أو ذاك، وأزمة الحياة الاقتصادية، والانهيار الأخلاقي،

---

[12] (1) الضحك، ص39.

(2) عليان، حسن، مرايا الحرية والإبداع، ص119.

(3) الضحك، ص23.

(4) انظر عليان، حسن، مرجع سابق، ص120.

والاعتقالات السياسية، وأزمة الحياة والوجود؛ فبعد أن خرجت نادية من المعتقل وجدت أن ليلى وآخرين من الحزب بدأوا يشكون فيها، ويتهمونها بالعمالة لأجهزة الدولة، فلما قالت ليلى للراوي أنها تريد أن تحدثه في موضوع معين، عرفت نادية ما هو الموضوع، وقالت للراوي:" **قالت إن ليلى وآخرين يشكون أنني أعمل مع المباحث. قالت ذلك على شكل نكتة. ولكنني أدركت بعد قليل أن ذلك التعبير الذي على وجهها لم يكن تعبير دعابة، عندما أخذت تقول بمرارة لم أعهدها بها قط: إنها ضجرت من الأكاذيب والجبن والحماس لأنصاف الحقائق.. قالت إنهم يعلمون أنها مراقبة وبدلا من الاعتراف بخوفهم من الاقتراب منها ادعوا أنهم يبتعدون عنها لأنها مريبة. قالت إنني أفكر في مجهودات السنين الطويلة.. وماذا حققنا؟ لقد تحررنا من كل العقد البرجوازية؟ هذا غير صحيح.. لقد تحررنا فقط من الناس.. انعزلنا عنهم.. إن العداء نحونا يرتفع من كل جهة، وأشد الأفكار رجعية تأخذ سبيلها إلى التحكم في الناس..**" [1].

إن نادية المثقفة الطليعية والعضو النشيط في الحزب الشيوعي، وبعد تعرضها للاعتقال وما يصاحبه من ضغوط وويلات، تخرج من المعتقل لتجد مخبرا خاصا بمراقبتها في كل مكان تذهب إليه، مما يشكل انهيارا نفسيا أكثر من مرة،" **..عندما رآنا المخبر غادر المقهى وسار خلفنا. وقفنا ننتظر الأتوبيس فوقف بالقرب منا. أخذت نادية تشد البالطو حول رقبتها ثم تفتحه ثم مررت يدها على الزراير، فكتها ثم عادت تزرر البالطو. التفتت فجأة إلى المخبر وقالت بحدة: أنت ح تسهر معنا ولا أيه؟.. نادية امسكي أعصابك... !**"[2].

أما أعضاء الحزب وبدلا من الوقوف مع الأعضاء المعتقلين، ومساعدتهم على تخطي الأزمة، والأوضاع النفسية الصعبة التي يعيشونها، فقد راحوا يشكون بأنها عميلة للمباحث، وهذا أحد الأمراض الحزبية التي يصاب بها المثقفون الحزبيون

---

(1) الضحك، ص255.

(2) المصدر نفسه، ص252.

نتيجة الضغوط النفسية التي تمارسها أجهزة المباحث العربية، ونتيجة لذلك تنفس نادية عما في نفسها وتقول أن حزبهم انعزل عن الناس، وصار العداء نحوه يتزايد كل يوم.

غالب في "الخماسين":

يمثل "غالب" في رواية "الخماسين" الشخصية الرئيسية المحورية، وبه ترتبط بقية الشخصيات الأخرى نسائية وغير نسائية، ولا يمكن فهمها في معزل عنه، وهو مثقف مأزوم يفتقد الاستقرار، ويشكل جزءا من سيرة غالب هلسا الذاتية؛ فهو أردني يقيم في القاهرة ويعمل موظفا في وكالة ألمانيا الديمقراطية للأنباء، وقد كان قبلها يعمل في وكالة أنباء الصين "صينهو"، ومن خلاله يعالج هلسا هموم الإنسان العربي في عالم ضبابي الرؤية، وفي جو مرهق للأعصاب ومكد للذهن والنفس، ينعقد فيه الغبار طبقات مع رطوبة في الجو وارتفاع في الحرارة، مما يحجب الرؤية في كل مكان، ويبعث على الكآبة والملل، ويشيع القلق والتوتر واضطراب الأعصاب،"[1] هذا الجو الذي يمثل مرحلة حرجة بين فصلي الربيع والصيف هو جو الخماسين، ويرمز هذا الجو بوضوح إلى المعاناة الحادة التي يعيشها الإنسان العربي في جو يفتقد التماسك والصلابة، وتشيع فيه التناقضات الحادة في كل القيم والمفاهيم والحياة الإنسانية والاجتماعية والسياسية بمختلف طبقات المجتمع العربي.

يراقب غالب الذين يعملون معه في الوكالة، ويلتقط قصصهم، فهو كاتب وقاص يبحث عن حكايات يشعل بها خياله الروائي، ويلتقي مع " ليلى" طالبة المعهد العالي للتمثيل، و" ليزا" الأمريكية المثقفة، و"سعاد" من الأحياء الشعبية، كما يلتقي" الرائد" ضابط المخابرات الذي يحقق معه، ويتذكر "عصفور" في سجن المحطة

"(1) انظر السعافين، إبراهيم، الرواية في الأردن، ص139.

المركزي بعمان، و"المرأة البدوية" في قريته، ويظل غالب مهزوما مشلول الإرادة في جو الخماسين الخانق المغبر المثقل بالحرارة والرطوبة، وتتأثر به الشخصيات التي تتصل به؛ إلا أن النتيجة تبقى عقيمة.

ويقترب غالب من عالم الطبقة الفقيرة في مصر، مثل (مرسي) السائق في وكالة الأنباء الألمانية، الذي يحاول أن يقنع مدير الوكالة (كارل شميدت) بالذهاب إلى الإسكندرية من أجل إتمام معاملة ترخيص المركبة الخاصة بالوكالة، ويعيش حالة صراع وهمي مع (عباس)، ظنا أنه هو الذي يعطي المسئولين الألمان فكرة سيئة عنه، كما يتباهى بأن له أقارب أطباء وموظفين كبارا في الدولة، (وقرني) الفراش، الذي يقدم طلبا للحصول على إجازة وسلفة بسبب وفاة أمه، ليعرف غالب الذي يترجم له ولمدير الوكالة، أن هذه هي المرة الرابعة التي يقدم فيها نفس الطلب، مدعيا أن والدته توفيت، و(عباس) طابع النشرة، و(بسيوني) الذي صعد بسرعة وانتهى إلى السقوط.. فقد انتهى طباخا في وكالة الأنباء وطرد منها.

تؤول علاقة غالب مع المرأة إلى الفشل؛ فـ(ليلى) وهي المرأة التي أقام معها علاقة على شيء من التفاهم- وهي طالبة في المعهد العالي للتمثيل- فتاة مراهقة غير مستقرة، حاول غالب أن ينصحها ويوجهها إلى الطريق الصحيح، ولكنها لم تستطع أن تغيير مسيرتها.

أما (ليزا) فقد كانت على قدر من الثقافة؛ إذ كانت تحاور غالب حول الخيال في الرواية، يقول غالب لها: **"لا أعرف أين ذهب الخيال. أشياء صغيرة تتجمع، وأنتظر أن ترتبط، أن تصبح وحدة ذات معنى ولكن ذلك لا يحدث. أقول لنفسي: تريث، دع الأشياء تنضج، دع اللا وعي يقوم بدوره، ولكن كل شيء يظل كما هو منفصلا ومستعصيا على الربط .. تصوري مثلا ، رجل البوليس وهو يجمع الشواهد والأدلة ولكنه يعجز عن تكوين صورة واحدة عن المجرم والجريمة.. بالنسبة لي، فذلك**

يعني الاستعداد للموت."(1)، إن علاقة الراوي (غالب) بليزا محاولة يائسة من روائي مشتت للتشبث بشيء ما، بقصة أو بامرأة، للبحث عن التخييل الضائع، ولعل في قصص المحيطين بليزا، مثل محمد من غانا، والمرأة الأرستقراطية، وآدي الأمريكي اليساري، والفتاة الدنمركية، ومراقبة غالب لهم ولكلامهم وتصرفاتهم، ما يشير إلى رسم صورة عن أوضاع المجتمع الغربي والأمريكي والأفريقي، التي تحمل مشاكل كبيرة تدمر الفرد وتسحقه، بالرغم من ادعاءات حقوق الإنسان، واحترام رأي الفرد، ودوره في بناء الحضارة، إنه سن في دولاب، آلة قد تودي بكل المقدرات في أوروبا وأمريكا، وإنسان بسيط مسحوق أقرب إلى السخافة في أفريقيا.

وتبدو علاقة "غالب" بالمرأة في الرواية مأزومة،غير واضحة المعالم، وخصوصا في فصل " المسيرة بجوار النهر وبين الأشجار" إذ ظهرت المرأة إيجابية وهو المتردد الذي يقتله الخوف، وغاية ما فعله أنه استسلم لعنفها، ولكن بوادر الأزمة بدأت بالانفراج مع هبوب نسيم الصباح المضمخ بالندى، وانحسار جو الخماسين الثقيل، ولكن تذبذب الموقف يظل هو المسيطر، ويبقى الموقف السلبي هو السائد، " **قال إن شيئا غريبا قد حدث. هناك، تحت، حيث كنا.. كنا معا.. أعني تحت، تصورت، شاهدت الفجر يبزغ . ثم نظرت.. أعني بعد ذلك.. إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل. وعاد الليل اسود.**"(2) وتظل حالة الشك والخوف والمعاودة مستمرة، وهي معادل فقدان الرجولة والذكورة، وهذه حالة تنتاب "غالب" كلما حاول أن يكون إيجابيا، أو يرى بوضوح،(3) " **لأول مرة يراها حضورا عدوانيا، بالغ الجمال والحيوية، وفي لمحة خاطفة انبعث أمامه خزيه، لقد فشل أن يثبت رجولته أمامها.... ورغم أنها أهانت نفسها لترضيه.... قالت له إنه لم**

---

(1) الخماسين، 371

(2) المصدر نفسه، ص402.

(3) انظر السعافين، إبراهيم، الرواية في الأردن، ص 145.

يعد بإمكانه أن ينفعل، أو يحس... الإحساس الوحيد لديه هو الخوف.... وبالطبع سوف يذكر أنه كان يرتعش بلا حيلة".[1]

ويتكرر هذا الأمر مع امرأة أخرى كان غالب قد صادفها بفندق في الإسكندرية، هي في الأربعين من عمرها ومتزوجة من رجل يكبرها بكثير، ظل يعشقها ويراقب حركاتها، ولكن تحقيق التواصل بقي حلم يقظة، كانت هذه المرأة تتعمد أن تثيره، ويقدر من نظراتها أنها تطالبه بفعل معين، ولكنه عجز عن فهم نظراتها ومطالبها، كان يتحرق شوقا إليها ولكنه عاجز،هنا تتجلى إشكالية المثقف الذي يبتعد عن طبقته ويتعلق بطبقة أخرى لا يفهمها، فيبقى معلقا دون إنجاز،" **فأرى في تلك النظرة أنها تطالبني بشيء ما، بفعل أقوم به على الفور لتجنب كارثة على وشك الوقوع. وكان طابع الإلحاح واللهفة واضحين كل الوضوح. كانت فيما بدا لي استغاثة بكماء، ملتاثة بالمعاناة ضراعة حيوان تتمزق أحشاؤه... وجهها يناديني :" مد لي يدك وأنقذني" " كيف؟ من ماذا؟ وما معنى كل هذا؟" فأعلم أن تلك النظرة المحتقنة كانت محاولة للامتناع عن البكاء والصراخ والاستغاثة... غير أني بسبب عجزي عن إدراك ما هو مطلوب مني أن أفعله على وجه التحديد، بسبب تقاعسي – تقاعسي؟ كان ذلك صحيحا على نحو ما- عن الاستجابة لذلك النداء الملتاع، فإنها قررت أنني لم أكن عند حسن ظنها، لا أصلح."**[17][2]

ولعل المرأة الوحيدة التي استجاب لها غالب كانت ذكرى سعاد- وهي امرأة من الأحياء الشعبية في القاهرة- فقد كان عطاؤها كبيرا؛ عطاء أبناء الأحياء الشعبية،" **أدركت سعاد أنني فتنت بها فسهلت البداية دون افتعال. تحدثنا طويلا. وعندما جاء موعد انصرافها طلبت إليها أن تنسى أقاربها، فلم تعترض"**[3] وبالرغم من كل ذلك العطاء والمودة التي كانت تقدمها سعاد إلا أن غالب قد قرر أن ينهي علاقته بها،

(1) الخماسين، ص422.

[17] (2) المصدر نفسه، ص 482.

(3) المصدر نفسه، ص459.

وكان يتعذب ويتألم ويحاول أن يتماسك،" **وقفت بعض الوقت وقالت: أمشي؟ قلت: عايز أنام. بعد فترة صمت، ربما طالت، قالت: فتك بعافية. كان صوتها بعيدا، محايدا، وأعلم أنه صوت البكاء. سمعت خطواتها تتجه نحو الباب فجن جنوني: إنها النهاية. ناديتها: تعالي! وظللنا طيلة الليل ساهرين نعذب أنفسنا. لكم أتعذب الآن حين استرجع صورتها وهي تقف أمام السرير وقورة بعيدة. وتودعني بذلك الصوت الهامس، الخالي من التعبير**" (1) ويبقى غالب يتساءل عن سبب تصرفه ذاك: هل كان بسبب أن العلاقة بدأت بفهم خاطئ من جانبه؟ أم بسبب الرغبة في تعذيب الذات، وجعل العلاقة دائمة التوتر، مشحونة حتى الاختناق بالغيرة والمشاحنات؟ أم هو نوع من الهروب ومحاولة نسيان أن ملكة الخلق تموت في داخله، بعد أن تخلى عن مطامحه، وجعلها مطمحه الوحيد؛ فبموتها كان يواجه موته؟ " **قالت لي أن زوجها طلقها لأنها لا تنجب ، فدفعني سوء الظن أن أعتقد أنها تخطط أن تحمل مني ثم تورطني ... كل ما كانت تفعله من أجلي كنت أفسره بالتآمر من جانبها**"(2) ثم راح يرسم صورة المرأة من الأحياء الشعبية بأنها تحب الرجل لأنه يرضيها جسديا، فلجأ إلى وسائل اصطناعية مثل إطالة مدة الجماع، ومداعبات فضة لإرضائها؛ ولكنه دهش عندما علم أن ذلك يجرحها إلى درجة البكاء الصامت، ثم كانت القطيعة بينهما بسبب موقف تأييدها لرجل من الأحياء الشعبية، وصف طالب الجامعة والأفندي بأنه يمكن أن يصفع على قفاه ولا يرد الإهانة.

إن غالب بصفته مثقفا طليعيا لم يستطع فهم طبيعة العلاقات في الأحياء الشعبية، بالرغم من أن أبناء الطبقات الشعبية هم الأكثر استجابة لأفكاره، وهم الطبقة الأولى الذين يجب أن يتوجه إليهم هذا المثقف اليساري، بل إنه هنا كمثقف برجوازي صغير تخلى عن دوره المنوط به، وقطع علاقته بسعاد رمز الأحياء الشعبية، بالرغم من

(1) الخماسين، ص460.

(2) المصدر نفسه، ص461.

شعور المرارة والألم الذي كان يحسه عندما يتخيلها تحضر إليه وتدق الجرس وتنتظر دون أن يفتح لها، وكان استرجاعه لنظرتها المتخيلة يجعل قلبه يفيض بالحنو، مع رغبة في الاحتواء والبكاء، بل إنه أصبح يتجاهلها، محاولا إفهامها أنه من طبقة أعلى " **قابلتها بعد ذلك بمدة في الشارع، صافحتها بعدم اهتمام محاولا إفهامها أنني من طبقة أعلى، وعندما غادرتني انخلع قلبي شوقا".**[1]".

وتبقى ذكرى سعاد تؤرق غالب، فيحاول كتابة قصتها في محاولة منه للتخلص من الألم الذي تسببه له، ولكنه لا يكتب شيئا، ويظل الألم وشعور القهر ملازما له، ويظل المثقف عاجزا عن التواصل مع طبقته، التي يمكن أن يحقق فيها إنجازا، بل إنه ينشغل عنها بمحاولة التعلق بطبقة أخرى، ولكنه لا يستطيع أن يحقق شيئا، وتبقى كل آماله وطموحاته في التواصل لا تعدو أحلام اليقظة، والتفكير والتأمل الذي يبقيه تائها وحزينا عاجزا.

ويُلحظ أن الكاتب وهو يرسم الملامح الدقيقة لشخصية" غالب " يلجأ عن طريق الأحلام والتداعي إلى استحضار عناصر أخرى في الوقت نفسه، ليبرز التناقض والصراع في مدى أرحب، من مثل الربط بين مركز المباحث الذي يؤدي إلى سجن القلعة، وبين القرية الأردنية/المكان الأمومي[2] "**سار واليد توجه خطواته. تخيل أنه يسير في أرض خلاء، وأن هناك أشجارا صغيرة، أوراقها ذات خضرة داكنة متربة، مسنودة بأشجار بيضاء. كانت الصورة التي في خياله لبستان في مدينة إقليمية في الأردن، تقع على حافة الصحراء، وعندما حاول تحديد موقعها، يتذكر أنها حديقة مدرسة ابتدائية في إحدى تلك المدن التي زارها ودخل مدرستها ليسأل عن مدرس صديق له".**[3] .

كما يربط بين رجل بال على نفسه وهو ينتظر في دائرة المخابرات في القاهرة وعصفور في سجن المحطة" **كانت ساق البنطلون اليسرى مبلولة ابتداء من**

---

(1) الخماسين، ص463.

(2) انظر السعافين،إبراهيم، الرواية في الأردن، ص146.

(3) الخماسين، ص343.

انفراجة ساقيه إلى نهاية البنطلون، ومن الطرف تتساقط نقط متتابعة، سريعة من السائل.على الفور زكمت أنف غالب رائحة البول والعرق وأخذت معدته تتقلص، وأحس بضغط على حلقه. التفت إليه الأمريكي وقال بصوت مخشوشن ولكن صادح عميق: هذا الرجل يحتاج إلى طبيب. قال له غالب: سوف يتدبرون أمره، لا تقلق... من الوجه الذي أصبح يشبه نعل (الكريب) صوب الرجل نظرة تعرف ناصعة البياض، وحاول أن يبتسم. اختلج قلب غالب بعنف: يا للشيطان أهو أنت! وفي لمحة خاطفة تذكر الوجه الآخر. " كان اسمه عصفور، أليس كذلك؟" صعد إليه الوجه من خلفية نافورة المياه التي تتوسط حوش سجن عمان المركزي، وشجيرات الورد الأحمر. وأخذت الصورة تتكامل: حجرات المساجين التي تحيط بمربع الحوش من ثلاث جهات، الأسلاك الشائكة من جهة الغرب التي تفصل ساحة السجن عن سجن النساء الذي تقع أمامه ساحة مبلطة، والسور العالي الذي يحتل جزءا من الجانب الشرقي وتتوسطه بوابة شاهقة، بلا باب، تؤدي إلى دورة المياه. من تلك البوابة في الساعة 7,40 صباحا رأى غالب عصفورا يدخل حوش السجن قادما من دورة المياه .."[1] وعصفور رجل محكوم بالإعدام، ولكن الراوي قدم له صورة غريبة غير أنها فريدة.

لقد جاء عصفور ليودع المساجين لأنه علم أنه سيعدم بعد ربع ساعة، وقدم له هلسا أوصافا خاصة على لسان "غالب"؛ فقد كان قصيرا، صغير الرأس، وهناك ابتسامة معتذرة، ثابتة، لا تفارق وجهه، حتى أن غالب كان يتساءل: كيف يمكن أن يكون قاتلا لرجل أو عدة رجال- كما قيل- وهو بهذه الابتسامة التي لا تزول، وعندما سأله عن ذلك مرة قال: نصيب. وكان كل المساجين يعرفون قبل يوم أنه سيعدم، وقد لبت إدارة السجن رغبته في توديع المساجين، فمر عليهم وودعهم واحدا واحدا، ثم ألقى فيهم خطبة قصيرة ، كانت لحظة لا تنسى، وكان هو يدرك أنها ستعيش بعده،

---

(1) الخماسين، ص 349 و350

تحدث وعينه على التاريخ، وطلب المغفرة، إذا أخطأ بحق أحد، نصح الجميع أن يبتعدوا عن الطريق التي سار فيها، وعبر عن ندمه، فمن قتلهم أرباب عائلات، وهناك أطفال كثيرون تيتموا بسببه، ولكنه وعندما تسرب الخبر إليه أنه سيعدم في الغد قام بعمل غريب متناقض مع طلب المغفرة؛" **الواقع أنه البارحة عصرا، بعد أن تسرب إليه خبر أنه سوف يعدم في اليوم التالي، أتى بغلام من حجرة 27، المخصصة لمن هم دون السادسة عشرة وأدخله زنزانته وضاجعه. كان الولد يصرخ، ولكن الجميع سكتوا أمام الرغبات الأخيرة لرجل سوف يموت"**.[1]

وتأتي شخصية الرائد ضابط المخابرات المصرية الذي يحقق مع غالب مرسومة بصورة كاريكاتورية ساخرة؛ فهو ضابط شاب، يتظاهر بتقديم ما يدل على صحبته مع غالب، يلوم ويشتم المخبر الذي جعل غالب ينتظر فترة طويلة في قاعة الانتظار، مع أن المخبر لا حول له ولا طول في ذلك، ويتحدث عن فوائد الينسون والكوكاكولا، ثم يعاتب غالب على تقصيره في زيارته، ويغبطه على عزوبيته، ويشير إلى جو الخماسين الخانق بترابه ورطوبته، ويتمنى أن يتحدث عن أحداث تشيكوسلوفاكيا لولا أنه يرى أن غالب مرهق، ويتمنى أن يبقى غالب صديقا له ويرغب بزيارته للحديث معه، وما إلى ذلك من الدعابات المبطنة بالتهديدات، " **لقد تجاوزت تلميحات الضابط الحد المعقول. ولم يكن غالب غافلا عن التهديدات الخفية التي تكمن وراء هذه الدعابات الفظة"**[2].

ويوازن هلسا بين علاقة غالب مع المرأة في المدينة الكبيرة القاهرة، وعلاقته مع المرأة في القرية، معبرا عن التغيرات التي حدثت داخل الشخصية الرئيسية، والانكسارات التي ولدها التفاعل مع الأحداث، لقد شعر بحلم العودة إلى القرية، " **إنه منذ قليل حين نفذت إليه نظرتها الجانبية ارتفعت أمام عينيه صورة جارتهم البدوية التي تنام على السطح المجاور لسطح بيتهم ، شرقية، سابحة في فجر القرية**

(1) الخماسين، ص 351.

(2) المصدر نفسه، ص 355.

البراق، وقد نهضت تسوي ثوبها الأسود الطويل الذي ارتدته تحت اللحاف. كانت ترتدي ثوبا ضافيا مطرزا بمثل هذا الوشي، ولها مثل هذا الوجه بشعره المفروق، والجدائل المنسابة على الكتفين"[20](1) فغالب هذا المثقف المأزوم، الذي يجلس الآن مع هذه المرأة في شقتها في القاهرة، يهرب إلى الحلم والفردوس الأمومي المفقود في القرية.

وإذا كان هلسا قد تعرض- في رواياته- لانتهاكات حقوق الأطفال الذين يتعرضون للاغتصاب، فإن ذلك يعد جزءا من مشروعه في فضح السلطات المستبدة، ومن الخطأ أن يُرجع بعض النقاد ذلك إلى عقد تكرست لديه من عصر الطفولة؛"وإلحاح الراوي على التعرض إلى موضوع الشذوذ الجنسي، وما يتعرض له بعض الصبيان من اغتصاب لا يستطيعون مقاومته، يدفع إلى التفكير بوجود تجارب من هذا النوع لدى الراوي نفسه"[21](2)، ولا يمكن تصديق هذا التنبؤ، إذ لا يمكن اعتبار ما يورده الروائي من تجارب مع شخصياته تعبيرا عن تجربة حقيقية، حدثت في طفولته.

ليزا في "الخماسين":

تأتي إشكالية شخصية "ليزا" في رواية الخماسين في نطاق معاكس للشخصيات الإشكالية الأخرى في خطاب غالب هلسا الروائي؛ فقد انعزلت عن مجتمعها الأمريكي، لتعيش في مصر، ثائرة على قواعد الحكم والسياسة والمعيشة في أمريكا، وهي امرأة أمريكية، أبوها من يوغسلافيا أصلا وأمها إيطالية، هاجرت عائلتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وولدت وعاشت في سان فرانسيسكو، وتزوجت بعد العام الجامعي الأول، ولها ابن وابنة، وتعيش في القاهرة منذ العام 1959، وهي امرأة على قدر من الثقافة والوعي؛ فلم تعجبها طرق المعيشة في أمريكا؛ بسبب انشغال الناس هناك بالعمل وجفاف الحياة، وافتقار المجتمع هناك إلى الطيبة والدفء

---

[20] (1) الخماسين، ص 391.

[21] (2) خضير، ضياء: حكاية الصبي والصندوق، الجنس عند غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2003م، ص 46.

العاطفي الذي كانت تحسه في حياة الحي الصيني ثم في القاهرة، تقول لغالب وهي تصف مجتمعها الأمريكي" **أما هناك فقد كانوا أسوأ من ذلك كثيرا، لا يهتمون بشيء سوى ثلاجاتهم الضخمة، والبحث عن الأمان .. حتى الأغنياء منهم يخافون المستقبل .. هنا، في القاهرة الناس يأخذون المسائل ببساطة وهم مرحون مسترخون، والحياة هنا منفتحة."**[1]، كما تحاور غالب حول الخيال في الرواية، تقول له عندما أخبرها أنه سيضمن قصة حياتها في روايته " **ولكن ماذا يمكن أن يقال عن المسكينة ليزا؟ وبالمناسبة، هل يكتبون الروايات هذه الأيام بأن يدوروا بأقلامهم وأوراقهم بين الناس ويطلبون إليهم أن يحكوا تاريخ حياتهم؟ أين الخيال إذن؟ يا للعار يا غالب! عليك أن تخجل من نفسك وأنت تحمل أوراقك هكذا"**[2] " وعندما يجيبها غالب بأنه لا يستطيع أن يلم أجزاء الرواية، وأن ذلك يشبه الاستعداد للموت؛ تتعاطف معه وتلفها حالة من الحزن، حتى أنه يحاول أن يخرجها من هذا الجو.

و تعرّف "ليزا" "غالب" ببعض الشخصيات الإشكالية المشابهة، مثل (محمد) من غانا الشاب الذي يدرس أصول اللغة في الأزهر، كان على درجة كبيرة من البساطة والسخف،(كان يقول أن الانقلاب الذي وقع ضد (نكروما) هو بسبب علاقة غرامية مع الملكة (اليزابيث))، كما يتعرف بـ(آدي) الأمريكي اليساري من أصل أفريقي، وهو رجل صاحب مبدأ وقضية، مستعد للموت من أجلها؛ فبالرغم من أن عمره 25 عاما، إلا أنه تزوج ثلاث مرات، ودخل السجن بتهمة السطو المسلح على مخازن للأسلحة، وقتل أحد الحراس، ثم هرب من السجن وخطف طائرة- بالاشتراك مع زوجته الأولى- إلى كوبا، ثم غادر إلى باريس، ومنها إلى القاهرة بعد توقيع فرنسا مع أمريكا اتفاقية تلزم الطرفين بتبادل خاطفي الطائرات، وتتحمل ليزا المرأة الأرستقراطية المزعجة، التي كانت تزورها، إنها تتكيف مع المجتمع الذي تعيش

---

(1) الخماسين، ص370.

(2) المصدر نفسه، ص449 و450.

فيه، فهو على سوئه بالنسبة لغالب، إلا أنه مجتمع مناسب لها، فتجامل الحضور وتصادقهم، وتحدث غالب عن أسباب صحبتها مع محمد وغيره، فهو أيضا كان يجالسهم ويستمتع بذلك، وقد يشكلون مادة جيدة لروايته التي يكتبها.

مصطفى في"السؤال":

تمثل شخصية "مصطفى" في رواية "السؤال" عامل جذب للأحداث بصورة متميزة؛ فثمة أحداث تقع، وثمة شخصيات تذهب ضحيتها، ويمكن من خلال شخصية مصطفى متابعة الأحداث وعمليات القتل المتكررة، وهكذا تبدو قصص القتل المختلفة التي يقوم بها "السفاح" - المجرم الذي يقوم بأعمال قتل مأساوية ثم يحاول أن يبررها- مجالا لسلسلة من الأحداث الجزئية، التي تضيء جو الرواية، وتسعى نحو اكتمال الفكرة المركزية، التي تتمثل بإثارة قضايا أساسية ذات صلة برؤية الإنسان وموقفه، وإجابات تحليلية عن هذه القضايا يكتنفها غموض الفن، وسحر العالم المرموز، وتقوم على فكرة الرياضة الروحية، والمجاهدة الصوفية، التي توحد بين القول والفعل والنظر والسلوك. "[1]

ومصطفى مثقف وحزبي من أعضاء الحزب الشيوعي بمصر، هو أصلا من الريف المصري، أتم دراسته الجامعية في القاهرة، وبقي فيها يعمل في إحدى الدوائر الحكومية، ثم اعتقل مع أعضاء الحزب الآخرين، وبعد الإفراج عنه لزم شقته مهزوما محبطا، وخصوصا أن معظم أعضاء الحزب وقياداته كانوا في السجن، أو يمرون بظروف صعبة وقاهرة، تتعلق بحل الحزب أو الإبقاء عليه، وبينما تقع جرائم القتل التي يقوم بها السفاح؛ يمارس " مصطفى" حياته الخاصة في شقته، حيث يرتبط بعلاقة جسدية مع " سعاد "، وهي فتاة من الأحياء الشعبية، كما تقوم على خدمته " أم محمد " التي تحترم رغباته وحياته الخاصة، أما عمله فالدائرة التي يعمل بها كانوا يعطونه راتبه الشهري دون دوام فعلي لحين صدور قرار بشأنه.

---

(1) انظر السعافين، إبراهيم، الرواية في الأردن، ص151.

وتظل العلاقة بين مصطفى والمرأة خاضعة لمراحل من الاتصال والانفصال، إلى أن يجتاز مرحلة المجاهدة، ليصل إلى حالة من التوحد والاكتمال، مع المرأة التي اختارها عقلا وقلبا، وهي" تفيدة"، التي باتصالها به تغيرت شخصيتها، كما تغير هو أيضا نحو الأفضل، وسعى نحو العمل والتغيير، " **فكر مصطفى: لقد تغيرنا نحن الاثنين** "[1]، لقد تحول مصطفى منذ لحظة تغيره إلى شخصية إيجابية؛ فتزوج من تفيدة، وانخرط الاثنان في أعمال الحزب الشيوعي وأجوائه، وتكلل زواجهما بحمل تفيدة، التي أصبحت أساس تكوين البيت، ولم تعد تبدو كضيفة طارئة، " **عندما خرج مصطفى من الشقة رأى تفيدة تجلس في حجرة الصالة منتفخة البطن، كبيرة، راسخة وكان يبدو المكان كامتداد لها.**"[2].

وجد مصطفى نفسه بعد خروجه من السجن في جو محبط، فقد بقي جو السجن مسيطرا على حياته، "**كانت الصورة التي تتراءى له في تلك اللحظة صورة مئات الرجال يرتدون ملابس السجن الفضفاضة المتشابهة، رجال بلا ملامح متميزة يسيرون صامتين، بلا انقطاع في الممر الفاصل بين صفي العنابر في ساعة الغروب قبل أن يدخلوا عنابرهم وتغلق عليهم الأبواب حتى صباح اليوم التالي.**"[3] فالتزم في شقته لا يخرج إلا نادرا، وكانت الخادمة تبذل جهودا كبيرة في محاولة لجعله يفيق من النوم، إلا أنه كان يعود إلى فراشه كسولا ملولا، فقد يكون ساهرا ليلتها إلى الساعة الرابعة، وإذا جاءت سعاد، فإنه يمارس الجنس وينام ويصحو ليأكل وهكذا، وعندما تنشر الصحف أخبار جريمة الحي الراقي، وتتهم الخادمة " زكية"، مشيرة إلى أنها تتظاهر بالسذاجة، يستغرب مصطفى ذلك، فقد كان يعرف زكية، ويعرف مدى سذاجتها، ويتعجب كيف تتهم الشرطة فتاة ساذجة كهذه، متغافلة عن القاتل الحقيقي، كما تروج الصحف لذلك بشكل مسف وبطريقة مهرج فاشل، فقد

(1) السؤال، ص 845.
(2) المصدر نفسه، ص849.
(3) المصدر نفسه، ص 512.

كانوا يحاولون أن ينتزعوا اعترافا من زكية- رغم سخفها- " **كانوا بيضربوني باللكامية والقلم وقولي يا بت واحنا نطلعك، ويضربوني بالقلم كل شوية وقولي يا بنت العاهرة أحسن نموتك...**"[(1)]

تنتقل زكية للعمل في بيت "عبد العليم" وهو شاب مثقف في الثلاثين من عمره، وعالم لامع في مركز الطاقة الذرية، وهناك تتعرف على " منى" الفتاة المتخرجة من الجامعة الأمريكية قسم الاقتصاد، بتقدير ممتاز، وتعد رسالة الماجستير عن " التخطيط في الدول النامية" والتي ترتبط بعلاقة مع "عبدالعليم"، مخدوم زكية الجديد، وهما الاثنان شيوعيان - بالرغم من أن منى من عائلة أرستقراطية- ويرسم لهما هلسا صورة جميلة في علاقتهما، وأسلوب تعاملهما مع الآخرين، من حيث احترام الإنسان، وإعطاؤه حقه الطبيعي في ممارسة حياته الخاصة، والمستوى الثقافي المتقدم، والتواضع مع الوعي بالقضايا الراهنة، والظروف المحيطة.

وتحب زكية "منى" إلى درجة أنها تتمنى أن تلمسها أو تطلب منها أي خدمة، ولكن منى تختفي ولا يعثر لها على أثر، ويبحث عنها عبدالعليم في كل مكان ولكن دون جدوى، وعندما يعود عبدالعليم إلى شقته متأخرا يقتله السفاح ويمثل بجثته بشكل مريع، " **جاءته الضربة على رأسه. بدا له أن الضوء قد خفت وأخذ كل شيء يدور. قفز إلى الأمام وحاول أن يلتفت خلفه في الوقت نفسه فانزلقت قدمه. أتته الضربة الأخرى وهو يحاول ليمنع نفسه من السقوط... غشيت عينيه موجة من السواد، صعدت من أمعائه وارتفعت حتى شملته كله، وغاب عن الدنيا تماما. ... حاول أن يفتح عينيه فأتاه الألم كضربة مفاجئة فأخذ يئن وهو يحس بمن يدلك ما بين ساقيه....**"[(2)].

بقيت الصحافة مشغولة بجريمة قتل عبدالعليم أسابيع، ولم يعرف عن منى شيئا، أما مصطفى فقد قرر البحث عن سعاد، التي انقطعت عنه فترة طويلة، فيذهب للبحث

(1) السؤال ص519.

(2) المصدر نفسه، ص 546.

عنها حسب العنوان الذي أخبرته به، حيث تسكن مع خالتها في أحد الأحياء الشعبية، وفي طريقه يرسم صورة عن الأحياء الشعبية في القاهرة، والتي تعد رمزا جميلا يذكر (هلسا) بالقرية الأردنية، حيث الأصالة والصدق، والشعور بالأمان، وكرم الضيافة غير المرتبط بمصلحة أو صفقات تجارية وغيرها، وهناك يتعرف على شخصية سعاد الحقيقية؛ إنها فتاة جميلة وتحبه بشكل كبير، كما يتعرف أيضا على خالتها "تفيدة"، وهي امرأة متزوجة تزيد سعاد بثلاثة أعوام فقط،" يقول لسعاد بعد أن هم بالنزول: "**سعاد مش خايفة تيجي معايا والسفاح.. قالت بحسم: مش حا أخاف من حاجة وأنا معك. معه هو؟ لا أحد غيرك يا سعاد أعاد لي الإحساس برجولتي.. قال لنفسه.**"(1).

ويتم الكشف عن شخصية منى على صفحات الصحف، بعد أن تقدمت والدتها ببلاغ للشرطة عن اختفاء ابنتها منى منذ عدة أيام، ولكنها نفت أن يكون لابنتها أي علاقة بعبدالعليم نهائيا، في الوقت الذي أكدت فيه الخادمة زكية أن منى هي خطيبة عبدالعليم، وقد اكتشفت جثة منى بعد ذلك، في غرفة السطح، والتي كانت تستعملها أحيانا وتبيت فيها، وكانت الجثة متعفنة ومرفوعة بشكل مهين على خازوق هو عمود الخيمة التي كانت العائلة تستعملها أيام التصييف، وقد اغتصبت عدة مرات قبل أن يتم قتلها، وكانت الدماء في كل مكان، والجثة منتفخة والرائحة تملأ المكان بل الحي بأكمله، وقد اكتشفتها الخادمة التي طلعت لتنظيف الغرفة فوجدت الجثة على هذا الحال المريع.

واتخذت الشرطة احتياطات أمنية واسعة، وأجريت حملات من التفتيش، في الأتوبيسات والجسور والطرق والعمارات، وروقبت الكثير من المحال والمواقع، وتم التضييق على الناس، وأعلنت الشرطة أن السفاح صار شبه محاصر، إلا أن جثة أخرى اكتشفت تحت قاعدة النصب التذكاري لميدان التحرير، كانت جثة لامرأة

---

[26] (1) السؤال ص 564.

ممثل بها ، وبجانبها ورقتان الأولى عن المرأة القتيلة، والثانية للشرطة، ثم راح السفاح يكتب مقالات وتنشرها الصحف موضحا رأيه ومبررا أعماله.

وتبقى الأحلام تعاود مصطفى، فيعيش كوابيس مرعبة يتجسد فيها السفاح، إذ تمتد يده إلى أجزاء حساسة من جسده، " **تجاوزه الشاب دون أن يعنى حتى بالالتفات إليه، أغمض عينيه وجلس ينتظر. أحس بلسعة الموسى بين فخذيه وأخذ يسقط في وهدة الخدر، ها أنا ذا أغيب عن الدنيا، أفقد الوعي وأتوه في الظلمة.."**(1)" ويقضي مصطفى ليلة طويلة من الأحلام المرعبة والكوابيس، وفي صباح الليلة نفسها كان مصطفى متعبا ومنهكا، ورفض أن يمارس الجنس مع سعاد مرة ثانية، فغادرت شقته إلى بيت خالتها وهي غاضبة، وعندما ذهب مصطفى لإحضارها، وجد أنها قد رسمت خطة خاصة في التعامل معه، وهي أن تجلس معه قليلا ثم تستأذن محاولة أن تجعله يلاحقها مشتاقا ملهوفا، إلا أن مصطفى غادرها بسرعة مفوتا عليها الخطة والنصر، وبقي في شقته أياما يقضي معظم وقته في السرير والقراءة المتقطعة في رواية.

ثم ترتكب جريمة أخرى للسفاح، سيدة في حي الدقي وجدها زوجها مقتولة وممثل بجسدها، " **وتوصل مصطفى إلى نتيجة أن هناك سفاحا جديدا قد أخذ يمارس هوايته، وأنه يسعى للشهرة الأضواء وينافس السفاح الآخر."**(2) ثم يربط مصطفى بين جرائم السفاح ومقتل أحد زملائه في السجن، فقد ضغط الملازم محمود عنقه حتى خرج لسانه والجميع يلعبون، " **دخل الملازم أول محمود - ذلك الجلاد الذي يتذكره جميع المعتقلين السياسيين- وأحاط عنق صديقه بذراعه وأخذ يضغط. رأى عيني صديقه تجحظان، وفمه ينفتح ويخرج لسانه منه."**(3)" إن الملازم محمود يصبح هو السفاح أو صورة عنه، فالحديث المتركز على الضابط، وعلاقته بزوجته،

---

(1) السؤال ص 602.

(2) المصدر نفسه، ص 622.

(3) المصدر نفسه، ص 627.

وشعوره بأنه يعذبهم، فيتوجه غضبه إلى وجهة خارجية، يعبر عنها حلم يقظة، يبدأ في تحقيقه مع أحد المتهمين، "**وتمرق فكرة سريعة في رأسه: من الغريب أن أقوم بدور رجل البوليس وأنا الذي يطاردني كل رجل بوليس في هذه البلاد** "[29(1)] ويستمر حلم اليقظة أثناء حلاقة ذقنه، وعندما يجرح ذقنه يصب جام غضبه على زوجته متخيلا نفسه يطعنها بخنجر، ثم يشغل آلة خاصة بالتعذيب فيقيد المتهم، ويضغط عليه ويشغل سلك الكهرباء حول عضوه التناسلي، كما يرفع الخازوق مخترقا شرجه، وأثناء نشوته بالوجه المتشنج - وقبل موته- ينهض ويقبل شفتيه ويقضمهما مستمتعا بطعم الدم.

وتعود سعاد إلى شقة محمود متأخرة بعد انقطاع، وتتوقع أن تجد خالتها عنده، وعندما لا تجدها تسهر معه ليلة طويلة، تروي له فيها جزءا مهما من سيرتها وسيرة خالتها تفيدة، وفي اليوم التالي تجمع أغراضها وتغادر شقة مصطفى بمشهد مؤلم ومحزن،" **وكان أكثر المشاهد تعذيبا عندما أخذت تجمع حاجياتها المتبقية وتضعها في كيس نايلون: قميص النوم، وبعض أدوات الزينة، وشبشبها الذي كانت تبقيه كلما غادرته. كان ذلك مؤلما إلى درجة أنه لم يستطع أن يقول شيئا. وحين انحنت فوقه وقبلته وقالت: "باي" قال لنفسه: " لقد قتلتني."** "[30(2)].

وعندما ينزل مصطفى إلى أحد المطاعم، يقابل شخصا يحس بأنه يعرفه منذ زمن، كما يحس الرجل الآخر بأنه يعرفه أيضا، وعندما يذكره مصطفى بسجن الواحات، يضرب الرجل - الذي يظهر على وجهه علامة جرح حديث- على جبينه متذكرا، ولكن مصطفى يصرخ به وبصوت مسموع بأنه الرجل الذي كان يعذب المساجين السياسيين، وبالرغم من أن الرجل يقول بأنه كان سجينا سياسيا، وأنه أصيب بانهيار عصبي، مقدما وصفات لأدوية يتعاطاها نتيجة ذلك، إلا أنه لا يقنع مصطفى، ولكن تفيدة تظهر بجانب مصطفى في تلك اللحظة، تؤيد مصطفى وتقف إلى جانبه، ويغادر الرجل المطعم، ولكن مصطفى يتذكر بعد ذلك بأنه هو الملازم محمود (السفاح).

---

29 (1) السؤال ص 665.

30 (2) المصدر نفسه، ص 671.

وعندما يلتقي مصطفى بتفيدة وتذهب معه إلى شقته، يكتشف كم يحب هذه الفتاة، وأن سعاد قد أصبحت ذكرى بعيدة،" **ولكن سعاد قد أصبحت ذكرى بعيدة، بعيدة. إن الكلمات القليلة التي تبادلها مع تفيدة قد خلقت علاقة وكرستها. لقد خرج في الصباح ناويا أن يتحدى خوفه من العالم، أن يقتحم محرمات الرعب. وعندما واجه رعب العالم كله مجسدا أمامه كانت تفيدة في اللحظة الحاسمة تقف بجواره مستعدة أن تمضي إلى أبعد حد. وفي تلك اللحظة التحمت الدلالة بالواقع في داخل مصطفى. .. وكان مصيرا."**[31] وانتقلت تفيدة إلى شقة مصطفى، وهناك أعلنت أن الشقة تحتاج إلى تنظيف، فطلبت من مصطفى أن ينام فترة ما بعد الظهر، وعندما أفاق من نومه، وجد الترتيب والنظام والنظافة قد غيرت الشقة، حتى أنه قال: أنها قربت تبقى بيت، لقد كانت تفيدة نشيطة جدا في أعمال البيت، وجلب الراحة والألفة للمقيم فيه، وكان يشعر - ربما للمرة الأولى في حياته- أن يكون مع امرأة لوحده ولا يحس بأنها عبء عليه، ولا يحس بهم ثقيل في قضاء الساعات التي تسبق النوم.

واكتشف مصطفى أن تفيدة قارئة نهمة، وتفهم الكثير مما تقرأ، وأنها مستمعة جيدة، وتجيد طرح أسئلة كثيرة لا تنتهي، وكان طعامها لذيذا ومعدا بعناية، والمطبخ نظيف، وللحياة طعم جديد، ثم راحت تسأله عن الشيوعية، مبدية رغبتها بالانضمام إلى الشيوعيين، وضرورة أن يوضح الشيوعيين أفكارهم للغلابة والفقراء، ليحصلوا على تأييدهم، وهم كثر، عند ذلك اكتشف مصطفى أين يجب أن يشرح فكرته،" **واكتشف مصطفى حقيقة لم ينتبه لها من قبل، وتلك هي أنه لم يحاول من قبل أن يشرح فكرته التي ضحى من أجلها بالكثير وما زال مستعدا لذلك لإنسان فقير أو غير متعلم. كان طول عمره يحاور أناسا يعرفون النظرية الماركسية، بشكل أو بآخر، معرفة جيدة."**[32] وبدأ معها بحوار طويل وناجح، حول أفكار الشيوعيين

---

31 (1) السؤال ص675.

32 (2) المصدر نفسه، ص692.

لتحرير الإنسان، وأساليبهم في تحقيق هذه الأفكار، وكانت توجه إليه أسئلة ذكية ومحرجة تدل على مدى تعطشها للمعرفة بهذه القضايا وبحثها عنها، وفي الفراش عرف أنه ربط إليها بلا فكاك.

وهنا اكتشف مصطفى نفسه، وكشف عن شخصيته الإشكالية، منذ خروجه من السجن،"**أخذ يفكر في هذه المرأة التي جاءت مدفوعة بوهم بطولة لم يعد يملكها. قال لنفسه: لقد استسلمتُ إلى قدر الجندي في جيش مهزوم، رضيتُ بالاستسلام، وشعر بالفخر. وكلحن مضاد استولى عليه إحساس ثقيل بما يشبه الخزي، أعقبه كشف مؤلم: منذ خروجه من السجن لم يخطر له أن يقوم بأي عمل، كان يمضي أيامه في التذكر ورثاء الذات والحديث عن حوادث حصلت له ينتزعها من سياقها فتبدو بطولات.**"[1]" لقد حركت تفيدة في مصطفى كوامن لم تكن لتتحرك لولا الحوار الذي دار معها، وكان سؤالها " **بتعملوا أيه علشان دا كله يحصل؟ إنت مثلا، النهار ده ما عملتش حاجة؟**".[2]

صحا مصطفى من نومه مبكرا واتجه إلى بيت فتحي، وهو مراسل مجلة لبنانية، وكان يشكو من قلة المقالات الصالحة للنشر، فعرض عليه فكرة تطوير المجلة، وذلك بجمع الكتاب الذين يكتبون فيها، ومناقشة موضوعاتهم، بل وطرح موضوعات للنشر، كان فتحي قريبا من فكر الشيوعيين ولكنه غير ملتزم تنظيميا، وكان مصطفى يحاول إعادة بناء الحزب، واتفق على أن يكون اللقاء في بيت مصطفى كل يوم خميس، ثم يتوجه لزيارة فئة أخرى منعزلة من الشيوعيين يعتقدون انهم ينتمون إلى الخط الصيني، وكانوا يملكون طابعة قديمة، فينسق معهم ويتفقون على إنجاز بعض الأعمال، لقد أصبح مصطفى شخصية إيجابية بمعنى الكلمة.

وهكذا فإن تفيدة قد أجبرت مصطفى على تغيير نظرته إليها، ويضطر لأن يصبح إيجابيا، ويشمل التغيير أصدقاءه، لقد مثلت بالنسبة لمصطفى الأب بقوته،

" (1) السؤال، ص696.

(2) المصدر نفسه، ص696

والأم بشخصيتها الحانية، حولته من الماضي إلى الحاضر، كما أنها تؤثر في المكان بشخصيتها، لقد صار لها صورة عززت التوحد والاكتمال:" **واكتشف مصطفى حقيقة غير متوقعة، وتلك أنه رغم انشغاله بتفيدة فإنه قد أنجز خلال الأسابيع الأخيرة من الأعمال ما لم ينجزه طوال حياته.**"[1]

خالد في "البكاء على الاطلال"

تمثل شخصية "خالد" في رواية "البكاء على الأطلال" لغالب هلسا نموذجا للعودة إلى الماضي، بما كان يضمه من أشواق وهموم ومكابدة وتطلعات، وتمثل جانب الانكفاء على الذات، المتجسد بالخيبة والمرارة اللتين حصدهما في رحلة الحياة. لقد ذوى في نفسه الأمل بمستقبل أفضل، والتفاؤل بحياة أكثر بهجة وإشراقا، وظل يراوح بين قريته الغافية في أحضان الذكرى؛ الحب العذري والبساطة، وطيبة الناس وسذاجتهم، والمدينة " القاهرة"؛ بحياتها الصاخبة وعنفها وعفنها، بتوهجها وانطفاء الرغبة فيها، بأحلام الحياة والتحولات التي قادت إلى اليأس والإحباط.[2]"

إنها عذابات المتوحد وصراعه في ليله الطويل، بعد سنوات من اليأس والإحباط، وسلسلة الهزائم النفسية التي لحقت بالمثقف العربي، وخصوصا بعد وصول بعض الأحزاب إلى الحكم، ثم لم يجن المثقفون والشعب منهم غير الظلم والاضطهاد، ومزيد من القهر والكبت، وفوق ذلك جاء بعدهم حكام أهدروا كرامة الأمة وهدموا كل ما تبقى فيها من مجد وكبرياء وحضارة، وهكذا لم يجد "خالد" أمامه إلا البكاء على الأطلال، فإذا كانت شخصية "مصطفى" ورفاقه في "السؤال" ترمز إلى نقد المشروع الناصري؛ الذي سعى لحل الأحزاب اليسارية، ودمجها بالاتحاد الاشتراكي، فإن شخصية "خالد" في " البكاء على الأطلال" ما هي إلا نقد لمرحلة السادات؛ الذي صالح إسرائيل، وتخطى كل المحرمات، في فترة التحولات

" (1) السؤال، ص795.

(2) السعافين، إبراهيم، الرواية في الأردن. ص161.

الكبرى، وما تبعها من ضياع لحرية الفرد، وتفش للفقر، وتغول لأصحاب رأس المال.

ويتمثل في شخصية " خالد" عنصران ثابتان؛ هما التذكر والمرور على الطلل أو مسكن الطفولة، والإلحاح على الطلل ما هو - في حقيقة الأمر- إلا نشدان شبه غريزي للمدينة الفاضلة، وقد امتد هذا التصور لدى هلسا، ليقيم عليه روايته " البكاء على الأطلال" وشخصيتها الرئيسية "خالد" ، والتي تقوم على تذكر أيام الطفولة ومرابعها، من " إيقاع المهباش" إلى "البيت الكبير" إلى البدوية التي تطارده... وتظل أطوار الحنين والبكاء على الأيام الأولى التي لن تعود أبدا، مسيطرة على الشخصية لا تفارقها، أما الحنين فما هو إلا محاولة يائسة لاسترداد ما مضى من خلال " بئر الذكريات"، ومع أن هذا لا يطفئ ظمأ؛ إلا أنه بئر لا ينضب، ما دام هناك وعي و" تيار وعي" يلغيان الحواجز بين الأمكنة والأزمنة، ويمكنان من استعادة الماضي زمانا ومكانا، حسبما تمليه أوضاع الشخصية وأطوارها الجوانية."(1)

وإذا كان غالب هلسا ينقل عن وليم فوكنر قوله" *اكتشفت أن مسقط راسي يستحق الكتابة، وأنني لن أستطيع طيلة حياتي أن أنتهي من الكتابة عنه، وأنني من التسامي باليقيني إلى ما هو غير مؤكد أستطيع أن أستغل بحرية تامة كل موهبة في داخلي إلى الدرجة القصوى. لقد انفتح أمامي منجم ذهب مدفون في النين حولي، ولذا ابتكرت كونا كاملا من النين حولي*"(2)، فإن هذا ما يسمح هنا بالربط ما بين غالب هلسا والجو النفسي والفكري والاجتماعي الذي تعيشه شخصية "خالد"، إن حالة الاغتراب في شخصية خالد حالة دائمة، وتزداد هذه الحالة حدة في مواقف معينة، وهذا ما يشير إليه غالب هلسا في مقابلة معه:"أعتقد أنني في عالمي الروائي أصور مأزقا أعيشه

---

(1) انظر حداد، نبيل، الرواية في الأردن فضاءات ومرتكزات. منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2002، ص47.

(2) هلسا، غالب، أدباء علموني أدباء عرفتهم. جمع وتحقيق ناهض حتر، عمان، دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996م، ص 53.

على الدوام، استحالة الاندماج في بنى المجتمعات التي عشتها واستحالة الانفصال. تجد هذه المقولة تعبيرا عنها في علاقة الشخصية الرئيسية بالمرأة. فمن المستحيل الاستغناء عنها ومن المستحيل معايشتها"[1]» وهذا ما يفسر طبيعة العلاقة بين البيئتين اللتين يعيشهما "خالد": البيئة الأردنية أيام الطفولة، والبيئة المصرية الحديثة.

و"خالد" شاب أردني يعيش في مصر، وهو مثقف مأزوم يحاول أن يهرب من سوء الحاضر إلى نقاء الماضي وبراءته، ونفهم من خلال أحداث الرواية أنه جاء إلى مصر في الخمسينات من القرن العشرين للدراسة الجامعية وبقي فيها، ولكنه لم يكن يعيش في البيئة الجديدة (القاهرة) معزولا أو هامشيا، وإنما مشارك في الهموم العامة، والحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، وهو بحكم انتمائه الفكري والسياسي معني بالإصلاح، ومطالب بتحمل المسؤولية.

يلتهب الحنين في نفس خالد، ويفتح التذكر أمامه لوحات مدهشة، مع إيقاع "المهباش"،[2] فيحلم بأنه ما يزال يعيش حياة البراءة والنقاء، ويأخذنا المهباش إلى صلب أزمة الشاب الأردني في القاهرة، يكون خالد في ضيافة أسرة مصرية صديقة، شاب وزوجته وطفلتهما الصغيرة وقطة، فيستدرجه هذا الجو الأسري إلى ذكريات بعيدة في قريته الأردنية، ويدق على سطح الطربيزة بقبضة يده اليمنى وأصابع يده اليسرى، " **تصحو الذكرى، تتمطى، تنوء، وتشمله. تب، تك تَ تك. إيقاع قديم مكتنف بعطر العود والمسك والبخور ينبعث من أثواب النساء السابغة الضافية، تلتف حول أجساد قوية، مرغوبة، أجساد لها حرمة أجساد الأمهات، دونها تقف فوهات البنادق، ولها نداء لا ينطفئ. وللإيقاع عندما توغل في الذكرى، عندما**

---

(1) هلسا، غالب: مقابلة في جريدة الراي الأردنية، 1987م، ص10.

(2) المهباش: آلة لطحن القهوة العربية والهيل، وهي عبارة عن إناء خشبي مجوف ومزين، توضع به القهوة المحمصة وتدق بذراع خشبية فتصدر منه أصوات إيقاعية جميلة، وتفوح منه رائحة الهيل والقهوة المحببة، ولم يكن ليخلو منه بيت في الريف الأردني سابقا، حيث كانت القهوة العربية من أهم ركائز شيم الكرم التي تميز الأردنيين.

تتلبسك الذكرى كأنها حالة انجذاب، مذاق البن ونفحه القوي: انكشف الغطاء عن بئر الذكريات، فهبت روائحها، كما ينكشف الغطاء الخشبي البيضاوي الشكل عن صندوق عطار. وتتخلله كلمات القصيدة يئن معها لحن الربابة"[1]

يستدعي خالد لوحات الماضي في قريته، ليقارنها بحاضره اليوم، فيتذكر الخيول الأصيلة في حوشها الواسع، وآمنة التي كانت ترقص وبيدها الخنجر، ويقارنها برقص طفلة صديقه التي أخذت ترقص على إيقاع دقاته،" **أصوات النساء منغومة، ناعمة، ثرية، من بعيد تأتي، ودوي أحاديث متداخلة: صهيل الخيول الأصيلة مقتضبا وهي تدق الأرض بأقدامها واقفة في الحوش الواسع المسور، وقرقرة المياه في النارجيلة. وفي الخلفية تقف آمنة. كانت ملثمة، فارعة كأنها انبثقت من الأرض لتوها صاعدة إلى أعلى، ترقص، محاطة بنصف دائرة من الراقصين والخنجر في يدها ترسم به دوائر في الفضاء"**[2].

يسيطر (المكان الأمومي): المهباش، وفتاة القرية آمنة، والأبله عطوة، وصورة الأم، والفتاة البدوية، على ذهن خالد، ويظل الماضي هو الفاعل في الحاضر، كما تبقى الموازنة بين الماضي والحاضر هي مفتاح شخصية خالد، فيبقى معلقا بين اللحظة الحاضرة بما تحمله من لوحات، وبين ماض وذكريات عميقة لا تمحى، وحين يزداد الحنين إلى الماضي، فإن المرأة الأم تسيطر على شرائح الماضي، وهذا الربط بين الأم والمكان إشارة واضحة إلى مصدر الحب والعطاء،[3] " **طعنة حادة كوميض البرق اندفعت من الماضي واخترقت اللحظة، ثم اختفت. اختلج بها قلبه فأوجعته. وجه أمه أطل من زاوية الحجرة الخارجية وأخذت تعبر الحوش مقتربة، عيناها محتجبتان بتجهم ،سرجه، دن ضوء الشمس كان يدخل فيهما"**[4] ".

---

1. هلسا، غالب، الأعمال الروائية الكاملة، البكاء على الأطلال، أزمنة للنشر والتوزيع، 2003م، ص15.
2. البكاء على الأطلال، ص15.
3. انظر العبادي، عيسى: مضامين الرواية الأردنية، ص305.
4. البكاء على الأطلال، ص17.

وإذا كانت أزمة اغتراب "خالد" تبدأ "ضمن أبعاد ثلاثة: علاقته مع الناس، ومع النساء بصفة خاصة، وعلاقته بالوضع العام، والوضع الاجتماعي والسياسي بعد سياسة الانفتاح، ثم علاقته بالأمكنة"،(1)» فإن هذه الأبعاد الثلاثة، وصراع الشخصية بين الماضي والحاضر، هو خير تعبير عن إشكالية هذه الشخصية، ولعل المستوى الزمني للرواية والتي تقوم على منظومة من الذكريات والمواقف والخواطر لشخصية خالد، وتبدأ منذ بداية السبعينات، وقد تتحدد بالعام 1974، لم يشهد إلا سلسلة من الاحباطات المحزنة، فعلاقته بعزة قد انقطعت منذ فترة طويلة، وكان يحاول أن يجددها، دون جدوى، أما الوضع السياسي والاجتماعي فهو مترد جدا، حتى أن خالد يبكي تجربته وأطلال الخمسينات والستينات، بل إن الوقوف على الأطلال يمتد ليشمل التاريخ العربي، فتخوض الرواية في شخصيات تراثية، من مثل عائشة بنت طلحة، ونافع بن الأزرق الخارجي، وجمال الدين الأفغاني، أما المكان الأمومي، فـ"خالد" لا يستطيع العودة إلى الأردن وقريته لظروف سياسية.

يستحضر خالد في لحظة تأزم اغترابي حادة صورة الأم وآمنة التي كانت ترقص في القرية، ويقارنها برقص الطفلة، ثم صورة مستدعاة من الماضي: أبله القرية عطوة الذي كان له حركات وأغان لا تمحى، " **وأبله القرية يومئ برأسه ويوقع بقدميه: بياع البيارق طل**"(2)»، وتظل محاولة الجمع بين الماضي والحاضر قائمة ومستمرة، ومن صورها المقارنة بين القهوة في الماضي والقهوة اليوم، والشاي الذي كان يعد على الحطب في قريته والذي يفوق في جودته ومذاقه شاي اليوم، فنجد في الهامش " **في القرية يقولون إن البن كان يعرق عندما يوضع في المحمصة. أما في هذه الأيام فالبن ككل شيء فقد الخجل ولم يعد ينضح بالعرق**"،(3) وكذلك الأمر بالنسبة للطعام الذي كان يعد ويطبخ على النار، فتجتذب رائحته الزكية

---

(1) حداد، نبيل، الرواية في الأردن فضاءات ومرتكزات. منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2002، ص48

(2) البكاء على الأطلال، ص17.

(3) المصدر نفسه، ص 28.

41

النـاس، ويـأكلون منـه بـنهم، مـع سـعادة أهـل الطعـام وسـرورهم والنـاس يـأكلون مـن زادهم."**رائحة البن قوية، نافذة، تعبق بها الدار الواسعة، تشيع في الحوش وفي الـرواق القبلـي حيث تهدر النـار والنسـاء يعددن الطعـام. رائحتـه نـداء للمـارة فـي الطرقـات - يسمعون دقـة المهبـاش ويتنسمون رائحـة البن فينعطفـون من الشـارع ويدخلون من البوابة الكبيرة إلى الديوان".**(1)

وفي أثناء ملاعبة "خالد" للطفلة تبول على ملابسه، ثم يغادر بيت صديقه دون اعتـذار أو تبريـر، فيخـرج إلـى الشـارع، يمـر بالمقـاهي والعمـارات، يقابـل النـاس والأصدقاء، ولكنـه يدخل في سياقات مختلفة، إذ ترهقـه الذكريات، والغربـة، وأزمـة التـأقلم، فهو لا يستطيع الانـدماج ولا التكيـف، إن أزمتـه مـع الواقـع تبـرز مـن خـلال علاقته بالمكان، وتأخذ الأزمـة شكل مفارقة، فكلما ازداد عدد الناس ازداد إحساس خالد بالعزلـة عنهم،(2)« صـحيح أن الشـوارع نفسـها بأسـمائها ومعالمهـا، وكثيـر مـن الشخصيات التي يواجهها هي نفسها، ولكن هنـاك شيئا جوهريا قد تغير، " **هكذا بدا له المشهد وهو يخوض في شارع سليمان باشا بحثا عن المقهى الذي كـان يجلس فيه جمال الدين الأفغاني. كان مشهدا تجمدت فيه الحركة فأصبح يعبر عن انفعالات ذات مـدى لا نهـائي. ثم يتوقف مطالعا مـا حولـه " أين أنـا؟" ويجهد أن يتذكر تلك اللوحة. يمتح من سطح أقرب فيدفع بعض أجزاء المشهد الثابت إلى الحركة."**(3)

وكـان لخالـد علاقـة خاصـة بجـو المثقفين فـي مصـر، فيدخل إلـى نـاد يرتـاده المثقفون، ويدخل معهم في حوار حـول الفنـون الأدبيـة والروايـة بشكل خـاص، والفن التشكيلي وأزمته،" **قـال، لا تكثروا الحديث عن أوروبـا ولا تعتبروهـا مثـالا يجب أن نحتذيـه. الروايـة مثـلا مجرد مثـال، قد ماتـت فـي أوروبـا وتنبعـث فـي العـالم الثالـث. وتوالت الأسماء في خطبته: حون ابدايك، سـول بيلـو، نورمـان ميلر(روايـة العـاري**

---

(1) البكاء على الأطلال، ص28.

(2) انظر حداد، نبيل: الرواية في الأردن، ص50.

(3) البكاء على الأطلال، ص136.

والميت، وماذا بعد ذلك؟) ناتالي ساروت، والآن روب جرييه (تقاليع، مجرد تقاليع)، جونتر جراس(سوف أحكي لكم عن روايته"الطبلة الصفيح") أما كرواك، فلنتحدث بجدية، ولا نحاول أن نخدع أنفسنا، هل، بصراحة، قرأتم شيئا عنه؟ ... وفي مقاييس رواد هذا النادي كان يعتبر ما يقوله كلاما عميقا ودالا على معرفة واسعة بالثقافات العالمية."[1]

ويظل خالد منكفئا على ذاته، متجها نحو الماضي، يعاني الهزيمة المريرة ، وانعدام الثقة بالمستقبل، فقدت الأشياء معانيها، وخيل إليه أن كل ما سعى إليه باطل، وأن المشروعات الإنسانية غير ذات جدوى، ومع أن خالدا كن يعترف أحيانا أنه مهزوم، إلا أن ذلك كان يترافق مع "المعاودة"، التي تحمل قدرا من اليأس والشعور بالاستمرار[2]، مما أثر في نفسيته بشكل حاد، حيث راح يدرك عنصر الزمن، الذي يقوده في كل خطوة نحو الفناء، **" لقد شعرت بدبيب الموت يزحف حثيثا في جسدي، مختلطا مع كل نبضة عرق. شعرت بأنني أسير نحوه مفتوح العينين، بلا قدرة على التوقف أو الرجوع، وددت أن أستغيث من أجلي ومن أجل الآخرين، أن أصرخ: أوقفوا عامل الزمن المدمر الذي ينقض علينا ولا يبقي على شيء، قاوموا تلك الجرثومة التي تنخر في داخلنا.. شعرت بانتفاء المعنى لكل شيء، وقامت أمام عيني الأكذوبة بكل روعها. تبينت آنذاك أن كل المشروعات الإنسانية بلا جدوى، وأن سعي الإنسان كله باطل"**[3].

أما من حيث علاقة "خالد" بالمرأة فقد كانت شبه منتهية، وما كل أحاديث الشخصية عن النساء إلا ذكريات؛ "عزة" الفتاة المثقفة التي أحبها خالد بعد لقائه بها إثر مظاهرة للطلاب في ميدان التحرير، وقد أحبها لأنها تشبه "ناديا" وهي الفتاة التي كان يحبها قبل خمسة عشر عاما مضت،[4] دفعها تداعي المعاني إلى بؤرة التفكير، فتظل المقارنة بينهما قائمة، ويبدو ميدان التحرير شبيها لمعسكر السويس الذي تطوع فيه للقتال مع "ناديا"، **" يتذكر**

---

(1) البكاء على الأطلال، ص140 و141.

(2) انظر السعافين، إبراهيم: الرواية في الأردن، ص169.

(3) البكاء على الأطلال، ص32.

(4) " ناديا" هي الفتاة التي أحبها بطل رواية "الضحك" وترافقا متطوعين بمعسكر التدريب في القتال، ثم انفصلا نتيجة ضغوط اجتماعية وسياسية لم يحتملاها.

عندما رأى عزة لأول مرة. بدا وجهها مألوفا وفجأة غاص قلبه..كانت هي نفسها الفتاة التي أحبها يوما ما، منذ خمسة عشر سنة... واختلطت في نفسه الأماكن. يكاد يرى في اعتصام الطلبة في ميدان التحرير امتدادا لذلك المعسكر الذي كانوا يتدربون فيه أيام العدوان الثلاثي."[1].

ولكن عزة ناديا- وبالرغم من الشبه الظاهر بينهما في الأوصاف الخارجية- إلا أنهما مختلفتان، فهما من جيلين مختلفين تماما في فهمهما للحياة، والعلاقات الاجتماعية والسياسية، فقد كانت ناديا فتاة مثقفة واعية ودودة وحنونة ورزينة، تعالج الأمور بحكمة، تطالع الكتب وتتابع الأحداث، وتقوم بما تقتنع بأنه الصواب، متجاوزة لذاتها ومنخرطة في العمل العام، أما عزة فهي من جيل حديث أهوج غير مستقر، وغير واع، هي بالطبع فتاة مثقفة، ولكنها من ثقافة الجيل الجديد، والتي تقوم على مشاهدة الأفلام والصحف والمجلات، منشغل بذاته وغير قادر على تجاوزها، وبالتالي فإن علاقاته بالآخر متوترة وغير مستقرة، " **كان دائما يستغرب- وناديا في تفكيره- كيف تستطيع عزة أن تحب بعنف وأن تمارس الجنس والحياة بحدة، وأن تكون غير قادرة على منح المودة والحنان في الوقت ذاته. يفكر: " جيل من الشياطين هذا..."..."[2]".**

كانت عزة مرحة ولطيفة عندما تكون في شقة خالد، تناقش بحرية، وتغني بمرح، ولكنها تصبح نزقة ومتوترة في ساعات المساء، وفي الليل عندما يوصلها خالد إلى دار أهلها، " **في تلك اللحظات تصبح خطرة للغاية،تستفزها إلى أقصى حد عبارات التودد. يكفي أن يسألها إن كانت جائعة أو هل تريد فنجانا من القهوة حتى تثور وتصبح جارحة. وتجعله يشعر بأنه صار جدة سنتيمنتالية"[3]**،أما الآن فقد أصبحت عزة مفقودة، وخالد يحاول استعادة العلاقة معها ولكن دون جدوى، لقد أصبح خالد يفقد علاقاته الاجتماعية يوما بعد يوم، ومع فقدانها

"(1) البكاء على الأطلال، ص61.

(2) المصدر نفسه، ص65.

(3) المصدر نفسه، ص65.

يسيطر عليه هاجس الموت والشيخوخة وآثار الزمن، حتى أيام نضاله أصبحت جزءا من الماضي منفصلا عما يقوم به الشباب في وقته.

وكان لخالد علاقات عابرة، وربما مأساوية، لا تمنح الاستقرار والحنان، منها علاقته برحمة؛ المومس التي كانت تعيش حالة نفسية صعبة ومتردية، عاشت في شقة خالد فترة من الزمن، ولكنها جلبت له الإحباط والألم، وتسببت له في الكثير من الإحراج مع الأصدقاء المثقفين الذين كانوا يزورونه في بيته، وكانت تنوي أن تجمع كل عشاقها السابقين وتنتحر أمامهم في مشهد مأساوي، منتزع من أفلام السينما، كانت حالة هستيرية تتلبسها، في الوقت الذي يحاول فيه خالد أن يقنعها بأن تفكر في عمل أو مشروع تؤمن فيه مستقبلها، " .. **ثم تغيب عنهم لحظة قصيرة وتعود ومعها ذلك الخنجر المزخرف الذي تحتفظ به في الدولاب وتسدد هنا، في موضع القلب(الواقع أنها لم تكن تشير إلى موضع القلب بل إلى المسافة بين نحرها ومفرق ثدييها). تسأله إن كان سيبكي عليها وإن كان سيذكرها كثيرا؟ يطلب إليها أن تتوقف عن هذا الهذيان، ولكنها تثور: حتى مش عايز تجاملني؟ ثم تتلبسها حالة هستيرية"**[(1)]".

ومن علاقات "خالد" النسائية العابرة، علاقته بتاجرة الحشيش، وهي امرأة كانت تسكن في نفس عمارته التي كان يسكن بها، وكان لها علاقات مشبوهة وغامضة مثل تجارة الحشيش، حيث كان يزورها رجل كثيف الشعر، متجهم الوجه، وعندما حاولت أن تعتذر له عن تصرف طفلة صغيرة كانت برفقتها - يبدو أنها ابنة أختها- كانت قد شتمته، تطورت بينهما العلاقة، فكان خالد يزورها في شقتها آخر الليل، وظل خالد يقترب عاطفيا من هذه المرأة حتى عدها مومسا فاضلة، ورسم لها صورة خاصة بذهنه، كان يغذيها من طبيعة تصرفاتها، وتهذيبها وحسن معاملتها، ومن بعض أقوالها، ولكنه وعندما بدأت هي تمهد لممارسة الجنس، وطلبت منه أن يعدها

" (1) البكاء على الأطلال، ص70.

بالابتعاد عن الحشيش وعدم ذكره، تغيرت نظرته الرومانسية إليها، " **في تلك اللحظة انكسر الوهم في داخله وضاعت إلى الأبد الرومانسية العميقة الجذور للمومس الفاضلة، وسقطت المرأة في سياق الحياة المبتذل"**[46(1)]، وهنا نجد صورة مصغرة لنظرة غالب هلسا في العلاقة مع المرأة، إنه يبحث عن المرأة الكلية أو الكاملة، ولكنه حين يصل إلى العلاقة الحقيقية يرتد خائبا؛ إذ تؤرقه عقدة الإثم الأوديبي، ويشعر بأنه قد اقترب من المحارم، وقد انتهت علاقته بها نهاية فاجعة مؤلمة؛ فقد رأى الرجل ذا الشعر الكثيف والوجه المتجهم يخرج من عندها مرة، وعلى وجهه علامات الغضب، وعندما ذهب وطرق بابها قالت بأنها عيانة، ورفضت إحضار الطبيب، وطلبت منه المغادرة، وكان يسمع بكاءها، غادرها وعندما جاء في الليل وجد شقتها مليئة بأصوات ناس كثيرين.

وهناك امرأة فندق شبرد، التي رآها في الفندق فأحبها، وخرجا سوية، كانت ودودة ولطيفة، وكان لكل منهما علاقة تعذبه، ويحاول أن ينهيها، ولكن علاقتهما لم تستمر، **"كان لقاؤهما مجرد تقاطع طريقين، تاه بعده كل منهما عن الآخر على وعد لقاء لن يتحقق"**[47(2)]، ومثلها المرأة التي تهوى الفن التشكيلي، حيث قامت بينهما علاقة جسدية ثم انتهت نهاية مؤلمة، فقد شعر أن هناك من يتنصت على الباب عندما بات في شقتها مرة، وشعر برعب بالغ وهو يترقب، **"جلس ساكنا تماما لأن كل حركة منه سوف تجعلها تفاجأ. كم من الوقت استمر على هذا الوضع، ساعتين، ثلاثا، أربعا؟ لا يستطيع أ يجزم بذلك،ربما أكثر من ذلك، وربما أقل، ولكن ذلك الضغط الملح على الباب اتصل مصدرا ذلك الصوت الهين الذي يشبه تهتك ثوب قديم. ولن ينسى أبدا صوت خرير ماء يتسرب ببطء إلى البالوعة قادما من الحمام."**[(3)].

---

46 (1) البكاء على الأطلال، ص94.

47 (2) المصدر نفسه، ص127.

(3) المصدر نفسه، ص176.

ويستمر بحث خالد عن الأمان في صورة بحثه عن المرأة، فيحلم أنه استعاد عزة، ولكنها أحلام يقظة، إذ أصبحت عزة حلما بعيد المنال، وعندما يتصل بها بالهاتف فإنه لا يستطيع أن يوصل إليها ما يحس به،" **هالو أنا خالد، أرجوكي يا عزة، أرجوكي حاولي تفهمي، أنا... أنا بختنق، بموت، أنا حا، حاتجنن...، الوحدة، الرطوبة..مش دي، أرجوكي...من الصبح، أرجوكي من الصبح وأنا عايش في كابوس، كابوس حقيقي..البرد، الرطوبة.. يقول البرد، الرطوبة... حاولي تفهمي..عندي دفاية، بس مش دي المشكلة...**"[1].

وفي أثناء حديثه مع عزة التي لم تعد تفهم أو تدرك مشكلة خالد، تنقطع الحرارة من الهاتف، فيعاود الاتصال بها مرة أخرى، ولكن الحرارة تنقطع مرة ثانية، فيهيم على وجهه في شارع سليمان باشا، ويمر على " دار الثقافة الجديدة"، التيار الكهربائي مقطوع، السكرتيرة معتقلة، وهناك حجرة كان يجلس فيها اثنان من العاملين بالدار هما معتقلان أيضا، وعندما يمر على غرفة "صنع الله "،[2] يجده يقرأ على ضوء شحيح من النافذة ويفاجأ به خائفا، وهناك يحاول أن يهاتف عزة فتنقطع الحرارة، يغادر متجها إلى جروبي، "**كانت مسيرته إلى جروبي أشبه بذلك الاستسلام اليائس عندما يكتشف الإنسان أن العمر قد تقدم به، وأنه ينحدر إلى الشيخوخة والموت انحدارا لا سبيل إلى مقاومته، بينما هو ما يزال في مرحلة المشاريع التي كرس نفسه لوضعها، والتي قد أصبح الوقت متأخرا لتحقيقها**"[3].

وبعد مقابلته لعزة اكتشف أنه فقدها،"**في ذلك الجو الممطر أدرك فجأة أن كل شيء قد انتهى، انتهى فعلا ولن يعود، فكر أنه ترك أجمل شيء في حياته ينفلت منه، فقد كل ما كان يجعل حياته ذات معنى. لم يبق أمامه الآن سوى أن ينحدر إلى الهاوية. إلى فقدان المعنى. سوف يصبح كل يوم خطوة جديدة في طريق السقوط**"[4]، وإذا كان خالد يبحث عن الصدر الحنون في المرأة الشاملة: الأم والصديقة والحبيبة والخادمة- وامرأة من هذا النوع مستحيلة الوجود- فإن علاقة خالد بصديقته وحبيبته "عزة" هي في حالة أزمة دائمة، إن هناك ثمة جسورا مقطوعة بينهما لا يدري خالد ما الذي هدمها، ولا كيف يستطيع ترميمها[5].

---

(1) البكاء على الأطلال، ص201.

(2) يبدو أن "صنع الله" هو الروائي المصري صنع الله إبراهيم، هو من رفقاء ومعاصري غالب هلسا، وتربطهما صداقة حميمة.

(3) البكاء على الأطلال، ص204.

(4) البكاء على الأطلال، ص212.

(5) انظر أبو نضال، نزيه: غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية، وزارة الثقافة، عمان، 2002، ص57.

أما المرأة التي تخيل أنه يضع رأسه على فخذها ويحادثها، عندما كان في المقهى الذي يجلس فيه جمال الدين الأفغاني، فلعلها هي المرأة التي ينشدها خالد، قالت "**هل جف ماء الحياة منك إلى هذا الحد؟ ألا تراني؟... ثم أخذت تغمغم لقد قست عليه الحياة، يقاوم ويقاوم وهو خلال ذلك يتلاشى ويتهشم. لم يعرف حضن الزوجة، ولا ضحكة الابن وها هو الآن يسرع إلى القبر قبل الأوان... نم يا بني. لم تكد تعيش . جف ماء الحياة منك. أنت جيفة تعيش على الذكرى لم تكد تذوق طعم التجربة الحقيقية. كلمات يا رب هي كل بضاعته، كلمات ملأوا بها رأسه فألغت مدلولاتها، واعتقد أنها كل شيء** "(1)، إنها صفات المرأة الكلية التي ينشدها غالب هلسا في حيوات أبطاله في كل رواياته تقريبا؛ امرأة يجد بها حضن الزوجة، وحنان الأم، وطمأنينة العائلة، وهدوء النفس، وعطاء المومس الفاضلة،.... .

في القاهرة، وسط خواء الليل البارد والموحش ينتظر خالد المعجزة، أن يدور المفتاح في الباب وتنبثق منه عزة، عزة الطلعة الشامخة، عمود الضياء المعطر بتحولاتها المباغتة، عزة تبعث الدفء في هذا الخواء البارد.. فلتجيء لتجعل للحياة معنى، إن الاستمرار بدون عزة يحمل معنى وحيدا فقط، "**الاقتراب الحثيث دون توقف من الموت**"، (2) ويؤكد لنفسه بيقين لا مبرر له: " **من قلب تلك الظلمة اللزجة سوف تنبعث عزة مشرقة، متوقدة.. سوف تنهضه من قبره هذا منبئة بالشمس في الخارج، والنسيم والشجر المبتل بالندى**"(3) وهكذا يبدو جليا هنا أن عزة ليست مجرد امرأة .. إنها الحياة والطمأنينة والأمان المطلق الذي لا يجده الإنسان إلا مرة واحدة: في رحم الأم أو في حضن المرأة الأولى في الفردوس المفقود الذي أضاعه الرجل ويواصل الحنين إليه، دون توقف. وعلى المستوى الواقعي العياني فإن عزة حين تحضر تكون مجرد فتاة واقعية عادية، ولا تفرق عن امرأة أخرى، وحين يقترب أكثر يشعر بعقدة الإثم الأوديبي فيهرب باحثا عن المرأة المفقودة.. المرأة التي لن يجدها أبدا (4).

---

49 (1) البكاء على الأطلال، ص193.

(2) المصدر نفسه، ص111.

(3) المصدر نفسه، ص110.

(4) انظر أبو لضال، نزيه: غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية، ص75.

وهكذا تبدو شخصية خالد- التي يستقطب وجودها باقي الشخصيات- ذاتا مركزية ما تلبث أن تتقوض مركزيتها في الفصل الختامي من الرواية،(1) ويأتي الحديث على لسان عزة، ومعبرا عن منظورها، فبعد آخر لقاء جمعهما قبل ثلاث سنين، وعندما شعر خالد بأنه فقد شيئا ثمينا وغاليا، تلتقي عزة به وهو يقرأ في الكازينو، وعندما يسألها لماذا لم تحاول السؤال عنه طيلة تلك السنين، تكتشف أنها كادت تنساه تماما، وعندما تقوم بوصفه يتبدى لها أنه قد شاخ كثيرا، وتكون المفاجأة عندما تسأله عما يقرأ، فتجد أنه يقرأ رواية بوليسية!!عنوانها "الشبشب الأحمر"، كما وأنه يحضر أفلام سينمائية بعضها عربية.

وعندما يقول لها خالد: بأنه لم يمر يوم واحد دون أن يفكر بها، يملؤها ذلك بالغثيان، وتلاحظ اتساخ ياقة قميصه، وتقول لنفسها:" **غادريه بأسرع ما يمكن، غادريه**"(2)، ولكنها ترى وجهه حزينا، فتشعر بأنها قد أهانته، فيتبدل موقفها تجاهه، وخصوصا عندما جعلها تحكي له عن رسالتها في الدراسات العليا حول روايات جراهام جرين، واكتشفت قدراته النقدية المتميزة، وتحليلاته الدقيقة في فن الرواية، واطلاعه ومتابعاته الواسعين في الروايات والروائيين الأجانب، مما جعلها تغير موقفها، حيث بدأت تتفهم المواقف والأوضاع وتدرك ما حولها،" **أخذ عقلي يعمل بسرعة غريبة. أصبح لكل شيء معنى الآن. قلت له ذلك.**"[50](3) ثم خطر لها أن الروايات البوليسية والأفلام العربية التي تحدث عنها لم تكن سوى نوع من المزاح، ولم تكن تعلم أنها بذلك قد بدأت أولى خطواتها نحو استعادة العلاقة به، وهذا ما قد حصل.

إن فهم الحياة يجعلها صعبة وقاهرة، بل إن المزيد من الفهم والتفكير فيها يفسد متعتها، ويجعلها مستعصية ومعقدة، والتفكير العميق يقود صاحبه إلى الهزيمة النفسية، وربما الجنون وقد يفكر بالانتحار، وهذا ما حصل مع خالد.

---

(1) انظر خريس، احمد حسن: ما بعد الحداثي في رواية البكاء على الأطلال مجازفة تأويلية،الرواية في الأردن، أوراق ملتقيات عمـــان الإبداعية، ملتقى الرواية في الأردن، إشراف وتحرير باسم الزعبي ومحمد جمال عمرو، منشورات اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربية 2002، ص62.

(2) البكاء على الأطلال، ص220.

[50] (3) المصدر نفسه، ص222.

عزة في "البكاء على الأطلال":

تبدو شخصية "عزة" في رواية البكاء على الأطلال لغالب هلسا ممثلة لإشكالية جيلها؛ فهي فتاة جامعية مثقفة، شاركت في اعتصام للطلاب في ميدان التحرير وسط القاهرة، ترفض الواقع الذي تعيش فيه، وتثور عليه، ولكنها مع ذلك أسيرة هذا الواقع المتخلف ولا تستطيع الإنفكاك منه، وبالرغم من تعرفها على "خالد" الرجل المثقف إثر مشاركتها في اعتصام ميدان التحرير، الذي حاول جاهدا أن يغير أسلوب تفكيرها وتعاملها ليتلاءم مع نظرتها المثالية للحياة، إلا أنه فشل ولم يستطع تغييرها، بل إن العلاقة بينهما انتهت، ولم يعد هناك فرصة لإعادتها، بسبب سلبيتها وعجزها عن مواجهة الواقع، وهروبها من واجباتها الأصلية؛ وهي أن يعيش الإنسان منسجما مع نفسه ورؤاه، بغض النظر عن الواقع المتخلف- من وجهة نظر الشخصية أو المؤلف- أو التيار الجارف، أو الصعوبات والمعوقات التي يواجهها.

"عزة" فتاة جامعية مثقفة، وثقافة طلاب الجامعات في زمنها (بداية سبعينيات القرن العشرين) ثقافة هشه، يمتلك أصحابها رؤى للإصلاح وإحداث التغيير، ولكنهم عاجزون عن تطبيق أي منها، بسبب تدمير الأنظمة الحاكمة وقوى الظلام المتكاثرة للمعنى العميق للحياة، وتكريس الجهل والهزيمة النفسية في نفسيات الجيل الجديد، بحيث صارت الحياة والأيام ليست سوى خطوات نحو السقوط والموت، ولذلك فقد تأزمت علاقتها مع خالد، الذي حاول مرات عديدة إعادة العلاقة معها دون جدوى.

لقد كانت أزمة عزة وكل جيلها تتمثل في عجزهم عن فهم ما يدور حولهم، ومواءمة ذلك مع المبادئ التي يحملونها، أو يفكرون فيها، وقد عبرت عن ذلك عندما التقت بخالد بعد ثلاث سنوات من انقطاعها عنه، فيما كان يشبه تفسيرا لسبب انقطاعها عنه، طيلة السنوات الثلاث الفائتة، دون حتى السؤال عنه وعن أخباره، لقد أدركت في تلك اللحظة أسباب أزمة جيلها، بعد حديث مطول مع خالد عن موضوع رسالة الماجستير

التي تعدها عن جراهام جرين، قالت: " شرحت له ضياع المعاني من الكلمات، قلت لـه إن تحـ جملة مفهومة أصبح مشكلة عويصة عندي، وإنني لم أعد أفهم ما يحدث. الآخرون يفهمون ذلك بأقل مجهود، بينما أنا عاجزة تماما عن تفسير أبسط الأشياء. أفكر في مئات التفسيرات ولكن التفسير الصحيح يعرفه غيري. "(1)"

تعيش عزة مع عائلتها المكونة من الوالد والوالدة وشقيقها عادل، وكانت تتشاجر مع شقيقها بسبب أمور ومواقف بسيطة، لا تستدعي هذا الشجار المطول، " تقول دون أن تنظر إليه (كأنها تحدث نفسها) إنها عندما تعود إلى البيت فسوف تتشاجر مع أخيها أربع ساعات. تضيف اربع ساعات على الأقل " (2) " تتحدث عن اخيها بكلمات متقطعة وهي محنية رأسها. تقول أنه سوف يتشاجر معها لأنها تأخرت، كأن الواحدة لا يمكن أن تمارس الجنس إلا بعد الساعة السابعة مساء، تقول إنها قالت له ذلك مرة فلم يستطع أن يرد... تتنهد ثم تقول: يا ريته يتخانق معايا نص ساعة بس، ويسيبني بعد كدة أنام"،(3) وهكذا يبدو أن سبب الإشكالية التي تقع فيها عزة - من وجهة نظر غالب هلسا- هو الرؤية المتقدمة التي تحملها عزة، في الوقت الذي يحمل فيه أهلها نظرة متخلفة تجاه المرأة عموما، والفتاة غير المتزوجة خصوصا، حيث يسمح لها بالدراسة والعمل من أجل تحقيق دخل للأسرة، ولا يسمح بممارسة حريتها، أو حتى التأخر بعد السابعة مساء.

ولعل هذه الإشكالية هي التي تجعل عزة مرحة وخفيفة الظل في شقة خالد، وعندما يخرجان ويقترب موعد رجوع عزة إلى البيت، فإنها تصبح متوترة، مرهقة الأعصاب، وعنيفة،" ومثل كل مرة تعود إلى البيت في الواحدة بعد منتصف الليل. يمسك بذراعها عندما يعبران الشارع فتنزعها منه بعنف، وأمام باب العمارة التي تسكن فيها تكون متوترة، متعجلة، عيناها المراهقتان تطالعان الشارع بنظرة رصينة. وكالعادة لا تقول كلاما لطيفا عندما تودعه بل تهمس بسرعة: حاكلمك بكرة"(4)".

---

(1) البكاء على الأطلال، ص223. 52

(2) المصدر نفسه، ص65.

(3) المصدر نفسه، ص66.

(4) المصدر نفسه، ص66. 53

تدرس عزة الأدب الإنجليزي، وبالرغم من ثرثرتها الكثيرة، فلم تكن تملك جرأة ناديا (الفتاة التي كان خالد يعرفها بالخمسينات)، فلم تكن تدعو خالد إلى بيتها عندما يوصلها، كانت تمنح خالد الجسد ولا تمنحه المودة والحنان، وكان خالد يحاول أن يشرح لعزة أن الحب ليس الجنس فقط إنه أيضا المودة والحنان.

ونتيجة لعدم تفهم عزة لطبيعة الحياة، وعدم قدرتها على المواءمة بين مبادئها ومثلها وعلاقات المجتمع، فقد انفصلت عن خالد، وتركته في عذاباته وهواجسه وبؤسه، وبعد ثلاث سنوات كانت عزة قد أنهت البكالوريوس، وبدأت بدراسة الماجستير، وكانت تعد رسالة عن جراهام جرين، حيث خرجت من منزلها في أحد الأيام إلى الكازينو، خوفا من الشجار مع أمها أو أخيها عادل، بسبب أفكارها وحوارها غير المفهوم بالنسبة لهم، فاكتشفت أن الكازينو يمكن أن يكون مكانا مناسبا للعمل، فكانت تجلس وتراجع ما كتبته عن جرين، لقد قرأت رواياته كلها، فوجدت أن عالمه بائس وتعس وبشع، ولم تجد لذلك أي علاقة بعقيدته الكاثوليكية، فأي كاثوليكي هذا الذي لا يجد موضوعا للكتابة غير علاقة جنسية بين رجل وزوجة أخيه، أو علاقة حب بين أخ وأخته، التي تسلمه رغم ذلك للموت، وعن... موضوعات مستحيلة وتعسة.

ثم تحاول أن تجد تفسيرات توضح تلك الموضوعات؛" **لقد خطر لي أنه من الممكن أن جراهام جرين يود أن يقول أن هؤلاء الناس بؤساء لأنهم ليسوا كاثوليكيين. ذلك احتمال بعيد، وخاصة أنهم في نهاية الأمر يذهبون إلى القسيس ويعترفون، فيقول لهم القسيس كلاما لا افهم دلالته.**"(1)" ويزداد الأمر تعقيدا عندما يتحول المذنبون إلى كاثوليكيين وشيوعيين، فتحاول عزة ا، تضع ذلك في سياق آخر: إن هؤلاء البؤساء يفعلون ما يحلو لهم، ويمارسون حياتهم بحرية، فيعيشون حياة تعسة، ولو أنهم تقيدوا بتعاليم الدين والكنيسة لأنقذوا أنفسهم، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون موضوعا لكل هذه الروايات، ثم ما علاقة الشيوعية بذلك كله؟

"(1) البكاء على الأطلال، ص218.

وفي أحد الأيام رأت "خالد" يجلس في الكازينو، ويطالع كتابا، فقررت أن تغادر الفندق، ولكن عيناها التقتا بعينيه في تلك اللحظة، فلم تجد بدا من أن تسلم عليه، وعندما دعاها للجلوس لم تستطع أن ترفض، عند ذلك رأت أنه قد تغير،" **كان يبدو قد شاخ كثيرا. كان ذلك فاجعا إلى حد جعلني أشعر بالخجل من شبابي**."[1] وكان خالد يطالع رواية بوليسية، كما كانت ياقة قميصه متسخة، وعندما أخبرها أنه لم يمر يوم واحد لم يفكر فيها، جعلها كل ذلك تشعر بالغثيان، بحيث فكرت بمغادرته فورا.

ولكنها تسأله عن عمله، فيجيبها بأنه ما يزال في عمله الأول كما كان، فتسأله عن نشاطاته الأخرى فيجيبها بأنه يقرا روايات بوليسية ويحضر أفلام سينما، بعضها من الأفلام العربية، فهمت بمغادرته، إلا أنها جلست لتحتسي القهوة التي أحضرها الجرسون في ذلك الوقت، وبالرغم من حالة الاستياء من خالد ووضعه، إلا أن الأمور سارت بعد ذلك بشكل مختلف، فقد عرفت أنه يتابع أخبارها فعلا ، عندما سألها عن رسالتها وما تكتبه عن جرين، وحكت له كل شيء عن الرسالة.

عند ذلك اكتشفت عزة السر، وعرفت لماذا لم تكن تفهم الأمور والكلمات والجمل قبل ذلك، لقد أصغى خالد باهتمام لم تجده من أحد قبله تجاه الرسالة، وعندما تكلم اكتشفت أنه قد قرأ روايات جراهام جرين كلها، وكانت المفاجأة الكبرى عندما امتدح ما توصلت إليه من نتائج، وهي "بؤس العالم من غير إله"، " **أخذ عقلي يعمل بسرعة غريبة. أصبح لكل شيء معنى الآن.قلت له ذلك. قال: إنتي غريبة قوي. ما انتي وصلت للنتيجة دي قبل ما أقول أي حاجة. كنت بحاجة إلى هذه العبارة فقط حتى ترتبط كل الأشياء المبعثرة في نظرة واحدة**."[2]" وعندما سألته عن علاقة الشيوعية بالكاثوليكية، أجابها أن رواية (الكوميديون) ربما توضح هذه المسألة أكثر، وهذا أمر لم تتوقعه أيضا أن تكون لجراهام جرين رواية لم تقرأها أيضا، فأخبرها أنها ربما تكون آخر رواياته على الأغلب، لقد تحدثا عن جرين طويلا، مما جعل عزة تشعر أنها

" (1) البكاء على الأطلال، ص 220.

(2) المصدر نفسه، ص 222.

تستطيع الآن مغادرته وكتابة الرسالة كاملة في اليوم نفسه.

وبعد طلب فنجاني قهوة آخرين، شرحت عزة لخالد ضياع المعاني من الكلمات، وأخبرته أن تكوين جملة مفيدة أصبح مشكلة عويصة عندها، وأنها لم تعد تفهم ما يحدث، الآخرون يفهمونه من غير أي مجهود، بينما تبقى هي عاجزة عن تفسير أبسط الأشياء، تفكر بمئات التفسيرات، ثم أن التفسير الصحيح يعرفه غيرها، وتمضي بالكلام معه دون أن تستطيع أن توقفه، " قلت: **يخيل إلي أن كل ما يحدث قد اتفق عليه الناس مقدما. كأنهم يجتمعون بالليل، عندما أكون نائمة، ويتفقون على ما سوف يفعلونه، يناقشون كل التفاصيل. فأراهم في اليوم التالي يعرفون كل شيء، يعرفون السر ولكنهم قد اتفقوا أن يخفوه عني.**"[1].

عند ذلك أخبرها خالد أنه كان مثلها، ومر بنفس مرحلتها، لقد كان يحس أن العالم يجب أن يعاد اكتشافه- الكلمات والناس والأحداث والأفكار، وكان يشعر مثل عزة تماما أن العالم يعاقبه على ذلك، حتى صار مصمتا مستعصيا على الفهم، وكانت الخطوة التالية التي عليه أن يقوم بها هي أن يصوغ تلك الرؤية ويتجاوزها، ولكنه لم يفعل، وذلك لأن عبثية العالم أعجبته، أحبها لأنها جعلت العالم يبدو مضحكا ولم يستطع أن يتخلى عنها، فهو قد شعر بأن الزمن يسرقه، وعندما يشعر الإنسان بهذا الإحساس فإنه يكون قد رفع راية الاستسلام. وعندما قالت له بأنها لا تخاف الموت؛ قال: أنت نجوت لأنك بالفعل قد أخذت تتجاوزين نفسك.

لقد وقعت عزة في نفس إشكالية خالد. وهي كتابة الرواية والواقع، أو المواءمة بين عالم الخيال الذي يعيشه الروائي، وعالم الواقع، " **قلت إنني لا أستطيع رواية ما يحدث لي. أحاول أن أحكي ما حدث فأجده بلا معنى، فأضيف وأحذف أشياء كثيرة. قال بتهيألي إن الفن كده... - الفن؟ قال إنه محاولة إعطاء المعنى والنظام لعالم معقد أشد التعقيد وخال من الدلالات البسيطة.**"[2] وبعد حوار مطول عرفت عزة أن خالد يعاني، ولكنها مع ذلك لم تكن تشعر بأنه معنية

---

(1) البكاء على الأطلال، ص223.

(2) المصدر نفسه، ص225.

بمعاناته.

بعد ذلك غادرت عزة الفندق مع خالد، دون دعوة منه، وكأن هذا هو الشيء المنطقي الوحيد الذي يجب أن يفعلاه، وفي بيت خالد تصرفت عزة كما كانت تفعل في الماضي، وكأن ثلاث سنوات لم تمر، فقد سخنا الطعام وأكلا، ثم بدأت عزة بصناعة القهوة، وفي السرير تخلى خالد عن الوقار الفاجع والجلال المأساوي، واندمج الاثنان في علاقة غير مفهومة، أو واضحة المعالم.

وعندما خرجت عزة من بيت خالد كانت فرحة وسعيدة، تعيش أحلام يقظة مختلفة، ولما وصلت البيت وجدت والدتها نائمة، وأخاها عادل يذاكر في غرفته، فأخذت تلقي خطبة الحجاج بأعلى صوت ممكن، مما جعل عادل يحتج قال" **يعني لو سيادتك تتهدي شويه خلينا نذاكر الكلمتين اللي حاننجح بيهم**"[1]، ثم اقترحت عليه أن يخرجا ليجلسا في مكان مريح، وفي الشارع اكتشفا أن كل الأماكن غير مناسبة، عند ذلك أخذت عادل وتوجهت إلى بيت حبيبته "عواطف" بالرغم من تأخر الوقت.

هناك تناولوا طعام العشاء، ثم ذهبت بهية (والدة عواطف) لتنام، وبقي الثلاثة جالسين في حديث ودي، حيث شعرت عزة بالغيرة، بينما كان التفاهم بين أخيها وحبيبته كبيرا، ثم بدأت عزة بإطلاق عبارات كثيرة لم تكن تعيها، حتى قالت أن العالم كله ضدها حتى هما، وتبين أنها قالت: أن عادل وعواطف قد أخذا منها موقفا لأنها قطعت كل صلة لها بالسياسة، وبعد فترة من الصمت راحت عزة تتأمل أخاها وحبيبته وتفكر؛" **أحسست في تلك اللحظة أنني شاهدة على مجد الإنسان في أروع تجلياته، والذي لن يعلو فوقه أبدا، تلك القمة الفاصلة بين نهاية الصعود وقبل نهاية الانحدار، لن يكون بعدها إلا الهبوط المتوالي: الزواج والملل وروتين الحياة.**"[2]، وراحت تستذكر من خلالهما فكرة الموت والفناء،التي لا سبيل إلى مقاومتها، فذكرها جسم

---

(1) البكاء على الأطلال، ص230.

(2) المصدر نفسه، ص236.

عواطف الجميل الفاتن، والمائل باتجاه عادل، بتمثال الملكة (تي) المائل باتجاه زوجها، والتي لقنت ابنها (أخناتون) أعظم مبادئ الإنسانية، ثم أغوته بعد ذلك وجعلته يهجر (نفرتيتي) ويتزوجها، فتصرخ بهما:"وأنا أيضا، وأنا أيضا" ثم تتكاثر الكلمات في داخلها وتتوه الفكرة.

وبالرغم من كل ذلك اليأس الفاجع الذي كانت تحسه عزة وخالد، إلا أن جانبا من الأمل ظل يشع من ملامح الوجوه الشابة التي تعد بالحياة الأجمل والأمثل، فيتألق عادل وحبيبته عواطف من خلال وعد بالعمل والعطاء[1]»، تقول عزة: " **ثم هبطت علي السكينة والرضا. كان ذلك يشبه هدهدة أم. وانفسحت أمامي أرض خضراء على مدى النظر، وصحاري، وأمواج بحور، وتحولت الصرخة إلى كلمات ملأتني بالاعتداد: وأنا أيضا وارثة ذلك التاريخ العريق والأرض.. وكان ذلك إحساسا بالانتماء، وأصبحت أنوثة مطلقة."**[2].

لقد شع الأمل من عينيهما، لقد كانت عزة بفهمهما، وصور المعاودة التي تشملها، كأنها ترى نفسها من خارجها" **وعندما وقفت، ورفعا نحوي وجهيهما، خشية وتساؤلا، كنت قد استعدت هويتي. اقتربت منهما وقبلت عادل على جبينه مدركة بوضوح كيف أكون أختا. ثم أمسكت وجه عواطف بين يدي الاثنتين وأخذت أقبلها في مكان في وجهها.** "[3]

في اليوم التالي أفاقت عزة نشيطة متلهفة للحياة، وكانت تشعر بفرح لا تعرف سببه، وحاولت أن تصرف عن نفسها التفكير في سبب الفرح، خوفا من أن يندرج ذلك في سياق العالم المضجر، وسوف يتداخل الفرح بالألم بأحداث أخرى فيتبدد الإحساس بالسعادة، لكن أخاها عادل لا يزال نائما، فقالت لنفسها: إن ذلك أفضل، فهي لا ترغب بالحديث معه، ارتدت ملابسها وخرجت مسرعة، ذهبت إلى خالد، ولكنها شعرت

---

(1) السعافين، إبراهيم، الرواية في الأردن، ص162.

(2) البكاء على الأطلال، ص237.

(3) المصدر نفسه، ص237.

بشيء من التردد؛" أمام شقته أدركت بشكل مبهم أنني ارتكبت خطأ. لم أكن في حقيقة الأمر أشعر برغبة في رؤيته، كما أنني كنت أبتذل نفسي عندما أجيء إلى مكان لا ينتظرني: إنني أزور رجلا ضاجعني وهو ينصحني أن أبتعد عنه"[1]

فتح خالد الباب فأنهى ترددها، وعندما دخلت شعرت بأنه قد أصبح سعيدا، لم يكن ذاك الحكيم المأساوي التعس الذي كانه البارحة، فقد تحدث بلا انقطاع، حتى غدت لا تستطيع أن تتابع أكثر ما يقول، إن رجوع عزة قد غيره كثيرا، " كان يقول إنه لا يدري ما حدث له ولكنه اكتشف أنه راغب في العمل. لقد أخذ يكتب. لقد كتب. وفكرت أن معنى ذلك أنني غيرت مسار حياته- هكذا يفعل الحب. في هذه الحالة من المفروض أن أعبر عن فرحي."[2].

كان خالد يردد اسم عزة كثيرا، وكانت هي في حال من الذهول وكأنها منومة، قال لها:" مبارح كنتي في السرير ميتة، وده خلاني إنسان عايز يعمل جنس. كنت أنظر إليه وأقول في نفسي: لقد كان يعلم إذا." [3] وعندما سألها عن شعورها تجاهه، أجابت بأنها لا تعلم، لقد أوقعت خالد في حيرة كبيرة، لم يستطع أن يفسر سلوكها، كما لم تسعفه إجاباتها، وعندما سألها: "عايزة نبقى أصدقاء؟ -لا، عايزة نتجوز... وقال اسمعي يا عزة من المؤكد انه واحد منا مجنون، أو إننا في حلم. أو كابوس.."[4] وبعد اللقاء في السرير نجد على لسان عزة: " كانت الرغبة تنفجر في داخلي في توق لا يرويه شيء، وكان ذلك الالتحام جميلا ومدهشا"[5].

---

(1) البكاء على الأطلال، ص238.

(2) المصدر نفسه، ص 238.

(3) المصدر نفسه، ص240.

(4) المصدر نفسه، ص242.

(5) المصدر نفسه، ص243.

غالب هلسا في"ثلاثة وجوه لبغداد":

تقترب الشخصيات الرئيسية في خطاب غالب هلسا الروائي كثيرا من حياة المؤلف نفسه، وفي روايته "ثلاثة وجوه لبغداد" نجد الشخصية الرئيسية من أكثر الشخصيات تمثيلا لذلك، حيث أن اسم الشخصية الرئيسية فيها " غالب هلسا"، وهو مثقف يساري من الأردن مقيم في مصر، وفي أيام السادات وقبيل معاهدة السلام المصرية مع إسرائيل، رأس غالب هلسا ندوة حول السياسة الأمريكية في المنطقة، فتقوم السلطات المصرية بترحيله إلى بغداد[1]، وهناك يجد كتابا له مطبوعا بعنوان"زنوج وبدو وفلاحون"، فيذهب إلى وزارة الثقافة ليسأل عن مكافأة الكتاب، فتدعوه وزارة الثقافة العراقية ليحل ضيفا رسميا عليها، ثم ليعمل في المجلة في دائرة الشؤون الثقافية.»

يصل «غالب هلسا» إلى بغداد قبيل الغروب، وينزل في أحد الفنادق المتواضعة، وعندما يخرج إلى الشارع، يجده يضج باللهجة المصرية، فيقترب من بائع التكة ويشتري بعض الطعام، يعرف من لهجته أنه عراقي، وبالمقابل يسمع مجموعة من الشباب المصريين يتهامسون، ولأنه يتحدث اللهجة المصرية، حسبه العمال المصريون العاملون في المكان مصريا، فيستقبلونه بحفاوة بالغة، ويتعاطفون معه، ويبدأون بتدبير شؤون السكن والعمل، وكانوا حسبوه أول الأمر حلاقا، " **فهم مثلا اعتبروه حلاقا، وأخذوا يرتبون أموره على هذا الأساس...قال الشاب الذي جاءه بالخمسين فلسا، وأهداه علبة السجاير- وقد تبين فيما بعد أن اسمه أحمد-: إنه وبعد تدبير مسألة السكن، هناك مطعم مصري، والطعام مصري، والعاملون مصريون،**

(1) في تشرين أول من عام 1976 عقدت في القاهرة ندوة أقامها اتحاد الكتاب الفلسطينيين حول " المخططات الأمريكية في المنطقة"، شارك فيها خالد محي الدين، وفؤاد مرسي، وإسماعيل صبري وغيرهم، وكان غالب هلسا رئيسا لهذه الندوة، وبعد ربع ساعة من نهايتها اعتقل غالب وطرد من القاهرة ... فتوجه إلى العراق. انظر أبو نضال، نزيه، **غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية**، عمان وزارة الثقافة، 2002م، ص32.

يستطيع أن يأكل فيه على الحساب... كلنا بالطبع نعرف ظروف بعضنا"[1]

بقي "غالب" يتعامل مع العمال المصريين والعراقيين، في الفندق والمقهى والمطعم، بل إنه قد قرر في نفسه أن يبقى بينهم ولو لبعض الوقت، وفكر في الابتعاد عن جو المثقفين، والعمل في عمل يدوي بينهم، **" وفجأة تجسدت له الأسطورة التي سوف ينسجها. الكاتب الذي يعيش في بغداد، بعيدا عن الأضواء، سوف يقرأ له الناس، ولكنهم لن يروه. سيقال أنه يعمل عاملا يدويا. لن يصدق الكثيرون ذلك. سوف يقولون أنه غادر بغداد، أو أنه يعتكف في مكان ما. سوف يراهم ويعرفهم دون أن يروه."**[2] ولكنه وعندما عاد إلى فندقه ليلا، وجد في غرفته أربعة من العمال قد راحوا في نوم عميق، ورائحة العرق تملأ المكان، مما ذكره بسجن الترحيلات والقناطر الخيرية في مصر، لقد استعاد أيام السجن كمشاهد يتأملها، ويعيد استرجاعها إلى حد تعذيب الذات، وكانت هذه المشاهد تندغم وتختلط بالتذكر وأحلام اليقظة، واللحظات الفاصلة بين النوم واليقظة.

يذكر أن أمين الشرطة قال له أنه سيجد بعضا من جماعته هناك، فسأله غالب إن كانوا سياسيين، قال وهو يضحكك: سياسيين، فلسطينيين! سمهم كما تشاء، وفعلا وجد خمسة شباب، من بينهم واحد اسمه سامي، تبين أنه كان ممن حضروا الندوة التي ترأسها غالب عن المخطط الأمريكي في المنطقة، وكان معه صديق فلسطيني آخر، كانا يعملان في الكويت، وجاءا إلى مصر للتنزه، ولما حضرا الندوة اعتقلا وأبعدا عن مصر، وبعد فترة وجيزة كان غالب واحدا منهما: في الحديث الملغز لأبناء الفكر الواحد، وفي المبيت والطعام والقضية، وكان معهم رجل نحيل عابس قاتم السمرة، وبجانبه صبي يلبس كنزة صفراء، وله وجه ودود وعينان ضاحكتان، وكان هذا الصبي عارفا بكل ما يحدث في السجن، وله وسائله في الحصول على الشاي والسجائر والطعام، أما الخامس فكان أبو راتب؛ دمشقي متهم بقضية حشيش، ولكنه

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، الأعمال الروائية الكاملة، أزمنة للنشر والتوزيع ، عمان، ص258.

(2) ثلاثة وجوه لبغداد، ص262.

كان ناعما ورقيقا في حديثه، لا يقحم نفسه في شيء؛ ولكنه على استعداد لتأدية أي خدمة، أو الإصغاء بانتباه لكل حديث يوجه إليه، ولكن غالب لمس تحت هذا المظهر، ذكاء حادا، وصلابة كالفولاذ.»

ولا ينسى غالب الأطفال في السجن، لقد كان الأطفال في غرفة واسعة، وكانوا يقولون ويقسم بعضهم أنهم أوقفوا بلا سبب، ولكنه عرف أنهم نشالون، وعندما لاحظ غضب الرجل في أحدهم، حيث شتم زميله بشتيمة قاسية، تساءل في نفسه:" **هل هو طفل دمرت الحياة كل مرح الطفولة فيه، أم رجل توقف عن النمو**"[1]» وعندما قال له غالب: أن زميله يمازحه، قال: إن هذا الضحك يودي بداهية، ولماذا أوقفوك إذا؟ أجاب الطفل : نصيب، نطقها بصوت عريض فيه تحدي البلطجي الذي يتأهب للعراك.

أما الصبي ذو الكنزة الصفراء فقد حذر سامي غالبا من أنه ينقل كل ما يحدث ويقال إلى إدارة السجن، وقد لاحظ غالب عندما التقت عيناه بعيني الصبي، أن نظرته كانت نافذة، وقحة، ضاحكة، ولكن فيها شيئا ما دنيئا، فيه استغاثة نفذ منها إلى غالب، كانت فتنة غريبة تتلبس وجه الصبي، شيء ما في انحناءة الرأس، والعينين المسبلتين، حركته برد رأسه إلى الوراء، ورد خصلة من شعرة عن عيونه، والنظرة السريعة اللامعة، حتى قال غالب في نفسه:" **الصبي يفوح جنسا وعنفا**"[2]

وعندما كانوا يجلسون للطعام، ويوصون الصبي بإحضار الشاي، كان غالب يراقب حركة الصبي وسيره بخفة ورشاقة بين الأجساد، ونهره وشتمه للذين يعترضون طريقه، دون أن يحتج أحد أو يعترض، ولاحظ غالب أن الرجل العابس الصامت كان يغضب من ذلك، وكان الصبي الذي اسمه حسن ينادي أمين الشرطة الذي يفتح الباب، فيخرج حسن ويمضي نصف ساعة ثم يعود، حيث يتوقع غالب أنه نقل خبر علاقته بالشابين الفلسطينيين.

ومن لوحات السجن ومشاهده التي يتذكرها غالب، انقطاع التيار الكهربائي وجمع

---

65 (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص265.

66 (2) المصدر نفسه، ص267.

النقود وتسليمها لأمين الشرطة بحجة أنها للكهربائي، ومنها مشهد مؤثر عندما جاء أمين الشرطة وأخبر المساجين بأنه مغادر، وأوصاهم بأن لا يسمحوا لأحد بتفتيشهم، وأن يكونوا رجالا، وبعد مغادرته يحضر مدير جديد، ويحاول أمين الشرطة تفتيش أحد المساجين الذي يتمسك ببضاعته، ثم يخرجه أمين الشرطة والمدير من الحجرة، قال أبو راتب: أخذوه للزنزانة، " كان صوته فاجعا. ولم يدرك غالب دلالة العبارة إلا فيما بعد. **الزنازين يحتلها العريقون في عالم الجريمة. ومن يدخل إليها من المساجين العاديين يخرج فاقدا كل شيء حتى رجولته. الشذوذ الجنسي هناك، وسيلة للإذلال."**[(1)].[67]

كان هؤلاء المساجين فلاحين يهربون بعض البضائع من ليبيا، ويتم القبض عليهم ويؤتى بهم إلى السجن مع بضائعهم، وكان أمناء الشرطة يحاولون أن يغتصبوا من هؤلاء التعساء ما يقدرون أخذه بحجة التفتيش، ومن يرفض يلجأ الشرطة إلى إدخاله إلى الزنزانة حيث العريقون بالإجرام، كانوا يسمعون أصواتهم بصرخات مؤلمة مدوية تشل الحركة، " **مرت في ذهنه فكرة- نصف فكرة: ما الذي يفكر فيه هؤلاء الفلاحون، الجالسون بصمت، وهم يحتضنون بضائعهم المهربة؟ كيف سيحكون في قراهم، عن ذلك الفلاح الذي يغتصب، الآن؟ بدا ذلك تافها جدا، وسط ذلك الصمت"**[(2)] ثم وحتى يكتمل المشهد المؤلم، يعاد ذلك الفلاح إلى غرفتهم،" **وانفتح الباب، وأدخلت تلك الكتلة الدامية، الممزقة الثياب: الذراعان تلتفان حول عنقي أميني الشرطة، والساقان لا تكادان تلامسان الأرض، والجلابية البيضاء مشقوقة من النحر حتى منتصف الجسم."**[(3)] .

هكذا هو عالم السجون في مصر، وفي كل البلاد العربية، لقد أعيد ذلك السجين بدون ملامح، والدم والزبد يسيلان من فمه، أسنانه مكسورة، وعومل بوحشية، أما بضاعته فلم يكن لها أثر، وكان أمينا الشرطة، يصرخان في وجه المساجين الآخرين

---

[67] (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص272.

(2) المصدر نفسه، ص273.

(3) المصدر نفسه، ص273.

الهامسين المتسائلين بعيونهم بصمت.

في اليوم التالي أفاق غالب من نومه، وخرج يمشي في شوارع بغداد، أكل في أحد المطاعم، ثم توجه إلى صيدلية ليشتري دواء، لفتت نظره المكتبة بكتبها المعروضة، فراح يتفحص الكتب، وكانت المفاجأة أنه وجد كتابا له بعنوان" زنوج وبدو وفلاحون"[1]» من إصدار وزارة الثقافة والإعلام العراقية، وكان الغريب أنه لم يرسل مخطوط الكتاب إليهم، وهنا يتوجه غالب إلى وزارة الثقافة ليسأل عن مكافأة كتابه، ويتخيل مشهدا كاريكاتوريا حين يراجع وزارة الثقافة والإعلام، منتزع من إحدى التمثيليات التلفزيونية، وعندما ذهب إلى وزارة الثقافة وجدها على غير ما تخيل في مشهده السابق، بل وجد أن اسمه معروف لديهم، وسألوه عما حدث، فأخبرهم عن الندوة التي ترأسها، وعن تسفيره إلى بغداد، فأخبروه بأنهم يعرفون أنباء اعتقاله من الصحف، وتوقعوا قدومه قبل ذلك الوقت.

وهنا تداعت الأمور: دعوة للغداء، ثم الجلوس في مقهى البرلمان، ثم النقاش في الشكل والمضمون، وتحدثوا بإعجاب عن فوكنر، وسألوه عن آخر أخبار أدباء القاهرة، وأدباء القاهرة بالنسبة لهم؛ هم الذين يداومون في مقهى ريش نهارا، ونادي الأتيليه ليلا، ثم تناقشوا عن علاقة الأيدولوجيا بالفن، ولكنهم نقلوا غالب خارج الجو الذي قرر أن يعيش فيه في بغداد، بعيدا عن أجواء المثقفين والأضواء، " **وهكذا نجحوا، في نهاية الأمر، أن ينتزعوه من بغداد، التي لا يعرفها ويجاهد أن يتعرف عليها، ويضعوه في قلب بغداد الكوزموبوليتانية، بغداد التي لا تختلف في رطانتها، عن الرطانة التي تسمعها، حين تدخل مقاهي المثقفين في القاهرة ودمشق وبيروت وتونس والدار البيضاء، شعر غالب أنه في محيطه الطبيعي، واندفع مع الموجة.**"[2]

وبما أن غالب كاتب روائي وقصصي؛ فقد شعر بخسارة كبيرة عندما ترك أصدقاءه المصريين، في شارع سيد سلطان علي، إن هذا الشارع يشكل الاستغراق في الحياة اليومية، وهي زاد الكاتب وماؤه، المادة الخام للفكر والأدب الحقيقيين، مصدر التنوع والجدة، لقد بدأ أولئك

» (1) لغالب هلسا رواية ومجموعة قصصية بعنوان" زنوج وبدو وفلاحون"، صدرت الطبعة الأولى عن دار المصير ببيروت عام 1976م، والطبعة الثانية عام 1980م، والطبعة الثالثة عن دار أزمنة بعمان عام 2002م، كتبت عام 1957م. انظر أبو نضال، نزيه، غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية، وزارة الثقافة، عمان 2002م، ص95.

(2) ثلاثة وجوه لبغداد، ص278.

المصريون في العراق مؤكدين للخصوصية والتمايز: الأحداث الصغيرة المشبعة برائحة الحياة، وانتهوا إلى التمازج، فكلنا عرب ولكن قد تختلف اللهجة.

أما شعوره تجاه المثقفين، فأمر مختلف، " **أما مع هؤلاء المثقفين، فتنتفي الفروق، ... شعر بأنه يتخلى عن وظيفته الحقيقية، عن الكاتب الحقيقي في داخله. لم يبق له إلا الحذق والخبرة التكنيكية، وتلك الحكاية، التي لا تنتهي: حكاية حياته. أحس أنه سوف يظل يدور إلى ما لا نهاية، في داخل هذه القبيلة، التي تعيد إنتاج ما تقرأه في دائرة لا تنتهي، سيظل في إطار هذه القبيلة- قبيلة المثقفين العرب- في مدن العرب كلها.**"[(1)] ثم سارت الأمور في تتابع مريح بالنسبة لغالب، فقد حضرت سيارة فخمة مخصصة لضيوف الحكومة، ونقلت غالب إلى فندق فخم، حيث أخبر الشاب المصري- الذي دبر له عملا في صالون للحلاقة- بأنه كاتب وليس حلاقا، وهو ضيف على الحكومة العراقية.

في حياة غالب الجديدة شارك في بعض النشاطات الثقافية، ولكنه لم يحقق المشروعات الكبيرة التي كان يحلم بإنجازها، وكان طرفا في بعض المؤتمرات الأدبية، تحدث عن المساواة بين المرأة والرجل، فنالت آراؤه موافقة جماعية، ولكنها قللت من احترام الآخرين له، قال آراء في الحياة الاجتماعية اعتبرها السامعون نكاتا، وقال نكاتا اعتبروها آراء، أزعجه هذا الخلط فحاول أن يشرح أو يوضح، فاعتبروه ظريفا جدا، فانتهى به الأمر إلى اليأس.

ثم يدعى غالب إلى حفلة باذخة في إحدى فلل بغداد، حيث يشعر بالإزعاج والوحدة والغربة لعجزه عن فهم الحديث الدائر، " **كان الجميع يشاركون في أحاديث متفرقة، بحيوية، ولكن موضوع الحديث ظل مبهما! والكلام مدغما، مختنقا.**"[(2)] كل ما كان يسمعه عبارات متقطعة باللهجة العراقية، وبعد فترة يعتاد غالب على الجو، ويبدأ بمشاركة المحتفلين الحديث، حيث تسأله إحدى النساء عن نجيب محفوظ، لماذا بدأ يفقد قدرته على الكتابة الجيدة، بعد تقدمه بالسن، حاول غالب أن يتذكر المرأة، قدر أنها

---

[69] (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص278.

[70] (2) المصدر نفسه، ص286.

ليلى، ولكنه سمع رجلا يدعوها سهام، ربما تكون من زميلات الجامعة، شعر بمسحة حزن على وجهها، وقدر أن المرح والطلاقة اللذين أبدتهما لم يكونا سوى المظهر الاجتماعي، القشرة الخارجية، الذي يحاول به الإنسان القوي الكبير أن يخفي ألمه عن الآخرين.

كما لمست المرأة وترا حساسا عند غالب، إنه أيضا كاتب روائي، ويدرك جيدا أثر الزمن في الإنسان الكاتب، " **ماذا تعرفين، أيتها الطفلة العزيزة جدا، عن ذلك؟ هل تعرفين كيف يفقد الكاتب روحه، وتوهجه، وكيف تتمزق الخيوط التي تربطه بالحياة الحقيقية، الحياة الحارة، البكر، لأنه يخلق حياة أخرى بديلة على الورق؟.. سيصبح العالم شاحبا، لأن الروائي قد اعتصر ما فيه من حياة، فلم يعد بإمكانه أن يشعر بطزاجته... إنه يعيش اللحظة ليكتب عنها، فينتزع حدتها..."**[(1)] .

وهنا يظهر غالب على حقيقته، إنه روائي وناقد: يتحدث عن تجربة (بروست) الذي أمضى سبع عشرة سنة وهو يكتب روايته "البحث عن الزمن الضائع"، ويشير إلى رواية " مئة عام من العزلة " لماركيز، ثم يصمت ويراقب الجمهور المشغول بالحديث عن ارتفاع حرارة الأرض، بينما تداعب ليلى بطنه بيدها، ويفعل هو الشيء نفسه، بل إنها مالت برأسها حتى استقر على صدره، ثم التفت فجأة ولم يجدها، فراح يبحث عنها بين الوجوه، ولكن دون جدوى، وقال له الرجل الأصلع الذي يجلس بجانبه؛ أن الفتاة التي كانت تجلس بجانبه هي سهام، وعندما أصر غالب على أن اسمها ليلى، قال الرجل إن ليلى زوجته.

كما يجد غالب الرجل الذي أحضره بالسيارة، فيسأله عن ليلى، فيقول له بأنها سهام، ويناديه باسم عباس، ويفكر غالب بأن ليلى هو الاسم المحبب، الذي كان أهلها ينادونها به، أما سهام فهو اسم رسمي تقدم نفسها به في الحفلات المقيتة، وتسجله في الأوراق الرسمية، وبعد حوار قصير مع إحدى نساء الحفلة، تعب غالب من التجوال

" (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص295.

والبحث عن ليلى فجلس على أحد المقاعد، وهنا يحضر احد معارفه، ويخبره بأنه الشاعر الذي أعجب غالب بقصيدة له، ولكنه وعندما قدمها للنشر بوزارة الثقافة، نشرت من غير أن يكون اسمه عليها، وقالوا له إن اسمه سقط سهوا" **اسمع يا أخي الشاعر! اكتب مقالا طويلا، عريضا، دافع به عن اسمك، عن حقك أن يكون لك اسم. ضع اسمك في صلب المقال(بلهجة ساخرة) حتى لا يسقط سهوا في المطبعة"**[(1)]. عند ذلك رأى ليلى تجلس على أرجوحة في الخارج، فتوقف عن الكلام، وخرج إلى خارج الفيلا، تاركا الشاعر ملقى على الأرض بحالة شبه غيبوبة، وعندما خرج إلى الحديقة وجد ليلى تجلس وحيدة وحزينة، جلس بجانبها وسألها عن سهام، فقالت بأنها هي سهام، وفي حواره معها يذكره صوتها بالأردن، " **وتوالت الصور الثابتة، كأنها صور فوتوغرافية، ما تكاد تبدو، حتى تثير معها انفعالات قديمة، منسية: جبال الأردن الشرقية، الغور، البحر الميت ونهر الأردن؛ الحصادون ولاقطات السنابل، ..**"[(2)].

عند ذلك يدخل غالب في أجواء كابوسية غير واقعية، إذ يضاجع ليلى/ سهام على المرجيحة، وأمام ناظر زوجها ومعه اثنان آخران يراقبانهما من النافذة، ثم وبعد أن انفضت الحفلة، وأخذ المحتفلون يغادرون المكان، وتودعهم ليلى إلى الباب، اكتشف غالب ومن حواره مع ليلى، أنها لا تدري شيئا عن الحديقة، وما جرى بها قبل ساعة من الزمن، واكتشف أن المرأة الأنيقة التي حاورها في الحفلة هي سهام، والتي كانت تساعد ليلى في محاولة ترتيب المطبخ، وأنها هي التي كانت معه في الحديقة، كوميديا الأسماء هذه جعلت غالب في حيرة كبيرة، هل صحيح أن هذه الحفلة أقيمت على شرفه؟ أم أن تلبيته لدعوة الحضور إلى الحفلة كان خطأ؟ وهل هو مدعو إلى الحفلة أصلا؟ ومن هي ليلى أو سهام؟ هل هما امرأتان منفصلتان؟ أم وجهان لامرأة واحدة؟

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص314.

(2) المصدر نفسه، ص325.

كل هذه الأسئلة غير محسومة، وغالب غادر الحفلة دون أن يودع ليلى. وفي حياة غالب ببغداد نجده يسكن في بيت واسع مع "أيوب"، المدرس في معهد التربية الرياضية، كان يستقل في الدور الثاني من المنزل الذي يقيمان به، ويقوم بتمارين رياضية في أي وقت، حتى أن سقوطه مرة قد صرف غالب عن جو الرواية التي بدأ بكتابتها، وراح يتأمل بالهوس الذي يسيطر على أيوب بعد التمارين الرياضية، كان أيوب يعتقد أن بغداد مدينة بلا فرج، بلا نساء، فناداه غالب واقترح عليه أن يخرجا في جولة ببغداد، كان غالب يستمتع بالسير في بغداد: الشوارع، نهر دجلة، أحاديث الناس، الإشاعات، والحكايات والنكات،... والتي تعد مادة خصبة للروائي.

بيد أن أيوب من النمط الدارس في أمريكا، والذي لا يعرف من الثقافة شيئا، كان رفيقا غير ممتع- بالنسبة لغالب- ولعل علاقة شخصية غالب به تدلل على إشكاليتها، فغالب لم يستطع التكيف مع هذا النمط من الإفراز الاجتماعي، الذي يبدو على غير جوهره الأصلي والذي ينطوي على الانتهازية والقسوة.

فقد روى غالب له نكتة سمعها في الحافلة: أن مجموعة من الفلاحين كانوا يتحدثون عن إشاعة تقول أن الحكومة قررت أن تمنح كل راعي غنم قرضا طويل الأجل، وسيارة مرسيدس، فقال أحد الفلاحين أن هذه أكاذيب تعودت الحكومة على ترديدها، كما فعلت أيام عبد الكريم قاسم، عندما قالوا أنه سيزوج كل فلاح بمعلمة، ولم يحدث ذلك أبدا، عند ذلك تساءل أيوب: من يكون عبد الكريم قاسم؟ وراح يحسب عدد الفلاحين والمعلمات، منشغلا عن جوهر النكتة الأصلي، ونجد من حديث أيوب لغالب وهما في السيارة ببغداد:" **يجب أن تسيطر على أعصابك. البارحة فقدت أعصابك بسبب القطط. وفي البيت تصاب بالكآبة بسبب الأبراص والآن الفئران.. قلت له إنه على حق رغبة في إسكاته، ولكنه لم يتوقف: يحدث هذا معك مع أنك مغرم بأكل اللحم. اللحم، الذي أكلته منذ قليل، ألا تعتقد أنه كان حيا منذ قليل، ألا تعتقد أنه كان مثل هذه الحيوانات؟ ثم تغضب عندما تدوس السيارة على فأر! طلبت منه أن يتوقف،**

ثم هبطت من السيارة وأخذت أتقيأ. تقيأت كل ما في معدتي. اختفى الدوار الذي ألم بي."[1] وتتبدى إشكالية غالب في شعوره تجاه الحيوانات، صحيح أنه يأكل من لحمها الطري والمشوي بإتقان، ولكنها تستحق الرفق، فالقطط مثلا بالنسبة لغالب مخلوقات لطيفة وبسيطة تبحث عن حنان، فكيف تقتل بدم بارد هكذا، وهي بالنسبة لأيوب وغيره حيوانات وسخة، مليئة بالبراغيث ولا تستحق حتى عناء التفكير فيها،" **أخذت أشرح له: القطط حيوانات جميلة وأليفة إلى حد يجعلها إنسانية تقريبا، هل رأيت عينيها؟ فيها جدية مضحكة كعيون الأطفال."**[2]، ولكن هذا الكلام غير مؤثر بالنسبة لأيوب مما جعله يغير الحديث إلى موضوع آخر.

في إحدى الليالي يستعيد غالب ذكريات السجن؛ وحادثة اللواط التي رآها في سجن الترحيلات بمصر، فقد استيقظ من نومه على إثر اهتزاز بجانبه ورأى صديقه أحمد يشير له بسبابته أن يصمت، ثم قفز وراح يضرب الرجل الذي يمارس اللواط مع الفتى الحدث، ويضمه بعنف، وظل يضربه فترة طويلة حتى أدمى وجهه، وأفاق كثير من المساجين وحضر أمينا الشرطة على إثر الصوت الذي سمعاه في الزنزانة، " **انحنى الصبي، ورفع بنطلونه وأخذ يزرره، ثم انحنى رأسه وأخذ يزرر قميصه ويعدل من وضعه داخل البنطلون. كانت عيناه مسبلتين، وقد بدا أنفه وشفتاه رقيقتين، مشحونتين بحزن أنثوي، خاضع. كان كامرأة تعيش حزنها في ظل حاميها. رفع وجهه نحو أحمد وقال بصوت باك، مرتعش: كنت نايم يا بيه، وهو..."**[3] .

وكان غالب يخرج في بعض الأحيان من انشغاله بأمر الكتابة، وعلاقته بأيوب، باحثا عن آخرين يسمعون منه ويسمع منهم، وكان يستغل استعداد أيوب للخروج فيذهبان إلى فندق دار السلام، فكانا يقابلان بعض المصريين، الذين اندمج عدد محدود منهم في الحياة السياسية والاجتماعية في العراق، والذين عادة ما يكونون ممن يعملون

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 347 .

(2) المصدر نفسه، ص 348 .

(3) المصدر نفسه، ص 355 .

في الإعلام، أو التدريس في الجامعات، أما الغالبية العظمى منهم والذين يعملون في مهن متخصصة فكانوا يحملون عن العراق الفكرة نفسها التي جاؤوا بها من مصر.

وكان أيوب هو مدار حديث ساخر طويل حول أفكار المصريين عن العراقيين، كان يحاول أن يصحح بعض المفاهيم، ولكنهم كانوا يسخرون منه، وخصوصا أنه كان يغيب عن الجالسين ويهمل محدثه عندما يرى امرأة في الفندق، وبالرغم من أن السهر في الفندق كان يتأخر إلا أن الملل كان مسيطرا على غالب، ولم يخفف من هوس أيوب شيئا.

في صبيحة اليوم التالي أفاق غالب- بعد ذلك السهر- مع ذكرى فرحة رافقت صحوه، وتذكر أنه أنهى الكتاب الثاني من رواية السؤال،"[1]" اتجه إلى دوامه يراقب الناس ويصف أحوالهم، " **أمام العيادات الشعبية تقف عشرات الوجوه المنتحبة بصمت، الضارعة بصمت تنتظر. نساء بعباءات سود،رجال بكوفيات وعقل، أطفال سمر معلقون على الصدور، أطفال دارجون بين الأقدام، أو واقفون في صمت كالتماثيل بعيون سوداء، واسعة، حزينة، إلى جوار أمهاتهم. كلهم ينتظر في جحيم بغداد الملتهب.** "[2]" .

وهناك العديد من الطوابير، فلشراء الخبز كان غالب ينتظر في طابور طويل مع الحر الشديد، وعندما يصل إلى البائع يقول أنه لا يوجد، وطوابير لشراء الطماطم، أو علبة سجائر، طوابير كثيرة جدا، ومعاناة مؤلمة يتحملها مواطن مقهور، وعبارات " أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة" و" وحدة حرية اشتراكية" معلقة على الجسور وفي كل مكان، كما تنتشر صور الرئيس أحمد حسن البكر ونائبه، وهما يبتسمان، وقد كتب تحت صورة الرئيس عبارة:" مثال رائع للمناضل البعثي"، كما يشاهد إعلان عن

[76] (1) كتب غالب هلسا الثلث الأول من روايته "السؤال" في القاهرة قبل العام 1976م، والتي تحدث فيها عن الواقع السياسي والاجتماعي بمصر في عصر السادات، واتكأ فيها على حكاية السفاح محمود سليمان، الذي ظهر في القاهرة، وشغل الصحافة ذلك الوقت، ثم أتم بقية الرواية في بغداد، ونشر الطبعة الأولى منها في بيروت عام 1979م، بعد مغادرته بغداد، أنظر أبو نضال، نزيه: غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية، ص95.

[77] (2) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 362 .

فيلم لفريد شوقي وزيزي البدراوي، وإعلان عن مسرحية بريخت (جاليليو)، وزحام هائل من المواطنين بانتظار الحافلات التي تأتي وتعود والزحام كما هو لم يتغير، وشحاذ يطالع الفضاء بعينين مطفأتين محدقتين، وامرأة عجوز تسير كالرجال وهي تدخن السجائر، كما يراقب إشارات المرور التي لا يحترمها إلا الضعفاء.

ومن عمله في المكتبة الوطنية كان غالب يراقب الحي الشعبي من نوافذ الأدوار العليا، فيحس كأنه في مسرح، وهو يراقب الشجار الذي كثيرا ما يحصل بين النساء، وفي عمله في المجلة التي كان مقرها في المكتبة مؤقتا، لاحظ غالب أن مكاتب الفتيات تغطى بصفائح الكرتون، فعرف أنه قد يكون السبب في ذلك، فقد كان يعد دراسة عن الفيلسوف المعتزلي (إبراهيم بن سيار النظام)، ويبدو أن المدير شاهده وهو يكلم إحدى الفتيات، فأصدر هذا الإجراء الغريب، كما منع غالب من الاستعارة من المكتبة، وعندما سأله عن سبب هذا المنع أجاب بأسلوب مغمغم ولم يفده بشيء، قال له أحد الزملاء أن المدير لا يحب أن ينظر أحد إلى الفتيات أو أن يكلمهن، كان المدير مسيحيا، ويحتجز ست فتيات مسيحيات في غرفة ضيقة بدون شغل.

في اليوم التالي ذهب غالب لمقابلة المدير العام، الذي استقبله بعبارات الترحيب المبالغ بها، أخبره غالب بأمر منعه من استعارة الكتب التي يحتاجها من المكتبة، فأخبره المدير العام بأن مدير المكتبة تعرض لصدمة في ثورة 63، وصار بعدها غيورا جدا على كل النساء، وقد سبق أن عولج من هذه العقدة ولكنه لم يشف، واقترح عليه أن يستعير من باب المتعاملين من الخارج، حيث سيتعامل مع ذكور، " **شرحت له أن ذلك مستحيل. أولا، أنا أعمل في دائرة الشؤون الثقافية، فكيف أتظاهر بأني أتعامل معها من الخارج؟ كيف أستطيع، ثانيا، أن أنقل كتبي وأوراقي كلها وأعيدها في كل مرة؟ ثالثا ماذا عن عملي في المجلة؟.. ولماذا يكون لغيرة مدير المكتبة كل هذا الاعتبار ولا تؤخذ هذه الأمور كلها في عين الاعتبار؟**"[(1)].

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص371.

ولأن أعمال المنزل التي تقوم بها ربة المنزل، كانت عملا مرهقا جدا لا يسمح لغالب بممارسة الكتابة بشكل جيد؛ فقد قرر أن يخوض تجربة مع المرأة، وفي عمل غالب في المجلة نشأت بينه وبين إحدى الفتيات علاقة خاصة ميدانها العيون فقط، وعندما أمر مدير المكتبة بتغطية حجرات الفتيات الزجاجية بالكرتون الأسود الملون، صارت غرفة غالب في ليل دائم، " **كان ذلك مقبضا للكآبة. أصبحت أعيش ليلين**"[79](1) ولم يستطع أن يشكو لزملائه فلكل همومه الخاصة.

وقرر غالب في نفسه أن يكتب رسالة لهذه الفتاة التي توقع أن اسمها سهام، أوضح فيها عنوانه بدقة، ولما جلس بجوارها إحدى المرات في الحافلة، ناولها الرسالة مع بطاقة الأجرة التي دفع ثمنها، وفي اليوم التالي زارته سهام في مكتبه، ودار بينهما حوار طويل حول مدير المكتبة، كانت جريئة وصريحة، تحدثت بطلاقة وحرية، كانت قارئة جيدة، واكتشف غالب أن كل الآلام التي كان يعانيها تلاشت بعد هذا اللقاء.

بعد هذا اللقاء تظهر شخصية غالب الإشكالية؛" **أدركت، لحظتها، بحدس فاجأني وأدهشني أنني شاركت في صناعة هذا الخوف عندما تجنبت الصدام والمواجهة، واخترت الانزواء والانصراف إلى الكتابة والقراءة، وعندما قبلت بالأمر الواقع اعتمادا على من كانوا يرون أننا نعيش في أحسن العوالم الممكنة.**"[80](2) وهكذا فإن الحب جعل آلام الخوف وأمراضه تتلاشى، في نشوة من الاستمتاع اللذيذ.

ولعل ما كان يحدث مع غالب في بلد ليس للقانون فيه نصيب كبير، ومن رجال الشرطة خصوصا، كان مدعاة للخوف، كانوا يطلبون جواز سفره ويسألونه عن سبب خروجه في الليل والجهة التي قدم منها والى أين هو ذاهب، وفي إحدى المرات وضعوا بنادقهم الرشاشة في عنقه ورافقوه إلى البيت، فما كان من أيوب إلا أن لقنهم درسا قاسيا وأشبعهم ضربا وشتما، بل إنه لام غالب لأنه يستسلم لهم.

وكان رجال الشرطة ورموز النظام يقومون بحملات قوية في الشوارع يمنعون

---

[79] (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص374.

[80] (2) المصدر نفسه، ص 384 .

أي رجل من المشي مع امرأة حتى يثبت قرابته بها، وإن لم يستطع ذلك ينال الاثنان نصيبهما من الضرب، ويستدعى أهل الفتاة لأخذها، ويركب الشاب في سيارة مكشوفة بعد أن يحلق رأسه، ويطاف به في الشوارع والشرطة يتناوبون على ضربه، وكان الكثير من الرجال في العراق يبدون دمثين ودودين حتى تظهر امرأة، فيتحولون إلى عدوانيين، وتستولي عليهم رغبة رجل السلطة بالاستئثار بالنساء، أحدهم روى لغالب: أنهم أخذوه مع زوجته إلى مركز للشرطة، ولما أثبت أنها زوجته، طلبوا منه أن يثبت أنه لم يطلقها.

كان الخوف من الشرطة مسيطرا على غالب وهو ينتظر سهام، ولكنها وعندما حضرت دخلت معه فورا إلى غرفة النوم، وكانت المشكلة عندما تقابل أيوب مع سهام وهي خارجة إلى الحمام،" **كان أيوب يلهث مفتوح الفم، وهو يدقق النظر في الفتاة ويتفحصها بدهشة، وكأنه يقول لها:" هذه أنت إذن؟" والفتاة تنظر بعينين متسعتين وكأنها تتوقع أن يباغتها في موضع لا تستطيع الدفاع عنه**"(1)" أما سهام فقد غادرت بعد الساعة الرابعة مساء، واتخذت ما حصل من أيوب نكتة، فقد كانت تقول لغالب:" **شلون مخبل هذا...! يا يمة**"(2)، ولعل المشكلة ازدادت تعقيدا بعد جنون أيوب وانهياره العصبي، واضطرار غالب لاستدعاء الإسعاف الذين حضروا مع سيارة شرطة، وأخذوه إلى المستشفى بعد معركة حامية معهم، وبقي غالب وحيدا.

الإشكالية الأهم في حياة غالب في العراق كانت في الأحداث التي سميت بمرحلة الحوار، وهي المرحلة التي أعلنت فيها قيادة الحزب الحاكم في العراق، في اجتماعات اللجنة العليا للجبهة القومية والوطنية التقدمية، أنها قررت بدء حوار بين قواعد حزبها وقواعد الحزب الشيوعي العراقي، " **القرار الحقيقي الذي اتخذته قيادة الحزب الحاكم، دون أن تبوح به لأطراف الجبهة الأخرى، هو تحجيم الشيوعيين من خلال القيام بتصفية كاملة لقواعدهم، وكانت النتيجة التي تبغي القيادة الوصول إليها هو**

"(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 394.

(2) المصدر نفسه، ص 398.

أن لا يظل من الشيوعيين سوى قيادتهم، وبعض المظاهر الشكلية؛ وأن تبقى هذه القيادة كديكور تستعمل حين الحاجة."[1]» .

وكان الحوار مع الشيوعي يتم بمناقشته حول أفكاره، وتطرح عليه أفكار حزب البعث الحاكم، وكان الشيوعي الأكثر ثقافة يصد الهجمة الأولى، فيأخذ الحوار طابع الحدة ويطلب منه صراحة الانضمام إلى حزب البعث، ومعنى ذلك أن يقوم بتقديم كل معلومة لحزب البعث عن حزبه مهما قلت، حيث أن كتمان أي معلومة مهما صغرت قد تكون نتيجتها الإعدام، **" تمارس اللجنة"الحوار" مع الشيوعي لفترة من الزمن، فإذا استسلم فإنه ينضم إلى لجنة تقوم بغسل مخه، حتى يصبح صالحا للانضمام للحزب الحاكم، وإذا ما استعصى تجنيده، يقال له : إننا فعلنا كل ما نستطيع لمصلحتك، ولسنا مسئولين عما يحدث بعد ذلك"**[2]» بعد ذلك تقوم أجهزة الأمن باعتقال الشيوعي المستعصي، وتمارس معه ألوانا شتى من طرق التعذيب يقف على رأسها الاغتصاب الجنسي للرجال والنساء، وإرغام المعتقل على الجلوس فوق زجاجة بيبسي كولا مهشمة العنق ، وإذا فشل ذلك كله تلجأ أجهزة الأمن إلى الضرب المؤدي للموت، ثم تنقل الجثة إلى الأهل، وعليهم أن لا يبكوا أو يقوموا بأي نوع من مظاهر الحزن، أو مراسم الدفن، وإذا ما قاموا بشيء من ذلك يكون مصيرهم جميعا كما حصل مع ابنهم؛ بل عليهم الإكثار من الابتسام.

وكانت هناك طريقة أخرى للتعامل مع الشيوعيين، وهي التجنيد الإجباري في الجيش، حيث يقبض عليهم بعد ذلك ويحكمون بالإعدام، ثم يبرر ذلك بأن الجيش وحسب الدستور هو خالص للبعث، فهل يغير الدستور ويلغى قانون التجنيد الإجباري؟ بل إن إلغاء هذه المادة غير ممكن؛ لأنه من صنع أطراف الجبهة مجتمعة. وكان الشيوعيون من جهتهم يعتبرون الحوار مؤقتا، في حين كان آخرون يضيفون أن هنالك صراعا داخل السلطة بين طرفين : مجموعة يمينية وأخرى يسارية، وأن السيد النائب

» (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 410.

» (2) المصدر نفسه، ص 410.

يقود المجموعة اليسارية، وأنه يعمل بدهاء لتغليب الجانب اليساري على الاتجاه اليميني بقيادة الرئيس، وأنه ينتظر اللحظة المناسبة ليضرب ضربته رافعا راية الماركسية اللينينية، وكان نائب الرئيس يعلن بصراحة أنه لا أساس لهذه التحليلات، وكان يظهر على التلفاز في لقطات كثيرة وهو يزور البيوت ويساعد الناس ويعيش حياة الشعب، " **لقد أصبح السيد النائب هو الممثل الرئيسي في التلفزيون، ها هي جماهير غفيرة تتجمهر حوله...**"[(1)]".

إلا أن المكتب السياسي للحزب الشيوعي في العراق أصدر بيانا دعا فيه أتباعه إلى الهرب أو الاختفاء بعد موجة رهيبة من التصفيات والإعدامات الاعتقالات، لقد كانت المجموعة اليمينية هي قيادة الحزب الحاكم كلها، وليست مجرد جماعة صغيرة تلتف حول رئيس الجمهورية.

بقيت سهام تتردد على بيت غالب بشكل دائم ومستمر، ولكنها في يوم جاءت إليه وكانت غير طبيعية، وراحت تسأل أسئلة كثيرة عن ليلى، وفي الليل جاءت ليلى إلى بيت غالب، كانت حزينة وطلبت منه أن يغلق الأبواب بإحكام، وكانت دهشته كبيرة عندما أخبرته أنها كانت مختفية عند سهام، حيث كان أهلها في سفر، وأنهم سيعودون الليلة، كما أخبرته أن سهام قالت لها أنها قطعت علاقتها به، وفي أجواء من الرعب والخوف حدثته أن الشرطة اعتقلوا أخاها الصغير ابن الثلاث عشرة سنة واستخدموا معه الزجاجة المهشمة العنق، ومنعوا الأطباء من معالجته، وعرض عليها غالب أن تختبئ في بيته في الطابق العلوي إلى ما تشاء، غير أنها وافقت إلى وقت محدود، إذ كانت تخطط لمغادرة البلاد إلى سورية[(2)]، كما اتفقا على إخفاء أمر اختبائها عنده عن سهام، التي ستبقى تجيء كما هي عادة.

" (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 412.

(2) يروي أحد أقرباء غالب هلسا أن غالب وأثناء إقامته ببغداد، قد كتب مقالا حول إعدام مجموعة من الضباط العراقيين آنذاك، ولكن رئيس تحرير جريدة الثورة أقنعه بعدم النشر، فتدبر أمره وغادر إلى لبنان، انظر هلسا، أديب: علاقتي مع غالب هلسا، وعي الكتابة والحياة، ص251.

في اليوم التالي تأتي سهام مبكرا وتخبر غالب بأنها ستذهب إلى الدوام مساء فقط، ولكن ما حير غالب أنها بدأت تلمح إلى كلمات قالها غالب بالأمس لليلى، وعندما سمع حركة في الدور الثاني أخذت سهام تنظر إلى السقف وتبتسم، وعندما ذهبت سهام إلى المطبخ لإعداد الطعام صعد غالب إلى غرفة أيوب ليخبر ليلى بعدم إصدار حركات ما دامت سهام موجودة، وكانت المفاجأة عندما وجد الغرفة فارغة ولا وجود لأي أثر يخص ليلى أو غيرها، **" ولكن ما معنى هذا؟ ألا تكف ليلى عن الحركة؟ ألا تهمد قليلا؟ وما بال سهام لا تنتبه إلى ذلك؟ هل...؟ وخطر لي سؤال: من التي أحبها؟ حبيبة الليل أم حبيبة النهار؟ ليلى أم سهام؟ "** [85](1).

وعندما راح يراقب سهام وينظر إليها وهي تعد الطعام، استغربت من نظرته، وبدت أنها لا تعرف شيئا، وبعد مغادرتها نام غالب واستيقظ ليجد ليلى عنده في الغرفة، وبعد حوار وجد أنها لا تعرف عما يقوله شيئا، بل استغربت كلامه عن مجيء سهام واتفاقهم على عدم إخبارها باختباء ليلى عنده، **" ولفتني الدوامة، وعبرها كنت أنظر إلى ليلى. تفرست في وجهها فاجتاحني الرعب: بحق الله... هل كنت أعمى؟ هذه ليست ليلى، لا علاقة لهذه الفتاة بليلى...كيف انخدعت...وتضيء في ذهني لمحة تذكر خاطفة.. هذه أيضا، أعني تلك التي جاءت اليوم، لم تكن سهام. أعرف ذلك. كنت أعرفه. كيف؟ كيف ماذا؟ هل أسأل هذه الليلى؟ يشلني الرعب. أحاول أن أتكلم، فلا يصدر عني صوت.أمد يدي لألمسها، فلا أستطيع."**[86](2).

وفي الأحلام والكوابيس التي كان يعيشها غالب بعد ذلك كانت ليلى تلومه بشكل كبير على علاقته بسهام، كما كانت تتدرب بالجلوس على زجاجة حتى لا تضعف أمام الأجهزة الأمنية، التي كانت تعتقل الشيوعيين وتجبرهم على الجلوس على زجاجة البيبسي، ويمتد الكابوس فترة طويلة منتهيا بظهور أيوب، **" وينفتح الباب فجأة، ويندفع أيوب إلى الداخل حاملا سكينا راكضا، يصرخ، شعره متناثر على وجهه،**

---

[85] (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 436.

[86] (2) المصدر نفسه، ص446.

وعيناه تلمعان ببريق مخيف. على سريري يا كلاب؟ ققز نحونا طار بالضبط ملأ الظلام عيني، ورحت في غيبوبة."[87(1)].

بعد ذلك انقطعت سهام عن الحضور إلى بيت غالب، أو حتى الحضور للعمل، قالت له الفتاة السمينة أنها في مهمة، وتجنبه المدير العام ومدير المكتبة، حتى نسوه أو نسيهم، أما أيوب فقد بحث عنه ولما وصل إلى مصحته لم يسمحوا له بزيارته، وقالوا عنه أنه أيوب الذي يعوي، لم يعد يكتب للمجلة شيئا، وتراجعت كتابته في الرواية، وتجنبه الزملاء، وصار كثير السرحان، صارت حياته سلسلة متصلة من الكوابيس، إذ وجدهم جميعا في غرفة أيوب، في أجواء فانتازيا غرائبية وعجائبية غنية بتفاصيل متشظية وغير واضحة المعالم، كانوا جميعا مشغولين بكومة على السرير، ويقومون بحركات عجيبة، ثم غادر الحجرة وأحدهم يقول له لا تنس أن تأتي إلى الحفلة، وأخذ يهبط السلم إلى الدمار.

جريس في "سلطانة":

ترى ما الذي يجعل غالب هلسا حريصا على أن يكون هو نفسه بطل رواياته أو الشخصية المحورية فيها؟ هل هو بسبب إحساسه بالغربة قسرا خارج بلده الذي ولد فيه على حبه واندماجه في الأقطار التي انغمس فيها؟ هل ظل هذا الإحساس يلازمه طوال حياته؟ وهل كان له حضوره في مختلف أعماله الإبداعية؟ " لقد شدد الحصار قبضته على عنق غالب ولكنه بثقافته الواسعة، وفكره المتوهج، خرج من هذا الحصار منتصرا وأن يكن متكسرا غير منهزم ولا منكسر. وقد أعانه فكره على أن يخلص نفسه من أمواج الثقافة التي أحاطت به ومن محاولة هذه الأمواج أن تغرقه في دوامتها.. فخرج من معطف الذاكرة والتحصيل والحفظ الذي تدفق عليه.. إلى فضاء الرؤية الممتدة.. فدخل تجربة الحياة الواسعة وغاص في أعماق العلاقات الإنسانية وشبكتها المتلاحمة، واخترق المعيشة من أوسع أبوابها. وعاد يطل من شرفة الحياة

---

[87] (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص463.

على بحيرة الثقافة التي قد هيأها لنفسه من قبل. وعقد مصالحة بين التجارب الحياتية التي خاضها واخترقها وخاضته واخترقته وبين حصيلته الثقافية."[1].

تعد شخصية جريس في رواية سلطانة من أكثر شخصيات روايات غالب هلسا تمثيلا لحياته في الأردن، وذلك قبل سفره إلى مصر وغيرها، وبالرغم من أن الرواية جاءت- كما يقول الراوي - ردا على سؤال عزة حبيبة جريس في القاهرة عن سبب رحيله عن الأردن، الأمر الذي جعله يستعيد هذه الحياة كلها، إلا أن القارئ سرعان ما ينسى عزة والقاهرة، ويندمج في أجواء أردنية، بدءا من قرية ماعين، وصولا إلى عمان بكل تفاصيل الحياة فيها، ولعل المطلع على كتابات غالب هلسا غير الروائية يدرك قرب هذه الشخصية" جريس" من طفولة غالب هلسا وحياته في الأردن قبل مغادرته[2]."

تأتي إشكالية جريس من جدلية الغربة والذكريات، فهو الراوي المغترب عن وطنه الأردن، ولا يستطيع العودة لأسباب سياسية، وفي أثناء إقامته في مصر تتشكل عنده أزمة وجودية مكانية، فها هو ذا مقيم في القاهرة، ويكتب عن زمن محبب لذيذ قضاه في الأردن، يتحدث عنه بحميمية بالغة مع التركيز على جماليات المكان، إنه يعيش في مجتمع كبير يجعل الإنسان بلا جذور(مدينة القاهرة)، ويتوق إلى أيام شبابه في الأردن التي أصبحت الفردوس الأمومي المفقود.

وجريس فتى مسيحي في مقتبل العمر، والده متوفى ولكنه من عائلة ميسورة الحال؛ فقد كان يدرس في مدرسة داخلية بعمان، يستيقظ من نومه في القرية ليجد نفسه وحيدا في بيتهم الكبير، المبني على الطراز القديم، حيث تحمل القناطر الكبيرة سقف الدار، ويسود الصمت، حيث تصبح القرية برتابتها وعنفوانها، بجمالها وبؤسها، بقسوتها وطيبتها، وبكل مفردات المكان وارتباطاتها بالناس المتواجدين حولها، وفي

(1) باغي، عبد الرحمن، مع روايات في الأردن في النقد التطبيقي، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2000م، ص 97.

(2) انظر شبانة، عمر، أعمال غالب هلسا بوصفها سيرة ذاتية، "سلطانة" نموذجا: وعي الكتابة والحياة، قراءات في أعمال غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2004م، ص140.

قريتـه (مـاعين) تتشـكل شخصـيته الأولـى، وتبقـى مرجعيـة نمـوه الجسـدي والمعرفـي والسلوكي والوجداني، كما تظل مجال الحركة والعلاقة بالناس[1]."

تبدأ إشكالية جريس من طبيعتـه المترددة ، فقد كـان يعد إفطـاره البلدي باستمتاع وبطء وهو مشـغول بـأحلام يقظـة ممتعـة،" **كـان حلـم اليقظـة إعادة صـياغة لأحداث لـم تصل إلى نهايتها بسبب ترددي وخـوفي مـن الفضيحة. فـي هذه المـرة رأيتنـي أجلس عندما دعتني فدوى لدخول الدار والجلوس، ولكننـي اعتذرت ومضيت."**[2]، وقد كـان يحلم في أن ينفرد " بخضرا"، وهي من بنات جيرانهم في القريـة، ويخبرهـا بأنـه يحبهـا، وعندما حضرت إلى بيتهم لتقترض الخبز، تردد ولم يفعل شيئا، وكـان ينتظر أن تبـادر هي بذلك، وقبل ذلك وعندما كان أهل القرية قد غادروا إلى الجهة الغربيـة حيث وقعت معركة في عرس لقبيلة العوازم، جاءت خضرا إلى بيتهم وأغلقت بـاب الحـوش بالزنـد، وتعلق نظرها به، ولكنه سألها في ذلك الوقت عن ما تريده.

ويعـاني جريس نوعـا مـن الغربـة الخاصـة فـي قريتـه، لأنـه من عائلـة لا تسكن فـي قريتـه أصـلا، كـان والـده قد هـاجر مـن قريتـه الأصـلية وسكن بهذه القريـة، اخذ يحـس بالملل فأصحاب الدكاكين الذين كان يمر بهم فيرحبون به ويدعونـه للجلوس ويضـيفونه الشـاي، تعـودوا عليـه وأخذوا يعاملونـه كواحـد منهم، بل راح بعضـهم يلمـح إلـى عدم رغبته بجلوس الزائرين أمام الدكان، أمـا الأصحاب فلم يعد يمر عليهم إلا ساعة العصر للقيام بنزهة تخترق الحقول ليصلوا إلى حافة الجبل المطل على الأغوار، لقد شعر أن زيارته لهم أخذت تحرجهم، " **ربما كان سبب ذلك اضطرارهم لتقديم الشاي، وكـان ذلك يثير مشـاحنات صـغيرة مـع أمهاتهم، تصلني أطراف منها، وأنا جالس على حصيرة في الحوش؛ ربمـا لأنني كنت أحملق فـي نساء البيت برغبة لا أستطيع إخفاءها. أو ربما لكوني لا أمت - أنا وعائلتي- بصلة قربى إلى أحد في القريـة."**[3]

---

(1) انظر المصلح، احمد، رواية سلطانة تشكيل الواقع من خلال تحطيم مكوناته السلطوية، مجلة أفكار، العدد108، 1992م، ص127.

(2) سلطانة، ص15.

(3) المصدر نفسه، ص16.

وجريس أيضا شاب ذكي متفتق الذهن، وقارئ مثقف ميال إلى العزلة؛ كان يقضي معظم وقته في قراءة الكتب والروايات، في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات حيث كان من النادر أن تجد قارئا نهما من أهل القرى، " **كنت وحيدا في الدار أقرأ رواية "العبرات" للمنفلوطي. وهي، كما هو معروف، مأخوذة عن رواية ألكسندر دوما "سيدة الكاميليا". حتمية انتهاء العلاقة بين السيدة وحبيبها كانت تعتصر قلبي بالألم. أما مشهد موت السيدة فقد جعلني حزينا حتى الاختناق. كانت عبراتي تتساقط دون محاولة لإيقافها أو كفكفتها.**"(1) فهو يقرأ ويطالع بنهم، كرد فعل على التهميش الذي يشعر به، فقد كان يجد تعويضا في القراءة، ويتفاعل مع الشخصيات والأحداث، مما قد يعزله عن المجتمع.

وعندما كان يخرج في نزهته المسائية المعتادة إلى المنطقة الغربية من البلدة برفقة ابن خالته بطرس، كان يحاول أن يصغي إلى الأحاديث الاجتماعية المعلقة والساخرة، وخصوصا تلك التي تسخر من سلوك إحدى فتيات القرية التي حضرت من عمان ومعها كلبها المدلل، وكان يمر من مناطق تذكره بمواقف قد تكون تركت أثرا في تكوين شخصيته، وكان ابن خالته يحاول أن يترفع عن أهل القرية، " **كنت أعجب للسبب الذي يدعو بطرس لكل هذا الترفع عن أهل القرية، رغم أن عائلته تنتمي إلى الفئات الفقيرة التي تشكل أغلبية أهل القرية.**"(2)، وعندما كان الصديقان يجلسان على صخرتهم المعتادة كانت تحضر في ذهن الراوي جريس، ذكريات حميمة جدا عن تلك المنطقة، إنه الزمن الحبيب، والمكان القريب من القلب،" **جلسنا على الصخرة المعتادة نتأمل المشهد. رغم أنني كل يوم أطالع هذا المشهد ولكن فرحي به لم يكن ينتهي. كنت أحلم أنني في يوم ما، سوف أعود لأستقر في القرية، أبني بيتا- قلعة- على حافة الهضبة. كان البيت- في خيالي- يحتوي على أقبية، وممرات سرية، وتحيطه حديقة بها أشجار عملاقة وسور**"(3)، في تلك

---

(1) سلطانة، ص17.

(2) المصدر نفسه، ص26.

(3) المصدر نفسه، ص27.

اللحظات الرائعة كان جريس يحب الصمت والتأمل ينظر إلى البحر الميت، وتجمعات الغيوم وجبال القدس السمراء، ثم يدخل الظلام فيرى الأضواء بخطوط مستقيمة ونقاط منتشرة، فتبعث في النفس شعور الجلال والعظمة والذكريات والقصص الحزينة،" **حزن شفاف وأشواق إلى عالم مليء بالحياة، طاهر وجميل، عالم لا يعرف الملل، أخذت أحلم بمدن شوارعها من زجاج، ببحر كبير وناعم، ببهجة الناس، والتواصل الذي لا ينتهي.**"[92](1).

وفي القرية تحاصر جريس حكايات الأموات والرعب، حيث كانت القرية في السابق معرضة لغزوات البدو" **ليل القرية مشحون بالخوف. إنه جزء من تراث هذه القرية الجبلية التي كانت معرضة لغزوات البدو المحيطين بها. والليل مسكون. الموتى ينهضون من قبورهم عندما تغيب الشمس ويزحمون القرية. حضورهم أقوى ما يكون بالأحلام أو الصمت.**"(2)، وعندما كان يفكر في أمه الوحيدة في البيت الكبير. كان يقرر أحيانا أن يعود إلى القرية ويملأ البيت بالأطفال.

في وقت جريس افتقد ليل القرية إلى أي حدث، فصار مملا قاتلا، تأوي أمه إلى فراشها باكرا، ويبقى جريس وحيدا في ليل القرية الموحش، تحدثه أمه عن ليل القرية سابقا، حيث يجلس الرجال في الديوان يتحلقون حول النار، يحتسون القهوة السادة، ويتحدثون حول بطولات صد هجمات البدو، كما تحدثه عن آمنة، التي كادت البلدة بسببها أن تشتبك في حرب طويلة، أما هو فلا يعرف إلى النوم سبيلا، كان يسلي نفسه في ساعات الأرق تلك بتعداد النساء اللواتي رآهن، ويستعيد لقاءه بـ"خضرا" بحلم يقظة حسب خياله ويتصاعد الحب والوجد بداخله ثم ينتهي بالعادة السرية.

يفيق جريس في اليوم التالي على موجة من الذكريات، ها هو الآن يسكن مع أمه وحيدين في دار واسعة، يسير في الحوش الكبير بدوره الثلاث، يتردد في سمعه صوت المهباش ورائحة القهوة، منذ وقت ليس ببعيد كان الحوش مزدحما بالمواشي، والبيوت

---

92 (1) سلطانة، ص 27.

(2) المصدر نفسه، ص 28

ممتلئة؛ كان أخوه الأكبر وعائلته يسكنون معهم في الدار، رحل الآن إلى الكرك واشترى بيتا بعد أن أخذ نصيبه من الميراث، في حين غادر أخوه الثاني إلى الضفة الغربية ولا يعرفون من أخباره شيئا، وكان هنا مرابعان[1] مع زوجتيهما يسكنان في غرف بالحوش، وكان الديوان مليئا دائما بالضيوف، حيث كان جريس يمر بهم وينشد لهم قصيدة مما يحفظه في المدرسة، يذهب الآن إلى السوق المزدحمة المليئة بالحياة والحركة ليشتري بعض الخضار والفواكه، يعود إلى أمه وهي تغني البكائيات فيمتلئ قلبه بالعطف عليها.

وعندما قرر جريس التمرد على حالة الانتظار، والقراءة، وأحلام اليقظة، وخرج إلى البلدة، قابل "سلطانة"، فكانت مقابلته لها نتيجة لقرار حاسم بالخروج إلى البلدة مهما كانت النتائج، سألها عن أخبارها، وعن أخبار ابنتها "أميرة"، ودعته لزيارتها، وفي صباح يوم الأحد أفاق جريس مبكرا وحضر أفضل ثيابه ليحضر صلاة الأحد في الكنيسة، قابله الأب "صليبا" الذي دعاه للصلاة فعزمه جريس على الفطور بعد الصلاة، فوافق الأب صليبا فورا، وفي أثناء الصلاة لاحظ جريس نظرات خضرا المتواطئة، وبعد الصلاة قابل أميرة التي لفتت أنظار كل الشباب بصنعة ابنة المدينة القادرة على إبراز مفاتنها.

وكان جريس يستمع إلى أحاديث النساء وبعض الرجال الذين يحضرون إلى دارهم باستمتاع، حيث كانوا يتحدثون عن أميرة وسلوكها الغريب على عادات أهل القرية، ويهرجون ويضحكون ويتحدثون في موضوعات مختلفة، أما جريس فقد كان يستهويه الحديث عن النساء، حتى وبعد أن كبر وزار أخته بالرضاعة سمحة، قالت: إن ذكرياتك كلها خاصة بالنساء، وأجابها أنه منذ صغره كان لا يلعب إلا مع البنات، وكان الأولاد يعيرونه بذلك.

عندما كان جريس طفلا صغيرا كان يحب الإصغاء إلى أحاديث النساء وخصوصا

---

(1) المرابعي: رجل يعمل في الأرض بالزراعة مقابل حصة معروفة من المحصول كالربع أو الخمس مثلا.

عندما كن يتحدثن عن العلاقة بالرجال، وعندما كن يتنبهن إلى وجوده، كان يتظاهر بالقراءة، فينشغلن عنه ويعدن إلى أحاديثهن، وكان جريس في هذه المرحلة من العمر، يشعر بحب جارف تجاه أمه بالرضاعة "آمنة"، حتى أنه شعر بأنها أجمل امرأة بالكون، وعندما سلمت عليه ورأت نظرته، " **اقتربت. قبلتني، وأبعدتني قليلا لتتأملني: - يا صلاة النبي، كبرت وصرت رجل. هل قرأت الوجد في وجهي حين قالت: " صرت رجل"؟ أكثر من مرة كانت تكشف عن حدسها بعبارات، تحمل معنيين، كهذه."**[(1)]".

ويسكن في (ماعين) بلدة جريس قبيلتان كبيرتان، قبيلة العماشنة المسلمة وهي أول من سكن القرية، قبل حوالي مئة وخمسين عاما، بقيادة جدهم علي، الذي ما يزال قبره بظهر القرية، وكانت قبيلة بدوية لها خبرة بالزراعة، سكنت في القرية لخصوبة تربتها، وقبيلة النجارين المسيحية الذين جاءوا من الكرك استجابة لدعوة من العماشنة، وكانت الأرض قد ضاقت عليهم بعد أن استولى عليها أنسباؤهم المصريون، وبالرغم من أن العماشنة قبيلة نصف بدوية نصف فلاحية، إلا أنها لم تكن قبيلة مقاتلة، ولم تشارك في تحالف القبائل ضد السلطة التركية عام (1911) حيث نفذت قبائل الكرك هجوما على السلطة التركية بسبب الإحصاء السكاني الذي قامت به آنذاك.

كما لم يشارك العماشنة والنجارين بجيش فيصل الذي اجتاح الحجاز وسوريا والذي كانت كتلته الأساسية من القبائل الأردنية: الحويطات وبني صخر وغيرهما، في حين شارك في ثورة ماجد العدوان ضد الشريف عبد الله (1923) بعض الأفراد، وكانت قبائل البلقاء قد حاولت الوصول إلى عمان، فتصدى لهم (بني صخر)، وجاءت مدرعة بريطانية أطلقت قذيفة واحدة فقتلت جد جريس لأمه، وتفرق الثوار وعادوا إلى بيوتهم، وعوقبوا بدفع جنيه فلسطيني أو ما يساويه ذهبا.

وعندما تشكلت الإمارة الأردنية عام (1921) لم يشارك أبناء ماعين في الفيلق العربي الذي شكل آنذاك، ولم يشاركوا في المعارك الدائرة بين أهل الجنوب وهذا

"(1) سلطانة، ص 117.

الجيش، وصار بعض أبناء القرية يدخلون الجيش بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن أهل القرية تحولوا إلى مقاتلين بارعين واشتعلت فيهم روح قتالية عالية بعد تحول القبائل البدوية من غزو نجد إلى غزو الداخل الزراعي المستقر، وكان التحول الحقيقي قد حدث في قبيلة العماشنة التي استعادت ملامحها البدوية بسرعة فائقة، وصار اقتصادها يعتمد على الرعي وأنهاب الغزو من القرى المجاورة، وحولوا بعض فلاحي قرى الأغوار إلى عبيد، وبهذا تركوا الفرصة سانحة لقبيلة النجارين المسيحية للتوسع بالتجارة والزراعة.

وقد كان هذا التحول ينسحب على الوضع العام في البلاد آنذاك، " **ففي حين كانت الطبقة التجارية النشطة ، المتركزة أساسا في العاصمة، تسعى لتوسيع تجارتها ببيع البضائع إلى القرى، وللتجارة بالحبوب وغيرها من المنتجات الزراعية؛ كان الجيش المشكل أساسا من البدو يعيد إنتاج القيم والممارسات البدوية في داخل المجتمع**"[(1)]، ولكن المستقبل كان للتجارة، أما القيم البدوية فقد أخذت تتوالد في صياغات جديدة، جعلتها تقترب حتى الاندماج في القيم والمطامح التجارية، فبدلا من الغزو صار طريق الكسب عن طريق نقل الحشيش من تركيا ولبنان عبر الأردن إلى مصر مباشرة من خلال بدو سيناء، أو من خلال دولة اليهود(إسرائيل)، كما ازدهرت تجارة الماس وتهريبه إلى إسرائيل.

عندما قرر جريس أن يغادر القرية إلى عمان لقضاء بعض الأوقات هناك، ذهب إلى بيت سلطانة متحججا بإخبار مسعد ليحجز له مقعدا في الباص صباح الغد، استقبلته سلطانة وأميرة بترحيب، كان بشارة زوج سلطانة قد نام ومسعد غير موجود، والأولاد نائمون، والجد لا يعيره أحد انتباها، كانت أميرة الصديقة المرحة وسلطانة العاشقة التي تعبر عن نفسها بوقار، أخبرها جريس بأنه يحبها، وأخبرته بأنها وأميرة ستلحقان به إلى عمان.

"(1) سلطانة، ص122.

وعندما قدمت أميرة مائدة العشاء كان فوق إطار القرية؛ عشاء يدل على ثراء المضيف وإنفاقه، سهر جريس معهما، وتحدثوا عن التعليم وعمان والعمل والزيارات، كرر أكثر من مرة لسلطانة بأنه يحبها، وكانت تخبره ألا يتعلق بها، ولكنه عرف أنها وقفت بينه وبين كل امرأة في الدنيا.

في اليوم التالي حمل جريس حقيبته وتوجه نحو الباص، فوجئ بسلطانة وأضاء وجهها وظل بعد ذلك هذا الوجه محفورا في ذاكرته، أقام في العديد من المدن وعرف وأحب الكثير من النساء، ولكنه لم يشاهد مثل وجه سلطانة في تلك اللحظة، " **كان للوجه فتنة لا توصف بتفاصيلها، بل بالأثر القاتل الذي تخلفه. فتنة تعلم أنها ممتنعة، لأنها، حتى حين تمنح نفسها، فسوف تحس أنك لم تلمسها بل تجولت بشفتيك على وجه امرأة. في وجه تلك المرأة حرية لا تستطيع السيطرة عليها أو امتلاكها.**"[(1)*].

أوصلته إلى الباص وطلبت من مسعد أن يدله على بيتها في عمان، ركب الحافلة وغادر إلى عمان، ولدى وصول جريس إلى عمان تبدأ مرحلة جديدة في حياته، إن كل التحولات التي لاحظها جريس في قريته، من تراجع القيم الجماعية لصالح نشوء الفرد وخصوصا في مجال التجارة، والتهريب والعلاقات الاجتماعية، لم تكن تساوي شيئا مع ما بدأ يراه في عمان؛ المتاجر والباعة وملابس النساء العمل السياسي والعلاقات الاجتماعية وزخم الحياة وتطورها المذهل..، بدأ جريس يفكر كيف سيتحول بعد ساعة إلى ابن للمدينة، سوف يتخلص من سلة الأطعمة، ويخلع ملابسه المغبرة، ويحلق اللحية، ويستحم، ويلبس بذلة جديدة، ثم يبحث عن أصدقائه الذين يعترفون بهذا الانتماء، تمر في خاطره حكايات أهل البادية الذين زاروا المدينة وتعرضوا لمقالب مضحكة بسبب اختلاف قيم المجتمعين.

ولدى مرور جريس في وسط البلد بعمان يتذكر الأمكنة وبعض الأحداث التي كانت تمر به لدى دراسته في مدرسة المطران بجبل عمان، " **يلسعني الحنين إلى**

---

* (1) سلطانة، ص 197.

حياة لم تكن سعيدة، ولكنها ممتلئة"[(1)97]، وكان مسعد لطيفا؛ اختلى بجريس ووصف له البيت بدقة، وأعطاه ورقة بها رقم الهاتف، كان الهاتف وقتها غير آلي، والهواتف قليلة، وكانت عاملة الهاتف لا تستجيب، في معظم الأحيان، فكان جريس يتحدث باللغة الإنجليزية فيلبى طلبه فورا، وبالرغم من محاولة جريس الانتماء إلى المدينة وبناء الألفة مع الشوارع والأمكنة، إلا أن انتماءه ظل قشرة خارجية، وبقيت في داخله كوابيس الشبق والضجر والغبار.

وخلال مشيه بإزاء سور مدرسة المطران يتذكر أستاذ اللغة الإنجليزية، والمقالب التي كان الطلبة يوقعونه بها، كما يشاهد الفتاة الشركسية التي كان يحلم كل فتيان المدرسة بإنشاء علاقة معها، يحني لها رأسه فتغادره ضاحكة، كان يحس بفاصل بينه وبين أهل قريته، كانوا يحضرون إلى عمان لحضور جلسات محكمة غالبا ما تؤجل، أو يشترون بضاعة لدكاكينهم، أو يزورون أقارب لهم، يعودون إلى المجمع قبل مجيء الحافلة بوقت طويل يجلسون على الأرض ويشترون الخبز والعنب ويأكلون، ويعتبرون كل ما كان يمر بهم من مصادفات غرائب خارقة.

يتذكر المدير الأمريكي المتزوج من بريطانية، لدى مروره من أمام بيته، يتذكر درسه عن المشاكل الجنسية عند المراهقين، ومضار العادة السرية، كما يتذكر زوجته البريطانية، وهوسها بالهواء النقي، وجهلها بموقف الطلاب من الجنس، إذ كانت تعتبرهم أطفالا، إلى أن كشفت أحد الطلبة في مرة وهو يمارس العادة السرية في الصف، كان جريس يحب ابنتها التي لم تكن تشعر بوجوده، وكان المدير يكره جريس بشكل واضح، رغم أنه صاحب سلوك مختلف، كانت أقساط المدرسة عالية جدا، ولا يدخلها إلا أبناء الميسورين، وكان المدير يأتي ببعض أبناء الفقراء ويدرسهم في المدرسة ويسمح باستخدام السكن الداخلي، ويلاطفهم ويتحملهم حتى أن واحدا منهم ضرب المدير بحزامه، فلم يفعل معه شيئا سوى أن قال أن هذه ليست طريقة للتفاهم.

---

[97] (1) سلطانة ص 203.

أما زملاء جريس من أبناء عمان فليس لهم صاحب، لم يكونوا يقدرون الصداقة أو المبدأ، كانوا مثل أهاليهم من ميسوري المدينة، تجمعهم المصلحة الشخصية، دون أدنى اعتبار للمبدأ أو الصداقة أو القرابة.، "**خلال مسيرتي التقيت بأحد زملائي في المدرسة. كان من أهالي عمان وابنا لأحد الأثرياء. تصورت أنه سيرحب بي ويستقبلني بحرارة، فقد كنت أعتبره صديقا، ولكنه حياني بسرعة وانصرف. هكذا أبناء أغنياء عمان تعتقد أنهم أصدقاؤك ثم تكتشف فجأة أنهم لا يحملون لك أية مودة أو صداقة**"[(1)]".

كان جريس يعلم في أعماقه أن عمان مدينة خاوية، ولكن الأمور اختلطت عليه، فكان يعيش عمان باعتبارها تحققا لأحلام ولدت فيها، أحلام تكونت بإيحاءات هذه المدينة، ولكنها عجزت أن تفتح أمامه مجالا واحدا يمنحه الفرح، جلس في المقهى يقرأ باللغة الإنجليزية، ود لو أن إحدى الفتاتين اللتين كانتا تجلسان في المقهى انتبهت إلى أنه يقرأ رواية باللغة الانجليزية، ولكنه عندما تذكر أنه سوف يزور سلطانة يوم غد شعر بالانتصار على أهل المدينة.

ذهب إلى مطعم أبو العبد حيث وجد هناك شفيق وسمير وخالد، الذين رحبوا به بفرح غامر، أكل جريس بشهية كان يفتقدها، وبعد الطعام ملأوا المطعم بالمرح الصاخب، ثم غادروا المطعم وراحوا يسألون جريس عن أميرة، وهل رآها؟ حدثهم عن جمالها وكلبها المدلل الذي لا يأكل إلا اللحم، قال شفيق أنه يعرف قوادا وسيقودهم إلى مومس، ثم تحول الحديث إلى السياسة، كان جريس متعطشا لأحاديث السياسة، التي ينساها في القرية، تحدث شفيق عن ضم حزبي عصبة التحرر الوطني وحزب آخر تحت اسم الحزب الشيوعي الأردني، وتحدث خالد عن لقائه بعضو المكتب السياسي للحزب، وحديثه الذي تحدثه معه حول الصراع مع الطبقة البرجوازية، وتحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين.

"(1) سلطانة، ص 212.

كان الحديث مثيرا جدا وخصوصا حول الحرس الغامضين الذين قال خالد بأنهم كانوا يرافقون عضو المكتب السياسي وهم متنكرون بشخصيات عادية، " أي عالم سحري ينفتح أمامي؟ أكثر إثارة وغرابة من عالم الروايات، ولكنه عالم واقعي، عالم أصدقائي، وسوف يكون حتما عالمي. احتواني سحر هذا العالم فأخذت أضحك لحذق هؤلاء العاملين في التخفي. لقد قارب عالم الملل على الانتهاء إلى الأبد، واستعدت إحساس الطفل بالعالم الحي المختفي وراء مظلة الأشياء.ها أنا ذا أجد نفسي جزءا من حركة هائلة، أجد لي أصدقاء لم أرهم من قبل، أصدقاء يملكون المسدسات والقنابل والفكر القادر على تغيير العالم"[1]".

ثم اتجه جريس وأصحابه إلى الندوة الأدبية، كان النادي مطلا على ساحة المسجد الحسيني في وسط عمان، حيث يحضر عدد كبير من المثقفين، من شتى الاتجاهات، ويتحدثون في السياسة العالمية، والعربية والأردنية، وتدور نقاشات ثقافية وسياسية مختلفة، من رواد النادي كان محمود، نصير الولايات المتحدة الأمريكية، ومشكوك بعلاقته مع الشرطة، حيث خاض جريس وأصدقاؤه معه معركة نقاشية حامية، حول حرب أمريكا مع كوريا، بعد الغروب بدا الموظفون يأتون إلى النادي وهم بكامل أناقتهم، تفرق الناس جماعات، كانت أكبر مجموعة هي التي فيها جريس وأصدقاؤه، وكان معظمها من الشيوعيين، وكان النقاش فيها حاميا.

كانت الأحاديث والنقاشات تدور حول الأفكار والسياسات الدولية، الأمريكان والسوفييت، نابليون وعشيقاته، راسبوتين ونساؤه الكثيرات، والانحلال في المجتمعات الطبقية، عند ذلك وقع جريس في حيرة بين عالمين سلطانة وعالم الثورة السري، فراح يحدث "طعمة" في شعور غامض بأنه يمكن أن يوفق بين العالمين ، أو يعيد له سلطانة، بالرغم من أن أصدقاءه أخبروه بأن طعمة من أعداء الحزب، قبل أن يتطور الحوار بين جريس وطعمة، دخل النائب الديموقراطي المعارض أحمد المساعد،

" (1) سلطانة، ص 222.

وبرفقته موسى السوالمة الشيوعي المعروف، الذي صافح جريس بود، وعندما عرفهم شفيق رحب به، وقال لشفيق: "لازم نشوفه".

كان جريس ورفقاؤه الشباب يستمعون بشغف، فقد تحدث موسى عن النقطة الرابعة التي بدأت أمريكا تتسلل إلى الأردن من خلالها، وتحدث طعمة عن آخر كتاب لستالين الذي يتحدث حول النقطة الرابعة، ثم تحدث النائب وأشار إلى الأطماع الإنجليزية والأمريكية، لم يكن موسى معجبا بكلام النائب، وعندما اشتركا في حديث خاص بينهما حاول طعمة التدخل بالحديث أكثر من مرة، ولكنهما كانا يتجاهلانه.

عندما خرج جريس وأصدقاؤه من النادي بدأوا رحلة البحث عن القواد الذي قال لهم بأنه سيقودهم إلى مومس، لم يجدو القواد في مكانه فبدأوا يبحثون عنه وينظرون في وجوه المارة، مما سبب لهم بعض الإشكالات، جلسوا في أحد المقاهي يتحدثون ويناقشون تصرفاتهم، فوجدوا أن الوقت قد سرقهم، فغادروا المقهى وكان جريس يحس بالاشمئزاز من نفسه، ويرغب بالنقاء والطهر، " **أخذنا نصعد الجبل. قميصي ملتصق بجسدي، والعرق ينساب في ظهري مثيرا إحساسا بالاشمئزاز من جسدي ورغبة في النقاء والطهر. لاحظت أن يد خالد تبحث عن يدي، فتحاشيتها. أن تضيع هذه الليلة في بحث عقيم عن امرأة... عن قواد شوهد مرة واحدة... وددت أن أبكي**".(1)[100]

عند رصيف الدوار الأول في جبل عمان جلس جريس وأصدقاؤه ليرتاحوا قليلا، وعندما جاء الحارس الليلي ليقول لهم بأن الجلوس على الأرصفة في هذه الساعة المتأخرة من الليل ممنوع، تعرفوا عليه، لقد كان من الكرك، فما كان منه إلا أن ضيفهم من سجائره ثم تركهم وغادر معتذرا، عند ذلك بدأ الأصدقاء يتندرون عن وضع البنات في أوروبا، وأوروبا الشرقية خصوصا، وفي مصر كذلك؛ حيث تكون الفتاة حرة التصرف تخرج مع من تشاء، وتعود في أي وقت تشاء، دون أن تتدخل الحكومات أو الأهالي، فهذه حريات شخصية، لا يتجاوزها أحد.

---

[100] (1) **سلطانة، ص 245.**

لدى عودتهم إلى البيت وبعد انضمام "نضال" إليهم، شعر جريس نحوه بنوع من الضيق والتحدي، كل تصرفات نضال لم ترق لجريس، ولكنه شعر بخيبة أمل كبيرة عندما وجده خصما ساذجا غير جدير بالتحدي والمواجهة، ولكن المناكفات الكلامية والتصرفات المستفزة استمرت من قبل الطرفين.

عندما تمدد جريس في فراشه لم يستطع النوم مباشرة، بالرغم من أن الساعة كانت قد تجاوزت الثالثة بعد منصف الليل، بدأ يحاول استحضار سلطانة في مخيلته، ولكنها لم تجئ؛ كان سمير بجانبه مستيقظا ويحاول الحديث معه، فكر في أمه ونومها وحيدة فوق السطح، واستيقاظها عند الفجر، وأصوات القرية، وإزعاجات سمير مستمرة، إلا أنه غرق في النوم بعد ذلك.

يحمل جريس إشكالية ابن القرية الذي غزا المدينة، وجعل التحدي الأول في حياته أن يتفوق عليها، على أبنائها، على نسائها، ولذلك فإنه في أحلام يقظته يعيش هذا التحدي، " **أسرعت في ارتداء ملابسي. كنت أود أن أتخلص من هذه الثنائية التي أعانيها: المراقب المتعالي، والشيء المراقب. ولكن خروجي من البيت لم ينقذني. سرت بإحساس الفضيحة التي يستثيرها سوء نية آخر مصمت، غير قابل للمناقشة والإقناع. سرت محملا بعبء عار قروي. ... مرة أخرى أرى عمان مدينة جديدة. كنت فرحا بمحاولة تأكيد انتمائي إليها،بمحاولتي الدائبة الانتصار على كبريائها، على سوء نيتها، وأجعلها تعاملني بندية.**"[101](1).

عندما كان جريس يسير في الشارع مر بقرب بيت الفتاة الأرمنية التي خيل إليه يوما أنها قد تكون تحبه؛ كانت تنظر إليه بعينين واسعتين، كأنها تدعوه أو تناديه أو تحذره، وكان قد ذهب في نفس اليوم إلى سوق البخارية واشترى زجاجة عطر صغيرة، حاول أن يقدمها لها، فراحت تتساءل: ما هذا؟ لم يستطع أن يجيب، كان حلقه جافا، وامتنع عنه الكلام، عند ذلك صرخت في وجهه وأشارت بيدها تهدده بمناداة

---

[101] (1) سلطانة، ص 267.

شخص آخر، تملكه الرعب وهرب وهي تشير إليه بسبابتها وتضحك.

وفي أثناء جلوس جريس في المقهى، وبينما كان يقرأ رواية " مدام بوفاري"، ويراقب فتاة أمريكية كانت تجلس في المقهى وتطالع مجلة أزياء، دخل رجل ومعه امرأة من الواضح أنها قروية، إذ كانت ملابسها وأسلوبها في وضع الماكياج بطريقة مضحكة، ويداها الخشنتان تدلان على سذاجة وبلاهة، كانت المرأة تمانع الدخول إلى المقهى خوفا من أن يخسر الرجل شيئا، أما هو فقد كان يعاملها بقسوة ظاهرة لأنها لا تعرف أصول التعامل والسلوك في المدينة، اتصل جريس من المقهى بسلطانة فأجابته بأنها وحيدة تنظف البيت، فذهب إليها على الفور.

كان بيت سلطانة في جبل اللويبدة، وكان البناء قد بدأ في هذا الحي حديثا- في أواسط الأربعينات- وكان أكثر أحياء عمان دقة في البناء ذلك الوقت، ولم يكن فيه مكان للفقراء، لقد تحول ذلك الجبل المنحدر الأجرد من الخضرة إلى فلل جميلة، محاطة بالأشجار وأحواض الزريعة وخصوصا الجوري، كانت البيوت تقليدا للنمط الأمريكي في البناء، " **أحسست أن أهم ما فقدته عمان، في هذا التقليد للنمط الأمريكي، هو تلك الألفة التي كانت طابع الأحياء القديمة نسبيا، وتلك الشوارع الضيقة التي كانت تقي المارة من صهد الشمس، والبرودة في الشتاء، لعنة الأوتوسترادات الواسعة، المكشوفة لعوامل الجو دون وقاية، تلك العزلة التي تعيشها البيوت المتجاورة. كانت عزلة تفتقد وجهها الإيجابي- أعني الحياة الخاصة. فالعزلة عن الجيران، كان يقابلها انفتاح مرهق للعلاقات العائلية والقبلية.**"[102(1)].

عندما وصل جريس إلى بيت سلطانة وجدها تعمل في تنظيف البيت، استقبلته بحرارة، أخبرها أنه رآها في الحلم، وكانت تختلط عليه برجل اسمه طعمة، شعر أنها تعرفه، ثم دعته لتناول الغداء، ظل يشعر بالسعادة حتى أخبرته بأنها ستسافر يوم غد إلى العقبة، ولم تكن راغبة بإخباره بالحقيقة، تغير المزاج الرائق بينهما، " **شيء ما**

---

[102] (1) سلطانة، ص 276.

حدث- لا أعرف ما هو على وجه التحديد- جعل حديثنا متكلفا، حتى حين جلسنا متجاورين، نشرب الشاي، ورأسها على كتفي شعرت أن بقائي لم يعد مرغوبا فيه. جعلني ذلك عاجزا عن التركيز."[103(1)].

غادر جريس سلطانة دون أن يمارس الجنس كما كانت تتوقع سمحة بعد ذلك،" **عانقتني. كنت وأنا أعانقها باردا كلوح ثلج"**[104(2)]، وفي طريقه إلى مقهى وادي النيل أخذ يتخفف من الحالة السوداوية التي كان فيها، فقد هواجسه وبدا له وكأنه غادر لتوه الجنة، وأنه يعود إلى العالم المقبض حيث الأحلام التي لا تحقق، حتى العالم السري للشيوعيين الذي كان يفتنه في البداية غرق في الجو المقبض الذي خلقه نضال، لما انضم إلى أصحابه أخبره شفيق أن موسى يريد أن يراه في الدائرة حيث يعمل في وزارة الخارجية.

ذهب جريس لمقابلة موسى السوالمة حيث يعمل في وزارة الخارجية، قابله موسى ببرود وسأله عن مشاريعه المستقبلية، بعد ثلاث ساعات من العمل والضيوف تفرغ موسى لجريس، سأله عن طعمة وقال له بأنه شخص معاد للحزب وحذره منه، ثم سأله عن أصحابه، متوقعا أن سمير أكثرهم ثقافة، ثم سأله عن عائلته الإقطاعية في الجنوب، وأخبره بأنهم في الحزب لا يهتمون بالعائلات الإقطاعية، ولكنهم يحاولون الاستفادة من نفوذها، واستشهد بالشيوعيين الصينيين الذين أجلوا مصادرة أراضي الإقطاعيين حتى يستفيدوا من الإمكانات الثورية لأبنائهم، أعجب جريس بشخصية موسى، الذي سأله عن أميرة، وأخبره بأنها قد فعلت مشكلة مع المنحرفين والبورجوازيين المتفسخين، كان طعمة هو أصل البلاء، تعرف على أميرة وأفسدها، ثم قدمها للنائب أحمد المساعد، الذي افتض بكارتها، وهي فتاة قاصر، أصبحت أميرة بعد ذلك مومسا، وعندما تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر، غادر جريس بصحبة موسى إلى مطعم السنترال، حيث أكلوا طعام الغداء، ثم رافقه إلى بيته.

---

[103] (1) سلطانة، ص 285.

[104] (2) المصدر نفسه، ص286.

في البيت أخبره موسى أن قضية أميرة لها جانب سياسي، فقد تطورت الأمور إلى ما يهدد النائب، كان أقارب أميرة يبتزونه، ثم دخلت جهات مختلفة على الموضوع، وصار النائب مهددا بفقدان موقعه، والسجن لعشرة سنوات لاغتصابه فتاة قاصر، كما أخبره موسى عن المخيم الذي أقيم قرب مدينة العقبة، وتتم من خلاله عمليات تجارة وتهريب مع إسرائيل، وخصوصا حجارة الماس الموجودة في مناطق قريبة من هناك، والحشيش أيضا، وقال أن هناك صراعا في أعلى المستويات، حيث تسعى إحدى الجماعات المتنفذة والمرتبطة مع أمريكا إلى إسقاط الحكومة، وتشكيل حكومة تابعة لهم، " **كنت بحاجة لأستوعب كل هذه الحقائق. كنت أعيش نشوة توسع وتنوع عالمي السري**"[105(1)] .

كما أخبره موسى عن الخوري صليبا وطبيعة تصرفاته مع النائب، ولم يتحدث جريس أبدا ولو بكلمة واحدة عن سلطانة، غير أن موسى حدثه عن رغبة النائب بلقائه، ليستعمل نفوذ عشيرته في التأثير على أهل أميرة، والكف عن تهديد النائب، ولكنه طلب من جريس ربط ذلك بمسالة كشف قضية المخيم في البرلمان، غادر جريس بعد ذلك على أن يلتقي موسى في مكتب النائب في السابعة من مساء اليوم التالي.

في المساء عاد جريس وأصدقاؤه الى النادي، وجدوا فيه شابا اسمه سالم كان ابنا لأحد زعماء العشائر في الشمال، درس الحقوق وتخرج محاميا من الجامعة السورية، وفتح مكتبا في شارع السلط بعمان، وكان من نمط خريجي الجامعة الأمريكية ببيروت والجامعة السورية بدمشق، يتسمون بالأناقة في اللباس، ولا يستطيع أي كان أن يتم كلمة بحضورهم، إذ لا يتوقفون عن الكلام، يعرفون كل شيء وخصوصا خفايا السياسة، وما يجهلونه فلا يستحق أن يعرف، " **وكان للشيوعيين سمات خاصة: يحملون باعتزاز كل انتصارات الشيوعيين في العالم، ويحتفظون بذكرى لقاءات مع قادة الحزب الشيوعي السوري- اللبناني(خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا**

---

[105] (1) سلطانة، ص 303.

الشاوي) عندما كان موحدا. كما أنهم قد قرأوا بعناية ما كتبه قدري قلعجي عن مقاومة الشيوعيين الفرنسيين للاحتلال النازي، وغير ذلك من الكتب التي كانت تعيد رواية التاريخ من وجهة نظر ماركسية"[106(1)].

كانت حكايات هؤلاء تلهب أخيلة الشباب، جريس وأصدقائه، فيعتبرون كلامهم أطرف وأعمق ما يمكن أن يقال في السياسة، **"كان سالم نموذجا متطرفا لهذا النمط. يجوب الفسحة كأنه راقص، لا يكاد يجلس حتى يقف زاعقا. حتى كأس الليمون شربها وهو واقف"**[107(2)]، وكان سالم قد ذكر قائمة طويلة من العملاء للدول الأجنبية، حتى ظن جريس أنه يمكن أن يكون عميلا لإحدى الدول دون أن يعلم، فأحدث حركة بكرسيه مما جذب نظر سالم على الفور، فقال له بعد أن تعرف عليه" – **لازم يا عزيزي المارشال تبذل جهود كبيرة جدا حتى تكفر عن سيئات العائلة الكريمة"**[108(3)].

تعب جريس وأصدقاؤه من البحث عن القواد فذهبوا الى مطعم جبري ليأكلوا الكنافة بالجبن، وفي جو المطعم المتأنق شعر جريس وأصدقاؤه بأنهم دخلاء على هذا المجتمع، فراحوا يتصرفون كفلاحين قادمين لتوهم من القرية الى المدينة، طلبوا كنافة إلا خالد الذي طلب أيس كريم، ولما أحضر الجرسون الطلبات، طلب منه خالد بعض الخبز لتغميس الأيس كريم، فانفجر الشباب ضاحكين، ثم غادروا المطعم وتوقفوا أمام إحدى المكتبات يطالعون عناوين الصحف، ساروا وتسكعوا في الشوارع بحثا عن القواد ولكن دون جدوى.

لما رجعوا الى البيت دخل وراءهم فورا نضال وبصحبته شاب آخر اسمه عبد الجبار، قدمه نضال وقال إنه شاعر، وبعد التعرف لاحظ جريس أن عبد الجبار خجول جدا، فقد جلس بحيث يأخذ أقل حيز من المكان، طلب نضال من خالد أن يقرأ قصته، ولكنه ظل يقاطعه مبينا الدلالات وموضحا للأحداث القادمة، استفز جريس فغادر

---

[106] (1) سلطانة، ص 307.

[107] (2) المصدر نفسه، ص 307.

[108] (3) المصدر نفسه، ص 311.

الغرفة الى الخارج، متجنبا الاصطدام بنضال، ثم عاد وطلب من عبد الجبار قراءة قصيدة ففعل بعد تردد.

في السابعة من مساء اليوم التالي كان جريس يدق باب مكتب النائب حسب الموعد المضروب، استقبله النائب بحفاوة، وقد لاحظ جريس أن غرفة الاستقبال أشبه ما تكون بغرف انتظار الأطباء، مقاعد قديمة مصفوفة بجانب بعضها، يفصلها عن الداخل باب خشبي، عندما دخل جريس الى الداخل وجد فخامة غير متوقعة، غرفة المكتب والستائر، والكنبات المريحة، قدم النائب لجريس وموسى كأسا من الويسكي، فأصيب جريس بالدوار وفقدان التوازن، بعد الطعام صار جريس متعبا جدا فطلب له موسى كأسا من الليمون الخالص فتحسن وضعه، كان النائب يحاول أن يقنع جريس بأنه لا علاقة له بأميرة على الإطلاق، وفي أثناء الحديث دخل عليهم (أبو برمك) وهو رجل شبه مجنون، كان في حالة سكر وعدم سيطرة على نفسه، مما استدعى النائب أن يطرده خارج المكتب، بعد أن فضحه بعبارات كثيرة.

اقترح النائب على جريس أن يترجم بعض المقالات المنشورة في مجلات أجنبية موجودة لديه الى اللغة العربية، قال إنها مقالات تفضح الحكومة، وقد تساعد في إسقاطها، فرفض جريس، وتدخل موسى فاخبر النائب أن جريس شاب ملتزم بتعليمات الحزب، وأنه محظور على أي جهة الاتصال به إلا ضمن القنوات الرسمية للحزب.

أفاق جريس في اليوم التالي وكان هناك ألم في حلقه وأنفه، كما كان مصابا بالإسهال، مر بمطعم فشرب القهوة والأسبرين فتحسن حاله، مشى في الشارع فمر من قرب بيت أحد أقربائه الذين يسكنون في عمان، فقرر أن يمر عليهم رغم كرهه لهوس النظافة والبخل المسيطر في هذا البيت، كان غانم غير موجود، أخبرته زوجته بلجيا أنه يدخن كثيرا، وبالرغم من شعور جريس بالكآبة ورغبة أهل البيت بمغادرته إلا أنه بقي للغداء، " **ما الذي جعلني أبقى في هذا الجو الكنيب، في بيت أناس لا يرغبون في وجودي؟ أهي الرغبة في إهانة الذات، أم هي إعلان الثورة على قيم السلوك المحترم**

التي تقدسها العائلة؟ لا أدري السبب"[1][109].

وفي أثناء جلوس جريس في بيت قريبه غانم اخترع قصة يحدث بها الزوجة بلجيا، فقال لها أن عمتها(حماتها) أم غانم قالت له أن يسألهم إن كانوا بحاجة لشيء ما كي تبعثه لهم، فأثارت هذه القصة المختلقة ضجيج بلجيا، وذكرت لجريس حكايات وقصصا كثيرة كانت غير ظاهرة بين الزوجة وحماتها، وكان أطفال غانم يشون ببعضهم، عند الأم التي ثارت ثائرتها ولم تهدأ، وقد تنبأ جريس للطفلين بمستقبل غير مشرق،" **لن يلجأ أحد منهما الى حب الآخر، أو الى تسامح الأم، بل الى قانون حازم يسحق كل من يقف في طريقه.. سيتفوقان في الدراسة ولن يعيشا قصة حب أبدا"**[2].

جاء غانم الى بيته ورحب بجريس، وأخبره أن مجموعة من أهل البلد جاءوا يستشيرونه في شراء جرار حراثة وحاصدة للقمح، قال أنهم مجموعة شركاء، واستغرب تقدم مسعد بالتجارة لهذا الحد، عندما قدمت بلجيا الغداء وضعت في صحن جريس كمية كبيرة من الرز وقليل من الفاصوليا الخضراء وقطعة لحم كبيرة، مما أثار دهشة جريس، وعندما حاول أن يأكل من قطعة اللحم اصطدمت الملعقة بها، كانت قطعة كبيرة من العظم مغطاة بطبقة رقيقة من اللحم، غانم كشف الموضوع، فوضع قطعتي لحم في صحن جريس، بعد الغداء حاولت بلجيا على ما يبدو تحسين صورتها فحاولت استبقاء جريس لشرب قهوة من صنع يديها، " **القهوة التي تصنعها هي بالذات، والتي تتحول الى سائل أصفر، شاحب بعد ثواني قليلة من صبها"**[3][110]

استمرت رحلة البحث عن القواد، صار كل واحد من الشباب يسير منفردا في شارع، ثم يلتقون في شارع المحطة، سار جريس في جبل اللويبدة، ترافقه هواجسه وأوهامه وذكرياته، ثم التقوا جميعا في المحطة ولم يعثر أحد منهم على القواد، في اليوم التالي وفي أثناء بحثهم التقوا بسعد، وهو رجل من أهل بلدة جريس، أحب سمحة

---

109 (1) سلطانة، ص 335.

(2) المصدر نفسه، ص 339.

110 (3) المصدر نفسه، ص 342.

ابنة آمنة، أفهمته آمنة أن سمحة تريد أن تكمل تعليمها، ولم يوافق أهلها على الزواج، فباع أرضه واشترى فرسا في محاولة منه لكسب قلب سمحة، ولكنه صار سخرية للجميع، فغادر القرية ولم يعد إليها، عزمهم سعد على بيت المعازيب، وهم دار يوسف، فلما عرف الشباب أنهم أهل أميرة وافقوا على الزيارة، ولما دخلوا البيت لمح جريس أميرة تجلس في إحدى الغرف محنية الرأس، أتى يوسف الى عمان من خلال تجارة الحبوب، احتفظ ببيته في القرية، واشترى بيتا في عمان، وفتح دكانا، ووسع تجارته وزاد من ثروته، وحاور جريس وأصدقاءه حول وجود الله، ونظرة الشيوعيين الى هذه المسألة.

في جلستهم حدثهم يوسف عن العمل، والكسب والمال، والغرب واليهود وكسب المال عندهم، وتسخيرهم للمال في خدمة أهدافهم، وتحقيق مكاسب في الحياة، أما هو فهو موجود في عمان لكسب رزقه ورزق عياله، أما القرية فهي أفضل من حيث العلاقات الإنسانية:" **بتعرف إني بشتاق لريحة واحد من القرية، والله العظيم أنا عندي أعيش على مزابل بلدي، ولا أسكن في قصر في عمان، في عمان صاحبك اللي يستفيد منك. بطل يستفيد منك، لا بعرفك، وهو صاحبك**"[111](1).

عثر جريس وأصدقاؤه على القواد في الوقت الذي لم يكونوا يبحثون عنه، أخذوا سيارة أجرة، كان القواد في المقعد الأمامي وهو الذي يوجه السائق، توقف عند بركة عمان، ونزلوا باتجاه سيل عمان مشيا على الأقدام، في أثناء سيرِهم كانوا مضطربين، كانت رحلتهم الى المومس كئيبة؛ " **كان الظلام كثيفا أصم، وأضواء حارة المهاجرين عشاء، توحي بمكان مهجور. وكان سيرنا بطيئا بسبب وعورة الطريق، والظلام. وكنا صامتين**"[112](2).

كان الفتيان متوترين وعصبيين وخائفين أيضا، وظهرت عليهم آثار خيبة الأمل، دخلوا من بوابة الى حظيرة أغنام، ثم الى حوش دار أخرى، ووقفوا ينتظرون في جو كئيب،" **وشعرت بذلك الخوف الأصم، الذي ينتابني أمام الشر الخالص، الذي لا تبرير**

---

[111] (1) سلطانة، ص 355.

[112] (2) المصدر نفسه، ص 356.

له، ذلك القدر الذي يضع قانونه ويعاقبك طبقا له، وهو ليس قانونا، بل نزوة شريرة. وددت أن أقول شيئا لأصحابي لأتخلص من عبء الموقف"[1]".

حاول القواد أن يأخذ منهم أكبر مبلغ يمكنه الحصول عليه، وعندما دخل جريس الى غرفة المومس وجدها امرأة كبيرة الحجم سمراء تتمدد على فرشة سمراء من القذارة، كانت المرأة مخيبة للآمال، أهذه هي المرأة الحلم؟ " **ملأتني بالضجر: أهكذا يتجسد الحلم الذي ألهب خيالي؟ أهذا كل ما يمكن أن يمنحه جسد المرأة وحديثها؟"[2]"**، وعندما خرج جريس وجد أصحابه بانتظاره، كما لقوا القواد بانتظارهم يحاول أن يأخذ منهم مبلغا جديدا، أعطوه بعض النقود وغادروا المكان، فضل جريس طريقه ودخل زريبة الدواب، أرشدهم الرجل الطويل الى الطريق الى حارة المهاجرين، وفي الطريق اصطدم شفيق برجل اعتذر منه ومضى، ظل جريس يفكر بصاحب الصوت، ثم عرف أنه صوت سعد، فأصابه ذلك بالحزن، في اليوم التالي اتصلت به سلطانة، وعندما ذهب إليها رأى وجها جديدا للمرأة الحلم، واستعاد حماسه للحياة.

بعد ذلك يلتقي القارئ بجريس، ولكن ليس في عمان أو بيروت كما هو متوقع، فقد كان جريس يخطط لإتمام دراسته الجامعية في الجامعة الأمريكية ببيروت، ولكن في القاهرة حيث يسكن جريس في شقة تطل على ميدان الدقي، كان قد شرح للخادمة أم محمد أن لا تغير في وضع الكتب الموجودة على مكتبه، لكي يعرف مكانها في أي وقت يحتاجها فيه، ولكن عزة[3] حبيبة جريس، أصرت على ترتيب الكتب متجاهلة أوامر جريس، وكان جريس قد تعرف على عزة في مظاهرة طلابية انتهت عند ميدان التحرير، وكان قد مضى على جريس سبعة عشر عاما لم ير فيها سلطانة.

كان جريس قد بدأ يكتب رواية عنوانها الخادمة، وجعل بطلتها أميرة، وقال لعزة أن

---

[113] (1) سلطانة، ص 361.

[114] (2) المصدر نفسه، ص 372.

[115] (3) عزة هي الفتاة الجامعية التي شاركت في مظاهرة طلابية في ميدان التحرير، وتعرف عليها "خالد" بطل رواية" البكاء على الأطلال" وكان لها نفس الصفات التي يلحظها القارئ في رواية "سلطانة"، حيث يربط هاشا بين رواياته بخيط متصل، ولكن كل شخصية تمثل تطورا معينا في التحولات الشخصية والمجتمعية.

الرواية جاءت ردا على سؤال طرحته عليه: لماذا لا يعود الى الأردن؟ وعندما قرأت عزة بعض فصول الرواية، استولت على تفكيرها شخصية سلطانة، فظلت تسأل عنها، وتعلق عليها، حتى أعادت عشقها الى قلب جريس، قال لها أنه سيعيد كتابة الرواية، فقالت له وهي واثقة من نفسها أن عنوانها سيكون سلطانة، وكانت عزة قد أيقظت في قلبه سلطانة، منذ أول ما شاهدها.

ويتذكر جريس مشاهد من طفولته؛ جاء الى بيت سلطانة، وكانت أميرة غاضبة جدا من جدها الذي تبرز في الفراش، قالت لها أمها أن تصمت، ثم لما رأت جريس قالت إن جريس جاء ليلعب معها، ثم سألته عن أمه وقالت :"- **نجوزك أميرة. قال:- لما أقول لأمي. تضحك وتقبله. قالت أميرة:- بده يتجوزك أنت يمه. يحمر وجه سلطانة**"[116(1)]، وفي إحدى المرات كان جريس يجلس مع سلطانة في بيتها، قالت أن مسعد في الخارج، هل تريد أن تسلم عليه؟ أشار برأسه نفيا، فخرجت، ثم عادت وقالت: مشيته.

وظل جريس يتذكر تلك الليلة التي قضاها مع سلطانة، حكى لها عن أميرة، وما جرى معها، وفي الصباح قال لها بأنه لن يسافر الى بيروت، وأنه لا يريد أن يسافر حتى يتزوجها، ضحكت وقالت بأنها متزوجة، وحدثته عن أهمية التعليم، وأنها ستزوره في بيروت، قالت سمحة أن حكمت مسؤول المخيم كان يريد أن يتزوجها أيضا، وربما لهذا السبب قتلوه، فقد وجد مقتولا عند شط العقبة.

في القاهرة وفي حي الدقي تصل جريس رسالة من أخته بالرضاعة سمحة، تطمئنه على أمه وأمه آمنة وأنهما بصحة جيدة، وكان يعلم أنها تكذب، كانتا قد توفيتا في شهر واحد قبل سنتين، كما أرسلت له مجلة وجريدة فيها مقابلات مع سلطانة، التي وصفت بأنها برجوازية وطنية، وأنها عازمة على بعث الجوهر الثوري للماركسية، بقي جريس يفكر في سلطانة،" **بحثت في كل النساء عنك. النساء وهما كن. وأنت، أنت الحقيقة التي لا تتكرر، الباقية. اقتربت منه سلطانة حتى كادت تلمسه. وخاطبها: -**

---

116 (1) سلطانة، ص 427.

خذيني إليك، عبرت عشرات النساء إليك، كل امرأة كانت منفية، ملغاة بك.. أحببت، وتعذبت، وعشت خيبة الأمل عشرات المرات... أما آن لي أن أصل؟ أما حان الوقت لكي تمدي يدك إلي؟"[1].

ويبقى جريس في القاهرة يخوض عشرات الحوارات مع سلطانة، فيقرر بعدها أن يعود الى الأردن، الى سلطانة، ولكنه يبقى، قال لعزة: هل عرفت لماذا لم أعد الى الأردن؟ حكى لها عن حلمه الذي رآه، حيث كان راكبا في أتوبيس حديث، وكلما دق الجرس يتوقف، وقالت إحدى الراكبات إنه يدق جرس عصرنا، قال لعزة كانت تلك سلطانة، لقد تغيرت سلطانة، تغير الأردن لم يعد كما كان، وسلطانة وبالرغم ما بها من شبه بآمنة، فإنها صارت صورة مشوهة، ولا يمكن أن تعود طاهرة كما كانت آمنة.

وبينما كان جريس يتأمل صورة سلطانة في المجلة، تذكر يوم أن أرته سمحة صورة لسلطانة وهي تقف بجانب الشيخ الذي يجلس على كرسي، كان ضخما ويستولي على ثلاثة أرباع الصورة، تعجب من ضخامة حجمه، قالت سمحة عنه: "- **حيوان حقيقي. قال لكن... قالت وقد تورد وجهها: - كيف في السرير يعني... هذا بالفعل ما خطر له: كيف تحتمل هذا الوزن فوقها في السرير؟"[2]**، لقد تغيرت سلطانة أصبحت مومسا تبيع جسدها لثري، وكان ذلك مؤلما جدا لجريس.

إيهاب في "الروائيون":

إذا كانت الشخصيات الإشكالية السابقة تمثل كل منها مرحلة من حياة غالب هلسا، فإن شخصية إيهاب تمثل المرحلة الأخيرة من حياته، ولا عجب فالروائيون هي الرواية الأخيرة لغالب هلسا، وإيهاب كاتب روائي من الأردن، ومقيم في مصر، سجن مع مجموعة من المثقفين المصريين الذين ينتمون الى تنظيمات شيوعية في أواخر الخمسينات وبداية الستينات، وقد أصر إيهاب على أن يعيش المعاناة كاملة مع

(1) سلطانة، ص 443.

(2) المصدر نفسه، ص 449.

المسجونين، بالرغم من أنه لا ينتمي إلى أي من تلك التنظيمات، وإن كان يؤيدها، "**كان إيهاب محسوبا في داخل العنبر على المجموعة التي تعادي الخط الصيني، وتؤيد حل الأحزاب الشيوعية، رغم أنه لم يكن في يوم من الأيام ينتمي إلى تنظيم شيوعي**"[119][(1)].

ولكن إيهاب لم يكن يجد الفرصة المناسبة للتعبير عن نفسه، دون تشنجات الصراع بين الطرفين، ودون هذه الحدة التي لا تسمح بالحياد في داخلها، وإذا لأعلن تأييده للرأي الصيني حول كون المسألة المركزية في الصراع العالمي هي التناقض بين شعوب المستعمرات والاستعمار، وكان قد قرأ كتاب لين بياو الصغير "تحيا حرب الشعب" وأعجبته تلك المقارنة التي أجراها بين الثورة الصينية والوضع العالمي الحالي: لقد انتصرت الثورة الصينية حين حاصر ريف الصين مدنها، ولذا فعلى ريف العالم- شعوب المستعمرات- أن تحاصر مدن العالم- أوروبا الغربية وأمريكا- وأن تسقطها.

كما لم يكن إيهاب يقبل فكرة حل الأحزاب الشيوعية، ولم يعجبه داخل المقولات الصينية أن يرى أشياء عزيزة على نفسه يتم سحقها، وكان قد قرأ الأدبيات الصينية حول الخلاف النظري والسياسي مع الاتحاد السوفييتي، فلم يعد يأخذ الموقف الصيني بجدية، وقد كان معظم أصحابه المقربين من المجموعة المساندة للخط السوفييتي، وكانت عواطفه نحو الآخرين تصوغ الكثير من آرائه.

كان إيهاب يراقب مصطفى وهو قلق ومهموم، ثم وهو يتحدث مع إسماعيل، ثم وهو يسير جيئة وذهابا، ثم وهو يبتسم ووجهه يشع بالفرح بعد تفكير وتأمل، وعلى الفور أدخله في عالمه الروائي، " **كان إيهاب يعيش وقائع حياته كأنه شخصية داخل رواية**"[120][(2)]، وقد لاحظ أنه والفنانون الآخرون يصاغون بعد فترة من إبداعهم بفنهم، كان هذا الأمر يزحف عليهم ويتملكهم فيهمش علاقاتهم وصداقاتهم ومتعهم، ليخلق تلك الثنائية وهي أن تمارس

---

[119] (1) الروائيون، ص 489.

[120] (2) الروائيون، ص 490.

الحياة، وأنت تراقب نفسك وأنت تمارسها، وكان إيهاب قد كتب روايتين لم تنشرا، وكتب عددا من القصص القصيرة، ثم زحف عليه سرطان الكتابة الروائية، كما كان يحب تسميته.

وفي أثناء إقامته في السجن وتفكيره في عالم الرواية، تذكر زينب، التي كانت تعمل في إحدى الوكالات الصحفية تبيع المقالات والصور الصحفية الواردة في الصحف الأجنبية، ذهب إليها ليشتري أو يستعير عددا من مجلة "تايم" الأمريكية، الذي ورد فيه ريبورتاج كامل عن حياة همنجوي، وعندما قابلها وجدها خفيفة الظل وشعر أنه يميل إليها، كما عرضت عليه الصداقة، ولما كان بإمكان عنبر الشيوعيين بعث رسالة الى الخارج كل فترة، فقد طلب إيهاب بعث سلام لزينب في الرسالة القادمة.

ومن خلال أحلام اليقظة التي تراود إيهاب، وهواجسه ومذكراته يتعرف القارئ حياة السجن بالنسبة للمعتقلين: الإخوان المسلمون ومنهم الدكتور محسن صالح الذي اقترب من الجنون، فصار يكفر الآخرين كلهم، ويربي الأرانب، ويحرم النظر الى التلفاز، والوفديون وأحلام الإفراج عنهم، الشيوعيون وعلاقتهم بالعنابر الأخرى، ثم الرسالة التي كانت تهرب الى عنبر الشيوعيين، تخبرهم عن أخبار الخارج والعائلات والجهود التي تبذل للإفراج عنهم، جاءت الرسالة وفيها أخبار عن فرحة زينب بسلام إيهاب، ومشاركتها في زيارة المسؤولين، كانت تقول أن خطيبها معتقل، وعندما قرأ إيهاب هذا الخبر هجم عليه حب زينب دفعة واحدة، وكان في الرسالة خبر غريب، يقول الخبر أن جان بول سارتر قرر أن يصدر عددين من مجلته"الأزمنة الجديدة" عن الصراع العربي الإسرائيلي، وقد أصدر عددا عن وجهة النظر الإسرائيلية، وأنه قرر أن يزور مصر للإطلاع على وجهة النظر العربية، ولكنه أعلن أنه لن يزور مصر وفيها مثقفون تقدميون معتقلون، وأن هذا الموقف قد سبب إحراجا كبيرا لمصر.

كان إيهاب يعيش أحلام اليقظة الجنسية مع زينب، ولكن وبعد إحضار التلفاز حلت فتاة إعلان عن شامبو مكانها، سرى خبر الإفراج عن الشيوعيين في كل عنابر السجن، وكانت ردود الفعل تتراوح بين الفرح وخيبة الأمل، عندما تأكد الخبر صار المعتقلون من الإخوان والوفديين يوصونهم بالاتصال بأهاليهم، أو بتعليمات وأرقام تليفونات يقومون بها لدى خروجهم، " **وعندما يغادر المفرج عنهم يعيش الآخرون يوما ثقيلا يبدو لهم أن خروج بعض المعتقلين حتى وإن كانوا أعداء، قد حطم انسجام عالمهم. المغادرون كانوا يشعرون بالذنب، لذلك بذلوا وعودا كثيرة للمعتقلين يعلمون أنهم لن يستطيعوا تنفيذها"**[121](1)، وعند الخروج من السجن الى الشارع ودعوا بعضهم على وعد لقاء قريب، وكان إيهاب هو الوحيد الذي وجد من ينتظره، كانت زينب واقفة تتفحص وجوه الخارجين.

سار إيهاب مع زينب وكان خائفا أن تغادره، فعرض عليها أن يشربا الشاي في مقهى، إلا أنها استوقفت سيارة أجرة، ولدهشته وجهت السيارة باتجاه بيته، كان يعتقد أنه سيجد شقته قد تراكم فيها الغبار والأتربة، ولكنه فوجئ أن البيت كان نظيفا ومرتبا، والكتب مرتبة، ثم أدخلته الى الحمام فوجد الغيارات جاهزة، بعد الحمام وجدها قد أعدت عشاء فخما، وعندما جاء وليد ونوال ليأخذا إيهاب كان يجلس على مائدة الطعام، فتركاهما وعزماهما على العشاء في اليوم التالي، وقالا إن الجميع سيأتون.

بعد العشاء كان إيهاب يحس أنه في حلم، لم يكن قادرا على استيعاب ما يحدث معه، " **قال لها إنه عاجز عن التلاؤم مع ما حدث. الإفراج، وأنت، والشقة النظيفة والطعام"**[122](2)، وتعجب كيف نمت العلاقة بينهما بهذه السرعة، حدثها عن المعتقل وأحداثه، ولما رأى إصغاءها واللهفة في وجهها شعر بنشوة التواصل، " **أصبحت زينب طفلة تصغي لحكاية مشوقة. كان يقرأ انفعالاتها على وجهها. ... قال إيهاب لنفسه: في هذا العالم، الذي لا**

---

[121] (1) الروائيون، ص 530.

[122] (2) المصدر نفسه، ص 546.

يطيق أن يصغي إليك حتى تتم جملتك تجد إنسانة رائعة تصغي إليك دون أن تمل"[123](1)، ومنذ تلك اللحظة نمت بينهما علاقة حب وجنس ملتهبة.

كانت إشكالية إيهاب تقوم على ما يحدث له أثناء الكتابة الروائية؛ فلم يكن قادرا على الاستغراق في الكتابة الروائية والحب في نفس الوقت، فإذا ما استغرق في الرواية كانت العلاقة بينه وبين الفتاة التي يحبها تفتر، وكان في ذلك نوع من التصميم المسبق، **" في الرواية تنتهي العلاقة بين الحبيبين ولكن كيف؟ لا أدري أشعر أنني أمام معضلة لم أستطع حلها فأقرر التوقف عن الكتابة"**[124](2)، أثناء كلامه هذا مع زينب أحس أنها خافت، أخبرها كم يحبها وطلب منها معلومات عن نفسها، ثم تمشيا على الأقدام فترة، عندما اقتربا من بيت وليد دخلا فوجداه مزدحما بالأصدقاء.

عند دخول إيهاب وزينب ثارت عاصفة من الترحيب، جلس إيهاب بجانب تفيدة، كان يحترمها بشكل كبير، أخبرته عن رغبة أحد الناشرين بنشر قصصه في مجلته، كما دعت فتاة اسمها هدى التي أخبرته أن وكالة أنباء ألمانيا الديمقراطية تبحث عن مترجم، وتواعدا ليذهبا إليها من أجل استلام عمله، لاحظ أن دوائر المتحدثين كانت مفتوحة تقريبا ما عدا دائرة هنية وزينب، ذهب إليهما وحاول دمجهما مع الجميع إلا أنه لم يتمكن من ذلك، كان موضوع الحب بينه وبين زينب هو موضوع الكلام.

وعندما غادر إيهاب وزينب السهرة، أوصلتهما هنية بسيارتها، في الطريق تمنى إيهاب أن تتركه زينب لوحده لينام، ونظر إلى هنية وأعجبه جمالها، لما وصلوا البيت عرض إيهاب على هنية أن تشرب معهما كأسا، وافقت بعد تردد، وشربت كأسها وغادرت، كانت زينب قد صبت غضبها على تفيدة واتهمتها بممارسة الدعارة، وأنها مدسوسة على الشيوعيين من قبل أجهزة الأمن، نفى ذلك بشدة، وأغلظ لها القول، **"أخذ يشرب صامتا، دون أن يلتفت إليها. سمعها تبكي. لم يضعف. عليها أن تتعلم أن إدانة**

---

[123] (1) الروائيون، ص 548 و549.

[124] (2) المصدر نفسه، ص 554.

عالمه يضعها في سياق عالم آخر، عالم الأعداء"(1) كان بالرغم من ذلك يخشى أن يفقدها، وكانت هي كذلك فاندمجا بعلاقة جنسية ملتحمة، ثم أفاقا وقد وجدا نفسيهما قد ناما أكثر من ثماني ساعات.

في يوم الجمعة ذهب إيهاب مع زينب إلى شقتها، كان يشعر بالخوف من أن يجد من يسأله عن دخوله إلى بيت فتاة غير متزوجة، ولكنه اكتشف وجها مثقفا لزينب لم يكن قد أحس به من قبل، كانت تترجم كتاب غاستون باشلار "جماليات المكان"، قال لها بأنه يحبها وسيحبها للأبد، لأنها تمتلك نوعا من التجدد والتنوع النادر، قالت إنها دفعت ثمن ذلك غاليا، وربما يدفعه هو، مارسا الجنس، وأفاق في اليوم التالي وهي تقول له هذا آخر يوم في شهر العسل.

ثم انطلق إيهاب وزينب معا بجولة في أحياء وشوارع القاهرة، جلسا في مقهى لاحتساء القهوة، وتحاورا في موضوعات عدة، كان إيهاب يقفز في أحاديثه وحواراته من موضوع إلى آخر، كان يجمع أمورا مختلفة ليكتب، وكان ذلك يفسد متعة الحياة بالنسبة له؛" **أنا بحب الحياة لكن ما بعيشها. براقبها بس. الحياة بقت هامشية، مجرد مادة للكتابة"(2)** أما بمحبته لزينب فقد كان يستغرق في اللحظة ولا يشعر بالملل، كانت السياسة كذلك، الاستغراق باللحظة، والإحساس بالقدرة على تغيير التاريخ.

في الصباح ذهب إيهاب لمقابلة هدى، ثم ذهبا الى وكالة أنباء ألمانيا الديمقراطية، ليعمل مترجما، اتفقا على العمل بسرعة، وأعطوه مرتبا عاليا، اتصل بعدها بهنية واتفقا على اللقاء والغداء، عندما دخل شقة هنية بـ"الغاردن سيتي"، لاحظ الأناقة واللمعان والأثاث الحديث واللوحات الفنية في الصالون، سألها عن زينب، فقالت بأنها تعرف عنها الكثير، أخبرته بأنها كانت شيوعية وديناميكية، كانت كلمات الجنس والعلاقة مع الآخر تعد بذاءة تنفر منها، ولكن حصل الانهيار، فانطلقت بدون ضوابط وصارت تسخر من كل شيء، **"انطلقت بدون ضوابط وانكشف وجه جديد، وجه**

---

125 (1) الروائيون، ص 574.

126 (2) المصدر نفسه، ص603.

السخرية من كل شيء"[(1)127]، ثم أخبرته بأنها تغيرت، وأنها وعدت بأن تحافظ على نفسها وعليه، ولكنه أحس بأن هناك أمرا ما تزال تخفيه، سألها فأخبرته بأن زينب كان لها علاقات جنسية كثيرة، وكانت هذه العلاقات عابرة، يبدو أن النماذج كانت رديئة.

كان إيهاب يدخل في حوارات مع زينب حول نذر الحرب، وعندما ذهب إلى دوامه صباح السادس من حزيران بعد سهرة طويلة عند مصطفى، كان الجميع بحالة انتظار وترقب، قال مدير الوكالة الألمانية التي يعمل بها إيهاب إن الولايات المتحدة الأمريكية بعثت مندوبا وقد لا تحدث الحرب، ولكن المذياع توقف فجأة وأعلن أن أعدادا كبيرة من الطائرات الإسرائيلية هاجمت أهدافا داخل مصر، وأنه قد تم حتى الآن إسقاط أربعين طائرة، ثم رجعت المذيعة إلى برنامجها عن إعداد الطعام، اتصلت زينب وأخبرت إيهاب على الهاتف أن مصر هي من بدأ الهجوم، وأن معظم الجيش توجه إلى سيناء، وأن سوريا والأردن قد دخلتا الحرب أيضا.

عندما رجع إيهاب إلى البيت كانت زينب بانتظاره، أثناء الطعام سألها عن أخبار الحرب، قالت أن الأنباء متضاربة، لم تسقط ولا طائرة إسرائيلية، كان المشير عامر في الجو، فلم يستطيعوا ضرب أي طائرة، واصلا الطعام بصمت ثم تمددا دون أن يتماسا، أخذت زينب تبكي، اتجه إيهاب إلى مقهى ريش فوجد مجموعة من أصدقائه في حالة من الفرح بسبب عادل ونكاتهم عليه، تحدثوا عن الحرب، وتبين لإيهاب أن مصدر معلوماتهم الوحيد هو الإذاعة المصرية، وبعض الإشاعات التي تقال كمسلمات مؤكدة، كان الناس يعيشون بحماس لا يمكن اختراقه، كانوا يقولون أن الجيش المصري يحاصر تل أبيب.

في حمى التفاؤل والحماس، كان أصدقاء إيهاب يعلقون على كلامه ويتهمونه بالحذلقة، وقلة الفهم بالأمور العسكرية، كانت المرة الأولى التي يخاطبونه بهذه الحدة، كان الحماس الزائد يولد تحليلات بالغة التفاؤل، من مثل مسير الجيوش الثلاثة

---

[127] (1) الروائيون، ص613.

المصري والسوري والأردني بخطوط مستقيمة ليلتقوا في القدس، وطائرات السوخوي المصرية التي تضرب الهدف على بعد سبعين كيلومترا، غادرهم باتجاه الوكالة التي تعمل بها زينب، **" شعر وهو يسير في شارع قصر النيل، والظلام يجعل الفراغ لا نهائيا، بأنه وحيد، وبلا أصدقاء"[128(1)]**.

جاءهم إسماعيل وسأل عن الأخبار، وقال أنه وفي ليلة البارحة أقيمت حفلة للطيارين؛ رقص وغناء وشرب للخامسة صباحا، وأن إسرائيل هاجمت والطيارون في حالة سكر، وضع إسماعيل الحقيقة أمامهم لقد انهزمنا، غادرهم فشعر إيهاب بلا جدوى الحياة، أخذ يتمسك بأحلام اليقظة، رسم خطة عسكرية للقضاء على إسرائيل: يتم إنزال نصف مليون جندي مصري بشكل مفاجئ وسريع، يتجه نصفهم لمحاصرة تل أبيب والنصف الآخر لمحاصرة جيش العدو بغزة، ليس أمام إسرائيل إلا الاستسلام بدون شروط، وعندما ضم زينب بالليل شعر أنه يضم أحد المحارم.

جاءت زينب مرة ومعها قطعة حشيش، وأثناء تدخين الحشيش مع إيهاب قالت له بأنهما تغيرا؛ هو لم يعد يكتب، وهي لم تعد تقرأ، في جو الهزيمة ذاك شعر إيهاب بأنه سائر نحو الدمار، جاءت هنية لزيارتهم مرة كان إيهاب قد أفاق من النوم، طلب من زينب طعاما، أثناء ذلك شعر بأنه يحب هنية، التي طلبت منه أن يزورها وحده، وعندما جاءت زينب عاملت هنية بقسوة وقالت أنها وإيهاب راغبان بممارسة الجنس معا، فغادرتهم هنية وهي غاضبة، بدا إيهاب غاضبا، قالت زينب بأنها ستعتذر منها فيما بعد.

في اليوم التالي كان إيهاب غير قادر على التركيز بسبب المشكلات التي إثارتها زينب مع هنية، كان يفكر كيف سيزور هنية، وكانت زينب بحضورها العدواني وخوفه منها، ماثلة في تفكيره الذي نفى هنية جنسيا، عندما جاء لبيتها وجد عندها إسماعيل، سألوه عن كتابة الرواية، أجاب بأنه لا يكتب وإنما يعيش حياة محضة،

---

[128] (1) الروائيون، ص 668.

وعبر لهما عن إشكاليته: **"كنت أعيش حلقة مفرغة، تبدأ بالقراءة وتنتهي بالكتابة. أصبحت الحياة بهذا بين قوسين، مستلبة. القراءة تحدد لي الرؤية، تحدد لي ديناميات الكتابة، وتحدد اختياراتي. إن هذا لا يجعل التجربة مستلبة فقط،ولكنه يجعلها، في سياق غير سياقها الحقيقي. أعني أن الحياة تصبح مجرد مثال توضيحي"**[129](1).

ثم تحدث إسماعيل وهنية مع إيهاب بضرورة الانتباه إلى وضعه، وانهيار زينب بعد الهزيمة، كانا يتحدثان كزوجين، قالا يجب علينا أن نتماسك، شعر إيهاب بصدق ما يقولانه، وود لو يغادر قبل أن تتولد فكرة نقيضة في نفسه، قال إن انهيار زينب دليل على حساسيتها المفرطة، وأن المرحلة صعبة، لقد ضحكوا علينا، وعندما عاد وجد زينب هادئة وادعة، وشعر بالحنان، وضعت رأسها على صدره، فراح يفكر في وضعها؛ **"ها هي وديعة مستسلمة وقد كنا منذ قليل نحلل انهيارها. وفي داخل كل منا ذكرى تاريخ لها حافل بالعلاقات الجنسية المهينة، وتحلل بلا رادع. سيبرز هذا التاريخ في أوقات كهذه فيجعل كل فعل تقوم به فضيحة"**[130](2).

صار أيهاب يشعر بغربة زينب عنه، بدأ الكتابة في الرواية، وكان قد انقطع عنها منذ أربعة أشهر، شعر أنه بدأ يستغرق في الكتابة، قالت زينب أنها ستغادر إلى بيتها، خشي أن تكون قررت مقاطعته، قالت له تعال بين العاشرة والحادية عشرة، بعد خروجها شعر بحرية كادت تمنعه عن الكتابة، كتب بعشق وشفافية، عند التاسعة غادر إلى زينب، وصلها في التاسعة والنصف وتعانقا كعاشقين لم يلتقيا منذ زمن بعيد.

أخبرت هنية إيهاب بأن زينب صارت قارئة جدية، وسألته لماذا لا يتزوجان، أجابها بأنه الآن يكتب الرواية في نسق معين، وأن الزواج حياة كاملة جديدة، وعلاقته بزينب حددتها الرواية التي يكتبها، وهو لا يستطيع العيش في سياقين بوقت واحد، قال إن زواجه سيكون احتفالا بانتهاء الرواية، أما بعد الزواج فلن يتوقف عن كتابة الرواية، ولكنه سيكتب في سياق جديد، استمرت علاقته بزينب في نمط رتيب؛ الالتقاء في شقة

---

[129] (1) الروائيون، ص733.

[130] (2) المصدر نفسه، ص 736.

إيهاب ظهرا، تناول الغداء والنوم، تغادر هي إلى شقتها عصرا، يزورها في الليل، وينامان بعد العشاء، ويمارسان الجنس الذي فقد حدته، حيث كان إيهاب ينتهي من الجنس وهو مستغرق في أفكار أخرى.

بينما كانت العلاقة بين إيهاب وزينب تفتر، والحياة بينهما تسير برتابة مملة، ولا أحد منهما يجرؤ على الاعتراف بذلك، صار إيهاب يستغرق في الفن الروائي والتقنيات الروائية، عرضت عليه مرة أن يخرجا للنزهة، خرجا وكان الطقس جميلا، كانت غاضبة،"**شعر في تلك اللحظة أنه يكرهها. ألا تستطيع أن تتذوق هذا الجمال؟ كان يعلم أنها غاضبة، وأنها لهذا السبب تتصرف على هذا النحو**"[131](1)، رجعا الى بيتها، سألها عن غضبها، قالت أنه بسبب توقفه عن كتابة الرواية، حاول أن يفهمها أن توقفه ليس لتأخير الزواج، قالت أنها غير مهتمة بالزواج، ولكنها مهتمة به كإنسان، إنه يسير نحو الانتحار، حياته جنس وأكل، غادرها بعد العاشرة وكان راغبا بقوة في إنهاء العلاقة.

في اليوم التالي لم تأت للغداء فشعر بالارتياح، قال سامر عليها مساء، ولكنه سهر عند مصطفى وتفيدة، ولم يذهب إليها، ودام الانقطاع خمسة أيام، شعر خلالها بالراحة، وعاد إلى كتابة الرواية باستغراق، قابلها عند حسن، كان قد خرج من المستشفى، عندما أخبرها أنه يكتب في الرواية، قالت بفرح مبروك، كان إيهاب مشغولا بالرواية، ونافذة زينب التي رآها مضاءة فمر بها وطرق الباب ولم يفتح له أحد، كانت الغيرة تلسعه، ويطردها، لما رجع إلى البيت جاءت معه زينب، وكانت غاضبة من تفيدة، التي قالت إنها تريد كتابة رواية، اتهمتها بأنها تريد أن تغير مصطفى، سكت إيهاب وكان يشعر أن غضبها تجاوز الحدود، "قالت: أنا آسفة علشان أهنت المومس الفاضلة، باين مهمة حزبكو الأساسية هي تحويل كل شراميط البلد إلى فاضلات"[132](1).

حاول أن ينام فرفضت ذلك قالت أنه جاء بها ليقوما بالجنس فليقوما به، خلعت

---

[131] (1) الروائيون، ص 743.

[132] (1) الروائيون، ص 752.

ملابسها وخلعت ملابسه فاستثارته، ومارسا عملية جنسية عنيفة، ثم ناما إلى وقت متأخر من يوم الجمعة، كانت العلاقة بين إيهاب وزينب حميمة، والتفاهم صعبا،" **خلال ساعات الكسل الطويل اكتشف إيهاب فقر زينب الروحي. في آخر النهار أحس بعبء هذه الجلسة. لم تخلق زينب لحياة مريحة. ختمت النهار بعملية جنسية فاترة. كان لا بد من الشرب لاحتمال هذه الوحدة. التفتت إليه فجأة وقالت: تصور المصيبة لو تجوزنا**"(2)".

بعد فترة اتصلت زينب به وقالت إنها سوف تتناول طعام الغداء عنده، انتظرها ولم تأت، ولم يحزن لغيابها، كانت الرواية قد وصلت إلى نقطة عليه فيها أن يبدأ موقفا جديدا، فتركها إلى اليوم التالي حتى تتجمع الخيوط، وخرج إلى الشارع، قادته قدماه إلى بيت زينب قبل أن يصل عمارتها رأى شابا من زملائها متجهم الوجه رد التحية فقال الشاب: أهلا زينب، استغرب منه إيهاب وصعد إلى شقتها، أطالت حتى فتحت له، وبدت مندهشة من حضوره، أخبرها عن لقائه بزميلها، وسألها إن كان عندها، أجابت بالرفض، قالت إن علاقتهما لا تصلح للزواج ولا للحب، والأحسن أن يقول أنهما محتاجان لبعضهما.

رجع إيهاب إلى البيت فوجد زينب نائمة، كان البيت نظيفا، ومرتبا بعناية والثلاجة مليئة بالطعام، جلس على جانب السرير يراقبها حتى أفاقت، ولكنها تغيرت في علاقتها معه، فلم تعد تقبل الجنس إلا بحالة عنف واستثارة إلى أقصى درجة، ثم تصبح ودودة لينة الملامح، كان وهو معها يهذي بكلمات غريبة وعجيبة، ولكنها لم تعد تستجيب له في الفراش، "**كان مشحونا بالعشق والرغبة فلم يأته النوم. ولكنه نام في النهاية وهو يدير لها ظهره. استيقظ وهي تحتضنه من الخلف. استثيرت رغبته بحرارة زينب المسلطة على ظهره. في لحظة كهذه تكون الرغبة جنونا. التفت واحتضنها ولكنها انفلتت منه قائلة: مش معقول. قال بصوت أخشنته الرغبة: أرجوك، أرجوك. ولكنها**

---

(2) المصدر نفسه، ص 757.

نهضت وغادرت السرير"[1][134].

استغرب إيهاب أن هناك لقاء في نقابة الصحفيين وهو لا يعلم به، وعندما ذهب إلى اللقاء برفقة زينب لاحظ أنها لم تكن تتحدث معه، وفي اللقاء تركته وراحت تتحدث مع زميلها حمادة بكلام لم يكن يسمع منه شيئا، إلا بعض العبارات التي تشي بسخافة شخصية حمادة وجهله، بعد اللقاء اعتذرت منه زينب وغادرت مع زميلها حمادة، وبقي هو وحيدا يجلس على الطاولة، وقد قرر أن ينهي علاقته بزينب مهما كانت المبررات، في أثناء جلوسه جاءه شاب اسمه فهمي من زملاء زينب في العمل، وقال له أن هناك من يريده، كان إسماعيل وهنية ينتظرانه في السيارة، اكتسب إيهاب حيوية نادرة، في السيارة كان فهمي معجبا جدا بقصص إيهاب ومقالاته التي تنشر في الصحف.

في بيت إسماعيل وهنية أخبره إسماعيل أنهم رأوا ما فعلته زينب معه في اللقاء، كان فهمي قد روى لهما كل شيء، وقالت هنية أن زينب لها علاقة بالمباحث، فصعق إيهاب، قال فهمي أن زينب هي من فتحت عيونه على الماركسية، وكان هو مستودع أسرارها، ولكنها منذ خمس سنوات تغيرت، صار لها ملاحظات كبيرة على الشيوعيين وخصوصا بعد اعتقالهم عام 1959، كانت تقول أن الإخوان المسلمين يتصلون بالجمهور مباشرة، بينما يتصل الشيوعيون بالجمهور من خلال المنشورات التي صارت وسيلة السلطة لاعتقالهم، ثم جاءت مرحلة الضياع؛ قراءات غير جدية، وجنس، حيث كانت تعامل الرجال كما يعامل الرجال المومسات.

قال فهمي ثم جاءت مرحلة كان يسميها فيها قيس بن الملوح، صارت محبة إلى درجة الجنون، وكان الذي تحبه هو إيهاب، قالت أنها أول مرة تحب في حياتها، قال إيهاب بأنه يتوقع أن يعود إلى البيت فيجدها موجودة بانتظاره، ولكن فهمي قال إنه لن يجدها،واقترح إسماعيل أن يذهب فهمي لينام مع إيهاب، ليقول له بقية التفاصيل، قال فهمي أن زينب منذ علاقتها بإيهاب وهي تحاول أن ترقى إلى مستواه، كانت تقرأ في

---

[134] (1) الروائيون، ص 782.

الفلسفة والسياسة وعلم الجمال والنقد، ود إيهاب لو يتوقف الجميع والزمن عند هذه اللحظة، " **قال فهمي إن زينب قالت له إن علاقتها بإيهاب هي الحلم الوحيد في حياتها الذي تحقق دون خيبة أمل**"[(1)].

ولكن لماذا تغيرت زينب؟ قال فهمي إنها قالت إن علاقتها بإيهاب لا يمكن أن تستمر، لأن إيهاب غير قادر على بناء علاقة دائمة، قال إيهاب إن ذلك صحيح، لقد أحسست بالإرهاق حب في كل الأوقات والأمكنة.. والكتابة والقراءة..، قالت هنية لماذا لم تخبرها بذلك؟ أجاب إنه الخجل، ولكن فهمي أضاف إن زينب كانت تعرف ذلك ولكنها لم تستطع التوقف، كان ذلك بعد هزيمة حزيران، كانت تقول إن علاقتها بإيهاب ستندمر، أو ينهار إيهاب مثلها.

أما زميلها أحمد فقد أكد فهمي أنه عميل للمباحث منذ اثني عشر عاما، كان يحاول أن يصنع علاقة مع زينب وكانت ترفضه بشدة، وقد بدأت علاقة معه منذ شهر تقريبا، وكان اختيارها له حسب نظريتها عن الرجال المومسات، كان يضربها بعنف، " **شعر إيهاب بقلبه يغوص. حدس عمق الارتباط بين زينب وأحمد. إنه ليس عمق العلاقة الجسدية العابرة، بل عمق الألفة، ألفة الخضوع للرجل**"[(2)].

غادر إيهاب وبصحبته فهمي، فتوجه إلى شقة زينب، كتب لها رسالة أنه يريدها لأمر هام، ثم رجعا إلى بيته، سأله إيهاب إن كان له علاقة بزينب، وكيف عرف أن أحمد يضربها، قال أنه لا علاقة له بها، وأن أحمد يتحدث عن ضربها أمام الجميع، كان يريد أن يخضعها ويسد عليها كل الطرق، وأضاف أن أحمد شرير وبلا ضمير أو خلق، في البيت وجد بعض ملابسها، أخذ يشمها ويحتضنها، وشعر أنه استعادها، ولكنه لم يستطع النوم، تذكر أنها الآن في أحضان أحمد.

في اليوم التالي شعر إيهاب بطول الوقت، تنامى في نفسه الغضب، شعر أن الصفعات التي يوجهها أحمد إلى زينب كانت موجهة إليه، مر على أصدقائه إيمي

---

[135] (1) الروائيون، ص 795.

[136] (2) المصدر نفسه، ص 796.

وعبد الفتاح في منظمة التعاون الآسيوي- الإفريقي، استقبلوه بحرارة، وشعروا بأنه غير طبيعي، اتصل بفهمي فأخبره أن زينب حضرت وأخذت إجازة لمدة أسبوع، وأن أحمد جاء لدوامه كالمعتاد، خرج من عندهم مسرعا ولكنه لم يجد زينب في بيتها أو بيته، انتقل بين بيتها وبيته أكثر من أربع مرات، كان مرتبكا ويسير على غير هدى، زار هنية التي حاولت أن تخفف عنه، قالت له أنه أراد أن يحدد علاقته مع زينب من طرفه فقط، أرادها زوجة وحبيبة ونصف خادمة ونصف مومس، وأحيانا كان يريدها أن تختفي تماما، قالت إن ذلك لا يتم إلا مع الملابس، أما تعاونها مع المباحث وأحمد فهذه مشكلتها.

مرت أربعة أيام بدون أي خبر عن زينب، قيل أنها في الإسكندرية، قدر غالب أنها إن غابت ثلاثة أيام أخرى فسينساها تماما، قرر أن يعود إلى الرواية ويكتبها، ولكنه فوجئ عند عودته إلى البيت أن زينب كانت موجودة، كانت قد ملأت الثلاجة بالأطعمة، وطبخت له طعاما وجلست بانتظاره، كان غاضبا أخبرها أن تأخذ كل ما أحضرته معها، وكان يجيب عن أسئلتها بإجابات قصيرة، قالت إنها لم تصنع أي علاقة مع حمادة لأنها لا تحبه، بل تحتقره، ثم قالت أنها غير ملزمة نحوه بشيء، وهو غير ملزم بشيء أيضا، وأضافت أنها أحبته بجنون ولكنها عرفت أنه يحب أخرى هي الكتابة، وهي لا تقبل أن يكون لها ضرة، وقد لاحظت أنه أخذ يسعى للتخلص منها، وأصبح يكرهها، عندما حاولت إبعاده عن الكتابة، وقد تكون استحالة امتلاكه هي ما جعلتها متعلقة به.

قالت لماذا لا نبقى أصدقاء، وقالت أنها تفكر في مستقبله، شعر إيهاب أن زينب تعيد إنتاج المومس الفاضلة، المومس التي تضحي من اجل من تحب، نظر إلى وجهها وفكر أن حمادة يصفعها على هذا الوجه الجاد المتفلسف، فكر أنها تلعب لعبة المومس العريقة التي تثير الرجل ثم تمتنع عنه لتسيطر عليه، قال إنه جائع فحضرت الطعام بسرعة، كان لها ذوق رفيع في الطعام، قال لها: كيف توفقين بين شخصيتك وطعامك،

قالت أن إعداد الطعام ممتع كالجنس، بعد الطعام مارسا الجنس بجنون، وفي الليل كذلك، في الصباح غادرت إلى العمل وهي تسأله عن تفيدة و تصفها بالمومس الفاضلة.

بدأ إيهاب بكتابة رواية تسجيلية عن حياة زينب، فكان يجلس معها ويسألها عن حياتها بالتفصيل، " **لم يعرف إيهاب مثل هذه المشاعر. مشاعر الغيرة والرغبة المستحيلة في امتلاك زينب منذ ولادتها**"[(1)137]، اتصل بهنية وأخبرها أنه سيمر عليها لأمر هام، كانت مشاعر هنية تجاهه مزيجا من الاحتقار والشفقة، كانت ترى أن إيهاب فقد احترامه ورجولته بتعلقه بعاهرة قد حولته إلى خرقة بالية، كان إيهاب يشعر أن صورة العاشق الغيور المهان السائر نحو الحضيض ما هي إلا قناع بالغ الجدية لعمل ثوري حقيقي، وفتح جديد في التقنية الروائية، وقد جعله هذا قويا إذ أصبح باستطاعته مراقبة إيهاب المنهار بموضوعية، وكان يتوقع أن تفهم كل من هنية وتفيدة موقفه.

طلب من هنية بما أنها من المنصورة وصديقة زينب، شهادتها، وشهادة منال وهي الفتاة التي سكنت عندها زينب وهي في السنة الجامعية الأولى، تحدثت هنية عن زينب، وكان أهم ما في حديثها ما قالته عن زينب قبل مجيئها إلى القاهرة، ثم اتصلت بمنال وودعتها إلى الغداء، عندما شاهدها إيهاب وجدها على غير ما توقع، كانت طويلة ونحيلة، وحيوية ولكن حيويتها لا تعبر عن أنوثة، وبدت عصبية جادة تلك الجدية ضيقة الأفق، ومشحونة بتوتر لا يهدأ، عندما سألها إيهاب عن زينب، قالت إنها مومس تبيع جسدها مقابل الفلوس.

ما سمعه إيهاب من منال وضح الكثير من جوانب حياة زينب، ولكنه استثيرت في نفسه الغيرة بشكل كبير؛ "**كان إيهاب مخدرا بنشوة الألم. الصفعات الموجهة إلى زينب كانت موجهة إليه**"[(1)138]، قالت إن زينب ومنذ أن تعرفت على إيهاب تغيرت وفرضت شخصيتها على حمادة وغيره، ولكنها عادت إلى الانهيار، قال إيهاب أنا الذي

---

[137] (1) الروائيون، ص 851.
[138] (1) الروائيون، ص 859.

دمرتها.

عندما أراد إيهاب أن يغادر، قالت هنية أن منال تصلح لإيهاب، ولكن عليه أن ينهي علاقته بزينب، قال إن ذلك سوف يحدث، وقد يكون حصل من ناحية فعلية، أخذ يفكر وهو في طريقه إلى البيت، شعر أن منال نسمة رائعة في جوه الحار المثقل بالألم، عاد إلى البيت ولم تكن زينب موجودة، فراح يصوغ معها حوارا طويلا حول علاقتهما، كان كل منهما مازوخيا وساديا بشعوره، هي باستمتاعها بإهانة حمادة وضربه، وهو بمتعة تلك الإهانة الموجهة إليه بشكل ما، قرر أن يذهب إلى زينب ويبلغها بانتهاء العلاقة بينهما، أما الرواية فقد كانت لعبة منه للاحتفاظ بها.

وهو يمشي شعر إيهاب بأنه يتقمص دور القواد أو الستار الذي تمارس زينب وراءه مغامراتها، عندما وصلها فتحت الباب بسرعة، كانت مشتاقة له وجميلة وطيعة، قال لها بأنه يحبها وكأنه اكتشف أمرا جديدا، مارسا الجنس واسترخى وهو يشرب القهوة قال لها حكاية غريبة من تاريخ الجبرتي، عن رجل قتل زوجته وجاريته اللتين رقصتا مع الفرنسيين، حدست أنه جاء لينهي العلاقة معها، عض كتفها حتى أدماها، " **وانبثق ذلك المزيج من العنف والرغبة في داخله استقبلته بضراعة ومتعة، استسلمت له، وأصبح العنف والإيذاء هما التعبير عن الرغبة**"[139](2)، سألها أتعرفين لماذا أتيت هذا اليوم، قالت إنها تعلم أنه جاء ليقطع العلاقة بها، ولكن ذلك لن يحصل لأنها مصيره.

في لقائه بزينب كان قد أعد مسبقا ما يريد أن يقوله، قال إن الجوهري في حياته هو الكتابة وأنها كانت سببا في انقطاعه عن الكتابة، وخصوصا حين أعادت علاقتها بحمادة، أما الجوهري في حياتها فهو التوتر الذي لا هدف له ولا موضوع، " **تدفعين الأمور إلى نهاياتها وتفرغينها من كل معنى. فلا يبقى إلا التوتر**"[140](1)، تواردت الأفكار على ذهنه دون تخطيط، كان يعلم أنه يمارس خدعة ما، فهو غير قادر على إقامة علاقة ثابتة، ويريد من زينب أن تجعله قادرا على هجرها، أن تسهل له ذلك، قالت وما

---

[139] (2) المصدر نفسه، ص 873.

[140] (1) الروائيون، ص877.

المطلوب مني؟ قال أن يكون هناك أمر جدي في حياتك ومنه تنطلقين.

قالت إنها لا تقبل الحياة الرتيبة؛ الزواج، الأطفال، الإجهاد الجسدي، الخوف،.. حياة مملة من موت إلى موت، أضافت بأنها جربت كل شيء، وإن الرد على المجتمع الذي سطحنا هو بممارسة المتع الجنونية؛ المخدرات والدعارة، لم يعد أمامنا إلا بناء الأسطورة أو التحول إلى كائنات تافهة، قال إن لينين طرح الخيار الثالث، وعلى كل حال الأسطورة أفضل من الانحطاط، قالت إن الجادين والمنحلين في نفس المأزق، وجد أن كلا منهما قادر على إيجاد حجج قوية، وشعر بالإعياء، قال إنه سيغادر، ويعود في الغد لإكمال الحوار.

طلب القهوة فقالت إنها وأثناء نقاشهم قررت قرارا وتحتاج خلوة بسيطة لصياغته، وعندما عادت تحمل القهوة، قال في نفسه: أية فتاة أخرى توازيها، قالت إن قرارها الامتناع عن الرجال عداه، والعودة إلى الأصول والقراءة، فاض قلبه بالحنان، غادر وقد قرر أن يذهب إلى إسماعيل ويخبره بأن مشكلته هي في البعد عن السياسة، ويطلب منه مساعدته، رحب به إسماعيل وهنية، قالوا إن منال تحبه، قال إنه يريد أن يعمل عملا سياسيا ويحتك بقوى التغيير ويتفاعل معها، قال إسماعيل أنهم في الحزب قرروا إقامة مجموعة من الندوات الفكرية والسياسية والأدبية، وحسب خط سياسي واضح، ويريدون مشاركته، قال إنه على استعداد.

شعر أيهاب بأنه عاشق لمنال، اتصل بها من العمل وأخبرها بأنه يريد أن يراها، تواعدا ثم مر بها وذهبا إلى بيتها، كانت قد عرفت أنه سيراها فأعدت غداء، سألته: ماذا قالت زينب عندما قطعت علاقتك بها، قال إنها عزمت على قراءة رأس المال وكانت وهيجل، قالت إن القراءة ليست مهمة، المهم هو الممارسة، عرف أنها عضو في التنظيم، واستنتج سبب حماس إسماعيل وفهمي وهنية لها، في الطريق شعر إيهاب أن منال فقدت جاذبيتها، وفي بيتها وعندما رأى صديقتها فاطمة، عرفها على الفور، كان يراها وهو يعمل في وكالة أنباء الصين، وأحس أنه عاشق لها.

خرجت فاطمة وهي ترتدي ملابس مضيفة طيران، كانت ستسافر، قالت منال لإيهاب إن بإمكانه النوم في غرفة فاطمة، كانت الغرفة مليئة بالتحف، وفيها جهاز تكييف، نام عاريا، ثم أفاق وكانت منال قد أحضرت القهوة، كان يسأل عن فاطمة عشرات الأسئلة، حتى احتجت منال، قالت له أن يبيت عندها، كان يراقبها ويشعر أن كل ما تقوم به بدا له حركة نموذجية للزوجة، نام بعد الثالثة في غرفة فاطمة، شعر أنها تحقق خطتها بإتقان، في الصباح انكشف له وجه المرأة القديم جدا والمنسي، أتت له بالعصير، وهما يشربان شعر بأنه أمام لحم المحارم الودود، المعيب القاتل للشهوة، والمرغوب على نحو ما.

كان طعام الإفطار فخما، قرع الجرس فلم تفتح وقالت إنها صاحبة فاطمة، ولم ترد على الهاتف، كان سعيدا لانغماسه في جو بيتي بهذه التفاصيل، كان يتأمل جسمها بإحساس جمالي لا أثر للرغبة فيه، عندما أعدت القهوة قالت إنها وضعت نقطتين من سائل عجيب أحضرته فاطمة من الهند يجلو الصدر ويشفي من الزكام، كان كلما أبدى إعجابه بشيء تقول إنها يمكن أن تعطيه منه، كانت الصعوبة التي تتخلى بها منال عن ممتلكاتها تذكره بالقيمة المبالغ فيها التي يضفيها القرويون على الأطعمة، كان منذ مدة طويلة وهو يعيش في مجموعات قيمها الوحيدة هي الأفكار، ولا تقيم أي وزن للأطعمة، **"تعيد له منال عالما نسيه فاعتقد أنه انتهى"[(1)]**.

ظل إيهاب في بيت منال مع شعور بالراحة يقوده إلى استرخاء لذيذ، اتصلت هنية وسمع منال وهي تقول اعتقلته عندي، عندما أفاق من النوم بعد ذلك شرح لمنال مشكلة الكتابة الروائية التي تنتزع الإنسان من واقعه، تصبح الرواية هي الحياة نفسها، وفي ذلك توتر يشبه الجنون، في مساء الجمعة كانت منال قد قررت أن تمنح نفسها له، ولكنه اكتشف وفي اللحظة الحرجة أنه عنين ولا فائدة، قام وبدا يلبس ملابسه وهي كذلك، في تلك اللحظة حضرت فاطمة من السفر، بدأت منال بالبكاء وهي تعانق فاطمة وتقول: لا فائدة، وبقي إيهاب في الصالون وحيدا.

خرجت فاطمة بعد قليل وصنعت قهوة، وهما يشربان القهوة قالت إن منال ليس لها تجارب جنسية، أو لها ولكنها فاشلة، وأضافت أن منال عندها رعب من الجنس،

[(1)] (1) الروائيون، ص 912.

وتصورت أنها ستنجح هذه المرة، ولكنها تحبك، خرج وعاد إلى بيته وجد زينب في انتظاره، سألها متى جاءت، فقالت من يوم أن ذهبت عند منال، وعندما ضمته كان متصلبا ولكن الرغبة في داخله، قالت له هل أصابتك منال بعدواها؟ إنها ليس لها في الرجال، طلب منها طعاما، كانت تحاوره - وهي تعد الطعام- حول أفكار كانت، قال لها إن العلماء تحدثوا عن نهاية الكون ولم يتحدثوا عن بدايته، رأى أن من المستحيل أن تتحول الشمس إلى كتلة باردة بعد خمسة بلايين سنة، قال عندي إحساس أن قوة ما يمكن أن تتدخل في اللحظة المناسبة.[(1)142]

شعر غالب بالرغبة وتوجه مع زينب إلى الفراش، ولكنه اكتشف أنه ما يزال عنينا، راحت زينب تخفف عنه وتقول أن ما يجري معه صدمة وستنتهي، وظل طول الليل وهو يحيل جسدها إلى مادة لاختبار ذكورته، في الصباح ذهب إلى العمل مشيا على الأقدام، وتذكر ناديا الفتاة التي كان يحبها في الخمسينات، وقد اختفت الآن، تذكر المومس التي شاهدها في الإسكندرية، تذكر المرأة التي تعمل بالتدليك وصعدت معه في المصعد.

لدى خروجه من دوامه توجه إيهاب إلى أحد المقاهي، وقابل شابا كان يعمل في المباحث، كان له مغامرة جاسوسية في إسرائيل، وكان يساعد الأدباء الذين يقعون في مشاكل مع المباحث، كان يبحث عن أديب يحول قصته إلى فلم أو رواية، قال إيهاب أنه سيقوم بذلك، كان فرح الشاب كبيرا، طلب له القهوة، وأخبره عن نوع من الحبوب تسمى سايانايد، قال إنها تنهي الحياة خلال ثانية، طلب منه إيهاب حبتين، يريد استعمالها لقطط كبيرة تهاجمه، ولما عاد إلى بيته وجد زينب قد نظفت الشقة بشكل ممتاز، قالت إن عندها مفاجأة له، أخرجت زجاجة صغيرة فيها سائل أخضر، وقالت

[142] (1) في أواخر أيام غالب هلسا بدمشق، كان يعيش ظروفا صحية ونفسية صعبة، وقد روى أنه شاهد على شاشة التلفاز حديثا حول تحول الشمس إلى كتلة باردة بعد خمسة بلايين سنة، فكان أن أصابته حالة من الاكتئاب جعلته لا يغادر منزله لعدة أشهر ويستغرق في النوم لمدة 16 ساعة في اليوم، فكان أن اصطحبه صديقه سعد الله ونوس إلى الدكتور جمال الدين الأتاسي الذي وصف له، كما قال، كمية محترمة من المهدئات. انظر أبو نضال، نزيه: غالب هلسا، ص34.

أن تفعل العجائب، قالت إنها أحضرتها من صديقتها فاطمة.

أخبرته عما حصل بينها وبين حمادة، فنهشته الغيرة، ثم استولت عليه رغبة في إهانة الذات، قال:" **حتى لو حصل، فدا حقك. مش معقول تعيشي راهبة مع رجل عنين. بس كنت أتمنى انه يكون شخص تاني غير حمادة**"[(1)143]، كانت رغبته في تعذيب الذات لا تقاوم، ظل يسألها عن علاقتها بحمادة، وهل كان يضربها، وهل صحيح أنها كانت تستمتع بالضرب، وأنه لن ينسى يوم نقابة الصحفيين، كانت تحاول أن تفهمه أنها تتصرف هكذا لأنها تحبه، وليس بدافع الشفقة كما يقول.

بعد الغداء سألها عن علاقتها بمنال، قالت إنها صاحبتها، ولكنها تهاجمها في كل مكان، وأضافت أنها تؤلف أخبارا وتصدقها، بعد شرب القهوة قال إيهاب إنه يشعر أن مشكلة العنة قد زالت، ولكنه ومع المجهود الكبير الذي بذلته زينب في إثارته بقي كما هو، كان يراقب زينب ببرود، كانت جسدا ممنوحا له وهو عاجز.

أصرت زينب أن يذهب إلى موعده مع منال إلى بيت إسماعيل وهنية، واهتمت بمظهره اهتماما كبيرا، وعند هنية لقيته منال راكضة ضمته وقبلته، سأل عن إسماعيل فقالت هنية أنه سيأتي، وسيأتي جميع الرفاق، شعر بالرغبة وأن عنته قد زالت، تركته هنية وقالت خذوا راحتكم، قال لمنال لماذا لا نمارس الجنس الآن، قالت إن ذلك مستحيل، فغادرها وخرج وعاد إلى شقته فلم يجد زينب، لم يستطع الانتظار فخرج، ذهب إلى شقة زينب لم يجدها، عاد إلى شقته وظل ينتظر حتى سقط في النوم.

أفاق على صوت زينب وفاطمة، سألتاه عن سهرته، فقال إنه لم يسهر لقد هرب، وقد خرج منذ الثامنة، ذهبت زينب تصنع القهوة وبقي إيهاب مع فاطمة، قال لها أن تبيت عندهم، وقالت من ستنام معك، نلعب عليك زهر، ولما سأل فاطمة عن منال قالت إنها لا خبرة لها بالرجال، إنها ما تزال عذراء، قال إيهاب وزينب تداعبه كطفل، أتعرفون ما هي أزمتي، إنها أنني أعيش في بلد رئيسه السادات، تحدث حتى يبهر

---

[143] (1) الروائيون، ص 943.

فاطمة ولكنه عرف أنه لم يحدث الأثر المطلوب.

عاد إلى المقهى وقابل الشاب ضابط المباحث، الذي أخذ يروي له بعض النكات المعروفة، ليدلل على قوله إن القاهرة ماخور، تحدث عن ممارسة الدعارة بين فتيات مثقفات وضباط مباحث، الحكاية المدهشة التي تبعث على الغثيان والتقزز هي أن زينب ومنال وفاطمة كن على علاقة دعارة مع السياح وضباط الشرطة، لقد لعبن بالزهر من تدخل مع الضابط أولا، تذكر إيهاب فاطمة وهي تنظر بتواطؤ إلى زينب عندما قالت نلعب عليك زهر.

هام على وجهه في شوارع القاهرة متشظيا ممزقا، تتناوب عليه الذكريات مابين القرية/ الفردوس الأمومي المفقود، والقاهرة المدينة الكبيرة التي يفقد فيها الإنسان خصائصه، عندما عاد إلى شقته، كانت زينب بانتظاره، سألها إن كانت تذهب إلى ضباط المباحث والسياح لوحدها، أم برفقة منال وفاطمة، في السرير كانت عنته قد زالت، عندما ذهبت زينب إلى الحمام استخرج حبتي السايانايد وابتلعهما، ولما رجعت زينب عرفت فورا أنه قد مات.

وبالرغم من أن غالب هلسا في خطابه الروائي يلجأ إلى إيهام القارئ بصدق مقولاته، من خلال إيراد بعض المفاصل الحقيقية من حياته الشخصية في حياة شخصياته الروائية، إلا أن بعض الباحثين قد استنتج أن غالب هلسا نفسه كان عنينا، وأن ما يحدث مع شخصياته ما هو إلا نتاج أزمة اجتماعية وذاتية، وعلامة على وجود عقدة داخلية وخلل نفسي ناتج عن تجارب خاصة رافقته منذ الطفولة[1]»، والحقيقة أن من التجني على الروائي أن يُعكس كل ما يلم بشخصياته من أحداث وأزمات على عقد نفسية مرافقة منذ الطفولة، ولا يجوز للناقد الاعتماد على جوانب من حياة الشخصيات الروائية للخروج باستنتاجات لا يوجد لها أي قيمة نقدية.

---

[144] (1) انظر خضير، ضياء: حكاية الصبي والصندوق، الجنس عند غالب هلسا، ص 120.

معالم الشخصية الإشكالية في خطاب غالب هلسا الروائي

وهكذا بدا أن الشخصية الإشكالية في خطاب غالب هلسا الروائي وإن بدت لبعض القراء والنقاد، تكرارا لتجربة واحدة، هي تجربة غالب هلسا نفسه[2]"، فإنها تحمل تجارب وأفكارا مختلفة وثرية، في كل مرة، والنفس الإنسانية كما يرى غالب هلسا تختزن تجارب الجنس البشري كله[3]"، بل والمملكة الحيوانية أيضا، وقد كان الإبحار في عوالم الإنسان الداخلية بداية لعالم روائي لا تنقضي تجاربه.

ولعل الشخصية الإشكالية تتشابه في خطاب غالب هلسا الروائي من حيث عامل ربطها الأساسي، وهو تجربة هلسا نفسه، ولكن تجربة هلسا تحمل في طياتها ثراء كبيرا ومتنوعا تشكل عبر قراءات غالب وثقافته الواسعة، والمنفتحة على كل الاتجاهات تقريبا، ومعاناة هلسا المتمثلة بالسجن والغربة والمطاردة، وأيديولوجيته المتمثلة بالفكر الماركسي، وبيئته التي أعطته حرية غير مقيدة بالقوانين الاجتماعية التي تحد من إبداع الأديب أحيانا.

ومن هنا كانت شخصيات غالب الإشكالية متعددة الوجوه والإشكاليات، تعدد وتعقد الحياة التي عاشها هلسا نفسه، فبدت متشظية عبر تشظي الواقع كما في "الضحك"، ومأزومة مفتقدة للاستقرار في عالم ضبابي الرؤية ومكد للذهن كما في "الخماسين"، ومهزومة سلبية غير راغبة بأي عمل بالرغم من الاستعداد لاستعادة البعد الثوري كما في "السؤال"، أو منكفئة على الذات مع شعور ممض بالمرارة وخيبة الأمل، نتيجة ما مر بها من هزائم وويلات كما في "البكاء على الأطلال"، أو غير قادرة على التغيير نتيجة القهر والاستبداد الذي تمارسه قيادة تدعي الانتماء إلى نفس الفكر، كما في "ثلاثة وجوه لبغداد".

أو تكون في مقتبل العمر ترصد تحول المجتمع من الزراعة إلى التجارة، وما

---

143 (2) انظر حتمل، جميل: غالب هلسا في الروائيون، المؤلف بطلا، الموت بطلا، عالم غالب هلسا، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1996م، ص46.

146 (3) انظر أبو نضال، نزيه: غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية، ص41.

يحدث من تحولات كبرى على صعيد فكري وسياسي واقتصادي واجتماعي كمـ ـ. "سلطانة"، وقد تمثل شخصية الكاتب الروائي الذي تتضافر عوامل عدة على تدميره، منها: هزائم الأمة، وقوى الجهل والظلام، والقهر والاستبداد، والشعور بالعجز، كما في "الروائيون".

وقد ظهر أن غالب هلسا قد طور من شخصياته الإشكالية بتطور تفكيره وثقافته ووعيه، وقد جاءت الشخصية الإشكالية في خطابه الروائي مواكبة لمستجدات الأيام والأحداث على الساحة الاجتماعية والسياسية العربية، فقد ظهر الراوي في "الضحك" شأنه شأن المثقفين العرب أو معظمهم في هذه المرحلة حاول أن ينتقم من هذا التوتر الذي أدى إلى الاضطراب الذي سببه له مجتمعه القمعي، أو حاول أن يتخلص من قلقه ورعبه وحصاره، بأن يغرق جسده في مستنقع نتن كما في علاقته بالبغي، أو يغرق نفسه ببحيرة صافية، كما في علاقته بحبيبته ناديا[147](1).

أما إيهاب في الروائيون فقد مثل الأحلام الوهمية للمناضلين وكيف تحطمت، وظهرت صور ذلك التحطم والدمار في جحيم العجز الجنسي، المعادل الموضوعي للعجز الإبداعي، وانتهى أمره إلى الانتحار، ثم توفي غالب هلسا بعد هذه الرواية، وكأن نهاية الشخصية الإشكالية كانت نهاية هلسا نفسه.

---

[147] (1) انظر باغي، عبد الرحمن: مع روايات في الأردن، ص100.

الشخصية الثورية:

المبحث الثاني: الشخصية الثورية:

بالرغم من أن غالب هلسا مثقف ثوري عاش معظم حياته مغتربا عن وطنه،[1] "ودفع بالكامل ثمن الصدق مع الذات والإمساك بجمرة الحقيقة: أكثر من ثلث قرن في المنافي والسجون العربية من عمان إلى القاهرة، ثم بغداد فبيروت وأخيرا في دمشق، قبل أن يعود إلى عمان ولكن وحيدا في كفن" [2]، إلا أن صورة المثقف الثوري في روايته لم تكن منحازة للثوري - كما يفعل الأدباء الإيديولوجيون عادة - بل إنه وجه سهام النقد إليهم بالرغم من تعاطفه الشديد معهم ومع قضاياهم، ولذلك فلم يكن البطل الثوري أسطورة مثالية، إنهم بشر يخطئون ويصيبون؛ لهم إنجازاتهم ونضالاتهم وتأثيرهم، ولهم أيضا نزواتهم وإخفاقاتهم، ومواقع ضعفهم.

ليلى في "ثلاثة وجوه لبغداد":

تعد شخصية ليلى في " ثلاثة وجوه لبغداد" شخصية ثورية متوازنة، وهي أصلا فتاة عراقية تعمل في مكتبة وزارة الثقافة، تعرف عليها "غالب" بطل الرواية في حفلة باذخة دعي إليها في إحدى فلل بغداد الفخمة، كانت فتاة جميلة تجيد اللهجة المصرية بطلاقة، ومثقفة تسأل عن نجيب محفوظ ومسيرته الروائية، " **روايات نجيب محفوظ الأخيرة. بحب أعماله الأولى أكثر، خان الخليلي، زقاق المدق، بداية ونهاية. وأكمل لها غالب: القاهرة الجديدة، السراب، بين القصرين... فقاطعته ضاحكة: قصر الشوق السكرية..إيه اللي جرى له؟ ولا أنا ذوقي متخلف! وضحكت. وضحك.**"[3] كما تختلط شخصية ليلى بشخصية سهام، إذ بعد فترة من الحوار مع غالب، سمع غالب رجلا يقول لها: " **– تفضلي استريحي عيني سهام.**"[4]، وتبقى الأمور مختلطة بين ليلى وسهام حتى آخر الرواية.

---

(1) غادر غالب هلسا الأردن لآخر مرة عام 1956م وكان عمره 24 عاما، ولم يعد إلا في كفن عام 1989م.

(2) أبو نضال، نزيه، غالب هلسا وبيليوغرافيا مصادره الكتابية، وزارة الثقافة، عمان، 2002م، ص 15.

(3) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 291.

(4) المصدر نفسه، ص 293.

وهي امرأة كبيرة في تفكيرها وقوية في عقلها تحاول أن تخفي الألم والحزن عن الآخرين بمظهر اجتماعي يمتاز بالمرح والطلاقة، وهذه سمات المقاتل الثوري النبيل، " **بدت مختنقة بعذاب مجهول. كأنها تسترجع ذكرى رهيبة مرت بها وما تزال تعكر صفو حياتها. وأدرك غالب ساعتها أن المرح والطلاقة اللذين أبدتهما، لم يكونا سوى المظهر الاجتماعي، القشرة الخارجية، الذي يحاول به الإنسان القوي، الكبير أن يخفي ألمه عن الآخرين."**[1].

إن شخصية ليلى التي تختلط بسهام حتى وإن كانت وهمية من صنع البطل فإنها جاءت ممثلة للفتاة المتمردة التي تفعل وتقوم بما هو صحيح وحقيقي، أو بما هي مقتنعة بصحته بغض النظر عن المجتمع، وظروفه وتقاليده ورفضه أو منعه، ولعلها اكتسبت هذا التمرد والخروج على الأطر الاجتماعية القاهرة للمرأة في المجتمع العراقي - بنظر غالب هلسا- أولا: من خلال انتمائها السياسي، فهي عضو في الحزب الشيوعي العراقي، والانتماء الحزبي للمرأة - وخصوصا الحزب الشيوعي- يكسبها حرية فردية خاصة، وتمردا على المواضعات الاجتماعية، لأن تحرير المرأة يتحقق في إحدى صوره عبر المشاركة في النضال من أجل التحرر الوطني، ذلك أن وضع المرأة لا يمكن عزله عن المجتمع في تطوره، ورؤية آلية هذا التطور في كافة بناه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وانعكاس ذلك في طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة والمحكومة بدرجة وعي المجتمع لمسألة اضطهاد المرأة.[2]

وثانيا: من خلال سفرها للدراسة في مصر، حيث قطعت المرأة هناك مسافة متقدمة، في اتجاه تحرر المراة، فالسفر إلى مصر والدراسة فيها أكسباها تحررا فريدا وخاصا، وقد أوحى **"غالب" البطل/الكاتب** والروائي، بأن علاقته بليلى جاءت من خلفية ذكريات لها علاقة بأيام الدراسة الجامعية في القاهرة، **" ثم، إن ما تقوله ليلى استمرار لحديث، أو ربما لأحاديث سابقة،ولكن أين؟ ومن غيره وليلى شارك فيه؟ كل ما يستطيع أن يتذكره هو قبة الجامعة، المفروض أن تكون خضراء، وهي ليست كذلك. "**[3].

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص294.

(2) انظر الصايغ، مي: غالب هلسا وقضية المرأة، مجلة أفكار، العدد 195، 2005م،عمان، ص114.

(3) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 295.

ولكن ليلى وإن كانت تنتمي إلى الحزب الشيوعي العراقي، فإنها ليست منعزلة عن المجتمع، إنها بالرغم من كل تعانيه المرأة في هذا المجتمع، من دونية وقمع واستغلال، هي التي دعت إلى هذه الحفلة، ويبدو أن الحفلة أقيمت على شرف غالب صاحب الفكر الشيوعي لدى قدومه من مصر،" **أجهد نفسه في التذكر، ولكن الذكرى تنفلت منه. اللهجة التي تحدثت بها لا تنتمي إلى مكان، أو بلد بعينه وهذا يعني أنه بإمكانها أن تنتمي إلى جميع الأمكنة. تبدو خارج سياق هذا الحفل، والمدينة كلها. ولكن من الواضح أنها تمتلك الحيوية والجرأة واللباقة التي تجعلها منسجمة مع المكان، وتعرف طريقها جيدا كأنها عاشت حياتها كلها في هذه المدينة، وبين هؤلاء الناس.**"(1)، إنها باختصار خارج سياق هذا المجتمع، غير أنها قادرة على الانسجام معه.

ويمثل الجنس عنصرا بنائيا مهما في معمار الشخصيات ومنها ليلى/سهام، فليلى هنا رمز للعمل السري الشيوعي، وما عملية الجنس التي تمت على المرجيحة، بين غالب وليلى، في حديقة الفيلا التي أقيمت فيها الحفلة، إلا عملية مكاشفة وتضامن حميمة بين أعضاء في الحزب، في لحظة صفاء ومودة، " **لم يكن ، لما يدور بينهما، علاقة بالجنس. بل إن تفاهما عميقا قد نشأ، وأدرك كل منهما- بعمق المأساة- المأزق الذي يعيشه الآخر، فتجاوز الاثنان الشكليات، وأخذا يبحثان عن وسيلة مناسبة وكفوءة للتعبير عن التعاطف والتضامن. وها هما قد توصلا إليها. كان ذلك أشبه بتهوين المصيبة عن أخ، تحتضنه أخته، تضع رأسه على صدرها وتواسيه**"(2).

أما ليلى فقد كانت في حالة اندماج حقيقي بالمواقف الحزبية، للحزب الذي تنتمي إليه، وهي بذلك لا تبالي بالمراقبة الدقيقة التي كانت تنصب عليها هي وغالب، أثناء الفعل الجنسي في

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص292.

(2) المصدر نفسه، ص327.

الحلم، من ثلاثة أحدهم زوجها، ذلك أن الفعل الجنسي ليس جنسا هنا، وإنما هو تعبير عن الالتحام والتوافق في المواقف بين أعضاء الحزب الواحد، بغض النظر عن الحدود الجغرافية، والعلاقات السياسية، والحواجز الاجتماعية والدينية أو الاقتصادية، مهما كانت، " **ثم توحد التوتر، والحنان، والألفة المتجاوزة للمواصفات الاجتماعية، والذكريات القديمة... توحدت، وذابت في متعة خالصة استغرق فيها غالب حتى فقدان الهوية والاسم."**[1].

وعندما اشتدت الأزمة على الحزب الشيوعي في العراق، واكتشفت قيادة الحزب أن ما يسمى اتجاها يساريا داخل حزب البعث الحاكم بقيادة نائب الرئيس، ليس إلا وهما، وأن القيادة المحافظة المتشددة، الراغبة في طحن كل ما هو غير بعثي هي كل حزب البعث الحاكم، وأصدرت قيادة الحزب الشيوعي بيانا دعت فيه أعضاء الحزب في العراق إلى التخفي أو الخروج إلى خارج البلاد، اختفت ليلى عند سهام في منزلها، حيث كان أهل سهام مسافرين، وكانت سهام تتردد في هذا الوقت على بيت غالب كل يوم تقريبا، عند ذلك قررت ليلى الاختفاء في بيت غالب، إلى حين تنفيذ خطتها في مغادرة البلاد تهريبا إلى سورية،وفعلا حضرت ليلى إلى بيت غالب، وقررت الاختفاء في الدور الثاني حيث كان يسكن أيوب.

عامر في "سلطانة":

جاء "عامر" من فلسطين إلى "ماعين" منذ زمن طويل، قريب من مجيء الشريف عبد الله، وتزوج من إحدى فتيات القرية خديجة النواعسة، جاء وحيدا من منطقة الخليل، فسكن في القرية، وعومل كواحد من أهلها، خاصة وأن بعض قبائل القرية والمناطق المحيطة بها جاءت أصلا من منطقة الخليل، أو هي تزعم ذلك، وتزوج من خديجة التي لم تكن جميلة ولا من بنات الشيوخ، وكان باب الزواج من أحد رجال القبيلة - على الأغلب- مغلقا أمامها.

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص328.

بدأ بالتجارة واستمر بها حتى النهاية، ولم يكن أمامه طريق آخر، فلا هو صاحب أرض، ولا يملك أغناما وجمالا، فتح دكانا صغيرا في الحارة الغربية، وأخذ الدكان يكبر والتجارة تتسع ببطء، ولكن ولادة أربع بنات ثم هزيم آخر العنقود خلقت صعوبات لم يكن تجاوزها سهلا، واضطر في النهاية أن يكمل دخله بتهريب الحبوب إلى فلسطين عبر نهر الأردن، وتهريب زيت الزيتون من فلسطين إلى الأردن.

لم يكن عامر يستطيع دخول فلسطين بشكل رسمي، قيل أنه مطلوب للسلطة هناك لأنه شارك في عمليات ضدها، وقيل أنه مطلوب لثأر، ولكنه كان يحس بألم في ساعده الأيمن، ثم أحس بكتلة صلبة تتحرك في ساعده، في منتصف المسافة بين الكوع والرسغ، ثم ضغط وإذ برأس رصاصة يشق جلد الساعد.

تحسنت حال عامر بعد زواج بناته الأربع، تزوجن برجال من النواعسة، وقد كن مؤدبات وقويات الأجساد قادرات على العمل، وكانت مطالبهن متواضعة، أما المشكلة فقد كانت في هزيم، " **لم يكن الولد راضيا عن قدر الفقر. لم يأخذ رفضه طابع الاحتجاج المعلن، بل صورة الحلم.** "[1]" كان في كثير من الأحيان عاجزا عن التمييز بين الحلم والواقع، كان يروي حكايات عن قبيلته في الخليل، التي كان الدم يسيل فيها كالماء، كما كان يتحدث دون خجل عن نساء فاتنات وعشاق، وقصائد شعر.

كان سلوك هزيم وتصرفاته تغضب عامرا، الذي كان يحاول أن يوضح للولد حقيقة وضعهم واهتماماتهم؛ " **كشف أبوه له نفسه مرة- همسا في خلوة- وقال له: لسنا بدوا، نحن أهل مدن، لا نركب الخيل، وفي الخليل لا تظهر النساء سافرات. وأضاف عامر: الفلسطيني لا يفخر بمثل هذه الأمور، بل يفخر لأنه حارب الإنجليز واليهود.**"[2]"، لم يستجب الولد لوالده، فلم يعد يكلمه في ذلك، لقد كان يخاف من أن يذيع الولد كلامه على الناس، وقد كان يعتقد أن الولد نصف مجنون.

(1) سلطانة، ص 135.

(2) المصدر نفسه، ص 135.

لقد صمت عامر ولم يعد يحدث ابنه في شيء، وبقي محافظا على عالمه السري ذاك، وكان بعض الثوار يمرون به في طريقهم، فيأخذون بعض السلاح الذي اشتراه، وقد مر أحد قادة ثورة عام 1936 ببيته مرة ونام في منزله ليلة وهو في طريقه إلى العراق، وبقيت بقالته الصغيرة، على حالها، إلى أن كبر ابنه هزيم وطور التجارة إلى مخازن ضخمة.

أما زوجته خديجة النواعسة فقد بقيت علاقته بها قائمة على المودة والحب الصافي مدة خمسة وثلاثين عاما، " **كانت الزوجة ملاذه في غربته، وموضع سره. وكانت وحدها القادرة على فهم عالمه السري، عالم السلاح المهرب، والحرب ضد الإنجليز واليهود، والرجال الغامضون الذين يزورونهم سرا دون أن يثيروا أية ريبة. كانت ترى في زوجها صورة بطل يختفي في ثياب بقال، وكان سره موضع فخر صامت**"[(1)]، ولكن عامر وبعد أن كبر بالعمر وصار ابنه تاجرا كبيرا، فتنت الأم بالولد ووجهت ضربة قاسية إلى الأب عندما أعلنت انحيازها إلى ولدها.

لقد أخبرت الأم ابنها بأن والده ما زال يخفي بعض السلاح، فتخلص منه بسرعة، وهدد الوالد بأنه إن عاد إلى مثل ذلك فسيخبر عنه الدرك، صمت عامر وأخذ يتآكل ويسير إلى القبر دون أن يسمع كلمة عزاء واحدة من الزوجة والابن وقبيلة النواعسة، " **شعر أنهم قد حكموا عليه في قلوبهم بالموت**"[(2)]، ولكنه وقبل القبر بخطوة توقف، وبقي رجلا كبيرا عجوزا فترة طويلة.

---

(1) سلطانة، ص 141.

(2) المصدر نفسه، ص 141.

موسى السوالمة في "سلطانة":

تعد شخصية "موسى" في رواية سلطانة من أهم الشخصيات الثورية في خطاب غالب هلسا الروائي على الإطلاق، وهو رجل مثقف من أعضاء الحزب الشيوعي البارزين، ويعمل في وزارة الخارجية، تعرف عليه جريس في مقهى يرتاده المثقفون بعمان، أعجب بشخصيته القوية المؤثرة فيمن حوله، فعندما وصل موسى وبصحبته النائب أحمد المساعد، كان الكثيرون يحتفون بالنائب ويحاولون التقرب منه، في حين كان موسى يتعامل معه كأي شخص آخر: " **أما موسى فقد كان صامتا على وجهه تعبير اشمئزاز، وعدم مبالاة. كان أقل الناس اكتراثا بالنائب.**"[1].

أما الفراش إسماعيل فقد كان موسى يحترمه بشكل خاص؛ فعندما طلب القهوة للحاضرين، واعترضوا على ذلك جميعا، لم يكترث موسى،" **أعجبت به لأنه لم يخص النائب بالاستفسار عن طلبه، بل ترك ذلك للفراش، كما أعجبت بتلك الرجولة التي صافح بها إسماعيل، دون تلطف زائد، أو برود**"[2]، كما كانت كلماته وتعليقاته الساخرة مؤثرة في الخصوم المناوئين له في الفكر، لقد أحرج محمود المعجب بالأمريكان، والذي كان يدافع عن أفكاره من خلال فيلم أمريكي حضره، مما جعل محمود يحاول مغادرة المكان، فاسترضاه موسى بقوله: " **- بنمزح معاك يا زلمة.**"[3].

ولم يكن ذلك هو نهاية المطاف بالنسبة لموسى، لقد حول الأنظار عن محمود، ببدئه حديثا جادا بالسياسة: " **قال إن أمريكا بدأت تتسلل إلى الأردن من خلال النقطة الرابعة، وأن أول من استجاب لذلك الإنجليز، فقد التقى قلوب باشا، قائد الجيش، مع عدد من الوجهاء، وقال لهم أن الأمريكان يريدون أن يزرعوا أجزاء من الصحراء حتى يأتي الجراد من السعودية ويأكل الأخضر واليابس في الأردن. ثم أضاف: - لكن يبدوان الأمريكان مرتبين أمورهم**"[4].

(1) سلطانة، ص 237.
(2) المصدر نفسه، ص 237.
(3) المصدر نفسه، ص 238.
(4) المصدر نفسه، ص 238.

وعندما بدأ النائب الديمقراطي أحمد المساعد بالحديث، كان حديثه ينم عن الضحالة وسطحية الفهم والأفكار، وكان الجميع معجبا بحديث النائب، إلا موسى؛ " **باستثناء موسى بدا الجميع معجبين بخطبة النائب"**[1]، ولم يكن ليتردد في فضح المنحرفين والحديث عن موقفهم، أما مع الأصدقاء وأعضاء الحزب فقد كان ودودا ولطيفا وتلقائيا في علاقته بهم؛ وعندما زاره جريس في مكتبه بوزارة الخارجية، ورغم أنه وجده مشغولا بأعمال كثيرة يجب عليه أن ينهيها، وبالرغم من حداثة سن جريس، إلا أن جريس أحس بأنه وموسى قد أصبحا أصدقاء.

وبدا موسى كريم النفس، كان يضيف الجميع عن طيبة نفس، رغم أن حالته المادية كانت متوسطة، ولم يكن انفعاليا حار العواطف، كما كان يتوقع جريس أن يجد شخصية الشيوعي، وعندما أخبره جريس بأنه ينوي الدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت متحرجا أن يسحب كراهيته لأمريكا على الجامعة، فوجئ به يتحدث عن مزايا التعليم الجامعي، ومزايا الجامعة الأمريكية بشكل خاص، متوقعا من الشباب أن يقدموا شيئا جديدا إذ فات الأوان على أجياله ممن لم يتموا دراستهم الجامعية، **"كنت أتصور الشيوعي انفعاليا، مليئا بالعواطف الحارة، مثل أصدقائي الثلاثة. بل كنت أتصور أنهم في المستويات العليا أشد انفعالا، وحماسا. ولكن هذه الشخصية الاجتماعية اللبقة، المتحفظة بدت غريبة"**[2].

وكان لموسى وهو يتحدث على الهاتف أسلوب الموظفين القدماء، بمعنى استخدام عبارات التفخيم في المخاطبة، وكان يمزج حديثه باللهجة الأردنية العامية، مما لم يعد الموظفون يستخدمونها، وكان مستمعا جيدا، " **عندما كنت أتحدث إليه كان يصغي بانتباه وأدب مبالغ فيهما"**[3]، وكان يتعامل مع الفراش باحترام، أما انتماؤه للحزب فقد بدا أنه قضى عمره كله في خدمته، بالرغم من انه لم يرتق إلى مناصب عليا في الحزب، إذ لم يتقدم موقفه الحزبي كثيرا.

---

(1) سلطانة، ص 239.

(2) المصدر نفسه، ص 289.

(3) المصدر نفسه، ص 289.

كان موسى يكثر من اقتباس التعابير الشيوعية، ينطقها بفصحى متقعرة، تبدو غريبة في سياق اللهجة العامية التي يستعملها، والتي لا تشبه لغة المثقفين التي أصبحت وسطا بين العامية والفصحى، وكان في شخصيته بعض المفارقات التي تجعل المتعامل معه يعجب بشخصيته، " **وقار الشيوخ ولغتهم التقليدية ومحافظتهم على المظاهر، وفي التعالي على كل ما هو شخصي وانفعالي، وتلك العبارات الشيوعية الجديدة المدهشة للغاية، وكذلك الجمع بين الشكل الغلامي والملابس ذات الطابع الوقور للموظفين القدماء، بما فيها استعمال حمالات البنطلون بدلا من الحزام؛ وكذلك المزيج من التعالي التقليدي لكبار الموظفين، والتعامل الندي والناضج مع أبناء الطبقات الدنيا. كما حدث مع اسماعيل، فراش النادي، وفراش مكتبه الذي كان يعامله معه دون تكليف**"[1].

لقد كان في شخصية موسى نوع من العمق والصلابة والأصالة يستحيل اختراقها، وقد بقي جريس يتابع أخباره بعد ذلك لأكثر من عشرين سنة؛ فلاحظ أنه أثبت تماسكا نادرا في مواقفه السياسية، وثباتا في مواصلة النضال، لم يخضع للإغراءات رغم إلحاحها، ومع ذلك ظلت ثقافته السياسية محدودة، كما أن موقعه الحزبي لم يتقدم، عندما انتهى الدوام وكان موسى يحدث جريس حول قضية أميرة، أصر على دعوة جريس للغداء في مطعم السنترال الذي كان من المطاعم الراقية في وسط عمان، وهناك عرف جريس علاقة موسى بالجمهور، " **كان جميع الجرسونات يعرفونه، ويعاملونه بمودة واحترام؛ كما كان يعرف أسماءهم، ويتحدث معهم بألفة. عدد كبير من الحاضرين حيوه، بعضهم صافحه**"[2].

كان على معرفة بكل الطبقات، ويؤدي للجميع خدمات كثيرة دون مقابل، وهو مسرور، فقد صافح رجلا في المطعم وطلب مقابلته، أخبره موسى أنه سيمر ببيته في الثامنة مساء، كان هذا الرجل وزير خارجية سابقا، وعندما خرجا ركبا في سيارة

---

(1) سلطانة، ص 292.

(2) المصدر نفسه، ص 296.

أجرة وكان يعرف السائق، طلب منه السائق المساعدة في قبول ابنه في المدرسة، ووعده موسى بحل مشكلته، كما سأله السائق إن كان يريد أن يترشح للبرلمان، وقال موسى: لحينها فرج.

من جانب آخر كان موسى من عائلة كبيرة وعريقة،" **كان والد موسى زعيم عشيرة كبيرة، ومالكا لأراضي واسعة جدا، وقد قام بدور بارز ضد الإنجليز، وشارك خلال حياته في المجالس التشريعية والبرلمانات الأردنية"**[(1)]، وبالرغم من انطباع الثراء الذي كانت توحي به حجرة الضيوف في منزله، إلا أنها لم تكن جميلة، ومن الواضح قلة العناية بها، وكان فيها زاوية للنحاسيات منها مجموعة من دلال القهوة التقليدية، كان موسى محبا للأصالة والتراث.

وكان موسى يحاول أن يحقق لحزبه مكاسب مختلفة، ويسخر في سبيل ذلك كل ما يملك من مال ووقت وجهد، ولكن ذلك لم يكن ليتعارض مع مصلحة الوطن، كان وطنيا يخدم كل ما هو وطني بإخلاص، لقد فهم من خلال قضية النائب وأميرة قصة دخول المخابرات الأمريكية، واستعدادها لتقديم خدمات كشف مخيم العقبة، لإسقاط الحكومة الحالية وتشكيل حكومة تابعة لهم، إنه من المصالح الكبرى التي كان موسى يدركها بوعي، كان يضغط باتجاه تحقيق الفائدة في فضح الفساد القائم، وتحقيق مكاسب وطنية، " **يريدني ألا أعد النائب بشيء، إلا إذا أبدى استعداده لإثارة موضوع مخيم العقبة. طبعا يهمنا أن يستمر النائب في معارضته، ولكن إذا كان وطنيا حقا، فعليه أن يكشف مسألة المخيم، والدور الذي تقوم به المخابرات الأمريكية"**[(2)].

---

(1) سلطانة، ص 298.

(2) المصدر نفسه، ص 305.

طعمة في "سلطانة":

تمثل شخصية طعمة في رواية سلطانة نموذجا للمناضل الثوري، الذي يدمره التصرف الأهوج للأحزاب العربية، فيتحول، تحت ضغط الظروف القاهرة، التي يمر بها نتيجة الظلم الذي وقع عليه، من الحزب أولا، ثم من المجتمع الذي لا يثق به بعد فصله من الحزب ثانيا، الى شخص انتهازي يقتنص فرصا بائسة لتعويض لن يمتلئ أبدا، فقد كان طعمة مناضلا ثوريا في بدايات عمره، كان عضوا في الحزب الشيوعي، وعضوا في اللجنة المنطقية لمدينة القدس، وكان يعود الى حجرته في المساء، ويخلع حذاءه فيكتشف أن السير المتواصل، والاستغراق في العمل الحزبي، قد جعلا أصابع قدميه تنز دما.

وكان طعمة قارئا نهما، **" قرأ روايات "الدم" و"الفولاذ سقيناه" و"مخلوقات كانت رجالا". وكان النوم يداهمه وهو يقرأ"**[(1)][11]، وكان يستيقظ نشيطا في الصباح، لم يكن يعاني هذا التمزق الذي يعانيه اليوم، ولم يكن يتخذ قرارات لا يستطيع تنفيذها، كان كل شيء واضحا ومحددا، ولكن الأمور سارت بشكل غير متوقع إطلاقا، كان في أحد الاجتماعات، قد قال بعض الكلمات نصف مازح، ثم ومن خلال الاستفزاز دافع عنها، وغادر الاجتماع.

لم يتغير فيه شيء، بقي هو ذاته، عاد الى حجرته في المساء وأعاد قراءة كراس "الاستراتيجية والتكتيك" لستالن، توهج ذهنه وصار لمظاهر الحياة العادية أسماء ومدلولات جديدة، **" لهذا السبب نام متأخرا. استيقظ على خبط عنيف ومتصل على الباب."الشرطة" قال لنفسه. وسار الى الباب مخدرا بالنوم، لم يتملكه الرعب بعد. عندما فتح الباب كان الرفيق أحمد يقف خلفه"**[12][(2)].
لاحظ طعمة أن الرفيق أحمد لا يحمل في وجهه أي ود، وقدر أمرا خطيرا قد

---

[11] (1) سلطانة، ص 388.

[12] (2) المصدر نفسه، ص 388.

حدث، سأله الرفيق أحمد عن صلاته بضباط مصريين كانوا يعسكرون في الخليل، كان ذلك صحيحا، ولكن طعمة كان قد قدم تقريرا حول لقاءاته بهم، كانا ضابطين ينتميان الى التنظيم الشيوعي المصري (الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني "حدتو")، ولكنهما استقالا من التنظيم بعد أن تبنى قرار تقسيم فلسطين، كانا يعتقدان أن "حدتو" اتخذت هذا القرار لأن أمينها العام هنري كوريل يهودي، وكانا يقولان أنه صهيوني متستر، وأن عندهما ما يثبت ذلك، وأنه على أية حال لا فرق بين يهودي وصهيوني، وكان طعمة يناقشهما بحدة؛ أن هنالك حلفا بين الرجعية العربية والصهيونية، وبالتالي هنالك حلف بين الشعب اليهودي والشعوب العربية.

استمر الرفيق أحمد بالتحقيق مع طعمة حول صلاته بالضابطين المصريين، ثم بدأ يسأله حول زيارة قام بها الى دمشق وبيروت، " **كان واضحا أنه يتهمه بإقامة صلات، دون علم الحزب، مع مجموعة من المثقفين انفصلت عن الحزب الشيوعي السوري- اللبناني، خلال حرب فلسطين لأنها كانت تعارض قرار التقسيم، وإقامة دولة يهودية في فلسطين. كما أيدوا دخول الجيوش العربية الى فلسطين**"[(1)]".

وكان طعمة يدرك أثناء هذا التحقيق أن عليه أن يغضب ويستنكر هذه الاتهامات التي لا أساس لها، ولكن الخوف والخجل لجماه، كان يشعر بأن عقله مشلول تماما، كانت الردود جاهزة في ذهنه، ولكنها تحتاج الى حماس غاضب لتخرج، وهذا ما كان عاجزا عنه، وعندما أشعل سيجارته وتناول كأس الشاي الفاترة، كانت ترتعش، عرف أن ذلك سيسجل ضده، وأن ارتعاشة يده ستكون الرهان الذي يؤكد صحة الاتهامات الموجهة إليه، " **كان يعرف كيف يتم توفير مثل هذه الوقائع، ويعرف جيدا كيف تتحول الى حكايات متماسكة، ثم الى أسطورة**

" (1) سلطانة، ص 390

تحكي كدليل على يقظة الحزب، وقدرته على اكتشاف العملاء في داخله"[1].
استمر النقاش طويلا وانتهى بقرار تجميده، أصبحت الأمور أكثر سوءا، وصارت أوضاعه النفسية صعبة ومريرة؛" **الجميع يتجنبونه، أو- إن اضطروا- يقابلونه بفتور. وتسربت إليه الشائعات، أنه على علاقة بالأجهزة الأمنية. كان رد فعله مزيدا من الارتباك والخجل"[2]**، وظل هو على حاله؛ لم يخطر له أن يغضب، أو أن يتخذ موقفا هجوميا من الحزب، كان يأمل أن يأتي اليوم الذي يكتشف فيه الحزب الخطأ الذي ارتكبه بحقه، كما تكونت لديه خطة أخرى، كانت مزيجا من المشروع الذاتي وحلم اليقظة؛ " **قرر أن يقرأ جميع الأدبيات الماركسية، باللغتين الإنجليزية والعربية، التي يستطيع الحصول عليها. وقرر أن يتابع أخبار السياسة وأدق تطوراتها، وأن يقيم، في الوقت ذاته، أوسع العلاقات مع أفراد من كل الطبقات. كان يهدف من وراء ذلك اجتذاب العشرات الى الفكر الماركسي"[3]**.

كان يعتقد أن الحزب سيدرك أية خسارة خسرها بفصله، وسيسعى لاستعادته، وعليه أن يكون على درجة من الاستعداد لاستقبال هذه اللحظة، كان يقرأ بتركيز شديد، فاكتشف أن العمل الحزبي، كان قد أبعده عن الإطلاع على الكثير من جوانب المعرفة، فكر في كتابة تقرير للحزب، ولكنه كان يكتشف أن ليس عنده أفكار كافية تبرر كتابة التقرير، فيتوقف على أن يكتبه بعد أن يتسع إطلاعه، ولكنه لم يكتب ذلك التقرير قط.

لم يمض مشروع طعمة كما قدر له، بالنسبة لاجتذاب الشبان الى الماركسية، اكتشف أن المسألة ليست سهلة، كان يشعر أنه يغتصب حقا ليس له حين يتحدث عن الماركسية للآخرين، وكان يخاف ويخجل من سؤال يتوقع أن يوجه إليه إذا كنت ماركسيا حقيقيا فلماذا فصلوك من الحزب الشيوعي؟ كما واجهته مشكلة

---

[14] (1) المصدر نفسه، ص 391.

[15] (2) سلطانة، ص 391.

[16] (3) المصدر نفسه، ص 391.

أخرى، وهي أنه لم يعد قادرا على التركيز في القراءة، كانت أحلام اليقظة تسيطر عليه، كانت الأحلام تتركز في اللحظة التي يكتشف فيها الحزب أنه قام برغم فصله باجتذاب العشرات من الكوادر المثقفة المدربة الى الحزب، وكانت بنية الحلم ثابتة تكرر نفسها كل مرة.

وحين انتقل من القدس الى عمان، وصار مدرسا للغة الإنجليزية، اعتقد أنه سيبدأ حياة جديدة، ولكنه اكتشف بعد مضي فترة قصيرة، أنه يكرر نفس نمط الحياة التي كان يحياها في القدس، كان يتوقع أن يجد حياة جديدة تنسى ماضيه، **" ولكن الحزب موجود، هنا في عمان، كما هو موجود في القدس، والعداء الذي يواجهه به في عمان هو ذاته، وإحساسه بأنه يمارس حقا مغتصبا حين يتحدث عن الماركسية أصبح أكثر حدة"**"(1)".

وهناك في عمان حدث تحول عميق في شخصية طعمة، لقد يئس من العلاقات مع من حوله، وتعب من محاولات اغتصاب حق الحزب في الدعوة الى الشيوعية، **" عنبته، في البداية، علاقات مع أناس يبطنون له الاحتقار والعداء، ويعاملونه بذلك التهذيب البارد الذي لا يتيح مجالا لعلاقة إنسانية عميقة. ولكن هذه العلاقات صاغته وأعادت تشكيله"**"(2)"، لقد تحولت شخصية طعمة، ولم يعد ثوريا، لقد أصبح أقرب ما يكون الى شخص انتهازي.

مصطفى في "الروائيون":

تعد شخصية مصطفى في رواية الروائيون لغالب هلسا استمرارا لنفس الشخصية في رواية السؤال، وكان مصطفى قد أصبح شخصية ثورية، حين انتقل الى الفعل، وعاد الى نشاطه الحزبي، من خلال إعادة إصدار دورية تهتم بالفكر الماركسي، والتنسيق مع بعض الأصدقاء الماركسيين الذين يتبنون الفكر الشيوعي

---

[17] (1) سلطانة، ص 393.

[18] (2) المصدر نفسه، ص 393.

ضمن الخط الصيني، ولعودته الى النشاط الثوري؛ اعتقلته السلطات وقد ترك زوجته تفيدة، التي ساهمت في إنعاش ثوريته وتغييره وحفزه للعودة الى العمل الثوري.

وفي السجن أصيب مصطفى بالقلق البالغ بعد أن وصلته رسالة من زوجته تفيد بأنها طالبة في الجامعة قسم اللغة الإنجليزية، وأنها قد كتبت مسلسلا تلفزيونيا، وقد وافق أحد المخرجين أن يخرجه للإذاعة بعد إجراء بعض التعديلات عليه، وكان مصطفى يعلم ما يجري للكثير من الفتيات اللواتي ينتظرن في مكاتب الإذاعة، وما يقال عنهن، وكيف يعاملن كمومسات، وفي أحسن الأحوال يعاملن باعتبارهن بلهاوات، وكان يعلم أن تفيدة بتاريخها القديم قبل زواجه منها، وقلة خبرتها بما يحدث في مكاتب الإذاعة، وقيامها بالكثير من الأعمال دون تردد، كان ذلك كله يشكل مصدر قلقه وقلة نومه.

إلا أن إسماعيل زميله في السجن أوضح له أن ذلك لا يمكن أن يحدث مع زوجته تفيدة؛ فهناك مجموعة من الرفيقات والرفاق لن يدعوا تفيدة وحدها، كما أن ظروفها الجديدة لا تسمح لها، فعندها الطفلة سناء والدراسة الجامعية، ثم أن شخصيتها قوية، وليست بسيطة ولا ساذجة، أما تاريخها القديم فقد كانت تبحث عن نفسها، وقد وجدتها الآن بزواجها من مصطفى، وأن ممارستها للعمل السياسي بالتزام قد جعلها متماسكة وغير منحلة، وقد سرّى هذا الحديث عن مصطفى، وأعاد له ثقته بزوجته.

وكان مصطفى بعد ذلك يجلس يستحضر تفيدة، ويتذكر يوم أن كان عائدا الى البيت وشعر أن السفاح في بيته عاد بسرعة ومعه السائق الذي أوصله، وعندما دخل شقته وجد تفيدة قد وضعت الوسادة فوق وجه السفاح، وجلست فوقها، ولما رآهما السفاح قلب تفيدة وفر هاربا، بينما انقلبت تفيدة على ظهرها.

كـان مصـطفى يسير فـي نفس الطريـق عنـدما واجـه إيهـاب، همس لـه: جـائزة القصـة ورسـالة غراميـة ذاك كثير في يوم واحد، كـان مصـطفى يفكر فـي المـأزق الذي يقع فيه الشيوعيون، كان كلما ازداد معرفـة بـالخط الصـيني وتفاصـيل السياسـة الصينية يزداد نفوره: الملونـون ضـد البيض، تأييد مذابح الشيوعيين فـي العراق، محاربـة التصـنيع فـي العـالم الثالـث، السـعي لإحـداث مجاعـة فـي كوبـا وإسـقاط كاسترو، كمـا يفكر بـالخيار الآخر، هل يوافقون علـى أنفسـهم؟ كـان إلغـاء الحـزب بالنسبة لـه أن تكـون الحيـاة بـلا معنـى، كمـا حـدث لـه قبل أن يتعرف علـى تفيدة، وعنـدما كانـت علاقتـه بابنـة أختهـا سـعاد، لـم يتوقـف نشـاطه السياسـي فقـط، وإنمـا تعطلت فاعليته العقلية والروحية.

ذهـب مصـطفى وتحـدث مـع إسـماعيل عـن مـأزق الوضـع بـين مطرقـة الحـل وسندان الخـط الصيني، قال لـه إسماعيل أن أتباع الخط الصيني ليسوا أتباعـا للصـين ولا يوافقونها على كثير مما تفعله، إنهم يتبنون أساسياته فقط، قال مصـطفى لمـاذا لا تضعون مبادئ وأفكارا وتنطلقون منها، قال إسماعيل إن ذلك ممكن.

عند خروجه من السجن وعودته الى بيته، أدرك مصطفى ومـن اللحظـة الأولـى أن تفيدة قد تغيرت، كانـت قد أصبحت رشيقة، دخل الـى الحمام، وجاءتـه بابنتـه سناء، فلم تتعرف عليـه وراحت تبكي، أعادتهـا أمهـا الـى النوم، وجاءه الكثير مـن المهنئين، كان مصطفى مبهورا بهذه المحبـة الغـامرة التـي لـم يكن يتوقعهـا، " **كـان مصطفى يتوقع مدينة معادية وقد أعد نفسه لذلك. أما هذا الإقبـال فلم يتوقعه**"[(1)][19]، كـان الكثيـر مـن المهنئـين يتحـدثون عـن الإفـراج وظروفـه ومشـاركتهم فيـه، كـان الجميع يقولون أن الرئيس هو الذي يتخذ القرار الصحيح والأجهزة السيئة هـي التـي لا تنفذ.

[19] (1) الروائيون، ص 537.

بعد رجوع مصطفى وتفيدة من السهرة في بيت وليد ونوال، كان ما يزال مستاء من زينب وسخفها، قالت تفيدة إنها تخاف على إيهاب منها، يمكن أن تدمره، لأنها ليست من النوع الذي يمكن له أن يلتزم بعلاقة، قال مصطفى إن زينب على ما يبدو تحب إيهاب، ثم تغير الحوار بينهما، كان مصطفى- منذ خروجه من السجن- يشكو من تغير تفيدة، وكانت تفيدة تشعر أيضا بتغيرها، ولكنها لم تجد تفسيرا لما يحدث بينهما، لم تعد ترغب بالجنس كالسابق، كانت تكتب رواية وهذا هو سر التغير برأي هلسا.

اصبح مصطفى وتفيدة يلجآن الى التلفاز حلا للتوتر الذي يشعران به عندما يكونان وحيدين، كان مصطفى يخرج ساعات طويلة، وعندما يعود يقرأ أو يلاعب الطفلة سناء، قالت له وهما يراقبان التلفاز إن امتناعها عنه ليس بقدرتها في هذه المرحلة، حضر إسماعيل الى بيت مصطفى وعرض عليه توحيد الشيوعيين المصريين، وأبدى إسماعيل اعتراضه على قرار جمال عبد الناصر بإغلاق مضيق شرم الشيخ أمام السفن الإسرائيلية والأمريكية، قال إن القرار كان متسرعا، وأن مصر غير مستعدة للحرب في هذه المرحلة، بينما رأى فيه مصطفى وتفيدة شجاعة وجرأة.

حسن في "الروائيون":

تمتاز شخصية حسن في رواية "الروائيون" لغالب هلسا بجو جديد وخاص، فهو مثقف ثوري من أعضاء الحزب الشيوعي، ومعتقل في السجن، ومقيم في عنبر الشيوعيين، ويعد من تلاميذ إسماعيل، وإن كان مستوى فهمه للقضايا السياسية متواضعا، وكان مكلفا أن يكون الصلة بين عنبر الشيوعيين والمطبخ، " **كان يرتب موعد الوجبات، وشراء اللحم، أحيانا، الذي يقتطعه المسؤولون من**

حصة المساجين ويبيعونه، وكذلك شراء الزيت والشاي"[(1)20]، كان العاملون في المطبخ سجناء عاديين يأتون من "اليمان طره" المجاورة لمزرعة طره المخصصة للمعتقلين السياسيين.

وهناك شاهد حسن فتى في مقتبل العمر اسمه صالح، كان الفتى يسرق الزيت من المطبخ ويبيعه للسياسيين، وعندما عنفه مسؤول المطبخ قال الفتى أنه يحتاج الى النقود فيفعل ذلك، أو يلجأ الى أبي الفرح الذي سيمارس معه الجنس، منذ ذلك الوقت صار حسن يبحث عن الفتى، كان حسن يحس أن نظرة الفتى تحمل له لوما خفيا، أو ربما معاتبة قاسية، وفي مراقبته للفتى كان يلاحظ أن ملابسه محبوكة ضيقة تبرز تفاصيل جسده.

تصرفات الفتى صالح ذكرت حسن بسجن القناطر، عندما كان سجين قوي ويملك دخلا، يقوم بالزواج من أحد الفتيان الوسيمين، حيث يقوم باغتصابه أمام الآخرين وبمساعدتهم؛ ثم يعلن زواجه منه، بعد ذلك يستسلم الفتى ويمارس مع السجين دور الزوجة تماما، بل إنه يمتلك أدوات زينة نسائية، يستعملها في الليل، وكان حسن يعيش أحلام يقظة مع الصبي صالح، ثم يطردها ليحول أحلامه باتجاه زوجته إنصاف.

بعد الإفراج وعودة حسن الى بيته وجده مزدحما بأفراد عائلته والأقرباء، كانوا قد قدموا منذ الصباح من قريتهم في الريف، وأحضروا معهم كميات كبيرة من الطعام، كان العشاء يعد، عانق الجميع ما عدا زوجته، كانت بنت خالته، وقال لنفسه إنها ما تزال فلاحة، ولم تغير فيها القاهرة شيئا، ثم راح أهله يلومونه: منذ عشرين عاما وأنت لا عمل لك إلا الدخول الى السجن الخروج منه، انتبه الى زوجتك وعيالك، ثم انتبهوا الى أنه تعبان فراحوا ينصحونه بالنوم.

---

[20] (1) الروائيون، ص 496.

أصبح حسن وزوجته إنصاف عاشقين، ففي السهرة ببيت وليد شاهد حسن زينب، فصنعت له هزة أو صدمة أعادت توازنه، كان وجود أقاربه في البيت يعتبر مانعا من ممارسة الجنس، قامت إنصاف بإقناع والدتها بجعل الأقارب يغادرون البيت، فأصبح حسن لا يرتوي من لمسها، وفي يوم جاءهم إسماعيل، كان حسن تلميذا لإسماعيل ويطيعه في كل الأمور، وتربطهما علاقة حميمة وشديدة الخصوصية، عرض عليه مشكلة الخط الصيني، ولكن حسن لم يكن قادرا على اتخاذ قرار، كان قراره مرتبط بما يقرره إسماعيل.

بعد أن غادره إسماعيل لم يكن حسن قادرا على استيعاب الأخبار التي أخبره بها، بدا له أنها من صنع الشيوعيين لمحاربة السلطة، راح يحاور زوجته إنصاف فتبينت له الحقيقة المرة، الهزيمة، ولما خرجت المظاهرات لتثني عبد الناصر عن الاستقالة، كان حسن قد أمضى أكثر من ساعتين بين تلك الصفوف، عندما قابل الفتى صالح، كان شعوره تجاهه مزيجا من التقزز والخوف، قال صالح بأنه يريده بحديث خاص على انفراد، وأنه لا يحتاج الى نقود، سار حسن وراء الفتى وهو يعلم أن عليه ألا يفعل.

سار الفتى في الأمام وهو متأكد أن حسن سيتبعه، وصل إلى حي شعبي وهو يتجانب أطراف حديث مع حسن، وصل عمارة من خمسة أدوار، ثم صعدا إلى السطح حيث يسكن صالح، دخلا إلى الغرفة، وبدأ الفتى بإعداد الشاي ويقترب من حسن بحركات مدروسة، كان يعرف ما يفعل، ويقوم بدوره بمهارة، غفا حسن وعندما أفاق كان الفتى يتمدد بجواره عاريا.

استمرت العلاقة مع الفتى صالح بالرغم من ضيقه بها، كان يطلب منه أموالا، ويتحدث عن إنصاف باعتبارها ضرته، وكانت جارة صالح تحاول أن تستميله أيضا، أحس حسن بالانهيار، منذ السادس من حزيران وهو ينهار كل يوم، كان يبحث عن مخرج من الكابوس الذي يعيشه، "ولكنه أدرك وهو يتحدث أنه

يستعيد واقعة انتهت من حياته. لم يشعر بالندم لحدوثها، بل بدت له ضرورية كوسيلة للشفاء من هاجس تولد في السجن وتغذى بلحظة الهزيمة"(1).

منذ جلسته مع هدى قرر حسن التخلص من تلك العلاقات، زار إسماعيل وقال كنت ضائعا في الفترة الماضية، قال إسماعيل إن ذلك ما يبحثون عنه، فوجئ إسماعيل بمنطق حسن حتى أنه توقع أن يكون قد قرأ بعض الكتب، اندمج بعد ذلك في العمل الحزبي بسرعة، بعد انقطاع دام ثلاثة أشهر، لقد انمحت تلك الفترة من ذاكرته، ولم تعد ترتبط بأي شيء.

عاد يوما فوجد أن مخبرا جاءه بورقة استدعاء إلى المباحث العامة، قرر أن لا يذهب، ولكنه عاد وذهب متحديا، عاملوه باحترام؛ لم ينتظر وأدخل على غرفة الرائد مباشرة، افتعل الغضب فغادر الضابط وجاء بعد فترة ضابط كبير، وسأل حسن بأنه منذ وقت طويل لم يذهب إلى حي "أبو العلا بولاق" الحي الذي يقيم به صالح، قال الضابط بأنه يقدر بطولاته في مقاومة الإنجليز في القنال، كان يريدون أن يبتزوه حول علاقته القديمة بصالح، طلبوا منه المغادرة والعودة بعد الراحة، وفي طريق عودته إلى البيت صدمته سيارة.

إسماعيل في "الروائيون":

كان إسماعيل أحمد فدائيا قديما، ينتسب الى جماعة متطرفة، كانت تقوم باغتيال الجنود البريطانيين في القاهرة، وفي قنال السويس، اعتقل في إحدى المرات، ووضع مع الشيوعيين في مكان واحد، فأصبح واحدا منهم، وقد كان في المعتقل هذه المرة بتهمة تكوين حزب شيوعي صيني الاتجاه، بعد أن أعلنت الأحزاب الشيوعية حل نفسها في العام 1966م، كان يعد حكيما وقادرا على استيعاب الآخرين ومشاركتهم همومهم؛ كما فعل مع مصطفى عندما وجده قلقا بشأن زوجته تفيدة ونيتها العمل في الإذاعة.

---

(1) الروائيون، ص 721.

كما كان إسماعيل تلقائيا ومباشرا، فعندما جاء الوفديون الى المعتقل واستضافهم عنبر الشيوعيين، كان الوفديون يعتقدون أن الإنجليز وراء كل ما يحدث في العالم، عندما تحدثوا بذلك صمت الشيوعيون حرجا وثقة بالذات، أما إسماعيل فقد تساءل باستنكار: "**الإنجليز؟ دول دورهم راح**"(1)[22]، تعرف عليه الوفديون، كانوا قد سمعوا به؛ كان إسماعيل قد خطف ضابطا إنجليزيا من وسط معسكره، وكان مشهورا ببطولاته في القنال، واستغربوا وجوده مع الشيوعيين، ولكن زكي المسؤول عن عنبر الشيوعيين أخبرهم بأنه شيوعي.

وكان الساحر في شخصية إسماعيل أن التعرف والإعجاب من شخصيات لها هذا الوزن مثل الوفديين، لم يفرحه، ولم يلجئه ذلك الى تواضع كاذب، بل إنه واصل حديثه بثقة أمام باشاوات الوفديين: "**الدور الذي تلعبه كل دولة لا يقرره دهاء ساستها وألاعيبهم، بل تقرره قوتها الاقتصادية والعسكرية، موقعها الاستراتيجي وتحالفاتها مع الدول الأخرى. وبريطانيا. بهذا المعيار، دولة من الدرجة الثالثة**"(2)[23].

بعد الإفراج عنه استقل مع وليد سيارة واحدة، وأصر وليد أن يصحبه الى بيته، قال له أنه يريد الذهاب الى شقته والاستحمام وتغيير ملابسه، ثم يلحق به، وعندما وصل الى العمارة التي يسكنها تنحنح مخبرا السكان في العمارة أن أحدا يصعد السلم، أضاء المصباح في الدور الثاني وفي الرابع حيث يقيم، وفي نفس الدور كانت تسكن فاطمة صاحبة العمارة، عندما وصل وجد باب شقته مفتوحا وفاطمة تنتظره في الصالة، عانقته ورحبت به، وكان بينه وبين فاطمة علاقة جسدية بدأت منذ ثلاث سنوات، استحم ولبس ملابس نظيفة وجلس مع فاطمة قليلا ثم خرج الى بيت وليد، اقترح أحد المهنئين أن يخرج المفرج عنهم بجولة في سيارته يرون فيها

---

[22] (1) الروائيون، ص 507.

[23] (2) الروائيون، ص 508.

القـاهرة فـي الليـل، عـاد فـي الثامنـة والنصـف ليجـد فاطمـة نائمـة وغاضـبة، أكـلا العشاء، ثم ناما في شقته.

ولما ذهب الى السهرة في بيت وليد ونوال، غادر بعد فترة معتذرا، كانت فكرة تكوين خط مستقل عن الخط الصيني، فكر أن مجال العمل سيتسع، ولن يكونوا مضطرين للدفاع عن مواقف لا يمكن الدفاع عنها، ولكن سيحدث انشقاق في الحزب، وسيفتقد كثيرين ممن يعتقدون أن الكتاب الأحمر إنجيلهم، وستجد أجهزة الأمن فرصة لخلق مزيد من التفتيت، وستوجه ضربات جديدة، ولكن ذلك لا بد منه، كان إسماعيل قد قارب الخمسين من العمر، وما زال يناضل،" كان إحساس ثقيل يضغط عليه. لقد اقترب من الخمسين وعليه أن يبدأ من الصفر. يبدأ من البداية بعد ثلاثين عاما لم يعش لحظة راحة واحدة"[24](1).

صار إسماعيل يمر على رفاقه الشيوعيين ويستطلع آراءهم حول قضايا الشيوعيين، وضياعهم وفرقتهم بين مشاكل الخط الصيني الذي يتبناه، وحل الشيوعيين لأنفسهم، ويطرح توحيد الشيوعيين. وكان إسماعيل ذكيا وقويا، رجع مرة إلى شقته ليلا، شعر أن أحدهم ينتظر مجيئه على بسطة الدرج الفاصل بين شقته وشقة فاطمة، صعد الدرج بخفة ودون صوت وفاجأ المنتظر، ثم لوى ذراعه وحنى ذقنه على درابزين السلم، سمعه يقول: أنا منير كنت زميلك في السجن، فتشه إسماعيل ثم أدخله إلى شقته،كان وهو في السجن يثير نقاشات كثيرة بأسلوب تهريجي، كان عميلا لأجهزة الأمن.

قال لإسماعيل أنه عميل للمخابرات الصينية، وأن هناك عميلا آخر كشفت المخابرات أمره، ويريد من إسماعيل التوسط لتسفيره الى الصين، صفعه إسماعيل عدة صفعات، ووجه إليه عدة لكمات، ثم فتشه بدقة، فوجد معه، ولاعة وكبريت وما يشبه إصبع الروج، ألقاها من النافذة ثم دفعه خارج البيت؛ "**فتح منير الباب**

---

[24] (1) الروائيون، ص 570.

وخرج دون أن يقول شيئا. كان ضوء البسطة مطفأ، وكذلك شقة فاطمة. كان منير يهبط ببطء يتحسس موقع قدمه. رأى فاطمة تخرج من شقتها. اقتربت منه، وضغطت وجهها على كتفه، وقالت بهمس وهي تخفي ضحكها: طفيت النور عشان يوقع على السلمه المكسورة، وأخذا يصغيان. فجأة سمعا صوت جسد يسقط وسباب بذيء"[1]25.

وكانت فاطمة عاشقة حقيقية لإسماعيل، كانت قد أعدت نفسها، وجهزت عشاء يليق بليلة الجمعة، أما ما حدث مع منير فقد طبع في ذاكرتها صورة البطل الأسطوري لإسماعيل، وكانت تلك الليلة لا تنسى.

في السهرة التي أقامها مصطفى في بيته، تحول الحديث إلى نذر الحرب، كان الجميع يقدرون أن إسرائيل لن تصبر على إغلاق المضائق، لأن ذلك يدمر اقتصادها، وأنها لا تستطيع أن تحارب لأن مصر قوة ضاربة في الشرق الأوسط، أما إسماعيل فقد كان يتمتع ببعد نظر خاص،" **قال إسماعيل:- عايز أقول إن الجيش المصري مش حيصمد قدام إسرائيل أكثر من أسبوع.. ويمكن أسبوع كتير... – ما عندناش جيش. دا الجيش مجرد عزبة لعبد الحكيم عامر، مجرد غرزة. انتو عايشين في الوهم"**[2]26، كان جميع العرب بما فيهم رفقاء إسماعيل يعيشون حلما جميلا صنعته السلطة، ولا يريدون تعكيره بتفاصيل قد تغير النتيجة، كانوا يسكتون كل صوت مثل إسماعيل، اعتبروا كلامه نوعا من المماحكة،حتى أنه أصبح يفكر بكلامهم، ولكنه كان متأكدا أن إسرائيل ستوجه الضربة قريبا.

أصبح الجو متوترا، فقرر إسماعيل تغييره، قال أنه شاهد في هذا اليوم حكاية غريبة، أحد الفتيان - شعر بأنه يعرفه- قفز من فوق الجسر إلى النهر وكاد أن يغرق، أنقذه أحد القوارب، ولكن المدهش في الموضوع أن الناس الحاضرين، والذين تجمعوا فق الجسر، كانوا غاضبين جدا من الفتى، وكأنهم يريدون له أن

25(1) المصدر نفسه، ص636.

26 (2) الروائيون، ص647.

يمـوت، لـم تثـر الحكايـة الكثيـر مـن التعليقـات، ولكنهـا أخرجـت السـهرة مـن ركودها،أصبحت سهرة منوعات، تتخللها النكات.

في اليوم التالي ابتدأت الحرب هاجمت الطائرات الإسرائيلية المطارات العربية وضـربت كـل الطيـران المصـري، النـاس جميعـا لـم يصـدقوا إلا أن قـوات مصـر تحاصـر تـل أبيـب، إسـماعيل رأى مـا كـان يتوقعـه يحـدث أمـام عينيـه، قـال لإيهـاب وزينـب عنـدما مـر بهمـا، أن حفلـة تخللهـا الـرقص والشـرب أقيمـت للطيـارين وبقـوا حتى الساعة الخامسة صباحا، وهاجمتهم الطـائرات الإسـرائيلية وهـم سـكارى، قـال لهما بأسى:" **مع مقدمات زي دي النتائج معروفة. قال إيهاب: يعنـي؟ - الهزيمة."** [1]"، كان صريحا وحزينا ويشعر بأن السلطة أوصلت الجمهور إلى مرحلة لا يتقبل فيها إلا أن النصر تحصيل حاصل، وهكذا ستصبح الصدمة أكبر وأقسى.

مرة أخرى كان إسماعيل يتبين عن بعد نظر سياسي، توقـع الهزيمـة بسـبب عدم الاستعداد، وحصلت، بعدها توقع أن تسند الهزيمـة لعبد الحكيم عـامر؛" **حايلزقوهـا بالمسـطول عـامر وعبـد الناصـر حـايخرج منهـا زي الشـعرة مـن العجـين. .. فـي الخمسينات حمّل عبد الناصر إعدام الشيوعيين والإخوان والقمـع لأولاد سـالم. فـي الستينات حمّل اللي حصل قبلها لكمـال الـدين حسين والبغدادي. ودلـوقتي حـاتلزق في عامر. طبقة بتحكم، وحاتكيف نفسها مع الوضع الجديد"** [2].

لقد أوضـح إسـماعيل أسـباب الهزيمـة: جهـل عبـد الحكيم عـامر، وسياسـة عبـد الناصـر فـي خلـق مراكـز متصـارعة، يمثـل هـو الحكـم بينهـا، والبـديل غيـاب الديمقراطيـة، والحل هو بقطـع الحبـل السـري الـذي يـربط القـوى الثوريـة بالسـلطة،

---

[27] (1) الروائيون، ص 671.

[28] (2) المصدر نفسه، ص 694.

وإجبار السلطة على الاعتراف بالتسبب بالهزيمة، ومن ثم تغييرها، كانت تلك الاستراتيجية، أما التفصيلات والتكتيك فتحتاج الى ممارسة طويلة.

بعد أن تزوج إسماعيل من هنية، تحولت حياته باتجاه نسق من النظام بدأ يفرض نفسه عليه، يبدأ من الشارع المشجر النظيف، حتى باب البناية اللامع والمصعد الأنيق، أصبح في حالة يقظة وتنبه دائمين، يستيقظ في الصباح هو هنية فيغادران السرير فورا، لحظات الكسل التي تعقب ليلته مع فاطمة، والعناق الكامل الذي يتحول إلى ممارسة جنسية صباحية، شرب القهوة والإفطار في السرير، الذي قد تتلوه غفوة؛ كل ذلك انتهى.

كانت هنية قد أدركت أن علاقة كانت تربط إسماعيل بفاطمة، ولكنها لم تكن تمانع في زيارتها، بل كانت هي من تقترح ذلك أحيانا، وكانت فاطمة تتخذ دور الأم الفخورة بزوجة ابنها، أما إسماعيل فقد " **كان يعيش ضيق أفق الأثرياء الجدد الذين يعتقدون أنهم عندما ينتقلون إلى مكان وظرف الطبقات العليا فإنهم ينتقلون إلى إنسانية جديدة لا علاقة لها بالبشر الذين كانوا يعيشون بينهم**"[29][(1)].

وصار إسماعيل يتحدث عن السياسة بذلك الأسلوب المحايد، أسلوب القادة الذي يجعل كل فعل مبررا بظروفه، حتى أن من حوله صاروا يشعرون بلا جدوى كل شيء، فعندما قامت المقاومة الفلسطينية بعملية سقط فيها عدد كبير من الشهداء، والقتلى الإسرائيليين، قال إسماعيل: " **من الواضح أن الفلسطينيين عايزين يخلوا أمريكا تتحرك**"[30][(2)]، كان تغيير الموقع الطبقي هو الذي أحدث هذا التحول في شخصية إسماعيل.

---

[29] (1) الروائيون، ص 773.

[30] (2) المصدر نفسه، ص 774.

وقد لاحظت هنية أن معظم زوارهم أصبحوا من اليساريين أصحاب المناصب العليا في السلطة، سألته عن بعض العمال والطلبة، فقال إنه يلتقيهم في الخارج لظروف أمنية، وتحدث عن اتجاهات في السلطة، بالغم من أنه كان يرفض ذلك، كما لاحظت هنية رغبته المتوترة في الإرضاء عندما يزوره الشيوعيون القدماء، ذوو المناصب، قال أحد الشيوعيين القدماء ردا على سؤال هنية أمام إسماعيل: إن الأحزاب الشيوعية انحلت موضوعيا قبل ما تحل نفسها، السلطة حققت مطالب الشيوعيين، وصار دورها أن تساند السلطة التقدمية، وتمنع بعض الأجنحة من السيطرة على السلطة، وبعد مغادرته عاتب هنية على موقفها.

في يوم مرت زينب على هنية وأخبرتها أن الناس يتحدثون عن تغير مواقف إسماعيل، ويقولون أن هنية هي السبب، فوجئت هنية، وذهبت الى تفيدة لاستطلاع الخبر، فعلمت منها أن الحزب على شفا الانشقاق، تحدثنا طويلا عن مواقف إسماعيل، وسخافة الاعتقاد أن هنية وراء الموقف.

في البيت كان إسماعيل يريد إنهاء النقاش، وقال أن بعض العيال المغامرين في الحزب يريدون استعمال أساليب كفاح غير مناسبة للمرحلة، ولا مناسبة لقوى الحزب الذاتية، وهم بذلك سيدمرون الحزب، ويعطون السلاح للقوى اليمينية لتدمير التيارات الوطنية.

استمرت علاقة إسماعيل وهنية بوتيرة مناسبة، رغم ما طرأ عليه من تحولات، وكان الاثنان يحاولان مساعدة إيهاب قدر الإمكان، ثم تحول إسماعيل شعر أن السلطة خادعة، وأنه يجري وراء سراب، قال لهنية: " **المهم إنا نسينا الماركسية. تصورنا السلطة أشخاص اصحاب نوايا طيبة. ونسينا تركيبها الاقتصادي. تبين أن سبعين في الميه من الميزانية الحربية بتروح لجيوب المقاولين**"[1]، قال إن

---

[1] (1) الروائيون، ص 813.

هذه المعلومات منعت من النشر، وعبد الناصر غير قادر على ضرب هؤلاء، امـ الحوار مع السلطة؛ فما هو إلا دوامة ليس لها اخر.

معالم الشخصية الثورية

لقد تنوعت الشخصية الثورية في خطاب غالب هلسا الروائي، وجرى عليها من التحولات ما يجري لأي شخصية أخرى، وقد جاءت الشخصية الثورية أصلا إنسانية، بحيث أنها لم تكتسب صفات بطولية، ولم يكن دورها إيجابيا بالخالص، لقد كانت تخطئ وتصيب، وتحب وتكره، لها إنجازاتها ولها إخفاقاتها، فإسماعيل مثلا في "الروائيون" وقد أصبح رئيسا للحزب الشيوعي بعد خروجه من السجن، حيث كان له دور بارز في لم شتات الشيوعيين الرافضين لحل الحزب، ومن مختلف الاتجاهات، تحول إلى شخصية انتهازية، وراح يمالئ السلطة والشيوعيين القدامى الموافقين على حل الحزب، أملا في تحقيق مكاسب للحزب، والمحافظة على الإنجازات، إلا أنه أصيب بخيبة أمل، عندما لم يحقق شيئا من ذلك.

بينما بدت شخصية مصطفى في "السؤال" متحولة من شخصية إشكالية سلبية، إلى شخصية ثورية بفعل علاقته مع تفيدة، التي كانت تبحث عن نفسها، ثم وجدتها مع مصطفى، وحركت فيه ثوريته فتحول إلى العمل السياسي، بإعادة إصدار صحيفة أدبية وسياسية، والاتصال مع مجموعة العمل الصيني، والتنسيق معهم في عمل مشترك، كان من نتيجته اعتقال مصطفى في نهاية الرواية.

المبحث الثالث:

الشخصية النسوية:

المرأة الأم:

المرأة الحبيبة:

المرأة الرمز:

المرأة الحلم:

المرأة المقموعة:

المرأة البغي:

المبحث الثالث: الشخصية النسوية:

تعد شخصية المرأة هي المحور الرئيسي في خطاب غالب هلسا الروائي، وقد حظيت بمكانة عالية في رؤيته الفكرية، وشكلت بوساطتها الأحداث والمواقف والشخصيات الأخرى، بأوجهها وحالاتها النفسية، ورؤاها ومواقفها وملامحها الإنسانية، ودورها في تفعيل الشخصيات الروائية والأحداث[1]،" وقد جاءت الشخصيات النسوية في روايات غالب هلسا ذات أوجه متعددة، تحمل ملامحها الإنسانية في خيرها وشرها، في بؤسها ونعيمها، وقوتها وضعفها، وشبقها واعتدالها، وفي انتمائها لهذا التيار الحزبي أو ذاك، وفي رؤيتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفي مواقفها الأخلاقية وغير الأخلاقية"[2].

وبما أن المرأة تشكل محورا مركزيا كثيف الحضور، في أعمال غالب هلسا الفكرية والإبداعية، فإنه قد تابع بوعي عميق النماذج المتعددة للمرأة عبر علاقتها بعناصر التركيب الاجتماعي، كما رسم أشكال اضطهادها في كل مكونات الحياة، وقد سلط ضوءا حارقا على نظرة المجتمع إليها دون أن يستثني نفسه سواء في شخصيات الرواية أو الحياة المعيشة[3].

لقد كانت المرأة كما في نموذج "تفيدة" في "السؤال" مثلا "هي الحاملة لحلم غالب هلسا، نحو مشروعه الهادف إلى تحرر الإنسان من كل سلطة تقمع فكره وتخصي جسده، هي الجسد الطافح بالحب، الموحي بالطمأنينة، الملوح بديمومة الحياة، هي رمز الحنين إلى الأمكنة الدافئة،... رفض غالب صورة المرأة التي اقتصرت في بعض الأعمال الروائية العربية على شخصية المومس الفاضلة،

---

(1) انظر عليان، حسن، مرايا الحرية والإبداع في أعمال غالب هلسا الروائية، مطبعة الأجيال، 2003م،ص99.

(2) المرجع السابق، ص99.

(3) انظر أبونضال، نزيه، غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية، ص 67.

وانتقد بشدة إغفال مثل هذه الأعمال حقيقة المرأة باعتبارها حقيقة الحياة، وكثيرا ما سعى إلى إضاءة هذه الحقيقة"(1).

المرأة الأم

لقد حضرت المرأة في خطاب غالب هلسا الروائي بكل صفاتها، وكانت المرأة الأم حاضرة بقوة، ممثلة لوالدة الشخصية الرئيسية، وقد جاءت صورة والدته في العديد من قصصه ورواياته، وإذا كانت طفولة غالب هلسا تبرز بوضوح في رواياته فقد كان يعلق قيمة بالغة على شخصية الأم، ويرى لها أهمية كبيرة في التكوين النفسي للطفل.

وبما أن غالب هلسا ولد وكان عمر والدته قد قارب الخمسين، فإن شخصية الأم تحضر في طفولة شخصياته، فقد سافر خارج الوطن ولم يتعرض كثيرا لعلاقات الأم بولدها، إلا في أثناء فترة الطفولة، وهذا جعل عند هلسا نقطتين خاصتين في علاقة شخصياته بالمرأة الأم؛ فقد كان يقيم العلاقة مع المرأة حتى تقترب من العلاقة الكاملة، فيشعر بأنه اقترب من لحم المحارم ويرتد خائبا، وتعذبه عقدة الإثم الأوديبي، وكان يشعر أنها أمه، كما ظل يشتاق إلى المرأة الكلية الأولى، كان يريد المرأة أما وحبيبة وصديقة ووطنا وحضنا دافئا، يلجأ إليه ويحتمي به، إنها الفردوس المفقود المعذِب، الذي لن تنطفئ لوعة الشوق إليه.

ام جريس في "سلطانة":

لعل أم جريس أو "نجمة" في رواية "سلطانة" هي أكثر النساء اقترابا من والدة غالب هلسا الحقيقية، فقد كان جريس قد أنهى الثانوية العامة، ويقيم مع والدته في بيت كبير بالقرية، وكان يشعر بالملل فكانت الأم تبذل جهودا كبيرة للتخفيف عنه، كانت الأم حزينة بشكل عام، فزوجها متوفى، وأحد أبنائها كذلك، وابنها الكبير قد

---

(1) العمد، سلوى: غالب هلسا كما عرفته، مجلة أفكار العدد 206، عمان، 2005 م، ص45.

أخذ نصيبه من الميراث ورحل إلى الكرك، ولها ابن غادر إلى الضفة الغربية وانقطعت أخباره، ولم يبق في البيت إلا هي وجريس بعد أن كان البيت يغص بالسكان، وبسبب الفارق العمري الكبير بينها وبين جريس فقد كانت تشعر دائما تجاهه بأنه ما يزال طفلا، "**قلت لأمي إن خضرا اقترضت ثلاثة أرغفة. فقالت: - البنت الدايرة، ليش تعطيها؟ غضبت. أمي دائما توجه الإهانات إلى كل فتاة تشعر أنني أميل إليها. تخاف على من السقوط كأنني فتاة بكر، وكان ذلك يثير أعصابي: تريدني أن أكون دائما ابنها الصغير.**"[1].

وبالرغم مما كانت الأم تبديه من مشاعر الحبور بحضور ابنها الصغير جريس، إلا أنها كانت حزينة وكان هو يحس بذلك، "**تعشيت؟ سألتها. قالت: أتعشى من حالي؟ على نحو ما، كان ردها يحمل ريح الفاجعة. وكيف تتعشين عندما أكون في عمان، في المدرسة؟ كيف تمضين الليل وحيدة في هذه الدار الواسعة، والحجرات المتناثرة في ثلاثة أحواش؟ يخطر لي في مثل هذه اللحظات أن أعود للقرية، وأتزوج، وأملأ البيت عليها بالأطفال**"[2].

وكانت في ساعة العشاء تحاول أن تغري ابنها بالطعام، وتروي له حكايات طويلة عن القرية أيام زمان، وفي الليل تنام مفتوحة العينين وتسمع كل ما يدور حولها، وعندما يكون هناك خطر ما تنهض واقفة، وروت لابنها أنها نهضت من فراشها مرة مفزوعة وأخبرت زوجها أن رجلا بين الخراف، وخرجت، فرأت رجلا خرج من بين الخراف وفر هاربا، قال الأب إنه أحس بحركة، ولكنه ظنه الكلب.

وتمتلك الأم إحساسا خاصا يسبق الفواجع التي تنتظر العائلة، تشعر بشيء خاص ينبئ عن حدوث أمر ما، ولعل تلك من خواص الأمهات في القرية قديما، وكأنها تمتلك إحساسا عميقا تساهم الطبيعة بشيء خاص فيه، "**أحيانا تصحو في**

---

(1) سلطانة، ص 20.

(2) المصدر نفسه، ص 29.

الليل فجأة. تجلس في فراشها تصغي بإمعان. أسألها: ماذا حدث؟ فتجيب أنها تسمع بكاء بنات غيث. وبنات غيث كائنات غريبة، مبهمة، تنتحب قبل أن يموت إنسان ما. سمعتها أمي مرة قبل أن يموت أخي، ومرة أخرى قبل أن يموت أبي. وتقول بوجه مرتعب: - حوش يا رب، حوش يا مريم العذراء"[1].

وتبدو الأم في خطاب غالب هلسا الروائي متدينة، تتقرب إلى الله بشتى الوسائل، تصلي وتدعو، " **تدخل البيت وتضيء شمعة أمام أيقونة العذراء مريم، وتتمتم - السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الرب معك، مباركة أنت بين النساء، مباركة أنت بين النساء، ومباركة ثمرة بطنك يسوع...** "[2]، تفيق مبكرا كعادة الكبار في القرية، وتقوم بأعمال المنزل؛ تكنس البيت وتطعم الدجاج، تحضر طعام الفطور،... .

وعندما تكون الأم وحيدة تقوم بأعمال المنزل، تسلي نفسها بأغان عادة ما تكون بكائيات، " **عندما دخلت من باب الحوش سمعت أمي تنوح ببكائيات وتبكي:**

يا نمر يا أبو عين حمرا   يا للي كلامك بيع وشرى

يا مربي قليلات الحيا

أهل البلى ما اكثر عدمكو   حجاج مكة خير منــكو

شهرين والثالث لــفو

وتتنهد وتنشج. أدركت أنها انتظرتني طويلا، وعندما شعرت بالملل أخذت تكنس الدار وتنوح وتسلي نفسها. وهي لا تجيد من الأغاني سوى البكائيات. كان ذلك النواح يؤدي دائما إلى بكاء حقيقي. وعندما تكون في مثل هذه الحالة يصعب إسكاتها. تتوقف قليلا، ثم يغلبها اللحن فتستسلم له. كانت تلح علي: - يا ابني خليني أنوح شوية، من شان خاطر أبوك"[3].

---

(1) سلطانة، ص 32.

(2) المصدر نفسه، ص 32.

(3) المصدر نفسه، ص 37.

في يوم الأحد كانت الأم تعد ذكرانية لعذراء؛ وهي عبارة عن سليقة قمح ممزوجة بالسكر الناعم، ومغطاة بقطع الحلوى، ومغروس بها بعض الشموع، توزع على المصلين ويطلب منهم الدعاء للأموات، كما كانت تبدأ بصلاة طويلة تدعو بخشوع أمام أيقونة العذراء وتخصها بالدعاء، بينما تقدم الزيت والشموع للمسيح والخضر، "**في ساعات الضيق كانت أمي تعاتب العذراء، كما لو كانت صديقة مخلصة أخلت بوعدها. وفي بعض الليالي كانت العذراء تظهر لأمي في أحلامها وتعتذر. وفي اليوم التالي تظل الشمعة مشتعلة طول النهار أمام الأيقونة**"[1].

كانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين علاقة سلام ومحبة وتعاون، فقد كانت آمنة المسلمة أما لجريس بالرضاعة، وكانت توده بشكل خاص، أما أمه نجمة فقد كانت تتمنى لو لم يكن هناك مسلمون ونصارى حتى تكون سمحة زوجة لابنها جريس، " **– لويش ربنا خلقنا نصارى ومسلمين؟ يا ما كان نفسي جريس يتجوز أمونة**"[2].

امنة في "سلطانة":

تعد شخصية "آمنة" في رواية "سلطانة" ذات دلالات وأبعاد مختلفة، وإذا كان غالب هلسا قد جعل آمنة رمزا للأردن القديم، فقد كان لها دلالة على شخصية المرأة الأم، ومستوى التسامح الديني في القرى؛ فقد كانت آمنة المسلمة هي والدة جريس بالرضاعة، وكان يشعر بأنها تحبه حبا كبيرا خاصا، وتمتلك كنزا من الحنان والمحبة، يشعر بها الطفل الصغير، لقد أفاق جريس على الدنيا وله أمان، هما نجمة وآمنة، وكان يشعر بمودة آمنة له، حتى خيل إليه أنها كانت تحبه أكثر من أبنتها "سمحة" التي كانت في مثل سنه.

---

(1) سلطانة، ص 44.

(2) المصدر نفسه، ص 97.

كانت والدة جريس قد أصيبت بالحمى، فانقطع حليبها وجريس طفل رضيع، فأرضعته آمنة، يتذكر جريس أنه كان ينام في بيتها مرة وأفاق ليجد منها حنانا ومودة بقيت مزروعة في قلبه، " **أتذكر. كنت نائما في بيتها. شعرت بيد تلمس وجهي. تمر عليه برفق. بدا ذلك جزءا من حلم له علاقة بالبحر، ببستان غريب كله ورود ينساب على شكل مسطحات مستطيلة، تتوالى هبوطا نحو البحر. لم يكن البحر اليومي ولا الورود التي يمكن أن نراها كل يوم... كان ذلك كله خاصا جدا وحميما جدا... وددت أن يستمر ذلك بلا نهاية: الوجه المضيء، ملمس اليد والعطر**"[10](1).

وفي الوقت الذي كان أهل القرى في الريف الأردني، يعيشون فيه حياة جدية أقرب ما تكون إلى الشقاء والقسوة، نتيجة للظروف القاسية المريرة التي كانت تصاحب لقمة العيش، كان جريس يجد عند أمه آمنة لطفا وحنانا وطعاما خارجا عن سياق العيش القاسي المرير، "**بجوار الفراش كانت دجاجة مشوية، وموضوعة في صينية. ومن لم يأكل الدجاج البلدي، محوجا بالسماق، والسمن البلدي المخلوط بالدقيق، والبهارات، من لم يأكله مشويا بالطابون، معدا بيد آمنة، فلن يفهم أبدا الطعم الحقيقي للطعام**"[11](2).

كان جريس يتشاكس كثيرا مع ابنتها سمحة، فكانت تلاطف الصغيرين، وتوفق بينهما وهي تضحك لهذه المشاكسة المتكررة، وكانت آمنة تطعم الصغار مما يحتويه صندوقها الخاص من حلوى خاصة، "**بعد الإفطار أخرجت آمنة من صندوقها الكبير تمرا، وأعطتني وأعطت سمحة. قالت إنه من تمر الحجاز. كانت حباته طويلة، بطول الإصبع تقريبا، وكان صلبا ولذيذ الطعم جدا.**"[12](3).

---

[10] (1) سلطانة، ص 93.

[11](2) المصدر نفسه، ص 94.

[12](3) المصدر نفسه، ص 96.

كانت بالإضافة إلى ذلك كريمة النفس، عندما حضرت والدة جريس لتأخذ ابنها قالت له: هل شبعت من أمك آمنة؟ هيا بنا، إلا أن آمنة أصرت بأن يبقوا للغداء، وفي أثناء جلوسهم للغداء تمنت أم جريس لو أن الله لم يخلق الناس نصارى ومسلمين لتخطب سمحة لابنها جريس، "ولكن آمنة نظرت إلي وأطلقت ضحكة صافية، كأنها صدح بلبل؛ ثم توجهت إلى أمي وقالت: - كلنا أولاد آدم وحوا. لما يكبروا ينسوا مسيحي ومسلم"[(1)]، كانت ذات بعد نظر وفهم أعلى من مستوى النساء ذلك الوقت.

بقيت آمنة ضمن صورة الأم إلى أن كبر جريس، صار يراها امرأة معشوقة، قريبة من التقديس الذي ربما يكون قريبا من موضوع الرغبة الجسدية، "عندما كبرت أخذت أسطورة آمنة تتسرب إلي عبر مئات التفاصيل، فأخذت تنفصل عن دور الأم شيئا فشيئا، وتلبس دور المرأة. عندها أخذت أراها بعين جديدة:امرأة معشوقة، ذلك العشق الذي هو نوع من التعبد، تتميز به مرحلة المراهقة: واحدة موضوع للرغبة الجسدية الخالصة، وأخرى للعشق الخالص، الذي يرتفع بالمرأة إلى مرحلة التقديس، حيث أن فكرة الجنس تكون تجديفا بحق المعبود- الشكل النموذجي لانقسام الذات الشرقية"[(2)].

ويتذكر جريس أنه أحب وجه آمنة الحزين يوم وفاة والدها وفتن به، كان وجهها محمرا قليلا وحزينا، "كانت ما تزال (أمي آمنة)، ولم تتسلل إلي أسطورتها بعد؛ ولكنني، في تلك اللحظات، فتنت بالوجه. عشقته. أعدت اكتشافه. أسأل نفسي الآن: لم تكن تنظر إليّ، ولكن بمجرد أن امتلأ قلبي بالعشق- ماذا أسميه إذا، إن لم يكن عشقا؟ - وعندما تولد في داخلي إحساس جديد وغريب، ما الذي دعاها لأن تنظر إلي نظرة خاطفة، تلك النظرة التي تلقيها عليك امرأة منشغلة حتى الاستغراق بحديث مع امرأة أخرى..أقول، ما الذي دعاها لأن تناديني لأجلس

---

[13] (1) سلطانة، ص 97.

[14] (2) المصدر نفسه، ص 99.

بجوارها، فتداعب شعري، وتنظر في وجهي تلك النظرة التي تبحث في وجه الطفل عن شيء مثير للقلق، ثم تقبلني وتقول: - ما لك شغل هنا، اطلع بره حبيب والعب مع سمحة. وتقبلني على خدي مرة أخرى، وتقول محدثة نفسها: العيال تعبت. وددت أن أقول إنني أفضل البقاء بجوارها على اللعب مع سمحة. ولكن هل كنت أستطيع أن أرفض لها طلبا؟"(1).

وفيما بعد وعندما زار جريس سمحة، وحدثها عن شعوره ذاك، قالت له إنها قد بدأت تفهمه الآن ، إنه مصاب بعقدة أوديب، ظل جريس وهو طفل يحب آمنة بشكل كبير ويحب أن تحدثه، كان يسأل أسئلة كثيرة ويحب إجاباتها، كان وجه آمنة المبتسم، وعيناها المحتقنتان بالدموع يسيطر عليه ويطارده في كل مكان.

(1) سلطانة، ص 103.

المرأة الحبيبة:

زينب في "الروائيون":

تكتسب شخصية زينب في رواية "الروائيون" أهمية خاصة في خطاب غالب هلسا الروائي؛ فهي تكاد أن تمثل أو تقترب من المرأة الحرة، التي كان هلسا يتمنى أن تكونها، كانت امرأة حبيبة، ومثقفة طليعية، وعشيقة فاضلة بامتياز، وكانت تملك شخصية قوية، وجريئة تنفذ ما تريده بغض النظر عن النتائج، وبالإضافة الى جمالها كانت تتقن الإنجليزية والفرنسية ولها صلاتها الواسعة، تعرف إليها إيهاب قبل دخوله السجن بشهر تقريبا، ذهب إليها في مركز عملها في وكالة صحفية تبيع المجلات والصور في الصحف الأجنبية، فاستقبلته بترحاب وشعرت أنها مالت إليه، قالت له بما يعني أنها تحب أن تراه مرة أخرى، بالرغم مما لاحظته من خجله وارتباكه، كانت تعرض عليه لقاء صداقة.

راحت بعد ذلك تسأل عنه صديقاتها، فلم تخبرها هنية بشيء، أما نوال فأخبرتها بأنه معتقل، قامت زينب بنشر خبر اعتقال مجموعة الشيوعيين في وكالات الأنباء الأجنبية، وكتبت موضوعا عن اعتقالهم، ووزعته مجانا على الصحف الأجنبية، ولما أبلغتها نوال أن إيهاب بعث لها سلاما من السجن، فرحت فرحا كبيرا، وترجمت العرائض التي كتبها الوفد النسائي إلى الإنجليزية والفرنسية، وعندما جاء سارتر وسيمون دي بوفوار وأفرج عن الشيوعيين، كانت الوحيدة التي لقيت إيهاب على باب المباحث، ورافقته إلى بيته.

كانت زينب قد نظفت شقة إيهاب، ورتبت كتبه، وأعدت له عشاء فاخرا، وبقيت معه في الشقة، وعندما أرادا النوم، قال إنه سينام على الصوفة وتنام هي على السرير، قالت إن السرير واسع فليناما على السرير، لم يستطع أي منهما أن ينام حتى انتهيا الى ممارسة الجنس، وكانت هي من بدأ بدعوة إيهاب، واستمرا في

علاقة حب ملتهبة، كان لزينب شقتها الملك الخاصة التي تدفع ثمنها عشرة جنيهات شهريا، ولم تكن عذراء عند علاقتها بإيهاب، ولكنها لم تخبره بماضيها.

كانت زينب تعتقد أنها تمتلك معارف ولا تمتلك أصدقاء، " **قالت إن الرجال يقيمون صداقات مع المرأة وفي أذهانهم السؤال التالي: متى نقودها الى السرير؟ أما مع الفتيات فالصداقات لا تدوم. المرأة تفقد خصائصها، وتنسى علاقاتها في حضور الرجل. قال: انت فاقدة خصائصك دلوقتي؟ ضحكت وقالت: لا. - ليه؟ قالت باعتداد: تجاوزت دا كله**"[(1)]، وعندما ذهبت مع إيهاب إلى بيت وليد ونوال لم تجلس بجانب إيهاب، وإنما جلست بجانب هنية ودار بينهما حديث خاص، وبدا لها وجه المرأة المتحفظة المترفعة، التي تنشغل عن الحاضرين وكأنهم لا وجود لهم.

وعندما دار حديث السياسة في السهرة، أنهت زينب السهرة بعدوانيتها، تجاهلت تفيدة بترفع، وجعلت الشيوعيين في سلة واحدة، واتهمتهم ببعدهم عن الواقع، قالت: "**- الشيوعيين، رغم احترامي الكبير لهم، عايشين في عالم من صنعهم، عالم من الأوهام. مش قادرين يشوفوا الواقع**"[(2)]، وعندما تساءلت نوال عن الأسلوب الاستفزازي الذي تتحدث به زينب، أجابت بأن الحقيقة دائما جارحة.

عندما رجعت زينب مع إيهاب الى بيته كانت راغبة بالحديث عن تفيدة، سألت إيهاب إن كان يعرف تفيدة، كانت قد كونت فكرة خاطئة عن تفيدة، التي كان إيهاب يعرفها جيدا،" **قالت: هل تعرف أنها كانت مومسا؟ مومسا رخيصة ومبتذلة؟ وتاجرة حشيش؟ وأنها دخلت بيتكم بترتيب من جهات أمنية؟ أنا لا أعرف كيف خدعتم بها؟ وهي الآن تكتب مسلسلات إذاعية؟ كيف تستطيع مومس أمية أن تكتب مسلسلات؟ من الذي يكتب لها؟ إنها تمارس الدعارة حتى هذه اللحظة**"[(3)]،

---

(1) الروائيون، ص 556.

(2) المصدر نفسه، ص 569.

(3) المصدر نفسه، ص 573.

إلا أن إيهاب أجابها بثقة أن فكرتها خاطئة تماما، وأغلظ لها الكلام مما اضطرها الى الاعتذار.

في يوم الجمعة وعندما حضر إيهاب إلى شقتها، شعرت أنه كان خجولا، ولكنها عندما أخبرته عن ترجمتها لكتاب "جماليات المكان" لغاستون باشلار، بدأ بأحاديث الثقافة وصار يخبرها بأنه يحبها، في اليوم التالي سألها عن محاولة هنية إبعادها عنه، قالت يمكن كانت تريدك لنفسها، قال إن ذلك مستحيل، فقد كان أمامها لمدة خمس سنوات فلماذا لم تتقدم نحوه بخطوة واحدة، قالت ربما كانت تنتظر أن تقوم أنت بالخطوة، قال في مثل هذه الأمور المرأة هي من يقرر.

اكتشف إيهاب أنها تحب الجلوس في المقاهي لتغذي حيويتها التي لا تهمد بالقهوة السادة، وفي المقهى أخبرته بأنها كانت منظمة في تنظيم شيوعي ثم تركته لضيق أفق القائمين عليه، لقد انتهى أمرهم أن يحلوا أنفسهم، ولاحظت من أحاديث إيهاب غرابتها وقفزه من موضوع إلى آخر وكأنه يجمع الموضوعات ويكتبها، أخبرها بأنه يحب الحياة ولكنه لا يعيشها، إنه يراقبها فقط، الحياة بالنسبة له مادة للكتابة، وبينما كان يحاول أن يحاورها بمعلومات مختلفة، كانت صامتة غير راغبة بأي حوار، ثم أوقفت سيارة أجرة وذهبا إلى بيتها، وهناك كانت راغبة بالجنس، وبالرغم من أنهما اتفقا على ألا يلتقيا إلا بعد التاسعة، إلا أن كليهما كان راغبا بمجيء الآخر قبل الوقت.

بعد حوار حول نذر الحرب مع إيهاب، كانت زينب تتابع الأخبار وتقارير مراكز الدراسات، ولكنها كانت تعيش حلم الوهم الجميل الذي صنعته السلطة، قالت أنها تريد الذهاب مبكرا إلى بيت مصطفى للمساعدة في إعداد الطعام، كانوا يعدون لسهرة كبيرة، كانت زينب قد بدأت تعجب بتفيدة وأسطورتها، في السهرة صدمت بكلام إسماعيل أحست أنه طفل مشاكس، وتساءلت أين هي أسطورته الآن.

بعد حرب حزيران بدأت زينب تتبين بعد نظر إسماعيل، قالت لإيهاب بعد متابعة حثيثة لوسائل الإعلام وقراءة مكثفة:" **فاكر ليلة كنا سهرانين عند تفيدة؟ فاكر إسماعيل قال أيه؟ ورد فعلنا كان أيه؟**"[1]، كانت تحاول أن ترسخ ما حدث في نفسيتها لكي لا تخدع مرة أخرى، بعد أسبوع من امتناعها على إيهاب مارسا الجنس بعنف ولعدة مرات.

شعور زينب بالهزيمة قلب مزاجها، حولها إلى إنسان لا مبال، صارت تدخن الحشيش هي وإيهاب، شعرت بأنها تسقط وتجره معها،" **أيهاب ابعد عني، ابعد عني، ابعد عني. أنا إنسانة مدمرة. عمالي بدمر نفسي وبدمر كل اللي حواليا** "[2]، كان كل من زينب وإيهاب ينعزلان في قوقعة الشرب والجنس والرثاء للذات، عادت زينب إلى الانهيار ولن تتوقف أبدا، وها هي تجر إيهاب معها.

أصبحت زينب تمتاز بالوداعة والرقة في تعاملها مع الجميع، صارت تقرأ بجدية، وكانت مهووسة بعلم الجمال، قرأت فن الشعر لأرسطو، وتوقفت عند كانت وهيجل، أما إيهاب فلم يكن يعلم بذلك، كانت علاقته بها مقتصرة على الأكل والجنس، غضبت زينب من أيهاب لأنه انقطع عن كتابة الرواية، وانقطعت عنه فترة، ولم يلتقيا إلا عند حسن، لدى الزيارة الجماعية التي قام بها كل رفقائه، كان حسن معجبا بها، وقد سرت كثيرا عندما علمت انه بدأ بالكتابة وعوض ما فاته.

رجعت مع إيهاب إلى بيته وكانت غاضبة من تفيدة، التي قالت إنها ستكتب رواية، حاول إيهاب أن يدافع عنها، ولكنها كانت غاضبة لدرجة كبيرة، قالت إن مهمة حزبهم الأساسية تحويل المومسات إلى فاضلات، وعندما حاول إيهاب أن ينسحب إلى النوم أصرت على ممارسة الجنس معه، فمارساه بعنف، بعد فترة من الانقطاع جاء إيهاب إليها وأخبرها أنه رأى زميلها حمادة قرب بيتها، يومها تعاملت معه بقسوة، وقالت أن ما بينهما ليس حبا بقدر ما هو احتياج كل منهما إلى

---

(1) الروائيون، ص683.

(2) المصدر نفسه، ص 709.

الآخر،"قالت إن الحب هو علاقة ومصير هو عطاء دائم، وإلغاء للذات. الزواج نتيجة الحب. هو أن تلغي نفسك من أجل أطفالك. كل هذا يحتاج إلى قدر من الثبات في العواطف والمواقف. نحن، الاثنين، لم نخلق لذلك. نحب عملنا وأنفسنا أكثر من أي شيء آخر. مواقفنا وعواطفنا تحدد مشاعرنا في اللحظة المعاشة"[1]، وفي حوارها معه قالت إنه هو السبب في الانفصال الحادث بينهما.

كانت تود لو يغادر إيهاب، فتركته ودخلت غرفة النوم، أخبرها أنه يريد أن يغادر، قالت انتظرني سأغادر معك، عندما خرجت كانت قد أعدت نفسها لتكون امرأة مثيرة، تركت إيهاب وركبت في سيارة أجرة، وذهبت إلى بيت تركي، وهو شاب من الخليج العربي، عندما دخلت قال لها إن عنده ضيوفا، وأن عليها أن تدخل الى غرفة النوم دون صوت، جلست تنتظر في الغرفة وهي تحس بإهانة المومس في أحط صورها، لم تكن تحتج، ولكنها تسجل، كانت علاقتها بتركي نوعا من توقها إلى الجنس المفعم بالعنف،" أخذت تعد النقود التي وضعها تركي، كانت ثلاثين جنيها. قالت لنفسها إن ذلك أكثر من نصف مرتبها لتسكت قلقها لعدم ذهابها للعمل"[2].

رجعت إلى بيت إيهاب، قامت بتنظيف البيت وهي مستمتعة بدور الزوجة، ثم نزلت إلى السوق واشترت طعاما يكفيها وإيهاب لمدة أسبوع، وتذكرت النكتة التي تقول أن زوجة موظف فقير تمارس البغاء، وكانت تتساءل في نفسها ألا يتساءل هذا الرجل من أين توفر له هذا الطعام الفاخر؟ وفي يوم قدمت له طعاما متواضعا، فقال لها بغضب: وهل هذا أكل قوادين؟ نامت في بيت إيهاب ورأت كوابيس مرعبة، كان تركي وإيهاب يتجاوزانها بتواطؤ، وكان بينهما علاقة غريبة، ثم أفاقت كان إيهاب يجلس على حافة السرير ويراقبها.

---

[6] (1) الروائيون، ص 761.

[7] (2) المصدر نفسه، ص 768.

لم تعد زينب تستجيب لإيهاب في السرير، أفاقت مرة وقالت أن هناك لقاء في نقابة الصحفيين، قالت أن هناك اجتماعا سياسيا لبحث مسألة حرب الشعب، لم يكن يعلم به، ولكنه ذهب برفقتها الى اللقاء، وهناك، جاء زميلها أحمد المشهور باسم حمادة، وجلس بجانب زينب وراحا يتبادلان أطراف الحديث الذي لم يكن إيهاب يسمع منه شيئا، بعد اللقاء الذي حدثت فيه صراعات عنيفة، موضوعها الالتحام مع الجمهور، والبعد عنه وممالأة السلطة، بعد اللقاء غادرت زينب بصحبة حمادة تاركة إيهاب لوحده.

غابت زينب أربعة أيام، ثم عادت، كانت قد نظفت شقة إيهاب، واشترت طعاما كثيرا، وطبخت، عندما عاد إيهاب عرفت أنه سيكون غاضبا، ولكنها كانت واثقة من أنه لن يحب غيرها، وأنه لا يستطيع أن يستغني عنها، مارست معه الجنس في النهار والليل، وبجنون، كان إيهاب قد سمع عنها فكرة موجزة من فهمي، الذي كان زميلها في الشغل، قال أنها كانت ماركسية، ثم بدأت بفترة الضياع؛ "**توقفت عن القراءة الجادة. انشغلت فترة بالفلسفة الهندية، السحر الأفريقي، السوريالية، الوجودية. والجنس. في الجنس ما كانشي لها علاقات ثابتة. قالت لي مرة إنها تعامل الرجال كما يعامل الرجال المومسات. يعجبها راجل تاخذه معاها البيت، تمارس معه الجنس وبعد كدة تقطع علاقتها بيه**"[1]".

قرر إيهاب أن يكتب رواية تسجيلية عن زينب، ولذلك فقد بدأ يجلس معها، ويوجه لها الأسئلة، ويسجل المعلومات التي يحصل عليها، قالت إنها ولدت عام 1940 وكانت البنت السمراء في عائلة كلها بيضاء، حتى كانوا يسمونها حبة الزيتون، عندما كان عمرها تسع سنوات مارست عملية جنسية كاملة مع مدرس اللغة الفرنسية، وكانت هي التي اغتصبته، قالت أن أسهل شيء على المرأة هو إيقاع الرجل في الجنس، فيتمنع بعضهم إلا أنهم لا يلبثون أن يمارسوا الجنس،

* (1) الروائيون، ص 792.

هرب مدرس الفرنسي إلى المنصورة، ثم لحقت به وظلت على علاقة معه، وكان لها علاقات عابرة مع غيره، وعندما دخلت الجامعة، وقد تم ذلك عندما حاول أهلها أن يزوجوها من شاب ابن عائلة محترمة، كانت الزيجة بالنسبة لهم ممتازة، وأفضل مما حصلته أخواتها الشقراوات، فهربت وسكنت مع صديقة لها، صارت تعمل وتدرس في الجامعة، وجدت مدرس الفرنسي وأعادت العلاقة معه، وكان يساعدها.

حاول إيهاب أن يؤلم زينب أثناء العملية الجنسية، إلا أنها لم تستجب له، بالرغم من تأكيدها أنها تحبه، **"كانت أحلام يقظة زينب أن تنصرف مبكرة وتذهب إلى حمادة لقد سئمت شكوى إيهاب ومزاجه المتقلب واشتاقت إلى فحولة فظة لا تعرف الرثاء للذات. عند العصر قالت إن عليها أن تخرج. إن عملا مهما ينتظرها"**[1]، إلا أن إيهاب تعلق بها وأصر أن تبقى ويخصصا يوما كاملا للحديث، وافقت وهي تعلم أن تمضي ليلة كئيبة.

تركزت أسئلة إيهاب على مدرس الفرنسي، وكانت تجيب على أسئلته بالضحك، حتى صار مدرس الفرنسي، نكتتهما، حاول إيهاب أن يستبقيها، وأن لا يذهبا إلى الشغل، قال إنه متحمس للرواية، ولكنها أقنعته، أن هذه الحبسة غير معقولة، وأن معهما وقتا طويلا للرواية فيما بعد.

ومن شهادة منال وهي فتاة من المنصورة سكنت عندها زينب وهي سنة أولى جامعة، عرف أيهاب المزيد عن حياة زينب، قالت إنها مومس تبيع جسدها مقابل الفلوس، وأنها تركيبة غريبة تحب الإنسان الذي يهينها، وعن علاقتها بحمادة قالت:" **في البداية حفيت قدما حمادة جريا وراء زينب. كانت ترفضه ودائمة**

---

(1) الروائيون، ص 852.

السخرية منه. تسميه الرعد بسبب صوته، ثم يئس منها وانصرف عنها. في تلك اللحظة مالت إليه"[1]، كانت تحب الفحولة مع التفاهة وتسميها الجنس الخالص.

وكان حمادة يضربها، ولأسباب كثيرة؛ ليبعدها عنه، أو عندما تقيم علاقة مع شخص آخر، يضربها ليستعيد العلاقة بها، وهو شخص قوي الجسم؛ يستطيع المشي لعشر ساعات متواصلة دون أن يتعب، وكانت زينب تُري منال أثر البقع السوداء على جسمها من آثار الضرب، ثم حكت منال أن إيهاب صار يستمتع بإهانة زينب، لم يعد يطيقها إلا متألمة مهانة، ولما حملت منه كان يضربها ويطردها، ويقول: وما يدريني من أين جاء هذا الحمل؟ ولخوفها من مسؤولية الطفل كانت تريد عملية إجهاض، أرسلت إلى مدرس الفرنسية وطلبت منه نقودا، فأرسل لها عشرين جنيها.

أخذ حمادة النقود وقال أنه سيذهب إلى طبيب صديق له وسيعود، ولكنه ذهب إلى الإسكندرية تفسح لمدة أسبوع وعاد وكأنه لم يفعل شيئا، وذهبت هي إلى سيدة في بولاق، قامت بإجهاضها بطريقة خطيرة جدا ومؤلمة مقابل جنيه واحد، بعد هذه العملية استلفت نقودا، وأقامت في بيت حمادة، ملأته بالطعام وجلست بانتظاره، وعندما عاد هاج لوجودها، فأسكتته بالعناق، وأخبرته أنها غير مهتمة بأنه كان في الإسكندرية، وأنها أسقطت الجنين، وسألته إن كان مشتاقا لها.

لما جاء إليها إيهاب عرفت أنه يريد قطع العلاقة معها، قالت له أن قطع العلاقة معها لن يحصل لأنها هي مصيره، تحاورا طويلا حول علاقتهما، قالت إنها لا تقبل الحياة إلا مشحونة بالتوتر حتى الجنون وإلا فإنها تصبح موتا، حياة النساء المحترمات الفاضلات التي تسير من موت إلى موت، **" هذه الحياة لن تكون حياتي. حياتهن دعارة كاملة. تبيع كل رغباتها. مقابل أن تكون زوجة مناسبة. تعمل خادمة ومومسا لزوجها حتى يطعمها ويؤويها، وعندما يزهد فيها فالأطفال**

---

[1] (1) الروائيون، ص 858.

هم رصيدها حتى تحتفظ بزوجها، إذ إنها لم تعد بالنسبة للزوج صالحة كمومس، فعليها أن تجد وسيلة أخرى لربطه، وهي الأطفال. والزوج المسكين يعمل ليطعم امرأة لا يرغب فيها وأطفالا يحلمون في التخلص منه"[(1)][11].

قالت له إنها جربت كل شيء؛ المورفين والأفيون وغيره ولكنه لم تجد ردا على المجتمع الذي سطحنا إلا بممارسة المتع الجنونية: المخدرات والدعارة، وأضافت بأنها اكتشفت الأكذوبة؛ كل مرة نبني أسطورة ونصدقها، وعندما تنهار نبني غيرها، وعندما قال إن الأسطورة أفضل من الانحطاط، قالت إن الجادين والمنحلين يعانون نفس المازق، لما أراد إيهاب المغادرة بعد شعوره بالإعياء، قالت له وهما يشربان القهوة أنها قررت الامتناع عن الرجال ألا هو، ومعاودة القراءة في الأصول الفكرية للشيوعيين.

بعد مغادرة إيهاب أدركت زينب صعوبة الوعد الذي قطعته أمام إيهاب، وجدت الكتب كثيرة، وشعرت بلا جدواها، ثم أقامت حوارا داخليا بينها وبين إيهاب، خطر لها مسعى إيهاب؛ يريد أن يقيدني بشيئه الجوهري والجاد ليمتلكني، أخذت تخاطبه:" **أنت فشلت في السيطرة على حركة المجتمع، كما فشلت مساعينا في تغيير المجتمع، في الإمساك بحركته. فشلت يا إيهاب في الإمساك بالعالم والسيطرة عليه من خلال الرواية. فشل السياسة أدى إلى فشل الرواية. فلم يبق إلا زينب تسيطر على روحها وعلى جسدها"**[(2)][12].

غادرت الشقة وذهبت إلى بيت حمادة فلم تجده، فذهبت إلى بيت تركي، كان تركي يعمل في سفارة بلاده، عندما رآها تهلل وجهه ورحب بها، لاحظت أن وجهه كان حزينا، فكرت: هل يحزن هؤلاء؟ ولأول مرة تشعر أنه يحترمها، سألته عن حزنه قال إنه اكتشف أنه إنسان لا معنى لحياته، ولما رأى تعبير الدهشة في وجهها أخذ يبكي، وطلب منها أن تبقى عنده الليلة، قال إنه سمع عنها أنها مثقفة

---

[11] (1) الروائيون، ص 878.

[12] (2) المصدر نفسه، ص 886.

وممتازة ولكنها يائسة وتسعى لتدمير نفسها، كانت تعيش احساسين متناقضين، فقدان حريتها كعاهرة، وأن تكون موضوعا لأشد الرغبات شذوذا وعنفا، كما شعرت براحة أنه تم إنصافها، استمر الحديث بينهما، فوجئت أنها تردد كلمات إيهاب حول الجوهري والجاد في حياة الإنسان، وعندما أرادت المغادرة عانقت تركي، فاستثيرت وذهبا إلى السرير، عندما غادرته في الصباح وجدت في حقيبتها خمسين جنيها.

عرفت زينب بحدسها ثم تأكد لها أن إيهاب قد ذهب إلى بيت منال، ومنذ ذلك الوقت عزمت أن يكون إيهاب رجلها وحدها، فذهبت لتستعيده في الحال، لم يفتح لها أحد، اتصلت بالهاتف فلم يرد عليها أحد، كانت تعرف أنه موجود في بيتها، ذهبت إلى شقة إيهاب وأقامت هناك، كانت تعلم أنه سيعود من شقة لامعة، فبذلت مجهودا للعناية ببيته، قالت في نفسها لن يبقى طويلا مع هذه المرأة المصابة بالبرود الجنسي، وعندما عاد إيهاب مصابا بالعنة امتلأ قلبها بالشفقة، كان ذلك إحساسا جديدا عليها، ولكنه طرد كل انفعال آخر، ستكون له وحده طيلة حياتها،حاولت أن تفهمه ذلك ولكنه كان غارقا في بؤسه، جاء حمادة وطلب منها أن تذهب إلى شقته وتنظفها، لأنها أصبحت مزبلة، وطلب منها أن تنتظره هناك حتى يأتي، صرخت في وجهه وشتمته بعنف فانسحب فورا، واتصل تركي وطلب منها أن تتناول الغداء عنده فرفضت وأغلقت الهاتف.

ظلت زينب تبذل مجهودا هائلا في إرضاء إيهاب، والتخفيف عنه، أصرت أن يذهب إلى موعده عند هنية، وقالت إنها ستنتظره في البيت، ذهبت مع صديقتها فاطمة في سهرة، وعندما عادت متأخرة في الليل وجدت إيهاب نائما في الصالون، تعاونت مع فاطمة في التخفيف عنه، قالت إنه سيكون لها وحدها، وستكون له وحده، وعندما عاد من لقائه مع ضابط الشرطة، حدست أنه عرف عنها أخبارا زادت في تشظيه واضطرابه، كانت تعلم أنه لا يصدق كثيرا مما تقول وتفعل من

أجله، ولكنها وجدت أن ذكورته قد عادت إليه، وبالرغم من ذلك بقي محطما، بعد ممارسة الجنس قامت إلى الحمام، وعندما عادت عرفت فورا أنه ميت.

المرأة الرمز:

سهام في" ثلاثة وجوه لبغداد":

ثلاثة وجوه رسمها غالب هلسا للمرأة العراقية، من خلال شخصية سهام؛ وهي الفتاة التي ارتبطت مع البطل غالب بعلاقة عميقة: الوجه الأول داخل إطارها الاجتماعي المتخلف، وهي في حالة خضوعها للرجل وقبولها به، أو تظاهرها بقبوله، حيث تكون فتاة سمينة، عصابية، ثقيلة الظل، تتحاشى مجتمع الرجال، وتعيش رعبا دائما منهم، تتحرك بوجه عابس وقليل الابتسام، **" عبر هذا الوجه يكون صوت الفتاة خشنا، أنفيا، كأنها تعاني من زكام، وحين تتحرك تبدو ثقيلة الحركة، مفتقدة لرشاقة وروح الأنثى."**[1].

ويتكشف الوجه الثاني للمرأة العراقية في غياب الرجل العراقي، حيث تعيش الفتاة العراقية حياة انتعاش، كأنها تستيقظ من خدر كان يلازمها، تتفتح روحها وتجد مزيجا من خفة الظل والذكاء والمرح، يرافق ذلك جرأة غريبة واستعداد للقيام بأي شيء دون شعور بالذنب، فعندما أحضر غالب امرأة إلى بيته لعمل بعض التنظيفات، كانت المرأة تلبس عباءة سوداء وتسير بمسافة بعيدة عنه، أخبرها بالمطلوب وغادر البيت وعاد بعد فترة طويلة، كان البيت قد تغير والمرأة قد تغيرت، **" لقيتها جالسة في الصالون الواسع جدا تقرأ صحيفة الحزب الشيوعي (طريق الشعب)، وهي بتاريخ قديم، كانت تلبس فستانا أبيض به دوائر سوداء، وعندما دخلت عليها رفعت رأسها وابتسمت. أي وجه! عينان سوداوان، واسعتان، تضيئان، وفم مكتنز، ولبشرتها لون العسل. جلسنا نتحدث وامتد حديثنا ساعات."**[2].

وعرف منها أنها تعمل فرّاشة في دائرة حكومية، وتسكن في حي شعبي، زوجها معتقل، وقد أعدم ابن عمها الشيوعي قبل فترة، وهي أم لأطفال تعمل أضافيا لتؤمن

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص417.

(2) المصدر نفسه، ص 418.

عيشهم، كان حزنها نبيلا تزيل حدته حتى لا تجرح محدثها،" وعندما لبست عباءتها وانصرفت كنت أعلم أن داخل تلك الكتلة السوداء حياة ذات جمال نادر، وروحا قوية ومرحة"[(1)].

ترمز سهام إلى العراق، في وجه من وجوهه، العراق القادر أن يعطي بطيبة نفس، ويعيش حياة طبيعية، ولكنه يبدو من الخارج مقهورا، بسبب تسلط سلطة متفردة بالحكم، وكل مقدرات الحياة. أما الوجه الثالث فتمثله الفتاة العراقية المتمردة على وضعها الذليل، والتي تملك القدرة أن تعلن تمردها أمام الجميع، وتجعل الظروف الاجتماعية تخضع لشروطها، إنها التجاوز، وهكذا كانت ليلى.

ليلى في "ثلاثة وجوه لبغداد":

تمثل شخصية ليلى في رواية " ثلاثة وجوه لبغداد " في أحد وجوهها جانبا رمزيا أساسيا، يعطي دلالة حول المضامين الروائية المبتغاة عند غالب هلسا، فليلى شخصية نسائية عضو في الحزب الشيوعي العراقي، الذي يعاني من أزمة طاحنة تهدد وجوده كاملا، نتيجة حملة على الحزب من قبل حزب البعث الحاكم، وتأتي علاقة "غالب" بطل الرواية بـ"ليلى" رمزية بالخالص، فكل العلاقة تقريبا منضوية تحت الأحلام سواء في اليقظة أو النوم، في أجواء غرائبية وعجائبية مشحونة بالرعب، ويمثل الجنس عمادها، إذ يكون رمزا للالتحام الفكري والتضامن العاطفي.

" أحس غالب أن ليلى- اسمها حقا وصدقا- قد عزمت أمرها، وقررت أن تقول كلمتها بصراحة وشجاعة. لقد تفادت في البداية، الإعلان الصريح مراعاة لظروف أكثر أهمية. خبرتها الناضجة بالحياة جعلتها تكتم حقيقة مشاعرها. ولكنها الآن في لحظة صفاء ومودة، قررت أن تكشف تضامنها، دون خشية. ... عبرت عن تعاطفها مع بطولة لا جدوى منها، سوى إثبات موقف"[(2)]، إن علاقة ليلى بالمجتمع

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص418

(2) المصدر نفسه، ص327.

العراقي؛ واندماجها معه هي رمز لطبيعة الحزبي الذي يمتهن العمل السري، دون أن يكون معزولا عن المجتمع، يعيش حياته ضمن ما هو متاح للعمل حتى ولو كان في هامش ضيق.

أما خروج ليلى إلى الحديقة، ومن ثم ممارسة الجنس مع غالب على الأرجوحة، دون أدنى اهتمام بالمراقبين ومنهم زوجها، فهو رمز لهدم الذوق السائد وثورة على المألوف، تعبير عن موقف منسجم مع الآراء والمبادئ التي تتخذها الشخصية الثورية في حالة صدق مع الذات من جهة، ومع الآخر من جهة أخرى، " **كان ذلك العناق أشبه بالشكوى، بحوار لغته جسداهما، يشرحان فيه عبء ذلك الخلط، المدبر بتصميم شرير، وقد وجدا نفسيهما في شباكه الكابوسية، المعقدة؛ والذي سوف ينتصر عليهما في نهاية الأمر، مهما احتجا، وقاوما. لهذا رسما بجسديهما حس الفراق المقبل، حس وداع محتوم، لا حيلة لهما فيه.**"[1].

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 327.

آمنة في "سلطانة":

تعد شخصية "آمنة" في رواية "سلطانة" أهم الشخصيات الرامزة في خطاب غالب هلسا الروائي، إذ إنها الشخصية الوحيدة التي تحدث عنها غالب هلسا بقدسية بالغة، وأشار إلى ذلك على لسان الراوي جريس عند حديثه عنها، " **هل يمكن أن أتحدث عن آمنة بموضوعية؟ لقد أصبحت مختلطة بأسطورتها، بحيث يستحيل فصل العناصر الواقعية عن الأسطورية. حتى في رؤيتي لها لا أستطيع أن أتأملها إلا عبر هالة مجدها. ألا يمكن أن نعتبر الأسطورة شكلا يبلور شعورا جماعيا تجاه ظاهرة ما، في مرحلة معينة من مراحل التطور؟ إذا أجبنا بالإيجاب تصبح أسطورة آمنة جزءا منها.** "[1].

وتمثل آمنة صورة رمزية أسطورية للأردن مستمدة من أعماق البلد وجذوة قلبه، حيث نلتقي بالأنثى المطلقة التي تتجسد فيها القيم الجماعية للشعب من خلال نظرة جمالية صافية إلى العالم[2]، " **آمنة حلم القرية الرومانسي المعلن**"[3]، لم تكن آمنة امرأة ذات جمال صادم مفاجئ، ولكنها مما يطلق عليه في القرى الأردنية (أخضرانية)، بمعنى أنها ذات سمرة خفيفة مع بياض يصعد من عمق الجسد، كانت تضيء مع أنها غير براقة، ذات قامة طويلة وعنق طويل دون إفراط، وجه يوحي بالإرهاق أو كأنها انتهت لتوها من البكاء، عيناها واسعتان تنظران بحزن وحياء، يحس الناظر إليها بقربها وحنانها واستحالتها معا، وهي أم جريس بالرضاعة.

يصفها جريس بأنها كانت مصدرا للحنان والمودة، في بيئة قاسية وصعبة، حيث أفاق من النوم في بيتها ليشعر بدفء حنانها ورائحتها العطرة، وكان قد شرح لها بتفصيل عن المدرسة التي يدرس فيها بعمان، حيث راحت الغيرة تنهش قلب

---

(1) سلطانة، ص 89.

(2) انظر حتر، ناهض، مصطفى وهبي التل (عرار) مختارات، أمانة عمان، 2002م، ص 29.

(3) سلطانة، ص 89.

ابنتها سمحة، التي كانت تتشاجر مع جريس فيما كانت آمنة تبتسم لهذه المشاجرة المتكررة، وكان جريس يشعر أن أمه بالرضاعة (آمنة) كانت تقف إلى جانبه دائما في شجاره مع أخته بالرضاعة "سمحة"، عندما كبرا قالت سمحة أنها لم تكن تشعر بذلك، مما يعني أن آمنة كانت قادرة إشعار الكل بأنه الأول عندها.

وعندما كان والد آمنة في حالة احتضار، كانت هي سبب توقف الشجار الذي كاد ينشب بين "أمونة" والدة آمنة وعمها الأصغر الذي يعد رجل البيت، وعندما زار جريس سمحة فيما بعد وحدثها عن مشاعره تجاه والدته بالرضاعة قالت له أنت مصاب بعقدة أوديب، وفي اليوم الذي زار فيه جريس السينما مع أمه وآمنة شعر أنه يحبها، وكان لآمنة صندوق جميل مليء بالحلوى النادرة، " **وللصندوق عندما يفتح، عطر صدر آمنة، يتوحدان، الصندوق وآمنة، كل منهما منجم أسرار وعطور وحنان ومفاجآت سارة، كل شيء له مذاق مميز**"(1).

يقدر تاريخ ميلاد آمنة بالعام 1914، وعندما كبرت آمنة وظهرت عليها علامات الأنوثة؛ لفتت الانتباه منذ صباها الأول، لقد كان هناك تناقض عنيف بين أنوثتها الطاغية وبين سماحتها ولطفها مع الآخرين، كان الجميع يشعر أنها غير ممتنعة على أحد، ولكنها في نفس الوقت مستحيلة لا يمكن الوصول إليها، وقد أوجد ذلك إحساسا بالأخوة تجاهها لدى الجميع، في ذلك الوقت كان الناس يتمتعون برخاء مادي كبير نتيجة تخلصهم من الضرائب التركية الباهظة التي كانت تثقل كاهل الفلاحين، قبل أن يندمج الأردن بالسوق العالمي، وقبل نشوء الاحتياجات الجديدة التي تستنزف المدخرات، ولذلك فقد انطلقت الطاقات المقموعة؛ في سباقات الخيول وحفلات الأعراس واقتناء الخيول الأصيلة، والرقص المصحوب بالغناء، وكانت "آمنة" هي الراقصة الأولى في القرية.

---

(1) سلطانة، ص 111.

لقد كان الراقصون يأتون إلى باب الراقصة، ويطلبون منها أن تخرج إليهم، فترفض محتجة بأن ثمنها غال، أو أنها مشغولة بابنها وغير ذلك، ثم تخرج إليهم بعد محاورات غاضبة أو معتذرة أحيانا وهي ترتدي ثوبا أسود، وملثمة بمنديل، ولا يظهر إلا عيناها، وتحمل بيمناها خنجرا مزخرفا، عند ذلك يشكل الراقصون حولها نصف دائرة، يتقدمهم قائد الجوقة محاولا انتزاع الخنجر من يدها، فإذا نجح بذلك، يأمرها بخلع اللثام وخلع ملابسها وقبل أن تتعرى يلفها بعباءته ويدخلها إلى حجرتها، أما آمنة فلم يكن هذا يحدث معها، " **كانت، عندما تمسك بالخنجر، تقترب بجسدها من قائد الجوقة، وتنحني بجذعها- وخنجرها- إلى الوراء، تتفادى يده السريعة المتجهة إلى الخنجر بهبوط مفاجئ، يموج بها جسدها، ويستدير، ثم ينتفض مستقيما كالخيزرانة، تمد يدها إليه بالخنجر، فيحاول الإمساك بمعصمها، ولكنها تروغ إلى الشمال، في حين يجد قائد الجوقة نفسه مندفعا إلى اليمين**"[1]، وكانت تقوم بحركات إبداعية خاصة في الرقصة من ابتكارها لم تفعلها راقصة من قبل، حتى يفشل قائد الجوقة، ويعلن عن عجزه، ويعود ليغني مع الراقصين، فترقص آمنة رقصة النصر الخاصة بها.

كانت آمنة تختلف عن نساء القرية جميعا، لقد كانت تفهم الحياة فهما خاصا، يجعلها في نظر جريس ومعظم أهل القرية أكبر وأسمى من تفكيرهم، وفي الوقت الذي كان فيه كل أهل القرية يخافون من الفرح، ويعتقدون بأن وراءه الموت، كان وضع آمنة يختلف عن ذلك " **آمنة وحدها كانت فرحا خالصا. ...ذلك أحد أسرار آمنة. لم تكن تخاف من الفرح، مثل أهل قريتنا. لم تكن تخاف ولذا كانت تحدث الجميع دون حرج، لم تكن تخجل من جسدها، فلذا كانت راقصة رائعة. هذا كله ساهم في بناء أسطورتها.**"[2].

---

(1) سلطانة، ص 126.

(2) المصدر نفسه، ص 130.

وعندما كادت البلدة تشتبك في حرب لأجل آمنة، وذلك عندما تقدم "هزيم" لخطبتها، كان هزيم غريبا عن القرية، غير أن والدته كانت من بنات إحدى قبائل القرية، وكانوا مستعدين للدخول في معركة من أجل ابن ابنتهم، وكان معروف عند الجميع أن آمنة محجوزة لابن عمها تركي العماشنة، بقيت صامتة ولم تتكلم ببنت شفة، قالت لها أم جريس الرجال يواجهون بعضهم بالبنادق ولا حديث للنساء إلا عنك وأنت لا تقولين شيئا، كأن الأمر لا يعنيك، أجابت بأنها لا يمكن أن تفعل شيئا في المجتمع الذي ليس للمرأة فيه رأي حتى في مسألة زواجها، وعندما سألتها من تختارين منهم لو خيرت، قالت لو خيرت لبقيت دون زواج، وكانت والدتها"أمونة" هي من أثار المشكلة، لقد رغبت في تزويجها للفلاح هزيم، بحجة أن زوجات الشيوخ لا ينلن شيئا؛ عمل شاق، وعزائم كبيرة تقصم الظهر، ومصيرهن بلا ونيس عندما يتقدم بهن العمر، ويتزوج زوجها بأخريات، هذا إذا لم يأت هذا الشيخ مقتولا في إحدى المعارك، ملطخا بالدماء ومحمولا على نقالة، وتصبح زوجته أرملة، وهكذا كادت الدماء تسيل.

ولذلك فإن شاعر القرية وهو من عبيد العماشنة، قد ذكر المعارك التي دارت بين العماشنة والنواعسة الذين ساندوا ابن بنتهم هزيم، فهجا هزيم وقسا عليه، ووصفه بأنه فلاح لا أصل له، كما هجا قبيلة النواعسة، وادعى أن أصولهم من الصلبة حينا ومن الشرارات حينا آخر، وتحدث عن معركة بالحجارة والنبابيت ادعى أن العماشنة قد سجلوا فيها نصرا ساحقا.

وإذا كانت آمنة شخصية رامزة إلى الأردن القديم أيام صفائه ونقائه، وقبل أن تتسلل ظروف الحياة الجديدة؛ برعبها وتعقيداتها إلى كيان المجتمعات العربية، ومنها الأردن، قبل عصر التحولات الكبرى التي طالت الأردن فحولته إلى مجتمع تجاري، مسحوق بمتطلبات لا يقدر عليها إلا فئة محدودة، ونخب محتكرة معزولة غير معنية بالإصلاح والتغيير، فإن رقصة آمنة كانت جزءا منها، وأحد تجليات

شخصيتها:" تقترب حتى يظن قائد الجوقة أنها ممنوحة له. ما عليه إلا أن يمد يده ليأخذ الخنجر من يدها. امرأة ممنوحة لرجل يذوب وجدا وشبقا، ولكنه يكتشف أنها ممتنعة حتى الاستحالة، وأن نجوم الليل أقرب إليه منها. وكانت آمنة تجليا للجو العام على نحو حاذق مبهم. ففي القرية انفتحت طاقات للفرح لا ترتوي، ولكن كان يرافق هذا ويمتزج به خوف يبدوا وكأنه يقول: الفرح ليس لنا؛ إنه تجديف على الرب، وتجاوز لقدر الإنسان. الإنسان مكتوب عليه الشقاء"(1).

لقد مثلت آمنة الأردن في فترة مريحة بين فترتين مرعبتين، الماضي برعبه ومآسيه أيام سيادة البدو وغزواتهم، والتحول إلى المجتمع التجاري الجديد.

سلطانة في " سلطانة":

ولدت سلطانة لأب مريض وأم قوية، كان لأبيها دكان تديره أمها، ولم يكن لها أخ أو أخت، وأمها مشغولة عنها في عمل البيت والدكان والعناية بوالدها "يوسف الحايك"، في طفولتها نشأت بين الصبيان كواحد منهم، " كان أبوها دائما مريضا، ولم يكن لها أخ يردعها، ويلزمها البيت، فكانت تفعل ما تشاء، تذهب مع الصبية لتصطاد العصافير، وكان لها فخ مصنوع من أسلاك معدنية، مثل بقية الصبية، تنصبه مغرية العصافير بحبة قمح إذا اقترب العصفور انفلت السلك نصف الدائري، وضغط عنق العصفور. وعلى الفور تقوم سلطانة بخلع رأسه من رقبته وشويه على نار تشعلها في المكان ذاته"(2).

وكانت أيضا وهي صبية صغيرة السن تركب الحمار وتنغزه ليركض بها، وكان في بعض الأحيان يرفس برجليه الخلفيتين فتسقط عنه وينكشف فخذاها، وعندما يتجمع الصبية يتفرجون عليها، كانت تطاردهم وهي تكيل لهم الشتائم والسباب، وفي إحدى المرات حاول فتى اسمه موسى أن يغريها بخمسة عصافير

(1) سلطانة، ص128.

(2) المصدر نفسه، ص 159.

اصطادها مقابل أن تذهب معه إلى الهربج[10] ليضاجعها هناك، فما كان منها إلا أن أخذت منه العصافير ثم كشفت ثوبه وأمسكت بعضوه وراحت تصرخ بأنه مثلها ليس له شيء، ثم ولت هاربة خوفا من أن يأخذ الأولاد العصافير منها.

وعندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها حدث معها أمر كان له أثر واضح لا يمحى من ذهنها، كما كان له أثر في تكوين شخصيتها، وعلاقاتها بالآخرين؛ كان مجموعة من الصبية قد تجمعوا في الهربج وراحوا يمارسون العادة السرية بشكل جماعي، في ذلك الوقت هبطت إليهم سلطانة وراحت تراقبهم بحياد تام، وعندما تنبه الصبية لوجودها حاولوا الاعتداء عليها، واقترب منها أكبرهم وهو في حالة هياج، فما كان منها إلا أن صفعته على فمه وأنفه ودفعت ركبتها في أسفل بطنه، فسقط على ظهره دامي الأنف، ثم وقفت برجل على وجهه وأخرى على بطنه، وراحت تنخفض وترتفع في رقصة رتيبة، حتى أفاق الصبية من ذهولهم، وراحوا يضربونها وهي تقاومهم بشراسة، ثم انفلتت منهم وصعدت إلى أعلى الهربج وراحت ترميهم بالحجارة، حتى غادروا المكان وهم خائفون.

بعد أن غادر الصبية الهربج عادت هي إليه وبقيت وحيدة تتأمل في جسدها، غفت قليلا، وعندما أفاقت رأت صليبا الذي كان رجلا كبيرا يقترب من الأربعين، يمر من الهربج فوجدها وحيدة، وأخبرته بما فعل الصبية معها، وتعلقت به حتى مارسا الجنس هناك وأفقدها عذريتها، ونمت منذ ذلك اليوم بينهما علاقة حب وغرام ملتهبة استمرت بعد ذلك سنينا، عندما عادت سلطانة إلى بيتها أدركت أمها بحكم خبرتها ما حدث معها على الفور، لم تجب على أسئلة أمها، ونامت فترة طويلة، أفاقت بعدها لتجد أمها ما زالت جالسة فوق رأسها حزينة، طلبت طعاما فقد كانت تحس بالجوع، وبعد الطعام أخبرتها عن الصبية وأن أحدهم قد نالها، بكت

[10] (3) الهربج مكان منخفض في طرف القرية تنمو فيه الأشجار بكثافة، كانت تجري فيه العمليات الجنسية السرية.

الأم وقالت من يحمي الغريب في هذا العالم الذي لا يرحم، أما الأب يوسف فلم يكن يدرك شيئا مما يحدث.

بعد ذلك أخذت سلطانة تتسلل إلى غرفة صليبا الصغيرة، في حديقة منزله فتجده هناك، فيمارسان الجنس ويتحدثان، ثم يغادر كلاهما دون أن يعرف أحد، كانت تحبه ولكنها لم تقبل منه أن يسيء إلى زوجته صبحا، قال لها مرة: " **لولا أمي، الله يرحمها، بلتني في صبحا اتجوزتك. على كل حال رجلها في القبر... توقفت عن تقبيله ومداعبته وقالت: حرام عليك. نظر إليها بدهشة، فقالت: أم عيالك.**"[1]، شرح لها أنه لم يؤذها قط، وشرح لها كيف تزوجها، ثم عادا إلى الاندماج، وقد وجد نفسه يغير الكثير من قناعاته، وعاداته وعلاقاته؛" **أدرك أن عليه ألا يحاول إرغامها على ممارسة الجنس. كما كان يحب أن يراها، ويحب أن يستمع إليها. كانت تعيد صياغته دون أن يعلم، ودون أن تقصد هي.**"[2].

ولكن كيف تكونت شخصية سلطانة؟ ومن أين أتت بكل هذه الحرية، والثقة بالنفس لتتصرف هكذا، وكأنها في إحدى الدول الأوروبية؟ وقد عاشت في بيئة قبلية، المرأة فيها مقموعة اجتماعيا حد الانسحاق، لقد عاشت سلطانة في القرية ولكنها خارج سياقها، إن " **سلطانة تمثل نوعا جديدا من النساء، تكون خارج سياق حياة القرية وتقاليدها ومثلها؛ امرأة لم تعرف قمع القبيلة، ولا السلطة الأبوية، ولا رقابة الأم الصارمة؛ امرأة حرة لم يتشكل لديها الأنا الأعلى**"[3].

نقطة التحول الثانية والمهمة، والتي كان لها أثرها الواضح في تكوين شخصية سلطانة، كانت عندما رافقت مسعد في سيارة الشحن إلى عمان، كان مسعد قد مر على الدكان وطلب من سلمى والدة سلطانة أن تجهز مئة بيضة في صباح الغد، عند ذلك طلبت منه سلطانة وكانت موجودة أن ترافقه في سيارة

(1) سلطانة، ص 182.

(2) المصدر نفسه، ص 183.

(3) المصدر نفسه، ص 184.

الشحن، وافق مسعد على الفور وقد لاحظ أن سلطانة صارت بطول أمها، حاولت الأم أن تمنعه، أو تمنع سلطانة من الركوب معه، إلا أنها لم تلحق بهما، وعندما نادت: سلطانة..، كانت سيارة الشحن قد غادرت مخلفة عاصفة من الدخان والغبار، وعندما رجعت سلطانة عند العصر حدست الأم فورا أنه لم يحدث شيء بينها وبين مسعد.

أما سلطانة فقد كانت شبه مفجوعة وهي تحدث أمها عما رأته في عمان، حدثتها وهي تضحك عن الناس والمطاعم والمشروبات والملاحم وملابس النساء..، ثم أخبرتها أن مسعد طلبها للزواج من أخيه بشارة، ومنذ ذلك اليوم اكتشفت سلطانة قوتها، " **تبين لها أن كل من لها صلة مباشرة به يخضع لإرادتها بهذا القدر أو ذاك: صليبا، مسعد، بشارة، أمها، والدها، زوجات أعمام بشارة، وعماته العوانس. لم تكن تتقصد ذلك، أو تسعى إليه. رأته يحدث**"[(1)]، وقد أحدثت تغييرات في مصائر من حولها، وكانت هي الوحيدة التي لم تدرك، وإن أدركت لم تكن لتكترث، أن للمجتمع قوانين، ولهذا كانت أكثر حرية وجرأة، كانت تطيع حريتها الداخلية، ولم يكن يخيفها أحد.

طبعا حاول مسعد أن يكون هو الرجل المخيف، ولكنه أدرك أن العلاقة الممكنة الوحيدة مع سلطانة هي الخضوع لها، وقد نجا بشارة لأنه رضي بمصير الزوج الشكلي، ولم تسمح له سلطانة إلا بلعب دور الإطار الخارجي للزوج، " **لم يعرف جسدها إلا مرات معدودة، لم تتح له أن يكون أبا لأبنائها ولا لمسعد. جعلت صليبا أبا لأميرة وأبا لطفلها الثالث، أما الرابع والأخير فقد كان ابنا لحكمت، الذي كان يشرف على المخيم المقام قرب مدينة العقبة، والذي كانت تمر عبره قوافل تجار الحشيش إلى مصر، وعبره تتم تجارة الماس مع إسرائيل**"[(2)].

---

(1) سلطانة، ص 190.

(2) المصدر نفسه، ص 190.

أما الابن الثاني فقد كان غلطة دفع هزيم ثمنها غاليا، كان هزيم شريكا لمسعد، وعندما رأته سلطانة تنبهت إلى وسامته الأنثوية فأحبته أبا، ولكنها وبعد أن فرغت منه كرهته بشكل مفرط، لاحظت خوفه وارتباكه، واستغربت كيف كان يريد آمنة زوجة له، " **منذ تلك اللحظة قررت أن تحول هزيم من شريك إلى أجير**"(1)، كانت هذه الحرية الداخلية هي التي جعلت سلطانة تتأخر على صليبا أو تنساه، تذكرته في اليوم الرابع، فزارته لتحكي له عن عمان وعن زواجها القريب من بشارة، وعندما لاحظت علامات الضيق على صليبا، الذي كاد أن يغمى عليه لما سمع الخبر، رأته يتحدث بمرارة ولهفة لم تعهدهما من قبل، فأحست بشكل غامض وغير مفهوم أنها تملك أرواح الرجال ومصائرهم، " **شعرت بقوة، وبأنها في وضع تقرر لنفسها وللآخرين ما يجب فعله**"(2).

لقد كانت سلطانة ذات ذكاء حاد؛ فتقدر ما يفكر به الآخرون، ولذلك فقد حدست العلاقة بين أمها ومسعد، ولاحظت ما يدور في نفسها من خوف، وكانت تستعمل حدسها هذا للسيطرة على الآخرين، لم تكن تقاوم إغراء استعمال هذه القوة في الوقت المناسب، كانت إحدى وسائلها الفعالة.

كان منزل سلطانة يختلف عن كل منازل القرية، الأثاث، الزينة، الكنبات، السجاد، حتى طبيعة الطعام، والتصرفات على مائدة الطعام، والعلاقات مع الآخرين، لقد تجاوزت سلطانة القرية في كل شيء، وبعد توسع تجارتها، وكثرة المال بين يديها، فقد اشترت أرضا في أرقى أحياء عمان، جبل اللويبدة، وبنت بيتا من الحجر، مما يدل على أنها صارت من الأثرياء، عندما زارها جريس كانت لوحدها هناك، وكانت أميرة معها.

---

(1) سلطانة، ص 191.

(2) المصدر نفسه، ص 192.

وكانت سلطانة أيضا شريكة في المخيم الذي أقيم قرب مدينة العقبة، وكانت مهمته تهريب البضاعة الى دولة إسرائيل، وتهريب الماس إليها الذي يجمع من الصحراء ويهرب عبر قوارب خاصة ليتم تصنيعه هناك، هذا بالإضافة الى تجارة الحشيش مع مصر وإسرائيل، وكانت تسافر الى العقبة لإنهاء المعاملات والإشراف على حسن سير الأمور في المخيم.

أما زوجها بشارة فقد منعته من الحضور الى عمان، كانت تزوده بمبالغ من المال تكفيه في القرية، وفي عمان والعقبة كان لها عشاقها، حكمت الذي كان مسؤولا عن المخيم في العقبة، والشيخ المتنفذ في ذلك المخيم، وسيف الدين الشاب الوسيم، وغيرهم.

ولم يكن لمسعد بالرغم من قوة شخصيته أي نوع من السيطرة على سلطانة، سألها جريس مرة: "**- بتحبي مسعد؟ كان يعتقد أن هناك علاقة جسدية بينها وبين مسعد. هزت رأسها، وانتصب جسدها بكبرياء. قالت: مين مسعد؟ هذا خدام تحت رجلي.** "[15](1)، وقالت سمحة لجريس أن سلطانة تكون جالسة مع الضيوف في الداخل وتنادي مسعد وتطلب منه عمل القهوة.

كانت تعرف أن أميرة تفعل ما تشاء، وأنها مومس، ولكنها لم تكن تعرف تفاصيل مشاكلها، سألها جريس عن أميرة:" **قالت بحياد:- ما بشوفها. قال:- ما بتشوفيها؟ قالت بضيق:- دايرة. هي تقول ذلك عن ابنتها؟ قال جريس لنفسه. تكاد تصفها بأنها مومس. لا يكاد يعرف هذه المرأة**"[16](2)، جعلته سلطانة يتكلم كل ما يعرفه عن أميرة، وعندما أخبرها عن زيارة الخوري صليبا للنائب، وصفته بأنه حقير، وأضافت بأن ذلك كله من عمل مسعد، ووصفت أميرة بأنها سافلة،قالت:

"**صار اللي صار، تستر على حالها. لازم تفضحنا وتفضح نفسها؟ كلبة**"[17](3).

---

[15] (1) سلطانة، ص 429.

[16] (2) المصدر نفسه، ص 430.

[17] (3) المصدر نفسه، ص 432.

وفي عملها في المخيم المشهور صار من عشاقها المشهورين حكمت مدير المخيم، الذي قال بأنه سيتزوج من سلطانة، فوجد بعد ذلك مقتولا على شط العقبة، كان جريس يعلم وسمحة ابنة آمنة تعلم، والكثيرون بعمان يعلمون؛ أن سلطانة أصبحت عشيقة الشيخ.

من خلال رسائل سمحة عرف جريس، أن سلطانة زارت سمحة فلاحظت سمحة أن سلطانة وبالرغم من أنها تجاوزت الخمسين من عمرها ما تزال شابة، وبعثت لجريس بمجلات وجرائد فيها مقابلات مع سلطانة، وصفتها الصحف بأنها برجوازية وطنية، وأنها تريد أن تبعث الجوهر الثوري للماركسية، قالت سمحة بعقلها: **"تهريب الحشيش من العقبة الى إسرائيل، ثم من خلال بدو التياهى الى مصر، وتهريب الألماز الى إسرائيل، والتآمر على أحمد المساعد وإخراجه من البرلمان.. كل هذه وطنية"**[18][(1)].

ومن خلال الصورة المنشورة في المجلة الفلسطينية قرأ جريس وضع سلطانة، **" كانت الصورة جميلة بقدر ما هي مخيبة. كانت صورة لامرأة فاخرة، امرأة من نساء البلاط اللواتي يتمتعن بسلطة مطلقة، والتي لا ينجح رسامو البلاط إلا في اقتناص الضخامة والأنوثة والبراءة، مسدلين الستار على مكائدها، وصلابتها الفولاذية وتدبيرها الحاذق. هذا ما كان يوحي به العنق الطويل، المائل ميلا خفيفا الى الأمام، كاشفا أرستقراطية عريقة، ورقة مفتقدة بين بنات الأجيال الجديدة. ولكنها لم تكن سلطانة. ليست سلطانة التي يتذكرها"**[19][(2)].

ومن خلال ذكريات جريس وشوقه الى سلطانة، تتبدى رمزية سلطانة، إنها رمز الأردن الحديث، **" وفي داخله انفجر صوت: عالم الطفولة، الأردن التي تحلم بها لم تعد موجودة حتى حين كنت فيها. سلطانة ليست آمنة، ولكنها متعاملة مع إسرائيل، ومهربة حشيش، حتى جسدها الحرم امتهنه الشيخ الذي قتل حكمت**

---

[18] (1) سلطانة، ص 437.

[19] (2) المصدر نفسه، ص 439.

واستباحها. حتى حين قالت، بكل ذلك الاعتداد والثقة، إن مسعد تحت قدميها... هل كانت تضرب بسيفها"[20](1).

كان الشيخ الذي يتذكر جريس أن سمحة أشارت إليه في صورة تجمعه مع سلطانة، ضخما يحتل أكثر من ثلاثة أرباع الصورة، وقد استغرب جريس كيف يمكن لسلطانة أن تحتمل كل هذا الوزن في السرير، لقد تغيرت سلطانة، وتغيرت الأردن، " **يخطر له، الآن، أن امرأة تتمدد تحت هذه الكتلة الهائلة لن تكون سلطانة التي بناها في خياله، امرأة تمنح نفسها لمن تحب، أو لمن ترغب فيه. أصبحت مومسا تبيع جسدها لتثري"**[21](2).

ومن خلال ذكريات سلطانة، يكتشف القارئ جوانب وتحولات أخرى في شخصية سلطانة، لم تظهر من قبل، كانت سلطانة وبالرغم من تجاوزها الخمسين من عمرها ما تزال تبدو شابة لا يظهر عليها أثر العمر، وكانت تعلم أن عشيقها حكمت مدير المخيم في العقبة، كان على علاقة بابنتها أميرة، وكانت تلحظ إشارة خفية في وجه حكمت لأميرة أحيانا، قالت لها أميرة مرة وهما تحتسيان القهوة في غرفة نوم سلطانة في الفندق"- **أنا بكبر وأنت بتزغري. تميل على أمها وهي تريها شعرها:- لدي. فيه شيب بشعري. شايفة؟ تلومني كأنني السبب. أعرف ما تقوله لنفسها:" ما دمت حية فسوف تظل قادرة على خطف عشاقي مني""**[22](3).

كانت أميرة قد عادت وصارت على علاقة طيبة مع أمها، بعد مقتل حكمت، ولكنها كانت تتفوه بكلام كثير يسيء الى سلطانة، فقد قالت لها مرة: كيف تكونين مع هذا الغول بعد حكمت؟ تتذكر عندما قررت النوم وحيدة بدون حكمت، ولكنها لم تستطع النوم، فتوجهت الى غرفته، كانت تريد أن تقول له تعال نام بجانبي ولكن لا تلمسني، عندما دفعت الباب ودخلت وجدته مع أميرة عاريين، غطته أميرة،

---

[20] (1) سلطانة، ص445.

[21] (2) المصدر نفسه، ص 449.

[22] (3) المصدر نفسه، ص 451.

وواجهت سلطانة، قالت أنها هي تتحمل المسؤولية، هي من جاءت إليه ولم تعطها فرصة للحديث معه.

صفعت أميرة على وجهها صفعة قوية، وغادرت، ولكنها لم تستطع النوم، عادت تتنصت على باب حجرة أميرة، سمعت حكمت يهمس بكلمات وأميرة تضحك، فذهبت وأفاقت مسعد من نومه وذهبا الى غرفة الشيخ الذي كان يأكل الدجاج ويلهث، أراد الشيخ أن يطرد مسعد، ولكنها طلبت إبقاءه، حاكت مؤامرة على الفور ضد حكمت، " **ما قالته للشيخ كان من وحي اللحظة: حكمت وصلته بالوزير، وكيف يعد لهم مكيدة. لقد حكى لأميرة كل شيء**"[(1)23]، عند ذلك قرر الشيخ التخلص من حكمت.

في اليوم التالي أفاقت متأخرة عند العصر، ذهبت الى الشاطئ كان الشيخ ومسعد وحكمت موجودين، والقارب جاهز، حاولت أن تسأل عن التأكد من عدد حمولة الأحجار، أخبرها الشيخ أن كل شيء محسوب حسابه، وكان حكمت يتهرب من نظرتها، أمسكت وجهه بين كفيها، وطلبت منه أن يحافظ على نفسه، ثم عادت برفقة الشيخ، كان الغروب قد حل وبدأ الليل يغطي المكان، بحثت عن منطقة خالية من الشعر في وجه الشيخ وقبلته،ابتلت شفتاها بالعرق، فأحست بالغثيان، وكادت أن تتقيأ، ولكن لم يكن هناك فرصة للتراجع، لقد اختارت الشيخ.

عندما جاء الشيخ الى غرفتها ليلا، أصرت على أن تأخذه الى الحمام، وهناك مارسا الجنس على أرض الحمام، " **كانت في تلك الليلة ترسي أسسا لممارسات المستقبل: العنف، الدم، التقيؤ، ثم استعادة الرغبة من خلال العنف**"[(2)24]، في الصباح جاءتها أميرة وحاولت أن تصالحها، كانت تقول عن ابنتها: حنونة ومجنونة، وعندما نظرت الى ملابس أميرة قالت في نفسها، أن أميرة تجيد العهر.

---

[23] (1) سلطانة، ص 454.

[24] (2) المصدر نفسه، ص 458.

ولكن مسعد حاول أن يضايق سلطانة، عندما أخبرت الشيخ قالها بأنه سوف يتدبر أمره، وعندما سألته مرة أخرى عن مسعد قال لها بأنه قد تدبر أمره بالفعل، لقد أرسل له من اغتصبه عنوة، "**همس في أذنها:- سويناه مرة مثلك. ... كان الشيخ يقهقه: أنت واياه خوات**"[25](1).

لقد أصبحت سلطانة غير محتاجة إلى مجهود كبير لتسيير أعمالها، فعندما تصل الى حد من الثراء، وتخلف لدى الآخرين انطباعا من الحذق والقسوة، فإن كل شيء يسير من تلقاء نفسه، والنقود تأتي وحدها؛ " **تزور إنسانا لمجرد أنها لم تره منذ فترة طويلة. تجد أنها خرجت بمكاسب نقدية. يراها الناس فيعتقدون أنها تريد شيئا. يبحثون عما يمكن أن تريده منهم، فيقدمون خدماتهم دون أن تطلب منهم ذلك أو تتوقعه**"[26](2).

لم يعد أحد ممن حول سلطانة يعاملها كامرأة جميلة ومشتهاة، الكل يفكر أنها بلا عواطف ولا رغبات، ويتصور أنها قادرة على الإيذاء، يتصورون أنها تملك قوة تستطيع أن تسحق بها من يقف في وجهها، ولم تعد هي قادرة على تحديد مشاعرها؛ هل هي سعيدة أم لا؟ هل هي راضية عن نفسها أم لا؟ تشعر فقط أنها مرهقة، كانت تدخن وتشرب القهوة كثيرا، وكان ذلك يخلف لديها إحساسا بالغثيان والذنب، وكانت تتغلب على ذلك بالاستحمام وضم جسد سيف الدين، العشيق الجديد، عندما غادرها سيف الدين، جاءتها أميرة، كانت سكرانة وتعربد، قالت لها أن سيف الدين شاب لطيف، وعندما استنكرت سلطانة سكرها، قالت بعربدة: وهل كنت أنت تصلين مع سيف الدين قبل قليل.

قالت لها أميرة أن والدها بشارة قد حضر الى عمان، وأنها طلبت من عمها مسعد أن يسكنه في فندق فلسطين، وقالت أن والدتها سلطانة مسافرة وستعود غدا، كان بشارة يريد بعض النقود، وكانت أميرة تحتقره، قالت أنها لم تقبل حضوره الى

---

[25] (1) سلطانة، ص 461.

[26] (2) المصدر نفسه، ص 461.

بيتهم لأنها خشيت أن يملأ الدار بالقمل، وكانت سلطانة تتمنى أن تعيش وحيدة في كوخ، من دون أي من الناس الذين تعرفهم.

ثم اتصلت سمحة وطلبت أن تتحدث مع سلطانة، أخبرتها أن زوجها بشارة تحدث معهم هاتفيا، فنزل زوجها وأحضره الى بيتهم، قالت سلطانة بأنها ستذهب لإحضاره غدا صباحا، غضبت أميرة واتهمت سمحة وزوجها بأنهما يفعلان ذلك رغبة في إحراجهما، ثم أصيبت بنوبة من الصرع، مما استدعى مساعدة سلطانة، التي راحت تمسح وجهها من العرق، وفمها من اللعاب، وراحت أميرة بعد ذلك تبكي وهي تقول أن البكاء يريحها.

وبينما كانت أميرة تنام في أحضان سلطانة، وهي تفكر في مستقبل ابنتها؛ لم يذلها أحد أو يخيفها مثل هذه البنت، كانت تعرف أن مستقبل ابنتها بائس، لم يكن الحب هو الذي يحرك مشاعرها تجاهها، وإنما الشفقة، وقد أدركت بخبرتها أن هناك علاقة بين عشيقها سيف الدين وابنتها أميرة، كانت تسرق عشاقها دائما، ومن ثم تدعي أن أمها هي التي تسرق منها عشاقها.

تتذكر سلطانة عندما ذهبت بعيد الفجر الى الشاطئ برفقة الشيخ، كان يشكو منها وهو يفاخر، بأنه على علاقة بامرأة لا تمنح نفسها بسهولة، عندما وصلا المركب على الشاطئ لقيهم مسعد وأخبرهم بأن اليهود قد قتلوا حكمت، دخلت سلطانة والشيخ الى إحدى حجرات المركب، ونظرا الى حكمت كانت رصاصتان قد اخترقتا وجهه وخرجتا من مؤخرة رأسه، جلست سلطانة هناك تبكي، ثم خرجت، وتخيلت نفسها في كوخ على الشاطئ وحيدة وسعيدة، إلا أنها أحست بشوق كبير الى الرجل.

المراة الحلم:

تفيدة في "السؤال" و"الروائيون":

تعد شخصية تفيدة في "الروائيون" ومن قبلها "السؤال" من أهم الشخصيات النسائية في خطاب غالب هلسا الروائي، إذ رسمها بعناية، وجعلها تمثل أو تقترب من المرأة الكلية، الحلم، التي كان هلسا ينشدها ويبحث عنها، ويتمنى أن تكونها المرأة العربية من وجهة نظره، وقد كانت تفيدة في "السؤال" نموذجا للمرأة الجديدة التي تتجاوز واقع الاستلاب والتبعية وتحقق حضورها الفاعل في النضال الوطني والإبداع الكتابي، وهي في الأصل امرأة بسيطة تنتمي للطبقات الشعبية المسحوقة في المجتمع المصري(1)، عاشت في قرية من قرى الريف المصري(بركة السبع) الأربعة عشر عاما الأولى من حياتها، وكانت تتخيل أن كل ما يحدث خارج القرية هو مثير إلى أقصى حد، فغادرت القرية وحلت ضيفة عند عائلة من أقاربها في القاهرة، كانت فتاة جميلة وقوية البنية، ثم اكتشفت أن العائلة المضيفة تخطط لتشغيلها خادمة في أحد البيوت وقبض معظم راتبها، فقررت أن تهجر العائلة في أول فرصة متاحة.

لم تبهرها القاهرة، ولكنها شعرت بخيبة الأمل من هذه المدينة المتربة المزدحمة، بالرغم من ذلك كانت تعتقد أنها منذورة لمصادفة تنقلها إلى عالم سعيد، وكانت تعيش حلمها كيقين سوف يتحقق يوما ما، وإلى جانب الحس العملي والجرأة غير المحدودة، كانت تفتقد تأنيب الضمير أو الإحساس بالندم، "**حلمها هو الحقيقة وكل الوسائل صالحة، لم تكن تمتلك الأنا الأعلى، الذي تغرسه الطبقة المتوسطة في أبنائها**"(2)، عملت خادمة لفترة بسيطة، ثم بائعة جرجير وفجل وكرات، ولما

(1) انظر أبو نضال، نزيه، غالب هلسا، ص73.

(2) الروائيون، ص578.

خطبها رجل يكبرها بعشرين عاما، يعمل في المطافئ وسائق تاكسي في أوقات الفراغ، وافقت دون أن تستشير أحدا، لقد أدركت بحسها العملي أن هذا هو أحسن خيار أمامها.

نقلها زوجها الى شارع السكر والليمون، في مصر القديمة، ومنذ ليلتها الأولى أدركت أن هذا الرجل ليس قدرها، ولكنه وسيلتها، لقد كشف عن حبه لها بطريقة جعلها تشعر أنه في قبضتها، صارت تحتقره، وعادت تحلم بالبطل الفاتن الثري الذي سوف ينتزعها من ظروفها وينقلها الى عالم البيوت الفخمة والحدائق الجميلة، حسها العملي الذي نما عبر الظروف الصعبة دلها على أن المصادفة لن تقود الحبيب المنتظر إليها،كما يحدث في الأفلام المصرية، كانت معرفة مخيبة للأمل، لقد تعلمت أن اكتشاف حقائق الحياة يعني تدمير الأوهام الجميلة، التي كانت تعاود الظهور رغم كل معرفة قدمتها التجارب.

بعد أيام قليلة من زواجها أقامت علاقة مع شاب يعمل في مصلحة الشهر العقاري، كان دخله متواضعا وشقته تعني البؤس بنفسه، بالرغم من ذلك صارت شقته بالنسبة لها حلم حياتها المقبل، وأدهشها حلول الإنسان الواقعي محل رجل الأحلام، صار هاجسها أن تجعله يعلم أن حبها له أكثر مما يعتقد، فكانت تحمل إليه الطعام وتعطيه النقود، وكانت تحب ترفعه الذي يجعله يتقبل ما تفعله من أجله دون أن يعترف به، ولكنه وعندما عرض عليها الزواج وكأنه هو المعني وحده بهذا الزواج، بدا لها رجلا عاديا مفتقدا لكل صفات المحبوب، فودعته ولم تعد إليه.

عادت بعد ذلك تحب زوجها الطيب، ولكنه أضجرها حين صار يلازم البيت فترة أطول، فكرهته، وعاملته بقسوة، وجعلت البيت جحيما، حتى عاد الى عمله كالمعتاد، نفورها من زوجها جعلها رغبة خالصة ممنوحة لكل رجل يروق لها، فأقامت علاقات عديدة مع الكثير من الرجال، ولكن علاقاتها كانت خيبات أمل متتالية، عرفت فتوة صاحب مقهى، ثم هجرته بفظاظة عندما تبين لها ضعفه

الداخلي أمامها، عرفت طلاب جامعات، وضباطا فتنوها في البداية، ثم تكشفوا عن كونهم رجالا كالآخرين، رجال أعمال يملكون سيارات... وأبعدتم عنها جميعا.

حبها الأول والحقيقي كان تاجر الحشيش حامد، كان مسيطرا على من حوله ولم يجعله الثراء مترهلا، وكان يخوض معاركه مع رجال الأمن بجسارة، عرفته عندما جاءتها ابنة أختها سعاد وأخبرتها أن حامد افتض بكارتها، ذهبت إليه والشر في وجهها، ولكنها وبعد مقابلتها معه أكبرت الرجل واستعداده لتصليح غلطته، ورأت فيه صورة للفروسية والجدعنة فمنحته نفسها، قضت فترة من الزمن وهي على علاقة معه، ولكنها أدركت أنها لن تكون إلا أداة في يديه، وحين شاركته في تجارة الحشيش كانت مجرد شريكة صغيرة، تعيش في ظل المعلم الكبير لأنه تنازل ورضي بذلك، عرض عليها الزواج،" **كان الزواج منه يعني، بالنسبة لها، أن تلغي نفسها تماما، وأن تصبح أما لعدد لا حصر له من الأولاد**"[1].

ثم أخذت تسمع عن مصطفى من ابنة أختها سعاد، كان حامد قد دخل السجن، وصارت تعيش في وحدة، تصورت عالما من الرجال المتعلمين والشجعان، خطرا وممتعا أن تشارك أصحابه حياتهم، وبعد تعرفها على مصطفى والعلاقة التي نمت بينهما وتكللت بالزواج، "**اكتشفت عالما جديدا ولكنه مختلف عن تصورها. كان يتقاطع في كثير من المواقع مع العالم الواقعي الذي تعرفه. لم يكن كله إثارة**"[2]، ولكن هذا العالم شكل تحديا لها، ولد لديها شعورا بالدونية، وحافزا أن تكون مستحقة له، أن يقبلها كفرد فيه، وفي هذا العالم عرفت نوعا جديدا من العلاقات لم تعرفها من قبل، كانت علاقاتها بالآخرين تمر عبر جسدها، وكان التعبير بالجسد هو لغتها الأساسية، لقد تعرفت على العلاقات الإنسانية المكتفية بذاتها، فقد كان أصدقاء مصطفى من مثل إسماعيل وهنية ونوال ووليد وإيهاب ومنصور وغيرهم،

---

(1) الروائيون، ص582.

(2) المصدر نفسه، ص 582.

كانوا يعاملونها بندية، واكتشفت أن في مخاطبة عقلها سحرا فتنها، وتولد من خلال ذلك مفهوم جديد للرجولة.

تأكد ذلك حين جاءها المخرج الذي جاء يساعدها على كتابة المسلسل، جاءها غازيا وكان قد سمع شيئا عن ماضيها، أعاد صياغتها فحولها الى شبه مومس ستستجيب له شاكرة بمجرد أن يبدي رغبته بذلك، ولكنها رفضته، خاف من الفضيحة، سيتحول من صديق للشيوعيين يساعدهم في ظروفهم الصعبة، الى رجل يحاول الاعتداء على زوجاتهم وهم في السجن، أكمل مهمته وانصرف بسرعة، شكت لهنية ونوال، قالت هنية:"- **معظم الرجال كده. بيحاولوا. والست هي اللي بتقرر**"[1].

كانت الكتابة قد أخذت تستولي على تفيدة، وكان ذلك هو الذي جعلها تنفر من كل ممارسة جنسية، كانت ممارستها للكتابة استجابة لإحساس يلازمها في مواقف عديدة، كانت تود أن تكتب شيئا فريدا لم يسبق حدوثه، ولكن تواطؤ اللغة مع التصورات الشائعة كان يجعل ما تكتبه تكرارا نمطيا لما تراه في الأفلام والروايات، فالمسلسل الإذاعي الذي كتبته تحول بسبب تواطؤ اللغة وتعديلات المخرج الى مسلسل نمطي، "**لم تكن تعرف أن التوصل إلى لغة تستطيع أن تعبر عن الجديد وغير المألوف هو نتاج مجهود ومعاناة يخترق الكاتب بهما ببطء وألم عمومية اللغة**"[2].

ثم قررت تفيدة أن تكتب رواية، أن تحول حكاية المسلسل إلى رواية، كان ذلك يعني أن تكتب تجربتها، " **لم يخطر ببالها قط أن غالبية الروايات الجيدة هي على نحو ما، سيرة ذاتية**"[3]، بدأتها مرات عديدة، وفي كل مرة تكتشف أن ذلك لم يكن ما تريد أن تكتبه، وكانت تندهش لهذه الرواية التي تمضي في خيالها حارة سهلة،

---

(1) الروائيون، ص583.

(2) المصدر نفسه، ص584.

(3) المصدر نفسه، ص584.

كيف تتحول عندما تكتبها، الى كلام فاقد للروح، ولذلك فقد قررت أن تؤجل الكتابة إلى أن يخرج إيهاب من السجن فتسأله عن أسلوب كتابة الرواية، بدأت بقراءة كل ما يقع تحت يديها من روايات، كانت قد نسيت جسدها في حمى انشغالها بالكتابة، وكانت تعتقد أن الأمر سوف يختلف مع مصطفى، ولكنها لم تكن تتخيله إلا وهو جالس على مكتبه يكتب، كما صارت الطفلة أحب ما في عالمها.

صارت تفيدة تجلس على مكتب مصطفى، وتحاول الكتابة في الرواية، ولكن كان دائما يدهمها الإعياء، وبالرغم من كل الروايات التي قرأتها فإنها في روايتها لم تخرج عن الخطوط العامة للفلم العربي، كانت تعلم أن الفلم لا يوضح خيبة الأمل التي نشعر بها عند تحقق أحلامنا، كانت توضح الألم الذي نحس به عند فشلها، وشعرت أن ما يمنعها من الكتابة ربما يكون الخوف، ولكن هل الكتابة تعبر عن عودة إلى الحي الشعبي؟ هل الكتابة فضيحة؟ وهي الأشياء التي تخافها، عادت إلى الكتابة فوجدت أنها تخلصت من الخوف، "**أخذت تكتب دون توقف، وخلال ذلك تعيش نشوة امتلاء الوجود، ذلك الإحساس الذي يجيء عندما يكتشف الإنسان أن كل تفاصيل الحياة المجانية والمهملة قد تحولت إلى ثروة حقيقية، عندما تصبح هذه التفاصيل أجزاء في كلية ذات معنى. وفي الرواية التي تكتبها كان لكل شخصية أصلها الواقعي**"[1].

كانت تفيدة تشعر وهي تكتب أنها مقصرة مع ابنتها سناء، وأنها تخون مصطفى بانصرافها إلى الكتابة، وابتعادها عنهما، وعندما جاء مصطفى من شغله، حاولت أن تعوضه عن الفترة الماضية، وانشغالها عنه، في السهرة شعرت أن إيهاب معذب وحزين، قال إنه توقف عن روايته ويريد كتابة رواية تسجيلية عن زينب، ذهبت إلى المطبخ وبكت عليه، قالت إن زينب ستدمره تماما، بعد العشرة غادر الأصدقاء وبقيت تفيدة وحيدة، شعرت أن الرواية أصبحت إغواء ورعبا.

(1) الروائيون، ص 834.

المرأة المقموعة:

زكية في "السؤال":

تكتسب شخصية زكية في رواية السؤال لغالب هلسا، بعدا هاما وخاصا، ذلك أنها وبالرغم من أنها كانت ساذجة وتعمل خادمة، إلا أنها شكلت نقطة تقاطع، لأحداث مهمة ورئيسية في الرواية، وهي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، ولكن جسمها كان يعد كبيرا بالمقارنة مع عمرها، كانت تسكن مع أمها في حي شعبي، وتعمل خادمة عند سيدة في الجاردن سيتي، وكانت تتوتر في الطريق والحافلة لكي ترضي سيدتها، "**كانت دائما متأخرة أكثر مما يجب أو مبكرة أكثر مما يجب حسب مزاج الست**"(1)، كانت سيدتها قد أعطتها مفتاح الدار، وطلبت منها أن لا تدق الجرس وتدخل مباشرة.

وصلت البيت ودقت الجرس دقة خفيفة وسريعة ودخلت، وبدأت عملها مباشرة، كانت السيدة مقتولة في الليل، ولكن زكية لم تدرك ذلك، كان من عادة السيدة أن تطلب منها القهوة الصباحية، بعد فترة بسيطة من انهماكها في عملها شعرت أن السيدة طلبت منها القهوة، أعدت القهوة وهي تفكر أنها ستنال إعجاب السيدة هذا اليوم، كانت قد شاهدت السيدة في غرفة نومها وقد رفعت رجليها فوق مسندي الكرسي وهما عاريتان، استغربت واندهشت من هذه الجلسة، وضحكت، تمنت أن تكون السيدة لم تسمع ضحكها، دخلت غرفة النوم وقالت: "القهوة يا ستي".

كانت زكية من السذاجة بحيث أنها لم تدقق في سيدتها، لاحظت أنها ما تزال على نفس الجلسة، ولاحظت أن السيدة تقهقه، لم تعرف أن السيدة ميتة، وفمها على هذا الشكل، ويبدو أن السيدة كانت تضربها لأتفه الأسباب، " **وغادرت الحجرة وهي تقول لنفسها" حاتضربني ، حاتضربني ستي" ثم دخلت المطبخ**"(2)، تهيأ لها أنها سمعت السيدة تناديها، فجاءت مسرعة ووجدت السيدة

---

(1) السؤال، ص489.

(2) المصدر نفسه، ص494.

في نفس الوضع، كانت تعلم أن شيئا غريبا يحدث، ولكنها دون أن تعي ذلك بوضوح تحاول أن تتجاهله.

لاحظت أن السيدة لم تشرب القهوة، كانت تكلمها وتقول لها أن تشرب قهوتها لتغسل الفنجان، ثم حاولت أن تعدل وضع السيدة، ولكنها لم تستجب، ذهبت إلى المطبخ، لبست ملابسها وفتحت باب الشقة وصارت تنظر إلى السلم، خرج شاب من الشقة المقابلة، فقالت له زكية إن سيدتها مريضة، قال الشاب: الله يشفيها، وغادر، ثم نزل رجل عجوز، قالت له زكية إن سيدتها مريضة، قال أحضري دكتورا، قالت له إنها لا ترد، وطلبت منه أن يدخل ويراها، عندما رأى السيدة عارية العجيزة ارتد إلى الخلف وقال لزكية أنت قليلة أدب، ثم دقق النظر فعرف أنها ميتة، وقال واحد مجرم قتلها، اتصل من الهاتف، لم تفهم زكية كلمة مما يقول، وعندما جلس في الصالة صنعت له قهوة.

عندما جاءت الشرطة وبدأت التحقيق، اتجهت شكوكهم فورا إلى الخادمة، كتبت الصحف تفاصيل الخبر، وقالت أن الخادمة التي تبلغ من العمر خمسة عشر عاما استدرجت وكيل وزارة سابق إلى داخل شقة القتيلة بحيلة ماكرة، إذ ادعت أن سيدتها مريضة، وجعلته يترك بصماته في أماكن متعددة من شقة سيدتها لتوحي أن هناك علاقة بين الجار وجارته القتيلة، "**وتميل سلطات التحقيق إلى أن للخادمة ضلعا في الجريمة، فقد وجدت آثار دماء على يديها وثوبها، كما أنها تمتلك براعة مذهلة في التظاهر بالسذاجة**"[(1)].

عندما قابلها مصطفى بعد ذلك لاحظ أن وجهها ملئ بالكدمات، لقد قام رجال الشرطة بضربها، " **كانوا بيضربوني باللكامية والقلم وقولي يا بت واحنا نطلعك، ويضربوني بالقلم كل شوية وقولي يا بنت العاهرة أحسن نموتك.**"[(2)]، وقد كانت زكية أمية لا تقرأ ولا تكتب، ولا تعرف حقوقها، فكان

---

(1) السؤال، ص 505.

(2) المصدر نفسه، ص 519.

كثيرون يحاولون قمعها ومصادرة حقوقها، وأولهم رجال الشرطة المكلفون بإحقاق الحق، ومنع الظلم عن الناس.

بعد ذلك انتقلت زكية للعمل عند شاب اسمه عبد العليم عالم لامع في مركز الطاقة الذرية، يساري وفكره شيوعي، عامل زكية هو وعشيقته منى باحترام، وكانت المرة الأولى التي يتعامل معها أحد بهذا الشكل، أحبت منى بشكل كبير، وكانت تحب أن تطيل الحديث معها، وقد احتج عليها حمادة، وهو فتى من نفس الحارة كانت زكية تحس نحوه بنوع من الميل والحب، لأنها تعمل في بيت عازب، ذكرت ذلك لعبد العليم فقال يبدو أن حمادة هذا قليل الأدب.

ثم أن السفاح قام بقتل عبد العليم ومثل بجثته، ولم تقف الأمور عند هذا الحد بالنسبة لزكية، إذ خصصت لها مساحات واسعة تحلل شخصيتها، كما ذكرت الصحف أنها نفس الفتاة التي كانت تعمل في جاردن سيتي وقتلت سيدتها .

صبحا في "سلطانة":

تعد شخصية صبحا في رواية سلطانة نموذجا للمرأة المقموعة في المجتمع الأردني، كانت فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، وهذا عمر يعتبر متجاوزا للعنوسة في القرية الأردنية ذلك الوقت، وقد بلغت هذا السن المتقدم دون زواج لأن أحدا لم يتقدم لخطبتها، رأتها ابنة عمتها والدة صليبا فخطر ببالها أن تزوجها لابنها الصبي صليبا، كان والدها صاحب أملاك وكريم وقد نال احترام أهل القرية، ولكن أحدا لم يطلب البنت، وبدا أنها سوف تظل عانسا طوال العمر.

كانت صبحا فتاة بسيطة وضعيفة الشخصية، " **لم يكن عند أم صليبا أية أوهام حول البنت. لم تكن جميلة، وكانت خجولة إلى حد لا يصدق. تتلعثم ويحمر وجهها ويغشاها العرق أمام حتى إخوتها وأخواتها الأصغر سنا. يكفي**

أن تحدثها وتنظر في عينيها حتى تفقد القدرة على الكلام والحركة"(1)، ولعل هذا الضعف والخجل هما ما أغريا أم صليبا لتعاملها بالقسوة التي تعاملت معها بها، وكان لها حسناتها من وجهة نظر أم صليبا، فقد كانت حمارة شغل، كان العمل داخل البيت ليس واجبا بل متعة تهرب إليها من الناس، ومن كلام أمها اللاذع: "يا بايرة"، تقول لها عندما تغضب، كما لاحظت أم صليبا أن أمها كانت ولادة، وتوقعت أن تكون هي كذلك.

لقد قامت والدة صليبا بخطبة صبحا ابنة الخمسة والعشرين عاما لابنها صليبا ابن الأحد عشر عاما، طبعا لم يكن للفتاة المسكينة أي رأي في الموضوع، ولتحقيق مآربها أرادت أم صليبا إخافة الفتاة، **"وقبل الزواج بعدة أيام اختلت الأم بصبحا، وقالت لها وهي تنظر إليها باستنكار وتهديد، وكانت تتعمد إخافتها: اسمعي يا بنت، أنت لست جميلة، ولم يعرف عنك رجاحة العقل. عيناك صغيرتان مثل خرزتين، وفمك واسع، وقصيرة، وتكادين أن تكوني بلهاء... تسمعينني"**(1)، أثناء ذلك كانت ثياب صبحا قد ابتلت بالعرق وهي ترتعش، وقد قصدت أم صليبا ذلك من أجل أن تجعل من الفتاة ماكنة تفريخ تملأ الدار بالأولاد، دون أي اعتبار للأم وشخصيتها،" **لم أزوجك لابني لأتباهى بك. فأنت والدابة سواء. والآن اسمعي كلامي جيدا. زوجتك لابني حتى تملأي الدار علي بالأطفال"**(2).

كانت صبحا وأم صليبا تحدثها مع إيحاء الخوف تبكي بالإضافة الارتباك، سألتها الأم إن كانت تعرف كيف تملأ الدار بالعيال، فأجابت لا يا عمة، قالت لها عمى يعميك، وشرحت لها كل ما يتم بين المرأة والزوج بوضوح وصراحة جارحة، واستعملت يدها في تلمس الأماكن وهي تشرح، ولكن الفتاة أصيبت بالفزع والخوف الشديد، حتى اضطرت الى التخفيف من حدة تعاملها.

---

(1) سلطانة، ص 61.

(1) المصدر نفسه، ص 62.

(2) المصدر نفسه، ص 62.

وبعد أن تزوجت صبحا، وأدخل إليها عريسها، لم تكن تملك القوة الشخصية الكافية لتنفذ ما طلب منها القيام به، كان الصبي قد غادر الغرفة وذهب لينام في حضن أمه كما تعود، وعندما جاءت أم صليبا قرب الفجر وجدتها تنام وحيدة، فراحت تسألها وتصفعها وهي تبكي وتقول كان موجودا، كانت تنام كالقتيلة لأنها تعمل طوال النهار ولا تستطيع أن تأمر أحدا بفعل شيء، وتقوم بكل الأعمال بيدها.

ولما قامت أم صليبا بإغلاق باب الغرفة بالمفتاح، وتصورت أن الصبي قد يلتحم مع صبحا في الفراش أصابتها الغيرة، وفكرت في فتح الباب ودعوة الصبي لينام عندها كما كان يفعل، إن صبحا ليس لها حقوق البتة، حتى لقاؤها بزوجها في الليل كان أمرا تحسد عليه، ولما تمكن صليبا من فض بكارة صبحا وسمعت الأم صراخها، دخلت عليهما الغرفة وزغردت وهي تحمل صليبا.

وحتى بعد ذلك عندما كان صليبا يأتي زوجته في الليل، كانت تستقبله دون أي متعة، كان هما ثقيلا وواجبا صعبا عليها القيام به، وعندما تعرف صليبا على المرأة البدوية وغيرها، لم تلاحظ صبحا شيئا، بل إن ابتعاده عنها أراحها من الواجب الصعب وعنائه، صحيح أن صليبا وبالرغم من قسوته مع الناس جميعا لم يؤذ صبحا في يوم من الأيام، ولكنه كان يدخل البدوية أحيانا الى غرفته ويستمتعان على فراش صبحا.

كانت صبحا تعمل طول النهار وتنام في الليل كالقتيلة، وعندما كبرت في العمر ظلت مثار السخرية والاستهزاء، كانت تتكلم وتتصرف بغباء يثير الضيق، وكانت مصابة بأمراض كثيرة مثل الم المفاصل والضغط.

المرأة البغي:

المومس الفاضلة:

لعل غالب هلسا هو أول من ناقش قضية " المومس الفاضلة" في الخطاب الروائي العربي، وقد توسع بدراستها في طروحاته النقدية، ومنها كتاب " **قراءات في أعمال يوسف الصايغ، يوسف إدريس، جبرا إبراهيم جبرا، حنا مينا، المومس الفاضلة ومشكلة حرية المرأة** "، الذي انتقد فيه هذا النمط من الشخصيات، والذي لا تكاد تخلو منه رواية في الأدب العربي، وقد عرّف هذا النمط من الشخصيات بقوله: "هي تلك المرأة التي تلمع في عالم المتعة وتصبح ذات قوة وثراء، وتسيطر بجمالها وحنكتها على ظروف حياتها، ثم فجأة تتخلى عن ذلك كله، من أجل شاب ثري. وتنتهي بأن تمنح له كل شيء حتى حياتها، تمنحها عن طيب خاطر من أجله"[1]، واعتبر ما يحدث ليس إلا حلم يقظة كاملا، ولا يمكن أن يتحقق في الواقع، ولكن ما الذي يحققه هذا الحلم؟ إنه برأي هلسا " استجابة للهوس الجنسي الذي يعاني منه الإنسان المكبوت. ... بالإضافة الى هذا فإن المومس الفاضلة تجسد مخرجا من روتين الحياة الثقيل في مدن العالم الثالث الصغيرة"[2].

ويرى هلسا أن شيوع أنماط المومس الفاضلة في الأدب العربي يعود الى نظرة البرجوازية العربية لوظيفة المرأة في المجتمع، إذ تكون المرأة وظيفة للرجل، وتدور في فلكه،" وهذا يعني بالنسبة لنظرتها للمرأة أنها وظيفة للرجل، ولا يوجد امرأة متكاملة وحرة إلا المومس الفاضلة. لهذا السبب كانت البورجوازية العربية تعيد خلق هذا النمط وتكرره الى ما لا

(1) هلسا، غالب: قراءات في أعمال يوسف الصايغ يوسف إدريس، جبرا إبراهيم جبرا، حنا مينا، المومس الفاضلة ومشكلة حرية المرأة، ص167.

(2) المرجع نفسه، ص170.

نهاية"[1]، ثم يضيف هلسا بأنه كان من المتوقع بعد ذلك أن يقوم كتاب الواقعية الاشتراكية بدمج الأنموذج النسائي العريق الذي امتد عبر تاريخ الإنسانية كلها، بالأنموذج النسائي الحر والثوري في الوطن العربي، وقد تم ذلك في العصر الجاهلي، في شعر امرئ القيس والأعشى، وفي شعر المجان في العصر العباسي، كما تم في نماذج الأدب العالمي الممتازة، أما بالنسبة لكتاب اليسار العربي فإن ذلك لم يتحقق،" إن أخصب النماذج النسائية في أدب نجيب محفوظ هن نساء خارج إطار الوعي الثوري. وغالبية كتاب اليسار العربي أعادوا الى الحياة الأنموذج الفقير البائس للمومس الفاضلة"[2].

ولذلك فإن النماذج النسائية التي يمكن أن يطلق عليها مصطلح "المومس الفاضلة" في روايات غالب هلسا، لا يشكل دور المومس فيها إلا جزءا من حياة المرأة، ولم يوجد في رواياته مومسا ضحت بكل ما لديها من أجل المحافظة على الشاب المحبوب، وإعادته الى دوره في المجتمع، بل كانت المرأة تمارس دورها في الحياة والمجتمع بغض النظر عن مصير الشاب، وما ينتظره، فـ"سلطانة" المرأة الثرية التي أحبت جريس، لم تنتحر بعده، بل إنها نسيته تقريبا، ومارست حياتها وتوسعت في تجارتها، وفي تهريب الماس الى إسرائيل، والحشيش الى مصر، أما "زينب" في الروائيون فإنها رغم كل محبتها لإيهاب لم تستطع أن تستمر في تواصلها معه، أو الانقطاع عنه، وانتهى أمره هو الى الانتحار.

كما تحدث هلسا عن "المومس الفاضلة" في الحوارات الصحفية المطولة التي أجريت معه، وجمع جزءا منها أحمد خريس في كتاب:

---

(1) هلسا، غالب: قراءات في أعمال يوسف الصايغ يوسف إدريس، جبرا إبراهيم جبرا، حنا مينا، المومس الفاضلة ومشكلة حرية المرأة، ص189.

(2) المرجع نفسه، ص190.

"المغترب الأبدي يتحدث، حوارات مع غالب هلسا"[1]، وقد تحدث هلسا عن أبي نواس في العصر العباسي، والروائي الروسي دستويفسكي، الذي كانت شخصياته النسائية تمثل أقصى مجد المرأة بجمالها الباذخ واعتدادها وإحساسها الفائق بالكرامة وبقدرتها أن تمنح نفسها وتتخذ القرار بالنسبة لحياتها، ولكنها وهي تحمل كل هذا الجمال الروحي والجسدي تكون البؤرة التي تتجمع فيها كل تناقضات عصرها ومأساته.

وهكذا فإن هلسا يرى أن " مثل هذا الأدب العظيم يظل دائما مخلصا للواقع، وقادرا على أن يطرح جوهر العصر وتناقضاته... وبهذا ينسجم هذا الفن مع وظيفته الأساسية التي تهدف إلى تعميق وعينا بالحياة"[2].

سلمى في "سلطانة":

جاءت سلمى إلى القرية مع زوجها يوسف الحايك، فتح الزوج دكانا، إلا أنه كان مريضا، فكانت سلمى تقوم بأعمال الدكان والبيت، وكانت مشاعرها نحوه مزيجا من العطف والشعور بالذنب والاحتقار، ولكنها أمام الناس أو وهما وحيدان كانت تعامله باللياقة الضرورية لرجل وزوج، **" كانت كل القرارات لها، ولكنها مستوحاة منه، لم يكن يوسف رجلا في السرير، فأقامت علاقات مع رجال كانت تعلم أنهم لن يحولوا العلاقة معها إلى فضيحة، ولن يجرحوا مشاعر يوسف بكلمة أو إشارة"**[3].

---

(1) منها حوار أجراه بسام حجار في مجلة المسيرة اللبنانية، العدد 9، أيلول/1980م. وحوار في مجلة الشراع 1986/7/12م، أجرته ماجدة صبري. والحوار الذي أجراه يوسف ضمرة تحت عنوان: "عن الحلم والأسطورة والمرأة" ونشرته جريدة الراي ناقصا ثم نشر كاملا في مجلة أفكار العدد 96، آذار 1990م. والحوار الذي أجرته معه غالية قباني ونشر الجزء الأول منه في جريدة الوطن 1988/2/14م والجزء الثاني في مجلة الكفاح العربي، 1990/1/8م. والحوار الذي أجراه خليل عادي في جريدة السفير في 8 حزيران 1988م، تحت عنوان:"الرواية كشف عن أعماق الكاتب وبحث عن الإنسان. والحوار الذي أجراه عمار الكسان تحت عنوان:" الروائي في روايته، ونشر في جريدة البعث في 8 آب 1988م.

(2) انظر أبو نضال، نزيه غالب هلسا وبيليوغرافيا مصادره الكتابية، ص 69.

(3) سلطانة، ص 171.

وفي حياتها سر لم تبح به؛ فبينما كانت تجلس في أحد الأيام في الدكان جاءت آمنة بنت الشيخ عبد الكريم العماشنة لتشتري غرضا، ففوجئت بها وأحبتها وودت لو تلمسها إلى درجة أنها لم تستطع الوقوف على قدميها، بعد ذلك استطاعت أن تغري عبد الكريم بعلاقة معها وكانت تريد منه أن يستولدها بنتا مثل آمنة، حافظت على العلاقة معه إلى أن شعرت بالحمل فامتنعت عنه بحسم، وولدت سلطانة، **"كان ذلك تقليدا عريقا أن تختار المرأة فارسا شجاعا لتحبل منه، ولكن ذلك انتهى منذ وقت طويل، أو على الأقل لا يعرف عن نساء القرية أنهن مارسن شيئا كهذا إلا على نحو سري للغاية"**[1].

وإذا كانت سلمى تمارس علاقات غير شرعية، مع رجال آخرين غير زوجها، فقد كان ذلك لثلاثة دوافع: أولا لأن زوجها يوسف الحايك لم يكن رجلا في السرير وقد كانت هي امرأة تحتاج لإشباع غريزة الجنس، فكانت تضطر لعلاقات مع رجال كانت تختارهم ممن لا يفضحون العلاقة، أو يجرحون يوسف بكلمة.

كما كانت تمارس علاقة غير شرعية مكرهة أحيانا، للمحافظة على مصدر عيشهم، فقد كان شريكهم مسعد يمارس معها الجنس بالإكراه، ويجبرها على مضاجعة أصحابه من التجار في عمان أحيانا، وكانت تطيع مكرهة، **" أما أكثر ما كان يهينها به هو عندما تذهب معه إلى عمان. كان يسهر في البيت العاري الذي بناه في عمان. كان يسهر معه بعض الغرباء يشربون العرق، وكان يفرض عليها أن تضاجع بعض ضيوفه. وعندما كانت تمانع كان يفح بغضب يجمد الدم في عروقها: وبعدين معاكي. خلينا نمشي الشغل. لم تكن تستطيع أن تغضبه فلقد كانت تكسب من ورائه الكثير"**[2].

---

* (1) سلطانة، ص 173.
(2) المصدر نفسه، ص 186.

أما الدافع الثالث فقد كان لرغبة جارفة لم تستطع مقاومتها في أن يكون لها ابنة جميلة تشبه الفتاة آمنة التي أحبتها بعشق لا يوصف، فما كان منها إلا أن كوّنت علاقة مع والدها عبد الكريم العماشنة، حتى تأكدت من حملها فولدت سلطانة.

اميرة في "سلطانة":

تعد شخصية أميرة في رواية "سلطانة" ذات أبعاد مختلفة، فهي بالإضافة إلى رمزيتها، ودلالاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، تمثل جزءا هاما ومحوريا في الرواية من حيث أنها تشكل إحدى البؤر التي تتجمع فيها تناقضات عصرها ومأساته، وهي نتاج الظروف التي وضعت بها، والناس الذين أحاطوا بشخصيتها عبر مراحل عمرها المختلفة، وقد ولدت أميرة ابنة سلطانة في القرية، ولأن والدها - في شهادة الولادة- بشارة كان صاحب شخصية ضعيفة، فلم يكن هو الوالد الحقيقي لها، لقد كان والدها الحقيقي هو صليبا، الذي كان على علاقة بوالدتها سلطانة قبل وبعد زواجها، حيث كان الوالد الحقيقي لثلاثة من أبناء سلطانة منهم أميرة، التي نشأت فتاة جميلة وجريئة.

لقد أخذت أميرة من أمها الجمال والجرأة، كما كان صليبا قويا جريئا غير هياب، وعاشت في أسرة قروية، ولكنها شبه منفتحة؛ الأب ضعيف لا يعرف شيئا، والأم قوية وجميلة ومسيطرة على من حولها، ولها مصالحها وعلاقاتها المختلفة، فقد قامت أميرة مرة بالطلب من جريس في الهربج، أن ينام فوقها، وقالت أنها ستنجب ولدا ويكون ابنه.

عندما بلغت أميرة الثالثة عشرة من عمرها، انتقلت إلى عمان/ جبل عمان، لتعمل خادمة عند إحدى العائلات هناك، وكانت تحمل السلة وتتجه الى السوق لتشترى الخضار والفاكهة، وكان أحد الجيران وهو طعمة يراها وهي مارة فيحاول أن يكلمها، أو يطلب منها أن تشتري له علبة سجائر، وكانت تعمل عند العائلة عملا مرهقا يستمر طوال النهار،

وعندما تـأوي لتنـام فـي غرفتهـا، كـان ابـن العائلـة "مـأمون" يتسـلل إلـى غرفتها، ولأنه كان فتى صغيرا وضعيفا، فقد كانت تعطف عليه وتلاطفه.

وفي يوم وعندما مرت من أمام بيت طعمة، طلب منها أن تشتري لـه علبة سجائر، ولما عادت لم تجده على الشرفة حيث ناولها النقود، فأطل عليها من النافذة وطلب منها الدخول، ثم قدم لها قطعة شوكولاتة، وراح يداعبها وهي جامدة لا تعرف شيئا، ثم طلب منها أن تشتري لـه كل يوم علبة سجائر، فصارت تمر به كل يوم ليداعبها، وعندما تغادره يضع في جيبهـا قطعـة نقديـة، وكانـت أميـرة كثيـرا مـا تسـتيقظ لتجـد مـأمون ينـام بجوارها، ضمته مرة إليها فحدث معه ما كان يحدث مع طعمة، وبعض صبية القرية، الذين يضمونها حتى تحس بالبلل ثم تتراخى أجسادهم.

استمرت أميرة تمر ببيت طعمة كل يوم، صارت تقبل عليه بلهفة، ثم غابت عنه فترة من الزمن، وعندما عادت أخبرته أنها كانت مع عائلة مخدوميها يصيفون في رام الله، عرض عليها طعمة أن ترافقه الى زيارة صديق له، فوافقت وألحت عليه،" **عندما جاءته بعد الساعة الرابعة كانت قد أصبحت امرأة ناضجة فاتنة، كانت ترتدي تنورة زرقاء، وبلوزة بيضاء، وقد سرحت شعرها"**(1).

عندما ذهبت مع طعمة لم تكن تعلم أنهما ذاهبان الى النائب أحمد المساعد، ولدى وصولهما الى مكتب النائب، رحب بها وأدخلها الى غرفة نومه وضاجعها، واكتشف عند ذلك أنها ما تزال عذراء، ولكن بعد فوات الأوان، كانت فتاة قاصرا لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها، وعندما خرجت من حجرة النائب كانت في وضع صعب؛" **كان وجهها شاحبا، أصفر كأنه مرشوش بعصفر، وتمشي بخطوات غريبة، إذ تباعد بين ساقيها، وتخطو خطوات قصيرة كأنها حبلى"**(2)، وراح النائب يسر بأذنها

---

(1) سلطانة، ص 411.

(2) المصدر نفسه، ص 415.

كلمات هامسة يحاول إرضاءها، ولما رجعت سمحت لها سيدتها بالنوم فنامت نوما مليئا بالكوابيس، ثم أفاقت لتجد مأمون ينام بقربها، تلا لها قصيدة حب، فاستثارها، فعلمته كيف يمارس الجنس بالكامل.

وظلت أميرة تتردد على مكتب النائب، وهو لا يعرف كيف يتخلص منها، حتى تعرف عليها شاب منحل، وكيل لإحدى الشركات الأمريكية، فطار صوابه، جعلها تتخلى عن عملها، واستأجر لها حجرة عند خياطة على طريق المحطة، وفي كل يوم كانت تأتي لها سيارة عند العصر وتعود بها عند وجه الصبح، حملت مرة وأجريت لها عملية إجهاض، وعادت الأمور الى وضعها الطبيعي، صارت أميرة مومس معروفة، قال موسى لجريس في معرض حديثه عنها:" **إن الولد التافه صديق أميرة، استاجر لها شقة. كان يغيب كثيرا، وأخذت أميرة تستقبل زبائن. كلهم على مستوى عال**"[10(1)].

وفي أحد الأيام فوجئت بطعمة يطرق الباب عليها، وجرى بينهما حوار طريف، فقد حاول أن يقبلها، فقالت له البوسة بقرش، وكان قد اتفق معها في أول علاقته بها أن يعطيها قرشا عن كل قبلة، " **وأبعدته عنها. قال لها: مش أنا سبب العز اللي إنت فيه؟ سألته إن كان يريد ثمن القوادة. ارتبك الرجل، وتلعثم، وقال: أنا بحبك. فسألته: إللي بحب واحدة بوخذها لناس ثانيين يناموا معها؟ ريقه نشف، قال: تسمحي يا ست أميرة تشربيني فنجان قهوة، قالت: أمرك. خرجت وفي يدها دينار ونصف وضعتها في يده وقالت: ثمن القوادة والقهوة. خذها وما تخليني أشوف خلقتك مرة ثانية. سامع؟ ألقى النقود على الأرض وخرج وهو يقول: مش غريب عليكي**"[(2)].

---

[10] (1) سلطانة، ص 294.

(2) المصدر نفسه، ص 295.

ولما عرف أقارب أميرة بموضوع النائب، راحوا يستغلونه ويبتزونه، وخصوصا عمها مسعد وشريكه هزيم والخوري صليبا، في البداية كان الأمر مقبولا بالنسبة للنائب، جاءوا فأعطاهم بعض النقود، وبين حين وآخر كان آخرون يطالبونه في أن يدخل أحد أقاربهم في الجيش، أو يوظف آخر في الحكومة، أو يدخل طالبا في إحدى مدارس عمان، ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، بل أخذت منحى خطيرا؛ إذ تدخلت جهات مختلفة في الموضوع، وحاولت استغلال الموقف، وتجييره لخدمة أغراضها السياسية.

عندما انتقلت سلطانة الى عمان، أخذت أميرة برفقتها، وكانت أميرة مطلعة على أعمال أمها وعمها مسعد، وتجارتهم، ومخيم العقبة، وتهريب الماس الى إسرائيل، والحشيش إلى مصر، كما كانت مطلعة على علاقات أمها المختلفة، وعشاقها المختلفين، كانت تصنع علاقات مع الرجال الذين يصادفونها ثم تمل منهم بسرعة، ولكنها وجدت ضالتها في عشاق أمها، وفي يوم من الأيام ضبطها سلطانة في السرير مع حكمت، دبرت له مؤامرة مع الشيخ، وتم التخلص منه، فقد وجد مقتولا.

لم تغضب سلطانة من أميرة، وعادتا الى علاقتهما، كانت أميرة تتصرف وتعيش حياتها كما تشاء، وتجيد العهر وحياة العربدة، " **كانت أميرة ترتدي تنورة فوق الركبة. تجيد العهر. تجلس، ركبتاها منفرجتان، تتسلل نظرات الرجال بين الفخذين، لتستغرق في عتمة النهاية. يصبحون نصف مجانين، يتنازعهم الخوف والرغبة"**(1) ، ولكنها كانت بنفس الوقت جريئة في مخاطبة أمها، كان جميع من لهم علاقة بسلطانة يخشونها، ويحسبون لها ألف حساب إلا أميرة، قالت لها مرة إن فستانها قصير، " **تنظر إليها ضاحكة، وتعبير بذيء يطل من وجهها وتقول:-**

" (1) سلطانة، ص 459.

اللي بسمعك بقول عنك حجية. وتستقر كلماتها كالطعنة في قلب الأم. وتخرج، فتتنفس سلطانة بعمق"[12](2).

لم تتوقف عن عشاق أمها، كانت تطاردهم وتصنع معهم علاقة جنسية، ولم تكن تستح بذلك؛ كانت تواجه أمها بجرأة، قالت مرة عن سيف الدين إنه شاب لطيف، قالت لها سلطانة وهل أعجبك؟ قهقهت أميرة وقالت عندي غيره يا مدام، استنكرت سلطانة تصرفها وسكرها، " **فقالت أميرة بعربدة: أهلين حجية. كنت بتصلي أنت وسيف الدين؟"**[13](3).

وكانت أميرة مصابة بمرض الصرع، إذ كانت تصيبها نوبات كثيرة، فيتشنج جسمها وتسقط على الأرض غارقة بالعرق واللعاب، وكانت تندفع نحو شيخوخة مبكرة، لم تكن تعرف كيف تأتي النقود، ولكنها تعرف كيف تنفقها بسرعة وغباء، حتى أن والدتها (سلطانة) حارت وهي تفكر في مستقبلها: "**ماذا سوف يحدث لها، عندما تصبح وحيدة، عندما تذوب النقود، عندما يزهد فيها الرجال؟ لا حياة لها إلا بالشرب والرجال. كان بإمكانها أن تتزوج، أن توازن بين متعتها والعمل. ولكن الرجال الذين رغبوا في الزواج، ابتعدوا عنها عندما عرفوا بعض المعلومات"**[14](1).

---

[12] (2) المصدر نفسه، ص 460.

[13] (3) المصدر نفسه، ص 463.

[14] (1) سلطانة، ص 469.

المبحث الرابع:

الشخصية المتسلطة:

المبحث الرابع: الشخصية المتشظية:

في عصر التحولات الاجتماعية الكبيرة والخطيرة، تحولت الأنظمة الحاكمة إلى فئات ظالمة مستبدة، تلهث وراء الأجنبي وتسعى لإرضائه بأي ثمن، وأضحى الإنسان هو الضحية الأولى؛ فقتل وشرد وامتهنت كرامته وسيق إلى المعتقلات وعذب بشتى أنواع العذاب، مما لا يطيقه حيوان فضلا عن الإنسان، وصار الإنسان مهزوما متشظيا مقهورا، يشقى وراء اللقمة ينتزعها من أنياب المترفين وبراثن المتسلطين، أو يزدرد ما يتبقى من فتات القساة الغلاظ الأكباد، وفي خطاب غالب هلسا المشغول بقضايا الإنسان وحاجاته الأساسية، تظهر الشخصية المتشظية لتعكس واقع الإنسان في الوطن العربي بشكل اقرب ما يكون إلى الحقيقة.

ليلى في "الخماسين":

تمثل ليلى في "الخماسين" المرأة التي يقيم معها غالب - وهو الشخصية الرئيسية- علاقة تقوم على شيء من التفاهم، وهي طالبة في المعهد العالي للتمثيل، وتحلم أن تكون نجمة مشهورة ذائعة الصيت، تبدو شخصيتها معبرة عن بنات جيلها في ذلك الوقت، ويظهر من خلال علاقتها بغالب أنها مراهقة غير مستقرة، إنها نموذج لأزمة الفكر، ولأزمة الحرية التي يعيشها جيلها وشباب العصر في العالم العربي، فهي لا تستطيع بناء فكرة أو رؤية، أو التواصل مع الأفكار التي تريدها، وترغب في تبنيها في عالمها النفسي المضطرب، بما يعتمل فيه من متناقضات، وبأوراقه المختلطة والمتداخلة،وقد أفقدها ذلك التركيز ووعي الذات، ورؤية الأشياء صحيحة لا غائمة أو مبتورة؛[1] فتسأل غالب عن هدفه في الحياة لتجيب عن سؤال زميل لها في المعهد: أيه هدفك في الحياة؟ ولكنها لا تنتظر الجواب، وعندما ترى ولاعة غالب تقول أنها بحاجة لولاعة مثلها لتريها لزملائها في المعهد، ثم تسأل غالب عن إمكانية

---

[1] (1) انظر عليان، حسن، مرايا الحرية والإبداع، ص142.

مساواة الرجل والمرأة، وهل بإمكانها لعب الرياضة حتى تضرب أخاها حمدي، وتقول" **مش عايزة أبقى ضعيفة! مش عايزة حد يتأمر علي. مش عايزة حد يعتبرني صغيرة ويديني نصايح..! تعرف أنا كررت (تضحك) قررت إيه؟ مش حاتجوز. عايزة أكون حرة.. نفسي يبقى عندي شذوذ. بيقولوا العباقرة عندهم شذوذ".**(1)

إن حديث ليلى المتشظي والمضطرب، والذي لا ينضبط بتتابعية الجمل، ولا يقود إلى رؤية واضحة ومحددة، ليعبر بشكل واضح عن أزمة الحرية التي يعيشها جيل الشباب في بداية السبعينات، إنها ترغب وتريد أن تكون مثقفة وعبقرية ومشهورة، ولكنها لا تجد وقتا للقراءة، فتطلب من غالب أن يحدثها باختصار عن المذاهب الفكرية والأدبية المختلفة كالماركسية والسريالية والوجودية وغيرها، **" قالت ليلى فجأة وقد تشوه وجهها بالكراهية والغضب: عايزك تفهمني إيه هيه الشيوعية، وإيه هيه الوجودية، وتفهمني السوريالية.. قلت: عايزه دلوقتي؟ أخذت تسرع في كلامها: ما فيش وقت، ومش عايزة أفضل أقرأ وبرضه ما أفهمشي حاجة.. وحا اقرأ إمتى، وأروح المعهد إمتى – وأنام إمتى، وآكل إمتى، وأعيش وأسافر وأتفرج على الدنيا إمتى، إمتى.."**(2) .

وتحلم ليلى بالشهرة، تحلم في أن تصبح ممثلة مشهورة أو مخرجة أو كاتبة، **"تكون نجمة(يمدون سباباتهم ويشيرون هامسين: ليلى)- ممثلة؟ مخرجة؟ كاتبة؟ المهم أنها مشهورة، وهناك على الدوام أناس كثيرون يتجمعون أمام بابها لا يسمح لهم بالدخول إليها.. يحاولون مقابلتها، وهناك دائما من يمنعهم"**(3) ويتملكها هاجس بلوغ المجد، والوصول بأي ثمن، ولكن يقف الواقع بقسوته وصلابته وعنف سطوته، ويحدد لها مسارا مستقيما، **"عيون تحدد مسارا مستقيما: المدرسة ثم الجامعة ثم**

---

(1) الخماسين، ص311

(2) المصدر نفسه، ص421

(3) المصدر نفسه، ص331.

الوظيفة والزواج والأطفال وحسن السيرة.. تقول لها العيون: كل يوم سوف تزدادين غنا واحتراما وسمنة.. طريق طويل في آخره سوف يراك الجميع في قمة مجدك: سمينة، بلهاء، محترمة جدا، وأنت تتأهبين للسقوط في هوة العدم.. عيون تقول: لماذا تأخرت حتى الآن؟ لماذا لم تتفوقي في الدراسة؟ هل تكلمين الصبيان؟ خطوة واحدة ثم أخرى، وسوف تقف في وجه ذلك السيل الكاسح من الورع"[1].

وتبقى ليلى في سعيها لتحقيق الذات في جو الخماسين حيث التراب والعرق وضبابية الرؤية تشكو الغبار الذي يحجب الرؤية، وتظل صورتها مهزوزة متوترة مترددة، تركن إلى غالب وتثور عليه معا، تعيش أحلام اليقظة، وتعاني قسوة الواقع وثقله، فقد تبخر حلم ليلى الممثلة والمخرجة والكاتبة بعربتها الفاخرة، وراح يتضخم إحساسها بالهزيمة والعار، وفي هذا الجو من التردد والقلق وضبابية الرؤية وعدم الوضوح تقول لغالب:**"اسمع أنا قاعدة خمس دقائق وماشية، خمس دقائق يعني خمس دقائق، مش عايزة نصايحك، ولا آراءك، أنا حرة في نفسي أعمل اللي أنا عايزاه. مش عايزة أذاكر، مش عايزة أحب، مش عايزة أي حاجة في الدنيا.. قالت إن أحد طلبة المعهد اعترف لها بحبه، وأنها قالت له: لنبق أصدقاء."[2].**

وإذا كانت شخصية ليلى ترمز إلى العقم في العلاقة بالآخر؛ فإن العلاقة معها قد فشلت، في ظل جو الخماسين المغبر، وبقيت ليلى كيانا ضائعا مرهقا غير مستقر، ولم يستطع غالب المثقف أن يغيرها، أو يجعلها تقرأ، أو تفهم الوجود والحياة، لأنه هو أيضا مهزوم ومشلول الإرادة في جو مثقل بالغبار والحرارة والرطوبة.

وبما أن الاضطراب والقلق والحيرة أمام التحولات الكبرى في العالم العربي، بفعل رياح التغيير التي هبت عليه، وبفعل التعليم، وأجهزة الإعلام المتداخلة والمختلطة، وفي ظل غياب الرؤية، وضياع الهدف والأزمات الاقتصادية والسياسية، والهزائم المتتالية التي تطحن الإنسان، وتدفعه في أتون التخبط والتغييب والتهميش، فإن

---

(1) الخماسين، ص333.

(2) المصدر نفسه، ص 449.

الأفكار تصبح مشوشة، والعلاقات مضطربة، وليست هذه الأزمات وليدة الصدفة كما لم تكن طفرة عادية؛ وإنما هي بفعل تراكمات وضغوطات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية وفكرية عبر أجيال مختلفة.

المبحث الخامس:

الشخصية الانتهازية:

المبحث الخامس: الشخصية الانتهازية

بسيوني في "الخماسين" :

يبدو "بسيوني" في (الخماسين) شخصية رامزة ترتبط بطبيعة خاصة، وموقف ورؤية خاصة، فظروفه العائلية، وعلاقته مع الإنجليز ونظرته إلى الخواجات، ورغبته في السيطرة المطلقة التي تجلت تجاه الخادمات، وعمله مخبرا بين الآخرين، وقدرته على الاحتيال، وموقفه من زوجته وأسرته، واحتقاره العميق للثقافة، ونزوعه للسيطرة والتسلط والوصول إلى الهدف دون سؤال عن طبيعة الوسيلة، وسعيه الحثيث لامتلاك أسباب القوة، ومن ثم سقوطه المريع مثل طائر أصيب في مقتل، وتهدم حياته؛ إثر تلقيه ضربة قاسية عندما طرد من عمله في وكالة الأنباء لقاء فعلته الشاذة أمام طفلة كارل شميدت مدير الوكالة، حتى أشار عليه أحد المخبرين أن يدخل مصحة نفسية، إن كل ذلك يجعله شخصية ترمز إلى قيادات السلطات العربية الحاكمة في الستينات والسبعينات من القرن العشرين.

ولد بسيوني قبيل الحرب العالمية الثانية في حي شعبي لأب فقير، وعرف منذ طفولته بجرأته في استعطاء الجنود الإنجليز، ثم طور هذه المهارة وصار ميله إلى الأجانب خاصا وقويا ومصيريا، ولم يكن له أي اهتمام سياسي في يوم من الأيام، لقد كان هدفه العلاقة مع الأجانب، وقد انصرف بكليته إلى هذا الهدف، واستطاع أن يحقق طموحه وأحلامه بسرعة كبيرة، بدأت علاقته مع الإنجليز عندما دل أحد الجنود الإنجليز على "مومس" نظير خمسة قروش كاملة-أيام كان رطل اللحمة بقرشين- ثم راح بعد ذلك يسرق معسكراتهم، وكاد أن يموت في إحدى المرات، ولكنه نجا من الموت بإعجوبة، وقد تحول بعد ذلك، ولم يعد إلى هذه الغلطة، ثم **"مرت فترة من الهدوء انصرف فيها بسيوني، في الغالب، إلى الاستمتاع بأسلابه**

من المعسكرات البريطانية فتزوج واستأجر شقة مكونة من حجرتين وصالة في العباسية ثم اشتغل بعد ذلك طباخا عند كولونيل أمريكي"[1] .

وكان بسيوني يمتلك تكنيكا خاصا مع الخواجات، يبتدئ بكسب ثقة الخواجا، وعقد صداقة معه، ومن ثم يستنزفه شيئا فشيئا، وقد أنجب خمسة من الصبيان وأربع بنات، وكانت علاقته مع أسرته لا تشغل من وقته إلا القليل النادر، بينما كانت له علاقات نسائية أخرى كثيرة، والخواجات عند بسيوني هم الأمريكان والإنجليز والفرنسيين والألمان، أفضلهم برأيه الأمريكان حيث كان يقول:" **الأمريكان دول أولاد بلد صحيح!** "[2] وعندما عمل مع الألمان أعجبوا به أيما إعجاب، فقد رأوا فيه انضباطا حديديا وإرادة فولانية، " **رأوا فيه- على نحو غير واع طبعا- تجسيدا لصفات الزعيم المبهمة التي تعرف أنها صفات الزعيم ولكنك لا تستطيع أن تحددها تحديدا قاطعا"**[3].

ويناقش الكاتب سبب تفوق الأمريكان برأي بسيوني؛ ومن خلال هذه المناقشة يوضح بشكل شبه مباشر رمزية شخصية بسيوني إلى الزعماء العرب في الخمسينات والستينات، ولعله يشير إلى جمال عبد الناصر مثالا، يقول:"**إذا كان الرجل ابن بلد صحيح وجدع فهو قادر على استغفال كل خواجة على وجه البسيطة. ولم يثبت قط أن الأمريكان أقل قابلية للاستغفال من غيرهم. كما أنهم لم يبرهنوا - بالنسبة لبسيوني- على كرم عجز عنه غيرهم.**"[4]، أما التشابه في التكوين النفسي والسمات فيرى هلسا أنه إلى الإنجليز والألمان أقرب، ولم يكن هذا الموقف نابعا من دراسة متأنية للظروف السياسية والاقتصادية،" **فبسيوني شأن كثير من الزعماء**

(1) الخماسين، ص418.

(2) المصدر نفسه، ص420.

(3) المصدر نفسه، ص420.

(4) المصدر نفسه، ص420

البارزين في العالم الثالث يكن احتقارا عميقا للثقافة"(1)، وهكذا لا يجد تفسيرا للإعجاب بالأمريكان سوى " **اللجوء إلى النظرية العتيقة المبهمة عن الإلهام والحدس اللذين يتميز بهما الزعيم**"،(2) ،

ايوب في "ثلاثة وجوه لبغداد":

تبدو شخصية أيوب في رواية ثلاثة وجوه لبغداد، نمطا خاصا من الشخصيات الانتهازية التي يقدمها غالب هلسا في مجتمع يقوده نظام يحمل أيديولوجيا سياسية يسارية، فهو شاب عراقي يعمل في معهد التربية الرياضية ببغداد، درس وعاش فترة في أمريكا، يبدو لأول وهلة أنيقا ونظاميا مهذبا، ولكن وبعد فترة من مخالطته، يكتشفه بطل الرواية على حقيقته؛ فهو انتهازي قاسي القلب، غير مثقف، وممل مشغول بقضايا غاية في التفاهة والسخف، ولا يحمل أي نوع من أنواع الهم العام أو الإصلاح الاجتماعي، وهو عصابي، مهووس بالجنس، ولكنه لا يستطيع أن يصرف هوسه بأي شكل من الأشكال المعروفة عند العزاب.

يسكن أيوب مع بطل الرواية غالب في بيت واحد، ويستقل بالدور الثاني، عاش بعض الوقت في أمريكا، وهناك تخصص في التربية الرياضية، تعرف عليه غالب بعد وصوله إلى بغداد بفترة قصيرة، " **وكان الانطباع الذي خلفه لدي أنه من النمط الشائع الذي تفرزه الجامعات الأمريكية. أعني الأنماط اللامعة من خريجي هذه الجامعات الذين يتمتعون بشعبية بين الطلبة، ويتسمون بالثقة بالذات، والتواضع المحسوب، ويوحون لك بالرجولة والتماسك. وهم عادة ينجحون في لجان الصفوف، ويتم انتخابهم كأكثر الطلبة شعبية، أو جاذبية.**"(3).

---

(1) الخماسين، ص421.

(2) المصدر نفسه، ص421

(3) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 352.

إذن يمتاز هذا النوع من الشخصيات الانتهازية بأنه يوحي لك- في البداية - بمظهر غير الحقيقة الأصلية، إنه نمط شائع؛ وسيم ومتواضع وأنيق الملبس، ويتمتع بشعبية واسعة، ولديهم قدرة على إقامة علاقة مع أي من الفتيات" **غير أنك ستندهش للمديح الذي يكال لهم، ومن قدرتهم على إقامة علاقة مع أي فتاة، حتى الذكية، التي تتمتع بثقافة جيدة وحس مرهف."**(1) ولكن غالب وبعد فترة من معايشة أيوب اكتشف حقيقته؛ إنه شخص لا يمكن التواصل معه، ولا يدرك الحقائق بعقلانية، بل إنه لا يسمح لنفسه بالتفكير الحر، وينطوي على قسوة كبيرة تجاه البشر الضعاف والحيوانات، والمخلوقات الضعيفة بشكل عام، فقد كان يدوس الفئران بسيارته، ويستغرب من عطف غالب عليها، وكان يقتل كل يوم عددا كبيرا من الأبراص.

وبالرغم من أن هذا النمط من الشخصيات يبدو مثقفا أمام الناس، إلا أنه أجوف وخاو مغطى بقشور سطحية براقة، " **ولكنك إذا تعرفت عليهم عن قرب، فسوف تكتشف أنك لا تستطيع التواصل معهم بعمق، وإذا جالستهم طويلا فسوف يدركك الملل، ويتكشف لك خواؤهم."**(2) ولعل مما يدل على خوائه الثقافي، ردة فعله عندما روى له غالب نكتة عن مجموعة من الفلاحين، كانوا يتحدثون عن وعود الحكومة بإعطاء قروض طويلة الأجل للفلاحين، كما فعل عبد الكريم قاسم الذي وعد بتزويج الفلاحين بمعلمات وسيارة مرسيدس، تساءل من يكون عبدالكريم هذا؟.

أما نظرة أيوب تجاه المرأة، فقد كان يعتقد أن الفتاة العراقية ليست جميلة، كان يزعجه منها طول الجذع وقصر الساقين، فقد كان معتادا على الفتيات الأمريكيات، ذوات الأجساد النحيلة والسيقان الطويلة، " **كان يقسم لو أن الفتيات العراقيات بما في ذلك أجملهن، قدمن أنفسهن له، ورجونه أن يضاجعهن لما تنازل حتى بلمسهن"**(3)، ثم أخذ رأيه يتغير بالتدريج، قال إن جسد الفتاة العراقية رياضي

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص352.

(2) المصدر نفسه، ص352 .

(3) المصدر نفسه، ص352 .

بطبيعته، ولم يمض وقت طويل حتى راح يعتقد أن الفتاة العراقية أجمل فتاة في الدنيا، ولكن المرأة تحولت عنده إلى هوس، ولم يلجأ إلى التخفيف من أزمته بأي وسيلة، حتى انتهى الأمر به في النهاية إلى الجنون، ومستشفى الأمراض العقلية، وذلك بعد أن شاهد إحدى الفتيات(سهام) مع غالب في نفس البيت.

أخذ ينظر إلى الفتاة مذهولا فاغرا فاه، وتجمد في مكانه يسد عليها الطريق، ولم يتزحزح من مكانه إلا حتى طلب منه غالب بحدة أن يبتعد عن الطريق، وفي المساء جاء إلى غرفة غالب، وبدا في حواره وأسئلته وكأنه مجنون، كان يتخيل أن الفتاة سهام جاءت له هو، ولكن غالب اختطفها منه. وقد أدرك غالب أن أيوب أصيب بالجنون عندما قال أن الفتاة غمزته وتحدثت معه بالتلفون، ولم يكن لديهم في شقتهم تلفون، عندها قال أنهما تحادثا في اللاسلكي، فذهب إلى بيت جيرانهم واتصل بمستشفى الأمراض العقلية، الذين جاءوا وأخذو أيوب، بعد معركة ضارية معهم ، وظل غالب في البيت وحيدا.

وعندما حاول غالب بعد فترة زيارته، وجده في مصحة غامضة وعندما سأل عنه في مكتب الاستعلامات، قالوا له انه أيوب الذي يعوي، ولما ذهب إلى الطبيب المسئول عنه، قال انه يتحسن ببطء، وأن زيارته ممنوعة، ولم يقبل أن يخبره عن طبيعة مرضه.

مدير المكتبة في "ثلاثة وجوه لبغداد":

مدير المكتبة الوطنية التابعة لوزارة الثقافة العراقية، رجل من رموز النظام البعثي الحاكم في العراق، وقد جاءت صورته في رواية " ثلاثة وجوه لبغداد" كاريكاتورية مضحكة، فهو رجل بدين ذو وجه كبير وشاحب، ضعيف الشخصية، ومصاب بعقدة نقص، تتجلى في غيرته على كل الفتيات، حيث لا يحتمل أن ينظر إليهن أي رجل أو يكلمهن، وعندما رأى أو علم أن غالب يكلم الفتيات؛ غطى غرفهن

الزجاجية بصفائح من الكرتون، ومنع غالب من الاستعارة من المكتبة، حتى لا يكلم الفتيات أو ينظر إليهن.

" فذهبت إلى مكتب مدير المكتبة أسأله عن السبب؛ فلم يفدني في شيء. دخلت حجرة السكرتيرات فوجدته هنالك. ما أن رآني وجهه الأبيض الشاحب حتى احمر كالطماطم الناضجة حتى أذنيه، وأخذ يرحب بي بحرارة. عندما استدرت لأنظر إلى أحدى الفتيات، وقد اعتقدت أنها تكلمني، حتى ازداد احمرارا وأخذت عينه اليسرى تختلج. "(1)، أما الفتيات فقد رحن يتضاحكن حتى سالت دموعهن على أسلوب مدير المكتبة المرتبك في التصرف والرد على أسئلة غالب، وكانت إجاباته غمغمة غير مفهومة.

أما نظرة مدير المكتبة إلى المرأة؛ فقد كان يغار على كل النساء من الرجال، ولأنه مسيحي فقد قام باحتجاز ست من الفتيات المسيحيات في غرفة ضيقة، بحجة الغيرة تلك، لقد كان يعتقد أن الفتيات ما هن إلا ملك له وحده من دون الناس، وقد أخبر المدير العام غالب أن مدير المكتبة أصيب بصدمة في أثناء ثورة عام 1963م، مما جعله غيورا جدا على كل النساء، وقد قامت الحكومة العراقية بإرساله إلى أمريكا للعلاج، حيث تحسنت حالته فترة، إلا أنه عاد إلى غيرته على النساء وبشكل أكثر من السابق.

وكان هذا المدير معروفا عند معظم الموظفين في المكتبة وغيرهم بأنه مخبول، فقد أصيب بحالة هياج عصبي عندما علم أن إحدى الفتيات المحشورات في مكتبه دون عمل حقيقي تنوي الزواج من ابن خالتها، لقد تشنج وأمرها إلا تتزوجه، وأقسم لها إن تخلت عن ابن خالتها فسوف يجد لها عريسا مناسبا أكثر منه بألف مرة، أما الفتيات الباقيات فقد كن يضحكن أو يشفقن عليه، فقد كانت "سناء" وهي الفتاة السمينة التي تجلس قرب باب مكتبه، أكثرهن إشفاقا عليه؛ **" عندما يصاب بحالة**

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص367.

إغماء، وذلك يحدث كثيرا، تحمله وتضعه على الصوفا الواسعة، وتضع رأسه على حجرها، وتبلل وجهه بالماء، وتداعب شعره، وتقول للفتيات الضاحكات: عيب يا بنات. تريدن تخبلن الولد"[1]. ،

وكان مدير المكتبة على قدر كبير من السذاجة، فقد كانت الفتيات يرينه وهو يقترب من إحدى الفتيات واسمها نوال ويحدثها حديثا هامسا، ويسمعنها وهي تصرخ في وجهه: ما يرضون... ما يرضون، كان يطلب منها أن تحدث زميلاتها الفتيات بضرورة الانضمام إلى الحزب، وتجند عضوات جديدات؛ حيث كانت تدور على الفتيات وتقول : من منكن يا فتيات تريد الانضمام إلى الحزب؟ فيعلو ضحكهن وهن يسخرن.

أما المسئولون عنه مثل المدير العام، فلم يكونوا ليعالجوا المشكلات التي تحصل نتيجة تصرفاته، بل كانوا يتركون الوضع على ما هو عليه، حيث يبقى هذا المدير الانتهازي في موقعه، يفعل ما يشاء وعلى المتضرر أن يلجأ إلى وسائل شتى ليتخلص من مصائبه، الناتجة عن عقده النفسية، وغيرته غير المبررة.

المدير العام في "ثلاثة وجوه لبغداد":

يبدو المدير العام في وزارة الثقافة العراقية؛ حيث كان يعمل "غالب" بطل رواية " ثلاثة وجوه لبغداد" شخصية كاريكاتورية رامزة، وهو أحد رموز حزب البعث الحاكم في العراق، وصل إلى منصبه دون جدارة أو كفاءة، " **إن كل أمجاد هذا المدير أنه شارك في اغتيال عبد الكريم قاسم على النحو التالي: لقد صدر إليه الأمر أن يرتدي ملابس النساء، وأن يقف قرب المكان المقرر للاغتيال، ثم عليه بعد إطلاق الرصاص على قاسم مباشرة أن يصرخ بصوت نسائي، عال وواضح: واويلاه الشيوعيين كتلوا الزعيم...!"**[2].

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 382 .

(2) المصدر نفسه، ص369.

وهو جبان حتى أنه لم يستطع أن يقوم بهذا الدور البسيط في عملية اغتيال عبد الكريم قاسم، " **إنه حتى هذا الدور لم يقم به. فلقد انصرف بعد إطلاق الرصاص بعباءته وأقراطه الذهبية دون أن يطلق ولولة واحدة.**"[1]، وكان هذا المدير متصنعا يحاول أن يبدو في غير هيئته الأصلية؛ فقد وجده غالب صغير الحجم، دقيق الأطراف، وجافا، وكان شعره مصبوغا باللون الأسود، فبدا كأنه شعر مستعار ملصق بجمجمته، " **في جبينه وصدغيه وعلى ظاهر يده تبرز شرايين خضراء، وفي حركاته استرخاء، وفي حديثه رقة وتنغيم للكلمات، خاصة حروف العلة فيها، التي يمطها وينغمها حتى يبدو وكأنه يغني**"[2].

وهو أضعف من أن يحل مشكلة تواجهه، أو تواجه العاملين معه، فعندما أخبره غالب عن منع مدير المكتبة له من الاستعارة المباشرة من المكتبة، رغم حاجته الملحة لذلك، حاول أن يلتف على الموضوع وطلب من غالب أن يدور إلى الباب الخارجي ويستعير من هناك كأحد المتعاملين مع المكتبة من الخارج.

والمدير العام مهووس جنسيا، ولا يستطيع أن يعبر عن حاجاته الأساسية بوضوح؛ فقد أبعد عن منصبه، والسبب كما أشيع: " **أن المدير استدعى فتاة، ثم كمن لها قرب الباب. وعندما دخلت الحجرة فاجأها واحتضنها من الخلف، وأخذ يقبل عنقها، فصرخت. ثم قدمت شكوى ضده** "[3]، عند ذلك ظهرت شخصيته الانتهازية على حقيقتها، " **قيل أن المدير أصر أن الشكوى كيدية، فللفتاة أقارب شيوعيون، وكراهية الشيوعيين له معروفة، وكذلك كراهيته لهم. وقيل أيضا، أن المدير صرخ أمام المحققين بغضب:- وهكذا يكون الشيوعيون قد حاكموني مرتين، مرة تحت حكم قاسم ومرة أخرى تحت حكم حزب البعث الذي انتمى إليه.**"[4].

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص370.

(2) المصدر نفسه، ص 369.

(3) المصدر نفسه، ص 377.

(4) المصدر نفسه، ص 377.

وبالرغم ما لمثل هذه العبارات من وقع، حيث أنها تغير في كثير من الأحيان المواقف الخاسرة إلى نصر فيه شبهة الخلود، إلا أن صراخ الفتاة كان قد اجتذب بعض الحضور الذين شهدوا بما رأوا، ولأن لكل شخصية انتهازية تصل إلى موقع أو منصب مجموعة من الأتباع المتسلقين، فقد راح أتباع المدير العام يروجون بعض التساؤلات والإشاعات المغرضة، من مثل: لماذا حررت الفتاة فمها ولم تحرر جسدها كله؟ وقالوا أن المدير العام ضعيف البنية وهي تتمتع بصحة جيدة، فكيف استسلمت له؟ ولكن المدير العام تغير وجاء مكانه مدير جديد، الذي قيل أنه كان شيوعيا؛ ثم ترك الشيوعية وانضم إلى حزب البعث، وصار من أشد المتعصبين له، ومن أشد أعداء الشيوعيين، " **يقال أنه قابل أحد معارفه ولامه لأنه كتب مقالا في إحدى الصحف عن مدام كوري، قال له: لماذا لم تكتب مقالا عن الخنساء بدلا من الكتابة عن امرأة شيوعية، ولا أعلم ما انتهت إليه المناقشة، ولكن قيل أن أستاذ الفيزياء الجامعي هذا قد تم نقله إلى معلم أطفال، في قرية في جنوب العراق**"(1) المدير العام الجديد كان انتهازيا أيضا، فبالإضافة لعداوته للشيوعيين الذين كان ينتمي إليهم؛ كان أيضا يتملق المسئولين الكبار في حزب البعث، وفي أول اجتماع له مع القائمين على المجلة، استقبلهم استقبالا حسنا، مبالغا بالترحيبات والمجاملات، وأخبرهم عن عدم رضاه عن المجلة، " **ثم أضاف قائلا ، إنه- صراحة- غير راض عن المجلة، إذ تنقصها الحيوية والعمق.**"(2) ، ولكن وبعدما قال غالب أن الكثير من المواد التي تنشر دون مستوى النشر، وتنشر بسبب علاقات خاصة، أو بهدف تبادل المنافع، أو بسبب أوامر غامضة من جهات مجهولة، وتفاجأ بها هيئة التحرير، ولم تكن قد اطلعت عليها، لم يعجبه هذا الكلام ودعا إلى إصدار عدد خاص بالبيان السياسي للمؤتمر القطري الثامن للحزب، وراح يبين كيف يكون العدد الخاص شاملا لدراسات شاملة تكشف عن المضمون، وما إلى ذلك.

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 378 .

(2) المصدر نفسه، ص 378 .

كان جميع المحررين يعرفون أنه لا جدوى من مناقشة المدير العام، واختاروا ألا يعلقوا بشيء، مؤثرين للصمت، وأحنوا رؤوسهم، " **قاطعت المدير قبل أن يتم كلامه، وقلت: بس المجلة أدبية. أحنى رأسه وحدق في وجهي ثم قال ببطء، دون أن تغادر نظرته وجهي: البيان السياسي فيه جانب أدبي كبير. موافق؟ قلت: مش موافق. قال بعصبية كشفت عن وجهه الآخر: مش موافق يعني شنهو؟ تريد تقول إن البيان السياسي ماله قيمة؟**"[1]، كان المدير يهدد غالب، الذي حاول أن يشرح له أن للبيان السياسي للحزب قيمة ولكنها ليست أدبية؛ فالنظرية النسبية لآينشتاين كانت تمثل عملا فيزيائيا عبقريا، ولكن من الخطأ مناقشتها على أنها رواية، وهنا أثار نقطة خاصة بشخصيته الانتهازية؛ إذ قال أن اختيار غالب لآينشتاين كمثل يضربه في حديثه، عائد لأن آينشتاين يهودي، وغالب ماركسي، وماركس يهودي، كان من الواضح أن لا جدوى من مناقشته.

صليبا في "سلطانة":

تعد شخصية صليبا في رواية "سلطانة" من أكثر الشخصيات عناية من الكاتب، وقد نالت قسطا كبيرا من التوضيح، وكانت ذات أبعاد مختلفة، يبدأ خط سير صليبا منذ كان عمره أحد عشر عاما يلعب مع الصبية في الحارة، كان وحيد والديه، إذ خلفت والدته ثلاثة عشر طفلا ماتوا جميعا بأمراض مختلفة، وقد كانت الرعاية الصحية متخلفة جدا، فقررت الأم أن تملأ البيت بالأولاد، بأن تزوج ابنها الوحيد (صليبا) بابنة أخيها "صبحا" التي كان عمرها في ذلك الوقت خمسة وعشرين عاما، وكان والدها صاحب أملاك كثيرة، ولكن ابنته بقيت عانسا، لأن أحدا من شباب القرية لم يتقدم لها.

---

[1] (1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 379 .

وعندما زوجت صليبا من صبحا لم يكن صليبا يعرف شيئا من أسرار الزواج، كانت الأم تشرح له ما يجب عليه أن يفعله مع زوجته، ولكنه لم يكن يستوعب شيئا مما تقوله، فقد كان يضحك ويقول: " **أسوي مع خالتي صبحا...**"[(1)] ثم يغادر ليلعب مع العيال، وكانت زوجته صبحا على قدر كبير من البلاهة، بحيث كانت هي الأخرى لا تدرك من أسرار الزواج شيئا، ورغم محاولات الأم الكثيرة إلا أن صليبا كان يغادر غرفة زوجته وينام في حضن أمه كما تعود سابقا، ولم ينتبه إلى ما يجب عليه أن يفعله إلا من قبل أصحابه الصبيان، وعندما استطاع فض بكارة زوجته، وعرفت الأم بذلك أطلقت زغرودة وحملته وهي تقول فعلها حبيبي.

نما صليبا وصار طويلا قوي البنية، وفي سن العشرين كان صليبا أطول وأقوى رجل في القرية، وكانت صبحا قد خلفت له ثلاثة من الصبيان، وقد كان في مراهقته عنيفا جدا، كان يفسر كل ما يقال له تفسيرا خاطئا فيميل إلى العنف، ولكنه لم يؤذ زوجته صبحا قط.

ثم حدث تحول في حياته" **لقد دمجت القبيلة عنفه في حياتها ومصالحها، وأصبح أول المقاتلين دفاعا عن القبيلة، وعندما كانت القبائل البدوية تغزو القرية، كان صليبا أمهر من يستعمل البندقية والعصا. وعندما تدور المعارك بالحجارة، كانت حجارته لا تخطئ هدفها.**"[(2)] ، وفي تلك الفترة صار يغيب عن القرية فترات طويلة، قيل أنه صار من أبناء الليل، لقد أصبح لصا؛ كان يسرق البقر والغنم من القبائل الأخرى ويبيعها في عمان للقصابين، وقيل أنه كان يقطع الطريق على المسافرين، فقد وجد في مرة أحد الزياتين مقتولا ومجردا من أمواله، واتهم بذلك صليبا.

بعد فترة من الزمن انقطع صليبا عن السفر وظل في داخل القرية، واكتشف الناس أنه أصبح يشرب الخمرة، كما تحول إلى زير نساء، لقد كان صليبا رجل البيت يساعد والده في الزراعة، ويحرث الأرض ويحصد أحيانا، ويتابع الرعاة، وكان

---

[12] (1) سلطانة، ص 64.

[13] (2) المصدر نفسه، ص72

يفعل ذلك كواجب لا بد منه، كانت الأحوال تتغير من حوله، لقد كانت أسعار الحاجيات في ارتفاع مطرد بينما تتراجع أسعار القمح والأغنام، " **وقد كان هنالك أولاد لهم مصاريفهم. فلا بد من المدرسة، وشراء الملابس والكتب، ثم إرسالهم إلى عمان ليواصلوا الدراسة.**"[(2)]، ثم جاءت سنوات احتباس المطر(1947 وما بعدها) فاضطر أن يبيع جزءا من الغنم لأن المراعي شحت، وانخفضت أسعار الغنم بشكل غير عادي، عندها لم يستطع صليبا أن يفهم ما يحدث، ولا ما يجب عليه فعله، حين يبقى كل شيء على حاله فمعنى ذلك أن تزداد فقرا، على من يود أن يعيش أن يتوسع في شراء الأرض، وأن يدعم ذلك بالتجارة، والتجارة لا تعني البيع والشراء فقط، بل تعني الربا، " **فقد أصبح البدو الذين تحولوا إلى الزراعة بحاجة دائمة إلى النقود والبضائع في فترة الشتاء. تبيعهم دينا في الشتاء وتستعيد في الربيع كل دينار وقد أضيف إليه رطل سمن وجدي**"[(1)].

وحتى تعطي التجارة كسبا وافرا كان لا بد من التهريب، الذي كان يتم عبر نهر الأردن إلى فلسطين قبل حرب 1948، حيث كان يتم تهريب القمح والعدس والحمص والشعير والذرة،والعودة من هناك بزيت الزيتون والتين المجفف والتمر والزبيب وغير ذلك، أما بعد حرب الـ48 فقد صارت التجارة الأساسية مع دولة اليهود الناشئة(إسرائيل)، فقد صارت البضائع تهرب إلى اليهود الذين يدفعون ثلاثة أو اربعة أضعاف ثمنها في الأردن.

صارت النقود تجري سريعا في يد صليبا وأهل القرية، وكان لها مسار محدد: التوسع في التجارة، ثم فتح متاجر في عمان، وبناء بيوت لسكنى الأبناء الذين يدرسون هناك، أو لتأجيرها للسكان الجدد، كما تغيرت متع أهل القرية، وصارت لعبة القمار، هي المتعة الأساسية، وكان صليبا مهووسا بالحركة والفعل، بالمجازفة والحركة العنيفة، مع ولع شديد بالنساء.

---

[14] (1) سلطانة، ص 74.

[15] (2) المصدر نفسه، ص74.

بعد فترة من الزمن زهد صليبا بزوجته صبحا، وشعر بأنها دميمة، ضامرة محنية الظهر ورأسها مليء بالشيب، وصار على علاقة بزوجة الراعي، التي كانت تنام على سطح حجرة المخزن، بقي على علاقة بها حتى اكتشفت أمه العجوز ذلك وضبطته في فراش زوجة الراعي، ولكنها لم تستطع منعه عنها، بل زادت العلاقة حرارة، وبالرغم من دعوتها عليه، ورفضها لما يقوم به، إلا أنـ " **أصبحت البدوية، باتفاق ضمني مع الأم، زوجة أخرى. أصبح ينالها في كل الأوقات**"[1][16]. ولم يسافر صليبا ويغامر إلا بعد موت والديه، حيث كان لوالدته سيطرة خاصة لا يمكن تجاوزها، وفي مرة وقف في الثلج عاريا لفترة طويلة مراهنا على ذلك مقابل رطل حلاوة، أكله كاملا.

ولكن الناس تفاجأوا بإعلان صليبا أنه ينوي أن يصبح قسيسا، " **قال إنه تاب عن كل شيء ولكن ذلك لم يكن هنالك ما يؤكده. وكان إعلانه عن رغبته غريبا حقا**"[2][17]، وفي يوم توجه إلى دار "خليل" وهو الشاب الذي كان يرشح نفسه ليصبح قسيسا بعد وفاة القسيس اليوناني، وانهال عليه ضربا بسلسلة المبخرة التي كان يحملها، ولم تستطع والدة خليل حمايته من صليبا القوي الشرس، ثم أجبر خليل على كتابة عريضة على لسان أهل القرية يطالبون فيها المطران برسم صليبا قسيسا لقريتهم، وهكذا صار قسيسا للروم الأرثوذكس في القرية.

بعد ذلك عاد صليبا واسترضى خليل وجعله قندلفت، كما حاول أن يغير صورته أمام الناس؛" **لبس وظيفته وأصبح لطيفا مع الناس، يستمع لمشكلاتهم، ويسعى لحلها.** "[3]، وارتفع قدره بين الناس عندما قام بطرد مجموعة من المبشرين الأمريكيين، حيث اعتقد أن هؤلاء المبشرين يقولون عن مريم العذراء أنها امرأة كبقية النساء، وكان يجالس الشباب ويستمع لنكاتهم حول القسيسين، ويقول أن هذا

---

[16] (1) **سلطانة، ص 78.**

[17] (2) **المصدر نفسه، ص 47.**

(3) **المصدر نفسه، ص 48.**

خوري الكاثوليك. وفي موعظة الأحد كان الأب صليبا يحث الناس على تقديم مد الخضر، وهي كمية من القمح على الناس تقديمها للكنيسة، التي كان يقول أنها توزع على الفقراء والمحتاجين، ولكن لم يسمع أحد أن الخوري وزع شيئا على المحتاجين.

عندما كان صليبا يقترب من الأربعين من عمره، كان في يوم خارج البلدة وعندما مر بالهربج، وجد سلطانة هناك وحيدة، أخبرته أن بعض الصبية حاولوا الاعتداء عليها، وأنها ضربتهم وأهانتهم، أثنى صليبا عليها، ووعد بأن يعنف الصبية على فعلتهم، ولكنه وجد الفتاة تتعلق به بعشق ظاهر، وعندما ضاجعها هناك وأفقدها عذريتها وجد نفسه قد هام بها، ونمت بعد ذلك بينهما علاقة حب ملتهبة.

كانت سلطانة تغير في صليبا، وتعيد صياغته، دون أن يدرك الاثنان التحولات التي تعتريهما على صعد مختلفة، وكان يفكر كثيرا في سلطانة، فيستغرق ويتوه، في إحدى المرات سهر في بيت عبد الكريم العماشنة وسرح، ولم ينتبه إلا وعبد الكريم يقول له:" **هاه، ما قلت؟ قال صليبا: ما سمعت؟ قال عبد الكريم: - أقول، تهجس وإلا تنعس؟ نهض صليبا وقال: لا بالله أنعس. وانصرف.**"[18](1).

هزيم في "سلطانة":

ولد هزيم لأب فلسطيني يعمل بقالا صغيرا في القرية، أما أمه فكانت بنتا لإحدى القبائل ذات الأصل البدوي في قرية ماعين، من قبيلة النواعسة، وعندما أصبح هزيم صبيا لم يكترث بما كان والده يحاول يفهمه إياه، من أنه فلسطيني لا يكترث بالقيم البدوية وإنما يفتخر بقتال اليهود والإنجليز، " **لم يذع هزيم ما قاله له أبوه، ولكنه أخذ يحتقر الفلسطيني في داخله بعمق، فنفاه، وتبنى نصفه البدوي بقوة مضاعفة**"[19](1).

---

[18] (1) سلطانة، ص 180.
[19] (1) سلطانة، ص 135.

كان في صباه طويلا نحيلا، وفي تقاطيع وجهه فتور حالم، له بسمة تشيع في وجهه وتثبت، كانت تزيد وجهه رقة، وعندما غطى أحد أسنان فكه الأعلى بطبقة ذهبية، أصبح فمه رطبا براقا، وخاصة حين يبتسم، كان يلح على طلبات لا تنتهي: خنجر مطلي بالفضة ومزخرف مثل خنجر تركي العماشنة، وكان بطلبه للسن الذهبية ومن ثم الخنجر ثم الفرس الأصيلة، يحاول أن يقلد تركي العماشنة ابن شيخ العشيرة.

وكانت حادثة أخرى قد تركت أثرا عميقا في حياته، وجعلته يطلب هذه الطلبات التي لم يقتنع بها والده، ولم يكن قادرا على تحقيقها، فقد رأى فتاة غجرية تنظر إليه، وعندما اقترب منها وحدثها ارتعش جسدها إرتعاشة راقصة تخللته كله كالموج، واستدارت عيناها واشتعلتا، وابتسمت له ابتسامة مبلولة، ولمع سن ذهبي في فمها، وطلبت منه أن يزورهم، فهم يصنعون خناجر زينة، " **وانصرف الغجر، وعاش هزيم ارتعاشة الجسد الراقصة، والفم المبلول، والسن الذهبية. وأمضى ليلته نصف مستيقظ، يستعيد ما حدث كحلم رائع، مرهق. وفي الصباح اتجه إلى مضارب الغجر. لم يجدهم. كانوا قد ارتحلوا... ولكن منذ تلك اللحظة ولد حلمان: حلم السن الذهبية، وحلم الخنجر، كما تولدت قناعة غامضة أنه لا توجد امرأة تقول له: لا.**"[20](2).

وعندما طالب والديه بفرس أصيلة مثل فرس تركي العماشنة، لجأ والداه إلى الشيخ لصنع حجاب، ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة، وازدادت الأمور سوءا، لقد أصبح الولد أضحوكة في القرية، صار يتحدث بجرس الرجل الناضج فيحاول تخشين صوته فلم ينجح إلا في جعله مختنقا، ثم أخذ عدد من مهرجي القرية يقلدون صوته فيثيرون المرح والضحك الصاخب، كان هو وأهله كانوا محسوبين على النواعسة،

---

[20] (2) المصدر نفسه، ص 137.

ولكن تحدثه بهذا الأسلوب أبرز بقوة أنه مجرد ملحق بالقبيلة، خاصة أنه لم يكن متميزا أو مفخرة تفخر القبيلة بانتمائه إليها.

إلا أن هزيم كان يتمتع بموهبة التمثيل، أصبح يتحدث بأسلوب زعماء القبيلة، ويتقمص تعبيرات الوقار التي ترتسم على وجوه الكبار، ثم صار يتحدث عن نفسه بأنه أحد المقررين في القبيلة، وبلغ في ذلك أن قال: **" إحنا ما نعطي بنتنا لفلاح" وكان يشير إلى تقدم أحد الأثرياء في القبيلة لخطوبة ابنة فارس النواعسة وأشجع رجالها لولده. وقد أصيب بالحزن فعلا حين تمت الخطوبة"**.[1]

لم يكن الأب راضيا عما يقوم به ابنه، أما أمه فقد كانت سعيدة بهذا الابن الذي يتحدث اللهجة البدوية، ويعتز بأخواله كل هذا الاعتزاز، وقد أخذت ملامح الرجولة والنضج تلوح عليه في سن مبكرة، وقد احتاج الولد إلى عشرين عاما بعد وفاة والده لأن يستعيد الوجه الآخر لأبيه ويفتخر به، لقد فهم سر أولئك الفلسطينيين الغامضين الذين كانوا يثيرون ضيقه،" **فقد كانوا يأتون ليأخذوا السلاح الذي كان والده يجمعه سرا. وأصبح يفتخر بأن والده كان محكوما عليه بالإعدام لأنه رفع السلاح في وجه الإنجليز، ويفتخر كذلك أن أحد قادة ثورة 1936 نام في بيتهم (بعد أن انتهت الثورة) وهو في طريقه إلى العراق"**[2].

عندما صار هزيم شابا حدث تحول كبير في حياته؛ لقد أصبح عاقلا، وأذهل الجميع بحذقه ومهارته في التجارة، مما جعله من أثرياء القرية المعدودين، ولكن الكثير من الحقائق المتصلة ببداية عمله في التجارة بقيت غير واضحة، وراح الناس يتساءلون: كيف أدرك هذا الولد نصف المعتوه أن تجارة الحبوب ستكون لها كل هذه الأهمية؟ وكيف استطاع أن يقيم كل هذه العلاقات مع تجار عمان؟ وكيف ومتى تكونت هذه العلاقة بينه وبين مسعد؟ بل وكيف استطاع أن يأمن لمسعد، ذلك المراوغ، الشرس، المخادع؟

---

(1) سلطانة، ص 139.

(2) المصدر نفسه، ص 139.

وكان الناس يخمنون بعض الأمور حول ذلك؛ " قال البعض أن أمه باعت أساورها وأعطته النقود. وقال البعض إنه مسعد الذي رأى في هزيم واسطة مقبولة لشراء الحبوب من المسلمين، فوضع بعض المال في يديه، وجعله شريكه، وأنه من خلاله استطاع أن يقرض بالربا بعض أفراد قبيلة النواعسة، ثم يستولي على أراضيهم فيما بعد"[1]، لقد أصبح هزيم شخصا جديدا، بنى مخزنا كبيرا للحبوب، وكان أول من استعمل الأسمنت في البناء بدلا من الطين المعجون بالتبن الذي يضعه أهل القرية بين الأحجار حين يبنون بيوتهم، وكان هو أول من بنى بناء من طابقين، وهو أول من أدخل سيارة شحن - بالاشتراك مع مسعد- إلى القرية، وأخذ يحملها بالحبوب لتباع في عمان، أو بالركاب من أهل القرية.

وهكذا صار هزيم شابا قوي الجسد، فاتنا، ثريا محسودا من أهل القرية، وأصبحت قبيلة النواعسة تفخر بابن بنتها، " كانوا يشيرون إليه ويقولون: " ثلثين الولد لخاله"[2]، وفي فترة عنفوانه هذه أعلن انتصاره على والده، وساندته في ذلك أمه، فقد أخبرته بأن والده ما يزال يخفي بعض السلاح الذي كان يهربه إلى المجاهدين في فلسطين، فتخلص الولد منه بسرعة، وهدد الوالد بأنه إن عاد إلى مثل ذلك فسيخبر عنه الدرك.

لم ينتبه هزيم إلى آمنة إلا بعد أن نبهه مسعد، كان مشغولا بنفسه، ولكنه بعد أن رآها، استقر على قرار: سوف يتزوج آمنة، وعندما تكلم مع أمه في شأنها قالت له بأنها على اسم ابن عمها تركي العماشنة، ولكنها ذهبت في اليوم التالي لزيارة أم آمنة، في بيتهم الكبير الواسع العامر بالأولاد والعبيد والضيوف، كلمت أمونة وهي مرتبكة وطلبت منها آمنة لهزيم، وعلى خلاف ما توقعت من أمونة الشرسة، أخبرتها أن تعود بعد يومين أو ثلاثة، شعر هزيم أن الأمور تسير كما هو مقرر لها.

---

[22] (1) سلطانة، ص 140.

(2) سلطانة، ص 140.

(4) سلطانة، ص 140.

ولكن ما حدث بعد ذلك لم يكن في حسبان هزيم، لقد انفجرت الأزمة بشكل كاسح، كادت أن تؤدي إلى حرب دامية بين العماشنة والنواعسة، كانت أمونة هي من فجرت الأزمة حين طرحت المسألة وكأن كل شيء قد تم، فدفعت الأمور إلى أقصى حدودها منذ البداية، وعندما هدد العماشنة هزيم وجد النواعسة أنفسهم مضطرين للوقوف بجانب ابن بنتهم مهما حدث، وقد حدثت بعض المناوشات والمشاجرات الفردية، أما الأسطورة التي بنيت بعد ذلك والصورة التي رسمت لانتصار تركي الحاسم، فقد كان مسئولا عنها الشاعران أبو نزال عبد العماشنة وزعيل ورغبة القرية في أن تخلق أسطورة تعيشها.

بدأ حب هزيم لآمنة عندما صارت مسألة الزواج من آمنة محسومة لصالح تركي، وإن لم تتخذ الخطوات الرسمية للزواج، لقد تأخر الزواج بضعة شهور بسبب وفاة عم تركي، في هذه الفترة بالذات بدأت تصرفات هزيم الغريبة؛ لقد جمع حوله مجموعة من صعاليك النواعسة، وجعلهم رجالا له، وراح يقيم الولائم لرجال النواعسة، وينفق أموالا على شئون القبيلة، ولم يتقدم أحد لنصيحته، لقد كان منطق القرية إذا أردت أن تدمر نفسك فلن يمنعك أحد، ثم تحول هزيم إلى مجرد وكيل لمسعد يفعل به ما يشاء.

طعمة في "سلطانة":

تعد شخصية طعمة في رواية سلطانة من الشخصيات النادرة، في خطاب غالب هلسا الروائي، التي تحولت من شخصية ثورية متفانية في خدمة العمل العام، الى شخصية انتهازية، على النقيض مما كانت عليه، لقد تحول طعمة من شخص ثوري، يسعى لإصلاح المجتمع، وفق نظرة الحزب الشيوعي الذي كان ينتمي إليه، الى شخص انتهازي منحل، وذلك نتيجة للظروف القاسية التي وضعه بها أعضاء الحزب، والناس الآخرون المتعاملون معه، " **لقد أصبح، هو نفسه، يشعر بنفور**

عميق، وباشمئزاز جسدي من أية علاقة حميمة. بل لم يعد يطيق تلك الأنماط التي تعاملك بمودة تلقائية، وتتحدث إليك بما في قلبها"[1].

وعندما عاد في إحدى الإجازات الى القدس، أصرت أمه عليه أن يتزوج، قال لها مازحا إن كان عندها عروس، فعرفته بمعلمة مدرسة، ففتن بها: كانت جميلة وذكية وتحسن الإصغاء، التقى بها أكثر من مرة، وكان إعجابه بها يتزايد، ولكن شيئا ما أخذ يزعجه منها؛" **لم تكن من النوع الذي يتمنع. أو يخطط. اعتبرت أن زواجهما أصبح مسألة مفروغا منها. وكانت تسمح له، دون مقاومة، أن يمسك يدها. ولم تثر عندما قبلها"**[2]، أخذ هو يشعر بنفور منها، وخاصة عندما بدأت هي تمسك بيده، وعندما أحس أنها تريد أن تختلي به، فقدر أنها تود أن يقبلها، وعندما رآها في أحد الأيام مرهقة وعرف أنها مريضة قطع إجازته، وقال لأمه أنه صرف النظر عن الزواج.

لقد تغيرت نفسيته ورغباته وتشوهت نظرته الى الآخرين، " **الأنماط الوحيدة التي كان يرتاح في الجلوس معها، كانت تلك الأنماط الباردة المتعالية، التي تعامله بتهذيب، وهو يعلم أنها تبطن احتقارا له"**[3]، لقد أدرك وإن لم يصغ ذلك بوضوح، ولم يصارح به نفسه، أن هذا النمط من العلاقات هو السائد بين الناس، وأنه هو وحده علامة النضوج الاجتماعي، فكلما ارتفع مقام الناس الاجتماعي، وازداد احترام الناس له، اتسمت العلاقة به بذلك البرود، **"والغريب أن طعمة، رغم ذلك، كان يحلم بعلاقة حميمة مع تلك الشخصيات ذات العواطف الباردة. وكان يفقد حماسه أمامها، ويحاول بكل الوسائل أن ترضى عنه"**[4].

---

[23] (1) سلطانة، ص 393.

(2) المصدر نفسه، ص 393.

[24] (3) المصدر نفسه، ص 394.

[25] (4) المصدر نفسه، ص 394.

كان يحلم بامرأة تمنح نفسها له وبدون مقابل، فكان يعشق بسرعة النساء اللواتي يقابلهن في المناسبات الاجتماعية، وكان يحلم بأن ينفرد بهن، ولكنه يعلم أن ذلك مستحيل، وعندما كان يرى أميرة تمر من أمام بيته، كان يفقد توازنه أمامها، " **كانت مثيرة إلى أبعد حد، لكنها مستحيلة. تمر به شامخة. بارزة الصدر..**"[1]، ولكنها كانت خادمة وغريبة، فهي غير صالحة كزوجة له.

لقد صار يفكر بالجنس كمسألة فيزيولوجية، فوجد أن من الطبيعي أن يفكر إنسان غير ثوري بسبب قلة المسؤوليات الملقاة على كاهله، بالجنس ليشغل حيزا كبيرا من تفكيره، أما الثوري المحترف الذي يعمل أكثر من سبعة عشر ساعة في اليوم، فلا تصبح المسألة ذات بال عنده، لقد أصبح طعمة غير قادر على تكوين أي علاقة عميقة مع أحد، وكان يسير في الشوارع وحيدا يقتله الملل، وقلة من يلتقون به، " **اشتاق الى إنسان يجلس معه وهو يتناول الطعام. حين يتناول الطعام وحيدا يشعر بالضجر، وبفقدان الشهية**"[26][2].

وبينما كان ينتظر الخادمة أميرة، كان يشعر بالضعف والخواء،" **لم أفعل شيئا ولن أفعل شيئا. لم أكتب. لست مناضلا، لست منحلا. عاجز حتى عن إغواء خادمة. إنني مجرد شيء عتيق وصدئ.. سوف أصبح أضحوكة. لا فائدة. مجرد مثقف منحل**"[27][3]، وعندما جاءت أميرة وأعطته صندوق السجائر احتضنها فورا، نبهته الى أن الباب مفتوح، أغلق الباب وظل يعانقها بشدة حتى أحس بالبلل وارتخى جسده، بينما ظلت هي تصدم جسده ثم ضمته بقوة وارتعشت عضلاتها ثم استرخت، وعندما غادرت وضع في جيبها عشرة قروش، واستمرا على ذلك بشكل يومي.

---

[26] (1) سلطانة، ص 394.

(2) المصدر نفسه، ص 401.

[27] (3) المصدر نفسه، ص 403.

بعد فترة صار يشعر أنه غير راغب فيها، فغابت عنه فترة من الزمن، ولكنه في هذه الفترة ارتكب خطأه القاتل، الذي سيدفع ثمنه طيلة عمره، يدفعه احتقارا من الآخرين، واحتقارا للذات، يدفعه ندما وخزيا، وكان ذلك عندما خبر النائب أحمد المساعد في مكتبه، أن له علاقة ببنت الجيران، لم يكن النائب يعيره أي انتباه، ولكنه وعندما سمع كلام طعمة طلب منه إحضارها، لم يدر طعمة ما يفعله، وخصوصا أنه قال له أن الفتاة تحبه بينما لا يشعر هو باتجاهها بغير الحاجة الفيزيولوجية، ذكره النائب بموقف عندما سمح له بمضاجعة مومس في مكتبه، وقال له: أدخلتك إليها قبلي، ولم يكن ذلك صحيحا، كان عند النائب مومس أخرى شقراء وجميلة ورفضت أن تدخل معه إلا إذا دخل طعمة مع المرأة السمراء الكبيرة.

أخبر النائب أنها الآن مسافرة، وعندما لاحظ الاشمئزاز على وجه النائب أقسم له أنه سوف يحضرها في اللحظة التي تعود فيها من السفر، أدرك طعمة أنه ورط نفسه بوعد لا يستطيع الوفاء به، فالفتاة لا سلطان له عليها، وعندما لم تحضر شعر بنوع من الراحة، وفكر في الاستقالة من عمله والعودة الى القدس، أو في الذهاب الى النائب وإخباره برفض الفتاة الحضور معه، ولكنه لم يفعل.

أخذ يلتقي بالنائب يوميا في النادي، صار يتحايده، وفي مرة التقى به وجها لوجه، فقال له: أهلين بالنصاب، وعندما حضرت أميرة، عرف أنها كانت مع العائلة التي تعمل عندها يصيفون في رام الله، أحس بأنه عاشق حقيقي، سألها إن كانت توافق على مرافقته لزيارة صديق، ففوجئ بموافقتها، ذكرها بالعائلة التي تعمل عندها، قالت: أن هذا الأمر لا يخصهم، وألحت عليه أن لا ينسى.

جاءته في اليوم التالي، وذهبا الى مكتب النائب، وهنا شعر بمرارة الإهانة وقسوتها؛ فعندما دخل مع أميرة ورآهما النائب، " **عندما رآهما ملأت الابتسامة وجهه. ثم انقض على أميرة، مرحبا، مصافحا، وقادها الى الحجرة الداخلية. لم ينتبه حتى لوجوده. أحس بالعرق يغمر جسده، وبأنه لا يستطيع الوقوف. هل هذا**

معقول؟ وجلس على كنبة قريبة. اجتاحه غضب جامح، نهض واتجه الى الحجرة الداخلية. اكتشف أن الباب المؤدي إليها مغلق. أخذ يخبط الباب بقبضة يده. خبط بقبضة يده دون أن يستجيب له أحد"(1)»، فكر برد هذه الإهانة التي لحقت به، ولكنه وعندما خرج النائب رآه مسود الوجه مشعث الشعر، وصفعه على وجهه وهو يقول له: أيها الحقير هذه الفتاة ما تزال عذراء، فأخذ طعمة يبكي، والنائب يطبطب على ظهره، بعد ذلك اندهش طعمة من سلوك النائب، الذي رجع يعامله بود، واستبقاه للسهرة مع آخرين، وعندما جاءت امرأة متأنقة، أصر النائب أن يكون طعمة أول من يدخل إليها، في طريق عودته أدرك أنه يجب أن لا يزور النائب بعد ذلك، عليه أن يبدأ من جديد، وهذا يعني أن يبدأ الكتابة.

وعندما صارت أميرة مومسا ذهب إليها طعمة في زيارة، فما كان منها إلا أن طردته، وأبدت له الاحتقار، كان طعمة يريد أن يعيد العلاقة مع أميرة، إلا أن أميرة كانت تستقبل زبائن من أرفع المستويات، وصارت تكن احتقارا عميقا لطعمة، كونه أخذها الى النائب، الذي أفقدها عذريتها.

النائب احمد المساعد في "سلطانة":

النائب أحمد المساعد عضو في مجلس النواب بالبرلمان الأردني، لم يكن عضوا في الحزب الشيوعي، ولكنه كان يعد ديموقراطيا، وبالرغم من أنه كان يرتاد النادي الثقافي، الذي يجتمع فيه عدد من المثقفين في عمان، ويتحدث بصفته نائبا للأمة يدافع عن حقوقها ومصالحها، يراقب الحكومة، ويتحدث باسم الشعب، إلا أن كل ذلك كان مجرد قشرة خارجية خادعة، يحاول أن يغطي بها وصوليته وانتهازيته الماكرة، لقد كان يحاول أن يعطي انطباعا غير حقيقي عن نفسه، وكان ذلك ينطلي على كثير من بسطاء الناس، بينما كانت تظهر حقيقته من فضائح وورطات كان يقع بها.

" (1) سلطانة، ص 414.

وعندما ذهب جريس الى مكتب النائب احمد المساعد حسب الموعد المضروب مع عضو الحزب الشيوعي موسى، لاحظ أنه دخل حجرة أشبه ما تكون بحجرة الانتظار في عيادة طبيب؛ " **كنبات قديمة مصفوفة لصق الجدران الأربعة، وطرابيزة طويلة، منخفضة، فوقها مجموعة من الجرائد والمجلات. على الجدران صورة للمسجد الأقصى على خلفية مدينة القدس**"(1)، كانت تلك حجرة استقبال المراجعين من أبناء الشعب، ليبدوا أمام الجمهور الذي انتخبه ليدافع عن حقوقه، وعندما اجتاز جريس الباب الفاصل للجزء الداخلي من المكتب وجد شيئا مختلفا، " **عندما انفتح رأيت فخامة لم أتوقعها. كان الجدر المواجه للداخل مغطى بستائر بنية غامقة من المخمل، والأرض مفروشة بسجاد ذي ألوان هادئة**"(2)" كان هناك مكتب فخم، وكنبات جلدية أنيقة، مفصولة بطربيزات، وكان هناك باب يؤدي الى الداخل، يبدو أنه كان مجهزا بغرفة نوم.

وفي مكتب النائب هذا كان النائب يشرب الخمرة، ويستقبل ضيوفه، ويقيمون سهرات طويلة، وفي غرفة النوم الداخلية كان النائب يستقبل المومسات أيضا، وفي النادي الذي يرتاده النائب تعرف على طعمة، الذي صار يزوره في مكتبه، لم يكن النائب يحترم طعمة بالرغم من أنه مثقف يساري، فلم يكن يعير الثقافة انتباها، وكانت خطاباته في النادي وانفعالاته تدل على سخافة تفكيره، وضيق افقه، ومحدودية ثقافته، ولكنه سمع طعمة في إحدى المرات يتحدث عن فتاة تزوره في شقته، فلما عرف أنه لا يحبها، طلب منه إحضارها الى مكتبه.

ولما لاحظ التلكؤ عند طعمة، أبدى له الاشمئزاز والاحتقار، وذكره بموقف خاص قال أنه فضل به طعمة على نفسه، وذلك عندما سمح له بمضاجعة مومس في مكتبه، قال له: أدخلتك إليها قبلي، ولم يكن صادقا، كان في مكتبه اثنتان، الأولى جميلة وصغيرة، والثانية طاعنة في السن وسمينة، ولكن الأولى رفضت أن تدخل مع

---

(1) سلطانة، ص 322.

(2) المصدر نفسه، ص 322.

النائب إلا إذا دخل طعمة مع المرأة الثانية التي وصفتها بأنها خالتها، فما كان من طعمة إلا أن أحضر أميرة الى مكتب النائب.

وعندما رأى النائب أميرة تجاهل طعمة تماما وانقض على أميرة مرحبا، ثم أدخلها الى غرفة نومه في المكتب، دون أي اعتبار لطعمة، وضاجعها فاكتشف أنها ما تزال عذراء، ولكن بعد فوات الأوان، وعندما خرج كان غاضبا وصفع طعمة على وجهه وهو يقول:" **– ولك يا حقير، هذه بعدها بنت. ... استمر النائب فترة يوجه له الشتائم، ويشد شعره؛ ثم، وكأنه استنفذ انفعاله، قال بنبرة شكوى:- خرب بيتي، خرب بيتي... يا رجل أنت هبيلة؟**"[30](1).

وعندما جاء أهل أميرة يطالبونه بحقوق البنت القاصر التي افتض بكارتها، كان يحاول أن يرضيهم بأي شكل؛ يعطيهم مالا، أو يحقق مطالبهم، ولكن الأمور توسعت بشكل يفوق قدرات النائب وطاقته، فحاول أن يستنجد بموسى، علّ جريس بحكم قوة عائلته يمكن أن يؤثر على أهل أميرة فيوقف مطالبتهم وابتزازهم عنه، قال له موسى أن جريس عنده فكرة عن الموضوع، عند ذلك حاول النائب أن ينفي أي علاقة له بأميرة إطلاقا، " **والله العظيم إني حشرت في هذه المسألة حشرا، وأنا بعيد عنها وما إلي فيها أي علاقة. يعني.. يعني.. حتى البنت عمري ما شفتها في حياتي إلا لما جابها الأب المحترم**"[31](2).

عند ذلك نبه موسى النائب الى أن جريس يعرف بالموضوع، وعليه أن يدخل الى مطالبه بصراحة، وبدون حالة النفاق التي تتلبسه، فقال النائب لجريس: "**- يعني في إيدك إسقاط حكومة بتبيع بلادنا للمستعمرين**"[32](3)، وعندما دخل أبو برمك إليهم وكان في حالة سكر تام، فهم جريس أنه صديق النائب في السكر والعربدة، والعيش

---

[30] (1) سلطانة، ص 414.

[31] (2) المصدر نفسه، ص 326.

[32] (3) المصدر نفسه، ص 326.

في حالة الانحلال التام، ثم عرض على جريس ترجمة بعض الجرائد الإنجليزية التي تفضح الحكومة، وقال أنه يتحدث باسم الحركة الوطنية.

مسعد في "سلطانة":

تمثل شخصية مسعد في رواية سلطانة لغالب هلسا نموذجا للشخصية الانتهازية في خطابه الروائي، فقد كان يعمل في تجارة الحبوب، في الفترة التي ازدهرت فيها هذه التجارة، كما عمل في التهريب أيضا من والى إسرائيل، بعد حرب 1948م، كان طويلا ونحيلا، وعضلات جسمه بارزة، وله صلابة الصخر وخشونة المبرد، تحول لون وجهه من الأبيض الى البني بسبب الشمس والتراب المختلط بالعرق، عيناه زرقاوان، ولكن زرقتهما باهتة تكاد تكون بيضاء، كانت صماوان، بلا تعبير وكأنهما لا تريان، أما يداه فقد كانتا كبيرتين، أصابعهما طويلة، وجافتان، وخلافا لأهل القرية كان يلبس بنطالا وقميصا، ولا يضع الحطة والعقال على رأسه.

كان على علاقة جسدية بسلمى، بالرغم من أنها كانت تكرهه؛ كان يهينها في الفراش، " **وفي أحيان كان يصر أن يضاجعها في بيتها، بعد أن ينام يوسف وسلطانة. كانت تقول له: ماذا لو استيقظ يوسف أو سلطانة؟ فيقول بأسلوبه القاطع: الدنيا عتمة. تقول: رايح يحس فينا. فيقول بعصبية: خليه يحس**"[(1)33]، كان يستغل العلاقة التجارية معها، كانت تكسب من ورائه الكثير، وكان هو يستغلها جنسيا.

كان يأخذ القمح والشعير والعدس والبيض الذي يشتري به أهل القرية حاجاتهم من دكان سلمى، ويحوله الى بضائع، وكانت هي أيضا تشتري القمح وتبيعه لمسعد بمكسب، وكان يأخذها الى عمان بسيارة الشحن الكبيرة التي يملكها، ويساعدها في شراء بضائع للدكان، كان قد بنى بيتا في عمان، وكان يمر به ويسهر معه بعض الغرباء ويشربون العرق، وكان يهين سلمى في هذا المشوار كثيرا، " **وكان يفرض**

---

[33] (1) سلطانة، ص 186.

عليها أن تضاجع أحد ضيوفه. وعندما كانت تمانع كان يفح بغضب يجمد الدم في عروقها: - وبعدين معاكي. خلينا نمشي الشغل"[1]»، وبعد أن يغادر ضيوفه كان يضع في يد سلمى مبلغا جيدا، ولكنه يكون سكرانا وعنيفا، فيقذفها بأبشع الشتائم وهو في قمة لذته.

وفي يوم من الأيام مر بالدكان وطلب من سلمى أن تجهز له مئة بيضة ليأخذها معه صباح اليوم التالي، عند ذلك طلبت منه سلطانة أن يأخذها معه في السيارة، فوافق، حاولت سلمى أن تمنعه من الاقتراب من سلطانة، وتبعد سلطانة عنه، إلا أنها لم تلحق بهما، غادرت الشاحنة وذهبا الى عمان، كان قد طلب سلطانة لأخيه بشارة، وبعد زواج سلطانة من أخيه حاول أن يكون الرجل المخيف المسيطر، إلا أن سلطانة كانت أقوى مما يتوقع، لقد هزمته ولم يستطع أن يفعل معها شيئا، سوى موافقتها ومسايرتها على ما تفعل.

وعندما كان يقوم بأعمال التجارة ويوسعها، استطاع عن طريق شراكته بهزيم أن يشتري الحبوب من المسلمين، واستطاع من خلاله أن يقرض بالربا بعض أفراد قبيلة النواعسة، ثم يستولي على أراضيهم فيما بعد، ثم أصبح سائقا للباص الذي يقل أهل القرية الى عمان، وكان له خلق السائقين وغلظتهم، كان بائعو الحلوى والصحف يتدافعون ويصرخون ويصعدون الى الحافلة، فكان يزعق بهم: انزل يا حمار، يا ابن الحمار، ثم" يستدير ويصرخ: وين راحت العصاية. انزلوا أحسن إلكوا يا ولاد الشرموطة"[2]».

وعندما عرف بقصة أميرة مع النائب أحمد المساعد، استغل الموقف مباشرة وراح هو الأب صليبا يبتز النائب بشتى الوسائل والطرق التي تحصل مبالغ نقدية أو مصالح من أي نوع كانت، كما كان شريكا في المخيم الصغير الذي أنشئ على شاطئ العقبة بهدف تهريب الماس الى إسرائيل، والحشيش الى مصر، ولكنه وعندما

---

[1] (1) سلطانة، ص 186.

[2] (2) المصدر نفسه، ص 201.

حاول أن يؤثر بشكل ما على سلطانة، تعرض لأمر صعب ومهين، لقد سلط عليه الشيخ أحد رجاله ويقال عليان، الذي أهانه واغتصبه، بالرغم مما كان يبدو عليه من مظاهر قوة الشخصية، والمكر والخداع.

الفصل الثاني:

تشكلات الشخصية في خطاب

غالب هلسا الروائي

المبحث الأول :

وظيفة الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي

ذكر الباحث في الفصل الأول من هذا البحث أن للشخصية الروائية وظائف مختلفة، منها: فاعل الحدث، عنصر تجميلي، التحليل النفسي، المتكلم بالنيابة، إدراك الآخرين والعالم، وفي خطاب غالب هلسا الروائي تتعدد وظائف الشخصية؛ فقد تكون عنصرا من عناصر المشهد الوصفي، أو مشاركة في الحدث، أو ناطقة باسم الكاتب، وقد تكون أحد عناصر التعبير عن اللون المحلي أو رسم الديكور الروائي[1].

وقد تمثل الشخصية قوة فاعلة في الحدث، بأن يكون لها دور أساسي، كالمرسِل والمرسَل إليه، أو الذات أو المساعِد أو المعاكِس أو موضوع الرغبة، وهي هنا تمثل واجهة أو قناعا للمؤلف، وتتحدث باسمه وتحمل فكرته ورسالته التي يريد أن يوصلها للمتلقي، فيطل المؤلف من وراء أكتاف شخصياته ولا يظهر بشكل علني واضح، وفي خطاب غالب هلسا الروائي، تمثل الشخصية فرصة حقيقية للمؤلف للتعبير عن خبايا النفس الإنسانية، من خلال مكاشفات حميمية صادقة فيها الكثير من الصدق الفني، المصحوب بإيحاءات صادقة من حياته الشخصية أو تاريخ البلد الذي يتحدث عنه.

فاعل الحدث:

للشخصية عند هلسا وظيفة صناعة الحدث، وبهذا تحمل العبء الأكبر من مراد الأحداث ومبتغاها، وهنا تتجلى قدرة هلسا على توظيف الشخصيات لاستيعاب الأحداث والمكاشفات الحميمية وإيصالها للقارئ في قالب فني متماسك، دون أن يفقد الخيوط، بالرغم من تزاحم الشخصيات وكثرتها، وعدم تنميطها لتبدو كما هي في الواقع فعلا، ولعل

---

[1] (1) انظر زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص115.

المهمة التفسيرية تصبح هي الأولى للشخصية، في محاولة فهم الأحداث السابقة وتفسير موقف السلطة بصفتها القامعة والمسيطرة، وتفسير موقف الأحزاب المعارضة، وما فيها من أصوات مختلفة متناحرة أو متعاونة أحيانا، وتفسير موقف الفرد بصفته المتضرر الأول من كل الأحداث، والمواقف والتحولات التي تجري من حوله.

وقد وظف هلسا الشخصيات النسائية مثلا لتحقيق فكرة الخصب والعقم... فالمرأة عالم واسع، وتشكل فرصة كبيرة لتحليل مستوى وعي الشخصيات بالوعي العام في القصة، وتظهر الشخصية صانعة للحدث كما نرى في موقف السفاح في رواية السؤال:

"دخل إلى الحمام فهدأت أعصابه قليلا. قال لنفسه: إنني أعذبهم، وكان يشير إلى زوجته وأطفاله. وعلى الفور تحول الغضب الذي كان يجب أن يتجه إلى ذاته إلى موضوع خارجي ولكنه مناسب. هكذا بدأ حلم اليقظة الذي جعل كل ما يقوم به يتم بتتال ميكانيكي: يجلس هو على المكتب الكبير ويستقبل القادم ببسمة وديعة. يقول له: عليك أن تعترف. إننا نعرف بعض الحقائق، وأنت لا تدري ما نعرف، فقد تخفي بعض الحقائق التي نعرفها وقد تذكر بعضها الآخر على غير حقيقته، عند ذلك لا تلوم إلا نفسك. ثم يطلب منه الجلوس مشيرا إلى فوتيل كبير. يجلس الرجل.

- تكلم، لا وقت عندي.

- لا أعرف شيئا.

- قد أساعدك على التذكر.

يضغط على زر فتخرج جلدية تلتف حول جسد الرجل وتكبله فلا تتيح له مجالا للحركة سوى أن يفتح فمه ويغلقه. تأخذ السيور في الضغط على جسد الضحية.

- هل تذكرت شيئا.

يلتف سلك متصل بالتيار الكهربائي حول عضوه التناسلي- يتشنج وجه الرجل ويأخذ في الاهتزاز واللهاث. ذلك كله مجرد بداية. هناك مخروط فولاذي مدبب الرأس، عريض القاعدة. بمجرد أن يضغط على أحد الأزرار يصعد المخروط ببطء، ينفذ من فتحة الشرج. يتوقف للحظة ليتأمل تلك المتعة- الواقع أنه كان يعيش متعة الاثنين: متعة الجلاد ومتعة الضحية. كان جسده يمتد ليشمل الجسدين وليعيش حالتهما في اللحظة نفسها.. "[(1)].

إن الشخصية هنا "السفاح" هي التي تصنع الحدث، فالسفاح في رواية "السؤال" يرمز إلى السلطة القامعة، وقوى الجهل والظلام المتمثلة في المجتمع غير العابئ بمسيرة حياة الأمة، إنه شخصية عصابية حوّل حياة أسرته وكل المتعاملين معه إلى عذاب، ومن ثم حوّل غضبه نحو ضحيته في السجن، من خلال حلم يقظة، وعند سحق الشخصية بالعذاب، أخذ يشعر بإحساس ممتع للضحية والجلاد في نفس الوقت.

التحليل النفسي:

غالبا ما تشكل الشخصية فرصة ذهبية في خطاب غالب هلسا الروائي، وذلك من حيث تحليل الشخصيات، حيث يمثل الانكفاء إلى داخل الشخصية، والاهتمام بعالمها الداخلي، الهدف الأول للعمل الروائي، وتبدو تقنية جبل الجليد- الذي لا يبدو منه سوى ثمن حجمه الحقيقي- منطبقة على أعماله الروائية والقصصية تقريبا[(2)]، وهذا الاهتمام بالحياة الداخلية للشخصية كان التحليل النفسي يحتل فيه جانبا مهما من حيث تبيان الدوافع والأسباب التي قد تكون سببا في هذا التصرف أو الموقف بالحياة، مستفيدا في ذلك من المنهج النفسي في الأدب، وقراءاته الواسعة لفرويد، وموظفا قراءاته في مجالات أخرى فكرية من مثل هيجل وغرامشي وغيرهم من أساطين الفكر والثقافة.

---

(1) السؤال، ص 664.

(2) انظر أبو النجا، أبو المعاطي، قراءة في رواية "الخماسين"، وعي الكتابة والحياة، ص11.

ففي رواية "الخماسين" مثلا، وتحت عنوان مرثية، أوضح غالب هلسا جزءا من تحليله النفسي لشخصية بسيوني، فدرس ظروف ولادته وحياته وهو طفل صغير، وما تأثر به في مراحل حياته المختلفة، من أحداث وأشخاص وغير ذلك، وراح يخرج بنتائج من تحليله ذاك:

" لم يذكر عن بسيوني أنه كان متحمسا للوفد، ولم يؤيد عدلي، ولا أنه أبدى اعتراضا على حكم محمد محمود أو على إرهاب إسماعيل أو صدقي بكلمة أخرى لم يعرف عنه. أي اهتمام بالسياسة أو حتى معرفة بها إلا إذا اعتبرنا عمله كمخبر في وزارة الداخلية ابتداء من أواخر الخمسينيات - كعمل إضافي- عملا سياسيا. وليس هذا بغريب، فهموم بسيوني كانت من نوع مختلف تماما.

على أننا نستطيع أن نخلص من ذلك بنتيجتين تدلان على نجابة مبكرة عند بسيوني. (ها نحن للأسف نعود إلى حكاية النجابة المبكرة عند العظماء التي أنكرنا وجودها منذ قليل. ولكن عذرنا أن للحقيقة وجوها متعددة وقد تكون متناقضة).

النتيجة الأولى، أن ميزة الرجل العظيم- أو العصامي بتحديد أكبر- هي أنه يختار هدفا ينصرف إليه وينسى كل شيء عداه. (راجع كتاب ديفيد رايزمان- الجمهور المتوحد- في حديثه عن النمط الذي يسميه الموجه من الداخل).

والنتيجة الثانية وهي ترتبط بالأولى وتتفرع عنها، أن بسيوني أن بسيوني قد اختار العلاقة الحميمة مع الأجانب مصيرا. وما دام هذا شأنه فما له ولهذه الضجة العصبية حول الاستقلال التام أو الموت الزؤام، أو إبعاد الأجانب وانسحاب جيوشهم."[1].

---

(1) الخماسين، ص 417.

إن تحليل شخصية بسيوني هنا، وتصوير عالمه الداخلي، يبدو أمرا مقصودا، فشخصية بسيوني شخصية رامزة، وتحليلها له دلالته الرمزية، التي توجه القارئ باتجاه معرفة المقصود من الرمز، وبهذا تمتلك الشخصية وظيفة مهمة في خطاب غالب هلسا الروائي، وهي التحليل النفسي للشخصيات، وما يتبعه من دلالات وتفسيرات، تجعل الواقع الروائي دراسة نفسية وفلسفية للواقع الفعلي.

عنصر تجميلي:

أما الوظائف الأخرى للشخصية من حيث أنها عنصر تجميلي، أو لون من الديكور المحلي، فقد استخدم غالب هلسا الشخصيات بهذا الهدف، حيث تبدو الكثير من الشخصيات في خطابه الروائي عنصرا تجميليا وليس فائضا عن الحاجة دون أي فائدة تذكر، ومنها: بطرس وبشارة وأولاد غانم في "سلطانة"، وحمادة في "السؤال"، وغير ذلك كثير، وهذه الشخصيات غير مشاركة في صناعة الحدث ولكنها تلون القصة، وتسوغ أعمال شخصياتها، ولا تخلو من فائدة على صعيد بناء الرواية بشكل عام.

المتكلم بالنيابة:

كثيرا ما تحمل الشخصية أفكار المؤلف في خطاب غالب هلسا الروائي، وبالرغم من أن هلسا يسعى إلى أن يكون حياديا في طرح أفكاره، إلا أنها تظهر على لسان شخصياته الروائية، فتصبح الشخصية متحدثة بالنيابة عن المؤلف، والباحث يعتقد أن الشخصية تفقد عمقها الفني عندما تصبح بوقا للمؤلف، ولا تؤدي المطلوب منها فنيا، والمسألة عند هلسا مختلفة تماما، فطرح الأفكار لا يأتي بشكل وعظي فج، وإنما يفهم من خلال سلوك الشخصيات وأفكارها التي تأتي عفو الخاطر، ودون أي تخطيط مخل بالمعنى الحرفي للتعبير المباشر عن الأفكار الأيديولوجية، والأمثلة كثيرة على لسان الشخصيات، ومن ذلك مثلا ما نجده على لسان نادية في رواية "الضحك":

> **"قالت إن ليلى وآخرين يشكون أنني أعمل مع المباحث. قالت ذلك على شكل نكتة. ولكنني أدركت بعد قليل أن ذلك التعبير الذي على**

وجهها لم يكن تعبير دعابة، عندما أخذت تقول بمرارة لم أعهدها بها قط: إنها ضجرت من الأكاذيب والجبن والحماس لأنصاف الحقائق.. قالت إنهم يعلمون إنها مراقبة وبدلا من الاعتراف بخوفهم من الاقتراب منها ادعوا أنهم يبتعدون عنها لأنها مريبة. قالت: إنني أفكر في مجهودات السنين الطويلة.. وماذا حققنا؟ لقد تحررنا من العقد البرجوازية؟ هذا غير صحيح.. لقد تحررنا فقط من الناس.. انعزلنا عنهم.. إن العداء نحونا يرتفع من كل جهة، وأشد الأفكار رجعية تأخذ سبيلها إلى التحكم في الناس.. "[1].

إن حديث ناديا السابق هو أفكار غالب هلسا نفسه في توجيه النقد واللوم الشديد إلى طبيعة تعامل أبناء التنظيم الشيوعي في مصر مع أعضائهم الخارجين من السجن، وهو تعبير مسوغ ويناسب الشخصية، وناديا هنا صارت متحدثة بالنيابة عن غالب هلسا، مع التبرير المناسب.

(1) الضحك، ص 255.

المبحث الثاني:

مستويات الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي:

تتشكل الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي عبر مستويات مختلفة، فهناك المستوى اللغوي، الذي يشكل العمود الفقاري في تشكيل الشخصية، فـ"السحر اللغوي إذا غاب عن العمل الروائي، غاب عنه كل شيء: غاب الفن، وغاب الأدب معا"[1] والمستوى الحواري الذي يعبر عن تميز الشخصية عن غيرها، والمستوى الفكري الذي يوضح دور الشخصية وتأثيرها فيمن حولها.

المستوى اللغوي للشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي:

تشكل اللغة في الرواية الجانب الأساسي في رسالة الإبلاغ، وتتفاوت مستويات اللغة في السرد بتنوع الشخصيات فيه، وبهذا يكون على الكاتب الروائي استعمال جملة من المستويات اللغوية التي تناسب أوضاع الشخصيات الثقافية والاجتماعية والفكرية، فقد تتضمن الرواية العالم والطبيب والسياسي والعامل والسائق ورجل الأعمال.. الخ، وعلى الكاتب استعمال اللغة التي تليق بكل من هذه الشخصيات، وقد اجتهد بعض الروائيين في تطويع اللغة لجعلها لغة الحياة العامة، والحياة اليومية في أبسط مستوياتها وأدناها، واستعمال بعض الألفاظ من الحياة اليومية[2].

واللغة "بوصفها الوسط المشخص الحي الذي يعيش وعي فنان الكلمة فيه، لا تكون واحدة أبدا، إنها واحدة فقط بوصفها نظاما صرفيا نحويا لأشكال معيارية مأخوذة بمعزل عن التأويلات والإدراكات الأيديولوجية المشخصة التي يزخر بها، وعن الصيرورة التاريخية المستمرة للغة الحية. إن الحياة الاجتماعية الحية والصيرورة التاريخية تخلقان في نطاق

---

[1] (1) مرتاض، عبد الملك:في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، الكويت، 1998، ص131.

[2] (2) انظر المرجع السابق، ص120.

اللغة القومية، الواحدة نظريا، تعددية عوالم مشخصة ومنظورات أيديولوجية كلمية واجتماعية مغلقة، وضمن هذه المنظورات المختلفة تمتلئ العناصر المجردة الواحدة في اللغة بمضامين قيم ومعان مختلفة وبإيقاعات مختلفة"(1)، وقد شهدت الكتابات الروائية المعاصرة تنوعا كبيرا في أساليب التعبير الحديثة، التي فرضتها تطورات العصر، وأصبح الروائي" يستقبل داخل عمله الأدبي التعددية اللسانية والصوتية للغة الأدبية وغير الأدبية"(2)، وبهذا يصبح الخطاب الروائي بنية لغوية دالة تصوغ عالما موحدا، ولكن تتنوع وتتعدد وتختلف في داخله اللغة والشخصيات والأحداث والأساليب والعلاقات وبقية العناصر الروائية.

وقد أدت التحولات الكبرى التي طرأت على النسق الروائي العربي في نهاية الستينات وبداية السبعينات، من القرن الماضي على يد عدد من الكتاب الروائيين منهم غالب هلسا، إلى أنماط جديدة من الكتابة الروائية خرجت عن الأنساق التقليدية، وجددت في المتن الروائي على أصعدة مختلفة، كمستوى الشكل واللغة والمضامين والتقنيات الحديثة، الأمر الذي جعل الخطاب الروائي حافلا بعناصر التفرد الإبداعية، وعلى رأسها "مستويات اللغة،"وصار الروائي يعبر عن هذا التنوع بنسيجه الروائي الخاص، فهو" الذي يعرف كيف يتلطف على لغته حتى يجعلها تتوزع على مستويات، ولكن دون أن يشعر قارئه بالاختلال المستوياتي في نسج لغته"(3).

وإذا كان البحث في اللغة الروائية لغالب هلسا يظهر قضايا عديدة؛ كارتباط أعماله بالسيرة الذاتية، وفكره الماركسي، ورؤيته لمأزق الوجود الإنساني، واغترابه الذي جعل شخصياته تعيش مأزق الاتصال والانفصال، واستغراقه في التحليل النفسي، والربط بين حياته كاتبا وأزماته النفسية والاجتماعية، فإنه لم يتخل عن واقعة ورؤيته الاجتماعية، بل حاول أن يخرج من تفاصيله اليومية ليفلسف واقعه، ويعيد النظر إليه مع اهتمامه بالبعدين: العام والخاص، وهذا المنظور، "قد يجسد إلى حد كبير "حلم الكاتب" بدلا من حياته الواقعية، وقد يكون القناع، وما هو ضمن الذات، الذي يختفي وراءه

---

(1) بختين، ميخائيل: الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق،منشورات وزارة الثقافة، دمشق1988، ص45.
(2) باختين، ميخائيل: الخطاب الروائي، ترجمه محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م، ص 67.
(3) مرتاض، عبد الملك: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ص 128.

الشخص الحقيقي، أو قد تكون صورة من الحياة التي يريد الكاتب أن يفر منها"[1].

يستعمل غالب هلسا العربية الفصيحة، عندما يتحدث بطريقة السارد العليم أو الراوي الضمني، والمناجاة أو الحوار الداخلي (المنولوج) ولكن كل شخصية من شخصياته تتحدث بلغتها ومفاهيمها المتميزة بها، وقد استعمل اللهجة الأردنية، واللهجة المصرية، واللهجة العراقية، بيد أن اللهجة المصرية تحتل جزءا كبيرا في رواياته، ولا عجب في ذلك؛ فقد قضى غالب هلسا أكثر من ربع قرن من حياته في مصر، وقد حاول الاندماج في المجتمع، والدخول في الحياة العامة، فجاءت الحوارات الخارجية (الديالوج) أحيانا باللهجة العامية للمتحاورين، وفي الغالب بلغة محكية قريبة من الحياة العامة في مستوياتها البسيطة.

مستويات اللغة السردية:

في المستوى الأول من لغة الشخصية الروائية وعندما يكون الراوي خارج الحكاية ولا ينتمي إليها، أو ما يطلق عليه السارد العليم، و"هو راوي الحكاية الرئيسية بضمير الغائب"[2]، تكون اللغة فصيحة مكثفة مشحونة بالتوتر والرمزية؛ ففي رواية "الخماسين" مثلا نجد النص التالي:

> **" أفل نجم بسيوني وهو في قمة مجده. في إحدى لحظات النشوة الفائقة التي قل أن يعرفها بشر؛ لحظة عبرت كالسهم عبر القيم الراكدة ومواضعات من يعيشون على السطح. هبط بسيوني وهو كالنسر المحلق، ممسك بطرف حياته ودروبها في قبضة يده. سقط المخيف القادر، المرجو، المرهوب. اشتعلت شرارة العبقرية طويلا، وقد ظن - ويا لغرور بني آدم- أنها دائمة، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وسقط بسيوني من القمة، ولامس جبينه**

[1] (1) اوستن، وارين، رينيه ويلك، نظرية الأدب: ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981م، ص98.

[2] (2) زيتوني لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية،مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، 2002م، ص 96.

القاع."[1].

فالسارد العليم هنا يتحدث عن حياة شخصية مهمة في الرواية، لها دلالة رمزية واضحة، وهو راو من خارج الرواية، بمعنى أنه ليس شخصية فيها، ولكنه عليم بدقائق الأمور والأوضاع النفسية للشخصية المقدمة، ويعرف في دواخل الشخصيات وتاريخها، أكثر من أي شخصية أخرى، وقد تحدث عنه بضمير الغائب، واتخذ من مدينة القاهرة فضاء له، فراح ينطلق في وصف الشخصية من جميع الاتجاهات، مجليا خفاياها، ليربط القارئ مابين تصرفاتها الماضية والقادمة، بناء على ما تقدم من معلومات، وقد تحدث بلغة فصيحة مشحونة بالتوتر والرمز.

وفي رواية السؤال نجد نصا آخر لسارد عليم، يجلي جوانب الشخصية ويصف الحدث، بلغة فصيحة تتضمن جملا من اللهجة العامية، ولكنها محصورة بين شرطتين:

"أصاب زكية الملل، فتذكرت، كمن يفيق من نوم، سيدتها الجالسة، الصامتة في الداخل. كانت تدرك بشكل غامض أن شيئا مخيفا يحدث هنالك، وأن عليها هي أن تلعب دورا في إنهائه. فكرت، أيضا، أن سيدتها سوف تعنفها لأنها جذبت ساقها، "حاتضربني" فكرت. ولكنها كانت تعلم، دون أن تستطيع أن تعبر عن ذلك بوضوح، أن أمثال هذه الأشياء في ظرف كهذا يمكن تجاوزها. تصورت سيدتها تقف أمامها غاضبة، عنيفة بروبها الأحمر، وهي تقول: "والنبي يا ستي كنت خايفة."[2].

فالسارد العليم هنا يتحدث عن شعور شخصية ثانوية، هي الخادمة زكية التي جاءت إلى شقة مخدومتها في الزمالك بالقاهرة، ولم تدرك بسذاجتها المعروفة أن سيدتها مقتولة، بل إنها تخيلت أنها طلبت منها قهوة الصباح، بيد أنها أدركت أن شيئا مخيفا يحدث، وأن عليها أن تحاول إنهاءه، أما عندما تفكر في نفسها؛ فإنها تقول جملا بلهجتها العامية، فيحصرها هلسا بين شرطتين، كدلالة على خروجها على مواضعات النص المكتوب بلغة

---

[1] الخماسين، ص 415.
[2] السؤال، ص 497.

السارد العليم.

وقد يكون الراوي خارج الحكاية ولكنه ينتمي إليها، وهو راوي الحكاية الرئيسية بضمير المتكلم، وبهذه الحالة تكون الحكاية ممثلة للغة الراوي، مشحونة بمصطلحات وألفاظ تعبر عن طبيعته وأزماته الداخلية، وهذا مستوى لغوي مستعمل بكثرة عند غالب هلسا، ففي "سلطانة" نجد هذا النص:

" حط علي ثقل كالبكاء المحتجز. أمي وأنا نسكن وحدنا في هذا الحوش الكبير بدوره الثلاث. منذ وقت ليس ببعيد- سبع سنين أو أكثر قليلاً- كان الحوش مزدحما بالبقر والغنم، وكان هنالك حصان، وحمار وجمل، وكثيرا ما تكون هنالك خيول الضيوف. والدور ممتلئة: أخي الأكبر وزوجته وبناته الثلاث. إنه موظف في الكرك الآن، وقد اشترى بيتا، وأرضا بعد أن أخذ حصته من الميراث. وأخي الثاني الذي غادر القرية منذ خمس سنوات، ولم يعد، ولم نسمع عنه شيئا. نعلم أنه في مكان ما في الضفة الغربية. وكان هنالك مرابعان اثنان مع زوجتيهما، يعملان في أرضنا مقابل الحصول على خمس المحصول. كانت العائلتان تسكنان في الحجرات الصغيرة، في الحوش الغربي"[1]

إن الحكاية هنا على لسان جريس الذي يعد الشخصية الرئيسية في الرواية، والشاهد على أحداثها، وهو يتحدث هنا بصيغة الماضي عن أوضاع البيت الذي يبدو وقت تفكير الراوي(جريس) خاليا شبه مهجور، ولا يسكن فيه غير جريس ووالدته، كيف كان قبل حوالي سبع سنوات يغص بالسكان، من أهل البيت والعائلات التي تعمل في أرضهم وتعمل عندهم، وفي رواية سلطانة يلتبس الراوي جريس بالسارد العليم، بشخصية جريس التي تروي الأحداث في دورة زمانية مختلفة.

---

(1) سلطانة، ص 34.

وقد يكون الراوي داخل الحكاية ولا ينتمي إليها، كما نجد في "الروائيون" على لسان منال في معرض حديثها عن زينب:

" قالت منال وهي تضحك: كان يضربها لأسباب غريبة. حمادة قوي الجسد جدا. يستطيع أن يسير عشر ساعات دون توقف. ولكن الحديث، خاصة النقاش، كان يرهقه. زينب، كما تعلم، تحب الكلام والنقاش. فيضربها لأنه لا يستطيع الاستمرار بالحديث. ويتحول الضرب إلى حفلة جنسية. في بعض الأحيان كانت تسأم هذا كله، فتقرر أن تقطع علاقتها، فيستعيد علاقته بها بالضرب."(1).

ومنال هنا هي إحدى شخصيات الرواية، وقد كانت مرشحة لتكون حبيبة وزوجة لإيهاب، وهي فتاة مثقفة وجميلة، إلا أنها لم تكن تحب زينب بالرغم من العلاقة المميزة بينهما، فقد سكنت زينب عندها فترة من الزمن، وقد استخدمت عبارات تجعل إيهاب يكره زينب من وجهة نظرها، فقد كانت تروي الحكاية وهي غير مشاركة في أحداثها.

وقد يكون راوي الحكاية داخليا ومشاركا فيها، كما نجد مثلا في حديث ليلى في رواية الخماسين عما جرى بينها وبين خالد وهو الشخصية الرئيسية:

"ضحك ولكنه ما زال يصغي. ثم دفعني الحرج واليأس أن أقول أي شيء. لم أكن أدري ماذا أقول. وخلال ذلك كنت أفكر: لقد جاء دوره ليشعر بالغثيان مني. سمعته يحدث نفسه، دون صوت، إن هذه الفتاة التي كنت أحبها قد أصبحت مملة. جعلني ذلك أشمئز من نفسي، فبدا كل شيء واضحا لي. أخذت أشرح له دون أن أهتم بما سوف يظنه بي. شرحت له ضياع المعاني من الكلمات، قلت إن تكوين جملة مفهومة أصبح مشكلة عويصة عندي، وأنني لم أعد أفهم ما يحدث. الآخرون يفهمون ذلك بأقل مجهود، بينما أنا عاجزة تماما عن تفسير

---

(1) الروائيون، ص 859.

أبسط الأشياء. أفكر في مئات التفسيرات ولكن التفسير الصحيح يعرفه غيري. دائما يحدث هذا. في كل مرة"[10](1).

كانت ليلى تكتب رسالة الماجستير في الأدب عن الروائي جراهام جرين، وقد التقت مع خالد الذي كانت قد انفصلت عنه بعد فترة من المحبة والتلاقي، وخلال لقائها معه شعرت بأنها قريبة منه بشكل كبير، يبدو أن ليلى قد تطور مستوى فهمها ووعيها وأسلوب تفكيرها، وقد اكتشفت أنها وبعد لقائها مع خالد، تستطيع أن تعود إلى البيت وتكتب رسالتها كاملة، وجاءت لغتها السردية معبرة عن مستوى جديد من الفهم والثقافة، لغة شعرية معبرة وتحمل معاني بالغة الدقة، وتعبر عن أفق واسع.

مستويات الحوار بين الشخصيات في خطاب غالب هلسا الروائي:

يعد الحوار تمثيلا للتبادل الشفهي، ويفترض هذا التمثيل عرض كلام الشخصيات بحرفيته، سواء وضع بين قوسين أم لم يوضع، وقد اكتسب الحوار أهمية خاصة "بعد التطور الذي شهدته سيمياء السرد، (التي تدرس كل ما يشكل علامة ويعبر عن معنى في السرد)، ولسانية القول(التي تدرس الشروط والظروف والمحددات والقواعد والمبادئ التي ترعى تبادل الكلام)"(2)[11]، والحوار الروائي بعيد عن المجانية، لأنه محكوم بحاجة النص إليه، أي بالدور الذي يؤديه تبادل الكلام في رسم الشخصيات وتفسير الأحداث، وهو بعيد عن العفوية، وتنحصر العلاقة بين أطرافه بمعطيات النص، كما يخضع الحوار في الرواية للسرد ويتكيف بمقتضاه، ويبقى محدودا، لأن الإكثار منه يضر بانسياب السرد ويشتت الحدث ويضيع انتباه القارئ.

وللحوار وظائف منها أنه يسمح بالتخلص من جمود الأسلوب الأدبي من خلال استخدام ألفاظ وتعابير وصيغ نحوية مستفادة من اللغة الحية، كما يسمح بتقوية أو إضعاف أو كشف التعاطف بين الشخصيات، بالإضافة إلى تنويع وجهات النظر من الحكاية، بالانتقال من

---

[10] (1) البكاء على الأطلال، ص 223.

[11] (2) زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص 79.

موضوعية الراوي إلى ذاتية الشخصية، ومن المعرفة إلى الشعور، وتحويل الشخصية إلى شيء موضوعي فينظر إليها من وجهة نظر جديدة، ويسمح للشخصية بأن تعبر عن نفسها بصورة لا توفرها التقنيات الروائية الأخرى، ويسمح الحوار أيضا بتأكيد واقعية الرواية وترابطها"(1)، ولعل أهم ما يميز الحوار هو كونه عنصرا فنيا يوضح الشخصية ويكشف إبعادها المختلفة ونوازعها النفسية، ويوظف بوصفه تقنية سردية لنمو الأحداث واختزال الأفعال، ومن الضروري أن يؤدي غاية فنية في بناء النص الروائي، لذا ينبغي أن يكون فاعلا في الكشف عن الشخصية، " فالحوار يتيح لنا تقديم معرفة مباشرة عن الشخصيات"(2).

ويحتل الحوار في خطاب غالب هلسا الروائي مكانة بارزة، فقد استخدمه هلسا بوصفه بنية نصية تصل بين النص والقارئ(3)، والحوار يكشف عند هلسا عن الشخصية الروائية، ويعطيها تفردها، وطابعها الخاص، ويستطيع القارئ أن يتبين الشخصية الروائية ويكشف عن هويتها من خلال حواراتها، فقد عبرت الحوارات عن أبعاد الشخصية، وكشفت ميزاتها، واتجاهاتها، وميولها، ومستواها الفكري والاجتماعي والطبقي.

وقد استخدم هلسا في خطابه الروائي نوعين من الحوار هما: الحوار الخارجي (الديالوج) ، والحوار الداخلي (المنولوج)، والحوار الخارجي كلام تتناوب فيه شخصيتان أو أكثر الحديث في إطار المشهد داخل العمل القصصي بطريقة مباشرة، وقد وظفه هلسا للكشف عن عوالم شخصياته وعلاقاتها بالآخرين، ومستواها الفكري والثقافي، ومدى التزامها الإيديولوجي، ومن ذلك مثلا الحوار الذي تم بين زينب وإيهاب في "الروائيون" :

" ثم تكلمت طويلا. قالت: لست ملزمة نحوك بشيء. وأنت كذلك لقد اخترت أن أحبك، أن أتعرض للسجن من أجلك، أن أغير حياتي كلها من أجلك لأنني، أنا، أردت ذلك. وأنت لست مطالبا بشيء. أنت الذي عرضت

---

(1) انظر زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص 82.

(2) بورنوف، رولان، وأوئيليه ريال: عالم الرواية، ترجمة: نهاد التكرلي، مراجعة فؤاد التكرلي ومحسن الموسوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1991م، ص 168.

(3) انظر شعبان، هيام: إشكالية المؤلف- السارد- البطل في أعمال غالب هلسا القصصية والروائية، رسالة دكتوراة، جامعة اليرموك، ص110.

علي الزواج، وأنا التي رفضت. تعرف لماذا؟

- لا.

قالت: لأننا لا نصلح للزواج. أنت خاصة. لك عشيقة أخرى هي الكتابة. وأنا لا أستطيع احتمال ضرة. عرفت هذا من أيامنا الأولى. حاولت بجنون أن أبعدك عنها حتى تكرس نفسك لي، فرأيت أنك أخذت تسعى للتخلص مني وأصبحت تكرهني.

قال: أكرهك؟

قالت: أيوه. ويمكن دا السبب اللي مخليني متعلقة بيك، وبحبك أكثر من أي شيء.

- مش فاهم.

- لأن امتلاكك مستحيل.

قال دون أن يفكر بما يقوله: وانت كمان.

قالت: أنا؟ كفاية تشاور باصبعك الصغير دا (وأشارت بخنصرها) علشان أسيب كل حاجة في الدنيا وارمي نفسي تحت رجليك. فاهمني؟"(1)"

إن الحوار الخارجي السابق يمثل جزءا من حديث زينب مع إيهاب، والذي جاء جزء منه باللهجة العامية المصرية، يعبر عن شخصية زينب بشكل مباشر، فقارئ الحوار سيعرف أن هذا الكلام لزينب، فهو كلام يشي بأن صاحبته امرأة تمتلك حرية كبيرة، وأنها صاحبة رؤية خاصة بالعلاقة مع جنس الرجال، فهي تصنع العلاقة بقرارها دون إجبار أو أي اعتبار لأي من المواضعات الدينية أو الاجتماعية أو غير ذلك.

وفي هذا الحوار أيضا تنكشف شخصية زينب أمام القارئ، ويفهم منه أن زينب فتاة مثقفة وقارئة، وأنها لا تدور في فلك الرجل لتكون وظيفة له، وإنما هي ند كامل قادرة على التحكم بقرارها وتصرفاتها بما تراه مناسبا، ولكنها في نفس الوقت مدمرة، تلجأ إلى

---

(1) الروائيون، ص 824.

الانحلال بعد شعور بالهزيمة.

وإذا كان الحوار الداخلي هو"الخطاب غير المسموع وغير المنطوق الذي تعبر به شخصية ما عن أفكارها الحميمة القريبة من اللاوعي: إنه خطاب لم يخضع لعمل المنطق، فهو في حالة بدائية، وجملة مباشرة، قليلة التقيد بقواعد النحو، كأنها أفكار لم تتم صياغتها بعد"[16](1)، فإن تيار الوعي مصطلح يعد ذا دلالة مختلفة عنه، إنه يعبر عن أمرين: الأول هو تدفق الأفكار الذي يجري كتيار الماء في نهر، والثاني هو المكان الذي يجري فيه هذا التدفق، أي الوعي، لأن اللاوعي وإن كان قائما في داخلنا فإننا لا ندركه ولا نستطيع التعبير عنه،إنما ندرك ما يرد منه إلى وعينا، كأجزاء الأحلام وزلات القلم واللسان.

وإذا كان بعض النقاد قد حدد المنولوج الداخلي بالسرد الوجداني الذي يركز وجهة النظر في وعي شخصية واحدة، ويضيق فيه الوعي إلى حدود الخواطر الشخصية، وينحصر فيه التعبير بالكلمات من غير أن يتعداها إلى الصور، فإن التطبيق الأدبي كشف صعوبة هذه التقنية التي تسحق السرد ببطئها، وتسحق القارئ بوفرة تفاصيلها، والكاتب يكابد صعوبة كبيرة عندما يحاول أن يضع بالكلمات سجلا للتجربة الباطنية، إلا أن غالب هلسا تمكن بفضل قراءاته المبكرة للأدب والنقد العالميين وفي طليعتهم جيمس جويس، أن يتجنب هذه المزالق بحسن استخدام الألفاظ، وتحويل الحوادث التافهة إلى أحداث مدهشة كأننا نكتشفها للمرة الأولى، وبتنويع البنية النحوية للخطاب عن طريق جمع المنولوج الداخلي والأسلوب غير المباشر الحر، والوصف السردي التقليدي.

وقد استخدم غالب هلسا في خطابه الروائي الحوار الداخلي(المنولوج) والتداعي الحر للأفكار، والتحليل الداخلي، ووظفها للكشف عن عوالم شخصياته النفسية وحياتها الماضية، من ذلك مثلا ما نجده في رواية ثلاثة وجوه لبغداد:

"قلت لنفسي: فلأستمر بالكتابة. كأنما أردت أن أبرر لنفسي التخلص من أيوب. أخذت أتمشى بالحجرة، استعدادا للبدء. الكتابة حالة،

[16] (1) زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص 163.

لخلقها، لا بد من الحالات السابقة. لا بد لي من طرد أيوب من داخلي، أعني تصوره وهو يحاول النوم فيستعصي عليه، وصرفي إياه من حجرتي دون شفقة. وهي أيضا حالة الصياد المتقزز إلى أبعد حد من صيده. سحالي وأبراص أحس بدبقها تحت جلدي. وهي أيضا الرغبة في التواصل الحميم مع أصدقاء يفهمونك وتفهمهم، أصدقاء لا وجود لهم الآن... وتتحول الرغبة إلى أحلام يقظة تجعل الكتابة مستحيلة."[(1)].

هذا الحوار الداخلي والتداعي الحر للأفكار، جاء على لسان شخصية غالب في رواية ثلاثة وجوه لبغداد، يعكس حالة هروب الكتابة من الروائي، في لحظة تتداعى فيها الأفكار، إنه نوع من التفكير بصوت عال، والقارئ لأعمال غالب هلسا يلمس وفرة مشاهد الحوارات الداخلية، وقد نوع غالب هلسا في أساليب الحوار الداخلي ما بين الحوار المباشر وغير المباشر، والحوار الداخلي المباشر هو "نمط من المنولوج الداخلي الذي يمثله عدم الاهتمام بتدخل المؤلف، وعدم افتراض أن هناك سامعا "[(2)].

في رواية سلطانة نجدها زاخرة بالحوارات التي تعبر باللهجة العامية الأردنية من ذلك مثلا هذا الحوار:

"سمعت وقع أقدام، ثم اقترب منا الحارس الليلي، وقال:

- منين جايين الشباب؟

رد خالد:

- مروحين على البيت.

- بسأل منين جايين؟

رد خالد:

- ليش بتسأل؟

---

(1) ثلاثة وجوه لبغداد، ص 350.

(2) همفري، روبرت: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة محمود الربيعي، ط2، دار المعارف، مصر، 1975م، ص 44.

- ممنوع.

- أيش اسمك؟

- وشو بدك في اسمي؟

قال شفيق:

- يمكن نطلع قرايب. مبين عليك كركي.

قال الحارس بلهفة:

- إنتو كركية؟

وتم التعارف. أخرج علبة سجايره وضيفنا، وقال:

- لا تزعلو مني يا شباب. عندي أوامر. اقعدوا مثل ما ودكوا.

وانصرف.

قال سمير:

- طلع كركي."(1)"

فالسارد هنا هو أحد شخصيات القصة وهو جريس، وعندما ينسب الكلام للسارد فإنه يكون بالعربية الفصيحة ولكن القريبة من اللغة المحكية، أما حديث الشخصيات، فقد جاء باللهجة الأردنية، التي تتمايز من مكان إلى آخر، فقد تحدث الحارس بلهجة بدوية، وهي إحدى اللهجات الأردنية، مثل كلمة: "ودكوا" وتعني "تودون".

أما في رواية "البكاء على الأطلال" فنجد الحوار التالي:

" يسمعها تغني "طبعا ما أنا أم البطل." لم يكن إتقان الأداء إحدى ميزاتها. تناديه:

- "صوتي حلو؟"

- "مذهل."

- "شكرا."

- "ممكن استغلاله لتطفيش اليهود من سينا."

" (1) سلطانة، ص 248.

- "شكرا. عايز تحكي نكتة عبد الحليم حافظ؟"

كان قد حكى لها نكتة، أن أحد أساتذة الجامعة سمع عبد الحليم حافظ يغني، فقال له:

- "صوتك كويس. ما بتغنيش بالإذاعة ليه؟"

وقد حكاها لها أكثر من مرة، وقد نبهته إلى التكرار وأصبحت بعد ذلك تقول له:

- "غريبة قوي، النهار ده ما قلتش نكتة عبد الحليم حافظ للمرة المليون."

كانت تواصل خطبها الغنائية:

When the poor hath cried Caesar hath wept . wasn't it nice of him to do just that?

قال:

- "فعلا، كان قيصر كويس كتير، بس رغاي وبيقعد عشرين ساعة علشان يعمل كباية شاي."
- "وكان عبيط؟"
- "كان."
- "ولمض؟"
- "المض قوي."
- "وبليد، وكل شوية يقول ازاي، ازاي، وليه يا أخت عزة، ويقول النكتة ألف مليون مرة"" [20(1)]

كان هذا الحوار بين عزة وصديقها خالد، وقد جاء باللهجة المصرية، كما تضمن نصا باللغة الإنجليزية، " عندما تأوه الفقراء كان قيصر يبكي. ألم يكن لطيفا منه أن يفعل ذلك" .

المستوى الفكري للشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي:

تنوع المستوى الفكري للشخصيات في خطاب غالب هلسا الروائي، فيجد القارئ شخصية الثوري المدافع عن ضمير الأمة القارئ والمثقف، مثل إسماعيل ومصطفى وهنية

[20] (1) البكاء على الأطلال، ص 62.

في رواية "الروائيون"، والروائي الإشكالي مثل إيهاب في"الروائيون" وجريس في "سلطانة" وغالب هلسا في "ثلاثة وجوه لبغداد" وغالب في "الخماسين"، ويجد الثوري العامل غير المثقف نظريا مثل حسن في "الروائيون" ويحفل خطاب غالب هلسا الروائي بشخصيات من الحي الشعبي، وطبقة الكادحين والعمال، كالسائق والطاهي والمخبر والفراش، والموظف البسيط، أما شخصياته النسائية، فقد تنوعت أيضا ما بين الشخصية الثورية والعاملة في التجارة والروائية الكاتبة والمشاركة في صنع القرار، والأم العاملة في بيتها، والمومس الفاضلة والمومس المنحلة، وطالبة الجامعة وغير ذلك من التصنيفات.

ولعل اللافت في مستوى الشخصيات في خطاب غالب هلسا الروائي، أنه أعطى كل شخصية مستواها اللغوي الخاص بها، وحوارها المناسب الذي يتطابق مع مستواها الفكري وأوضاعها النفسية، فالحوار المتشظي والذي لا ينضبط في تتابعية الجمل، يعبر عن انسحاق الشخصية العربية وخصوصا شخصية المثقف الذي بنى تصورات إيجابية عن الحياة العربية ومستقبلها، فجاءت المأساة التي ألمت بالأمة عام 1967م لتجعل التعبير مأساويا وعبثيا.[21](1).

[21] (1) انظر السعافين، إبراهيم: الرواية في الأردن، منشورات لجنة تاريخ الأردن، سلسلة الكتاب الأم في تاريخ الأردن، ص 136.

المبحث الثالث:

تقنيات تشكيل الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي:

تجلت مظاهر التجريب في فنون الأدب المختلفة، وخصوصا في القصة والرواية والمسرحية، وتمثلت في الانقطاع عن مسايرة التقاليد للتراث الأدبي والالتزام بها، وقد تمثلت هذه التقاليد بـ"الواقعية" وصورها المختلفة، إذ إن "الواقعية" كما يرى كثير من النقاد تصدر عن رؤية وثوقية واضحة للكون والوجود والحياة والإنسان والطبيعة، تتجلى في فهم مكتمل للعالم، أما التجريب فقد ارتبط في بدايته مع الكشوفات العالمية التي أحدثت انقلابا معرفيا خطيرا في الحياة الإنسانية من مثل كشوفات فرويد في ميدان علم النفس التحليلي ولا سيما عالم اللاوعي، وتطور علم الاجتماع والإنثروبولوجيا ونظريات الحتمية الاقتصادية، وما لعبته التطورات الاجتماعية والاقتصادية والتقنية[1].

وتغير موقف الإنسان من المسلمات التي بدأت تهتز مع تطور النظرة إلى مفاهيم "الوعي" و"المعرفة" و"الذات" و"الواقع" و"الموضوعي"، وقد أدت الاكتشافات المختلفة إلى نشوء المرحلة الأولى من "الحداثة" أو "التجريب" واتخذت أدواتها اللصيقة بعلم النفس التحليلي ومفهوم "تيار الوعي"، "ولعل موقف أصحاب الرواية الجديدة من الشخصية الروائية، وهي تصب في موقفها من "الذات" أو "الإنسان" من جهة ومن البطل والبطل المضاد من جهة أخرى، يوضح إلى أي حد كان يسير التجريب في أفق مفتوح يحدده عاملان رئيسيان هما شعور الأديب بالإحباط تجاه عالم غير مفهوم.. وأمام مجتمع ينقطع الاتصال معه فيستحيل عليه فهمه أو يكاد، وأمام حياة معقدة مركبة في حاجة إلى تحليل عناصرها من أجل فهمها، وهو ما يمكن أن يختزل في عدم الوثوقية تجاه البعد المعرفي"[2]،

---

[1] (1) انظر السعافين، إبراهيم: الرواية في الأردن، ص 125.

[2] (2) السعافين، إبراهيم: الرواية في الأردن، ص 126.

والتجريب ليس حالة واحدة، وليس وجها واحدا وإنما هو ثورة من الجدل والتشكل المستمرين تستمد من محاولة وعي الإنسان نفسه أساسها وشرطها.

وإذا كان التجريب قد ظهر في الغرب بصور مختلفة، مرتبطة بتطورات اقتصادية واجتماعية أدت إلى تراجع النظرة التقليدية تجاه مصير الفرد الواضح، باتجاه الإشكالية المعرفية التي تبحث لها وباستمرار عن شكل جديد، فإن قضية التجريب في الأدب العربي لم تنشأ في فراغ، ودواعي التجريب بصورة عامة مسوغة، وقد حاول الأدباء العرب ومنهم غالب هلسا الولوج إلى التجريب من موضع "التراث".

لم يخضع غالب هلسا في مجمل أعماله الروائية لما هو جاهز أو منجز من الأشكال الروائية السائدة، ولكنه في المقابل لم يسع للتجريب أو التجديد في شكل الرواية العربية رغبة في التجديد والتجريب، ولكنه ببساطة شديدة كان يكتب ما يحس به وبالأسلوب الذي يجده مناسبا، ودون تخطيط مسبق[1]، وقد صرح غالب هلسا أكثر من مرة في لقاءات صحفية أنه وعندما بدأ بكتابة روايته الأولى "الضحك" كان يريد كتابة قصة قصيرة فقط، ولكنها طالت كثيرا لتصبح رواية بأكثر من 300 صفحة،.

وإذا كانت روايات غالب هلسا تنتمي فنيا إلى تيار الحداثة والتجديد، إلا أنها لم تدخل إلى عوالم الغموض والإبهام والهذيانات والكوابيس التي تضيع القارئ، وتتركه في دوامة مهلكة من حيث المضمون واللغة الشعرية الغامضة، إن روايات غالب هلسا تختلف عن الرواية التقليدية في بنائها العام، فلا تتطور الأحداث كما في الرواية التقليدية، بل إن العقدة التي تتطور من أجلها الأحداث، وتتلاقى جزئياتها، ليست ذات قيمة تذكر، وتفقد الأحداث متعتها، التي تتجه لتضيء الشخصية، وتكشف أزمتها وتعري مفاتنها وتشوهاتها، من خلال المزاوجة بين الحلم والواقع.

---

(1) انظر أبو نزيه، نضال: غالب هلسا، ص 36.

وقد استخدم غالب هلسا في خطابه الروائي تقنيات حديثة في تشكيل الشخصية من أبرزها: تيار الوعي والاسترجاع، والقطع الزماني والمكاني، والمنولوج الداخلي والحلم بنوعيه، والتداعي الحر للأفكار والمذكرات وغيرها.

الأحــــــلام:

ارتبطت الكتابة الروائية عند غالب هلسا بالأحلام، فعندما بلغ العاشرة من عمره كان يصحو من نومه ويسجل أحلامه كما هي لا كحكاية أو قصة، ولم تلبث كتابة الحلم أن أصبحت واحدة من أبرز المرتكزات في رواياته، بل أصبحت أحد المفاتيح الرئيسية للولوج إلى عالم غالب هلسا الروائي، وفهم أعماله الإبداعية، "أحب أن أبدأ بمعلومة بسيطة، وهي أنني بدأت الكتابة في سن العاشرة. كنت كل صباح أكتب أحلامي. أصبحت عندي تجربة الحلم. أصبحت هذه إحدى المكونات الأساسية لتجربتي ومن النادر أن أكتب قصة أو رواية لا تدخل فيها تقنية الحلم. أو حضور الحلم نفسه، ولهذه المسألة كما أعتقد أبعاد تتصل بمفهوم الكتابة عندي"[1].

والحلم عند هلسا تعبير عن اللاوعي بصور ورموز، "الحلم لغة خاصة، لغة اللاوعي عندما يعبر عن نفسه بصور ورموز، والكتابة الروائية بالنسبة لي هي تدفق هذه الصور والرموز على الورق. من هنا تستطيع هذه البنية الداخلية أن تعبر عن نفسها بعيدا عن الوعي الزائف الذي شرحناه، وبعيدا عن الرؤية السطحية للأشياء.. فمن مفارقات الوعي الإنساني أن الجانب الثاقب والعميق كامن في داخله، ولكن شروط الواقع العملية تضلله باستمرار، والحلم صورة لهذه البنية اللاواعية يقابلها خلق حالة من الحرية الداخلية تستطيع فيه الصور والرموز المكبوتة في اللاوعي أن تتجلى وتتجسد"[2].

---

(1) هلسا، غالب: حوار أجراه معه يوسف ضمرة في جريدة (الرأي) في 1987/11/13م، ونشره أحمد خريس في كتاب: المقترب الأبدي يتحدث حوارات مع غالب هلسا، ازمنة للنشر والتوزيع، عمان،2004م، ص7ي.

(2) المرجع السابق، ص 99.

حلم اليقظة:

يستخدم غالب هلسا حلم اليقظة للتعبير عن عوالم شخصياته الداخلية، ويعبر حلم اليقظة عن الأجواء السرية المحرمة التي لا يتم الحديث عنها، ويمتاز بأنه يسمح للشخصية بتكييف الحدث ، وإجراء التعديلات المناسبة حسب الرغبة، من ذلك مثلا:

> **"تناولت الإفطار، وشربت الشاي، وأنا أعيش أحلام يقظة ممتعة. يحدث ذلك كلما تناولت الإفطار وحدي. كان حلم اليقظة إعادة صياغة لأحداث لم تصل إلى نهايتها بسبب ترددي وخوفي من الفضيحة. هذه المرة رأيتني أجلس عندما دعتني فدوى لدخول الدار والجلوس، ولكنني اعتذرت ومضيت. أرى نفسي وقد دخلت وجلست، وهي تجلس أمامي، وأقول لها حديثا تعلم منه أنني أحبها. سوف أحكي لها عن الرواية التي أقرأها، وسوف أحدثها عن المدرسة الداخلية في عمان التي أدرس فيها."[6(1)]**

إن حلم اليقظة السابق يقوم على تذكر أحداث سابقة حدثت وانتهت، ولكن جريس الذي يحلم يعيد صياغة ما حدث، ويضيف ويعدل بما يشاء ليكون الحدث كما يريد ويرغب، وفي موقع آخر:

> **" ثم انمسح كل شيء. وأخذ يسرع بين باب الشقة وباب المطبخ، لا يفكر بشيء. يصغي بعضلاته وهي تتقلص وترتخي في هذا المشي المتعجل. كان يسرع، هاربا من انبثاقة جديدة للذاكرة. أنهكته الذاكرة، وأرجعته إلى لحظة حب ورغبة لا شفاء منها.**
>
> **خلال ذلك كانت سلطانة تتأهب للرد، يقاطعها بمزيد من الإسراع. تقول سلطانة:**
>
> **- "ولكنك لم تعد.."**

---

[6] (1) سلطانة، ص 15.

- مانتي خايفة؟

- لا. من أيش؟

تتمدد على جانبها، كوعها مغروس في الوسادة، ووجهها يستقر على كتفها، وهي تنظر إليه، ممدد على ظهره. لا يجيب، تمد سبابتها وترسم حدودا حول عينيه حول شفتيه وبينها. تقول:

- من أيش؟

يقول:

- من الناس.

- ما بهمني حدا.

- يعني.. يعني..

تقول:

- مسعد؟

- مثلا.

- "ومنحتك، يا جريس، جسدي. وانتظرتك..."

جريس يلهث:

- "انتظرتني قال. وحكمت؟ والشيخ؟ لن أغفر لك أبدا دموعك على حكمت...

قالت سمحة:

- والله يا جريس كنت ميتة، ميتة العادة.

عندما قتلوا حبيبك".

- وأنت؟ خضت عشرات النساء نحوي؟"(1).

---

(1) سلطانة، ص 443.

يبدو حلم اليقظة هنا حواريا، وقد أداره جريس بينه وبين سلطانة، بينما كان ينظر إلى صورتها على غلاف المجلة، التي نشرت معها مقابلة، وفيه يتخيل أنه يتحدث مع سلطانة، ويعاتبها على الأعمال التي قامت بها وراءه، بعد أن سافر وبقيت هي في الأردن، إن حلم اليقظة هنا يخلق عالما وهميا بديلا وطيعا وأليفا، أو تضخما نرجسيا مستغرقا في الذات كسلوك تعويضي عن حرمان الواقع، فهو يعيش في الغربة بعيدا وطنه وأهلة وفردوسه الأمومي المفقود، الذي يصبح الآن المطمح والحلم المخلص.

حلم المنام والكوابيس:

إذا كان ما يميز "جوهر الحلم هو حصول الإنسان لا شعوريا في الحلم على ما هو مضنون عليه به في الحالة الشعورية"(1)، فإن النكوص إلى الحلم في خطاب غالب هلسا الروائي يعكس حالة التأزم الدرامي الذي تعيشه الشخصيات، ويستخدم هلسا تقنية الحلم بوصفها تجليا حدثيا يهدف إلى التعبير عن الذات، وإعادة حالة التوازن النفسي لها(2)، إذ تتيح هذه التقنية للشخصية أن تنزاح عن واقعها، ويهدف المؤلف عن طريق الحلم إلى التعويض عن الواقع المشروخ وتحقيق التواصل بين الفرد والمجتمع.

ويلجأ الروائي عادة إلى تقنية الحلم للهروب من الواقع المفعم بالمتناقضات ليعيد التوازن المفقود، وبهذا يكون الحلم تعويضا عن الواقع ومعادلا نفسيا له، وتستمد تقنية الحلم عناصرها من حياة الشخصية، وتتجلى في الحلم رغبة الخروج من العزلة، والانطلاق إلى العوالم النفسية الرحبة؛ حيث لا تتحكم السلطة بنوازع الإنسان، ولا تحد من رغباته الشخصية، وطموحاته العالية، وبحثه المضني عن الكمال المطلق، والذي يمكن إجماله في خطاب غالب هلسا الروائي في(3):

- المرأة الكلية التي تضم الأم والأخت والعشيقة والصديقة، وربما الأجمل والأكثر فتنة وإغراء وثقافة، والتي يشيع وجودها في البيت الدفء والحميمية.

---

(1) فرويد، سيجموند: مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1982 م، ص75.

(2) انظر شعبان، هيام أحمد علي: إشكالية- المؤلف- السارد- البطل- في أعمال غالب هلسا القصصية والروائية، رسالة دكتوراة، جامعة اليرموك، ص195.

(3) انظر أبو نضال، نزيه: غالب هلسا، ص43.

- مجتمع بلا شرور ولا أزمات، يخلو من الاستغلال والقهر والاضطهاد.
- عالم تسوده العدالة والمحبة والمساواة، لا يضطهد فيه الأغنياء الفقراء، والأقوياء الضعفاء، والكبار الصغار.
- حزب يخلو من السلبيات والأخطاء؛ تختفي فيه الأنانية والانتهازية والمصالح الفردية، يمثل نموذجا لمجتمع المستقبل وعيا وتنظيما وممارسة.
- العائلة والأسرة حيث الدفء الحميم والعلاقات الإنسانية غير المرتبطة بالمصالح، وبنفس الوقت أن يكون الإنسان حرا ومستقلا، لا تقيده الواجبات والمسؤوليات، ولا تحول دون ممارسته لذاته.

وقد اصطدمت هذه السلسلة من الأحلام المشروعة والمستحيلة - في هذا الزمن الصعب - بواقع الحياة اليومية المرير، عند غالب هلسا، فسجن وشرد وأحبط، حتى لجأ في آخر أيامه إلى الأطباء النفسيين، وليس ذلك بمستغرب على المبدعين، فقد راجع الأطباء النفسيين أعداد كثيرة منهم مثل: آرثر ميلر، ونجيب محفوظ، ونجيب سرور، وصنع الله إبراهيم، وسعد الله ونوس، ويوسف إدريس، واندفع آخرون إلى حافة الجنون أو الانتحار مثل: أرنست همجواي، ومايكوفسكي، وتيسير سبول، وخليل حاوي.. «واستعاض آخرون عن انتحارهم بانتحار البطل مثل: مؤنس الرزاز، إلياس فركوح، وإبراهيم نصر الله، وغالب هلسا في روايته الأخيرة "الروائيون"(1)».

في رواية الضحك نجد هذا الحلم الكابوس:

"حلمت أنني أسير في شوارع مسقوفة، تشبه الأنفاق. والظلمة في داخلها كانت سوداء حالكة، وصديقي الذي أسمع صوته ولا أراه، كان يقهقه: جسنا طويلا في تلك الأنفاق الكابوسية.

كان صديقي يقول إنني خائف، وإن الفتاتين قد لاحظتا ذلك، كان يقرر ذلك كحقيقة لا تحتاج إلى نقاش، وأخذت أنفي ذلك بشدة. وأقول

---

(1) انظر أبو نضال، نزيه: غالب هلسا، ص 45.

إنه كان خوفا ميتافيزيقيا.. وأخذت أردد "مجرد خوف ميتافيزيقي". ثم تبين لي أن هناك غارة جوية، والبيوت تتهدم من فوقنا، وأنه لهذا السبب أطفئت الأنوار.

وكانت الحجرة مسدلة الستائر، لون الستائر بنفسجي، وقال صديقي:

- ياللا بينا...

فمانعت في النزول، لأنني شعرت بحب وألفة تجاه الفتاتين.

فأخذ يضحك وقال:

-خايف...!

وتبادلت الفتاتان نظرات ذات معنى، فقلت:

- طيب ياللا بينا ...

وقرب نهاية النفق، اختفى صديقي، وكان ذلك ليبرهن على أنني خائف.

وأدركني اليأس لأنني تهت. خارج النفق، طالعني منظر ألفته في القرية: أكوام من الحجارة تتكدس كتلال صغيرة، تتجاور في رقعة صغيرة من الفضاء. كنت متأكدا أن دربا ضيقة تتعرج من بينها وستؤدي إلى المكان الذي أريده. المكان يضيئه لمعان النجوم، وسمعت أصوات طائرة مبتعدة.

في تلك اللحظة خرج من باب النفق رجل يسوق حمارا محملا، يرافقه صبي صغير. كان هناك تدبير ما جعل الرجل يتجاهلني. ثم فجأة برز رجل طويل، عيناه تلمعان بجنون، وله شعر طويل مرسل كشعر النساء، ولحية خفيفة الشعر. أمسك بي من الخلف بقسوة وقال:

- تعال!

رأيت عيني الصبي الفزعتين- سوداوين ومدورتين- أشار نحوي ولكن الرجل قال له بلهجة ضيق آمرة:

- سيبهم وامشي..!

صحوت من النوم للحظة، وقلت لنفسي: "يجب أن أشتري خنجرا" ثم عدت إلى النوم.

كنت أجلس في بار، أشرب البيرة مع صديقي الذي اختفى في النفق، وكان الضوء أصفر كثيفا يغشى عيني فلا أستطيع تمييز الأشياء بسهولة. وكنت أحكي لصديقي ما حدث لأبرهن له على شيء كنا نناقشه، وكنت أتكلم بانفعال شديد ولا أستطيع إمساك دموعي.

اقترب مني الجرسون وقال بصوت مرتفع كأنما يجذب انتباهنا إلى خطر ما:

- عايزين حاجة كمان؟

ثم همس بود إنهم يراقبونك!

وأشار برأسه إشارة سريعة إلى عجوز يوناني يعزف على آلة تشبه الكمان وهو يؤرجح كتفيه مع تحريك الوتر. عندما انتهى من العزف أحنى رأسه لبعض المصفقين وأشار بالوتر نحوي بشكل بدا وكأنه غير مقصود.

تبين لي في تلك اللحظة أن وضعي شديد التعقيد وأنني متهم بارتكاب جريمة ما، وكان دفاعي الذي تحمست له أن أية دراسة متأنية ستكشف أنني لست مجرما بطبعي.

ثم عدت إلى تلك المنعرجات الرهيبة، وقد تملكني اليأس لأنني ضللت طريقي. ثم رأيت الرجل والصبي والحمار. همس الصبي:

- رجع تاني.

همس الرجل: اعمل نفسك مش شايفه.

أسرعت حتى أدركتهم، وأخرجت الخنجر ورفعته حتى يريا لمعانه.

قلت بصوت مرتفع:

- باب اللوق بعيد من هنا؟

حدق الرجل في بدهشة، ورأيت النجوم تنعكس في عينيه، وقال:

إحنا هنا في طوخ.

ثم إذا بي أركض في شوارع القاهرة، التي كانت مظلمة ولكن الرؤية ممكنة. لم أر أثرا لمطاردي ولكنني كنت واثقا أنهم سيدركونني. ذلك لا بد منه. كانت الشوارع خالية، واسعة، والعمارات كتلال صماء كبيرة قد ملأ الظلام فجواتها فبدت مصمتة، وأنا ألهث ولا أستطيع التوقف. كان علي أن أصل إلى الحجرة ذات الستائر البنفسجية حيث تجلس الفتاتان، ولكن الشوارع كانت تؤدي إلى شوارع أخرى، وتلك إلى غير ما لا نهاية. ثم استدارت عربة من احد الشوارع الجانبية فركبتها مستسلما.

قلت: طوخ من فضلك يا ريس.

ولكن ركاب العربة، فيما يبدو، لم يسمعونني.

ثم وجدت نفسي أمام ثلاثة من المحققين. كان صديقي الذي كان يسير معي في النفق بينهم، وكانوا منشغلين بحديث هامس بينهم.

رفعت صوتي، وأعلنت في شبه صراخ:

- إنني أعتبر هذه المحكمة غير قانونية، وأدفع بعدم الاختصاص وساكتب دفاعي بنفسي.

صحوت، وجسدي يرتعش، وعرق بارد يغطيه، وكنت ما أزال أرى المحققين الثلاثة أمامي ."[1]

حلم كابوسي طويل، له أجواؤه الخاصة، ولغته الخاصة أيضا، ويختلط فيه خيال الحلم بالواقع، يعكس المطاردة حتى في الحلم- حيث القوانين مختلفة- وتظهر فيه الخيانة، كما فعل صديقه، ويهرب فيه إلى القرية المحضن الأول، ولكن ذلك الهروب لا يحميه، إذ يدرك أن المطاردين سيدركونه، فيحاول أن يتشبث بالقانون؛ ليدفع باتجاه عدم قانونية المحاكمة، ولكن من يصغي لهذا الكلام؟!

لقد شكل الحلم تقنية أولى مهمة في تشكيل شخصيات غالب هلسا الروائية، وساعدت تقنية الحلم في إيضاح العوالم الداخلية للشخصية الرئيسية "الراوي في الضحك"، الذي يعيش خيبة أمل كبيرة عقب هزيمة عام 1967م، إن هذه الصدمة الكبرى التي ألمّت بالعرب حولت المثقف العربي إلى إنسان محطم ومهزوم ومأزوم وفوق كل ذلك مطارد، فالأنظمة العربية وبدلا من أن تستفيق عقيب الهزيمة المؤلمة؛ عمدت إلى مطاردة أصحاب الفكر والثقافة، وضيقت على الحريات ووسعت السجون، مما جعل الإنسان العربي نهبا للتشظي والهروب، وظل بطل الضحك هائما مطاردا، لا يعرف هدفا يسعى إليه ولا كيانا كريما يعول عليه.

وقد ظلت هذه الحالة هي السمة البارزة لوضع المثقف، وصار اللجوء على الحلم وسيلة للتعبير عن الواقع المؤلم، والواقع المطلوب، وظل الحلم تعبيرا عن الواقع النفسي للكاتب والمؤلف والشخصية، ولكن المسافات بين أحلام المؤلف والشخصية تحتاج إلى قراءة خاصة لاستبطان وعي الشخصية بعيدا عن وعي المؤلف نفسه، وقد حاول غالب هلسا عبر تقنية الحلم التي جعلها سمة بارزة في كتابته الروائية، أن يجعل لكل شخصية حلمها الخاص المعبر عن مكنونها النفسي، ومن هنا كانت الأحلام والكوابيس مفتاحا

[1] الضحك، ص 14- 16.

للولوج إلى الوقوف على البنية العميقة المشكلة لوعي الشخصيات وطموحاتها وخيباتها وانكفاءاتها، مثلما هي مشتبكة بواقع المجتمع العربي، وما حدث له من هزائم وويلات.

تيار الوعي:

"تيار الوعي" عبارة أطلقها عالم النفس وليم جيمس w. James ليعبر عن الانسياب المتواصل للأفكار والمشاعر داخل الذهن، ومنذ بداية القرن العشرين بدأ الروائي جيمس جويس اتجاها في الرواية نحو تركيز الواقع في شخص فرد، عاجز عن توصيل كامل تجربته إلى الآخرين.

وهناك تقنيتان في تقديم الوعي الفردي في السرد؛ تتمثل الأولى في المناجاة الداخلية، وفيها يجري خطاب الراوي بضمير المتكلم، ولكننا نكتشف أن المتكلم هو الشخصية، لا الراوي، وأنها تستخرج أفكارها تدريجيا كما يحلو لها، أما التقنية الثانية فهي الأسلوب غير المباشر الحر، وفيه يجري خطاب الراوي بضمير الغائب وبصيغة الماضي، ولكن هذا الخطاب يتقيد في مفرداته وأسلوبه بما يلائم الشخصية المروي عنها، وتغيب عنه العبارات التي تربط الجمل السردية، من نوع "تساءل" و"فكر في نفسه"، ويعطي هذا الأسلوب القارئ انطباعا بأنه يستمع مباشرة إلى أفكار الشخصية الحميمة من دون أن يتخلى الراوي كليا عن دوره[1]".

من نوع المناجاة الداخلية كتقنية في بناء الشخصية عند غالب هلسا نجد مثلا هذا النص من رواية "البكاء على الأطلال":

" دخلت الكازينو. اكتشفت أنه مكان مناسب للعمل على غير ما كنت أتوقع. كل شيء يتضح لي فيما بعد أنه على غير ما كنت أتوقع. جلست وأخذت أراجع ما كتبته. في مثل هذه اللحظة يصيبني اليأس بعض الوقت، فأقرر التوقف عن المضي في رسالة الماجستير. ثم أعدل عن ذلك بعد قليل وإن كنت ما أزال أشعر بأنني

---

[1] (2) انظر زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص66.

أخطأت إذ اتخذت جراهام جرين موضوعا لرسالتي. لقد قرأت رواياته كلها وأعدت قراءتها. إن عالمه تعس وبائس، عالم بشع. ولكنني لم أستطع أن أجد لذلك أي علاقة بعقيدته الكاثوليكية. أي كاثوليكي هو هذا الذي لا يجد موضوعا للكتابة سوى عن العلاقة الجنسية بين رجل وزوجة أخيه، أو عن علاقة غريبة من الحب بين أخ وأخته، تسلم فيها الأخت، رغم ذلك، أخاها للموت، وعن وعن .. موضوعات مستحيلة وتعسة! أين الكاثوليكية من ذلك كله؟ .. لقد خطر لي أن من الممكن أن جراهام جرين يود أن يقول أن هؤلاء الناس بؤساء لأنهم ليسوا كاثوليكيين. ذلك احتمال بعيد، وخاصة أنهم في نهاية الأمر يذهبون إلى القسيس ويعترفون، فيقول لهم القسيس كلاما لا أفهم دلالته. وتزداد المسألة تعقيدا عندما يتحول هؤلاء المذنبون إلى كاثوليكيين وشيوعيين. وأحاول مرة أخرى أن أضع ذلك في سياق آخر: هؤلاء البؤساء يفعلون ما يخطر لهم، يمارسون حياتهم بحرية فيعيشون حياة تعسة. لو أنهم تقيدوا بتعاليم الدين وأوامر الكنيسة لأنقذوا أنفسهم. مرة أخرى هذا أمر لا يمكن أن يكون موضوعا لكل هذه الروايات. والشيوعية ما علاقتها بذلك كله؟"(1)".

لقد أوضحت شخصية "عزة" عن طريق تيار الوعي بضمير المتكلم جوانب من شخصيتها، فهي تكتب رواية عن الروائي جراهام جرين، ولكن عالم شخصياته الروائية التعس يجعلها في حيرة، فتقلب الأمر على وجوه مختلفة، في محاولة لفهم عالمه الروائي المعقد.

وفي"البكاء على الأطلال" نجد نصا آخر على لسان خالد الشخصية الرئيسية فيها:

"(1) البكاء على الأطلال، ص 218.

"يتمطى في السرير، يلم الغطاء حول جسده ويحكمه. يفكر أنه أصبح شبيها بمومياء فرعونية. ماذا كنت أقول؟ فرعونية؟ مومياء فرعونية. يترقب حركة عزة في المطبخ. يعلم- يتذكر فجأة- أن عزة ليست هنا، لن تجيء اليوم ولا في الأيام القادمة. يستكن في السرير، لا يفكر في شيء، وينتظر المستحيل: أن يدق جرسها وأن يدور مفتاحها في الباب- تفعل الاثنين سويا في العادة. يمسك تنفسه ليصغي.. يعلم تماما أن لا فائدة، ولكنه يترقب همس المفتاح وهو يوضع بثقب الباب.. قالت إنها تخاف يدق جرس الباب فيصحيه من النوم وينسى أنها موجودة فيفتح الباب. قال لها إن هذا يستحيل حدوثه، وحتى لو حدث، فمن يزوره لا يدخل حجرة النوم، وبالمناسبة، هل تخاف أن يعرف أحد عن علاقتهما؟ تقول لا، لا تخاف. إنها ليست من النوع الذي يخاف، فهي عندما تفعل شيئا فهي مستعدة أن تدافع عنه. ليس هذا ما تعنيه، ولكنهم عندما يأتون ويفتشون فلن تخفى عليهم.

قال لها إنها صديقة تزوره، هذا ما سوف يقولانه. قالت، فعلا، صديقة تزوره عارية في السرير. قال لها إنها إذا كانت تعتقد أن الوضع مهين لها، فليتزوجا."[1]

يمثل هذا النص الطريقة الثانية من تيار الوعي، حيث تعبر الشخصية عن طريق الأسلوب الحر غير المباشر، وفيه يجري خطاب الراوي بضمير الغائب وبصيغة الماضي، فقد استيقظ "خالد" من نومه ليتذكر أن عزة غير موجودة وأنها لن تأتي، بالرغم من انتظاره لحدوث معجزة وقدومها، وهنا تتداعى الأفكار والذكريات عن نقاش كان دار

(1) البكاء على الأطلال، ص 58.

بينهما حول علاقتهما، إن تيار الوعي هنا يساهم في توضيح عوالم الشخصيتين "خالد" و"عزة".

الاسترجاع:

الاسترجاع "مخالفة لسير السرد تقوم على عودة الراوي إلى حدث سابق"[16](1)، والاسترجاع يمكن أن يكون موضوعيا(مؤكدا)، أو ذاتيا (غير مؤكد)، وغالبا ما تكون وظيفته تفسيرية: تسلط الضوء على ما فات أو غمض من حياة الشخصية في الماضي، أو ما وقع لها أثناء غيابها عن السرد، والاسترجاع أنواع: خارجي وداخلي ومختلط وجزئي وتام.

في رواية "الخماسين" نجد هذا النص الذي استخدم فيه هلسا تقنية الاسترجاع، في توضيح ماضي الشخصية:

> **"من الوجه الذي أصبح يشبه نعل (الكريب) صوب الرجل نظرة تعرف ناصعة البياض، وحاول أن يبتسم. اختلج قلب غالب بعنف: "يا للشيطان؛ أهو أنت!.. وفي لمحة خاطفة تذكر الوجه الآخر. "كان اسمع عصفور، أليس كذلك؟". صعد إليه الوجه من خلفية نافورة المياه التي تتوسط حوش سجن عمان المركزي، وشجيرات الورد الأحمر. وأخذت الصورة تتكامل: حجرات المساجين التي تحيط بمربع الحوش من ثلاث جهات، الأسلاك الشائكة من جهة الغرب التي تفصل ساحة السجن عن سجن النساء الذي تقع أمامه ساحة مبلطة، والسور العالي الذي يحتل جزءا من الجانب الشرقي وتتوسطه بوابة شاهقة، بلا باب، تؤدي إلى دورة المياه."**[17](1).

---

[16] (1) زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص 18.

[17] (2) الخماسين، ص 350.

فالراوي هنا كان يتحدث عن مراجعة شخصية "غالب" لدائرة المباحث العامة في القاهرة، وفي أثناء جلوسه في قاعة الانتظار، كان يراقب الحضور من مختلف الألوان من حيث التوجهات السياسية والجنسيات المختلفة ورجال الدين وغيرهم، أحد الحضور المنتظرين أصيب بحالة توتر عصبي، وبال على ثيابه دون سيطرة، فذكر وجهه وهو في حالته تلك "غالب" بوجه أحد المسجونين في سجن عمان المركزي، لقد توقف السرد في قاعة الانتظار في المباحث العامة بالقاهرة، وعاد السرد إلى الماضي، أيام كان "غالب" في سجن عمان المركزي في الأردن، حيث كان أحد المساجين المحكوم عليهم بالإعدام واسمه عصفور.

خاتمة

تعد الشخصية من أهم مكونات خطاب غالب هلسا الروائي، وقد شكل هذا الخطاب نقطة لا فتة على مستوى الرؤية والتشكيل، فهلسا روائي عربي بامتياز، وقد شكلت رواياته السبع مرحلة مهمة في مسيرة الرواية العربية، حيث نقل - مع بعض الروائيين العرب الآخرين- الرواية العربية في فترة الستينات والسبعينات والثمانينات، من مرحلة الرواية التقليدية إلى رواية حديثة، تمتح من التراث والأبعاد العربية الحديثة، فكونوا جيلا تاليا لنجيب محفوظ، أثر في الثقافة العربية السائدة، وغير في فهم النخب الثقافية للكون والإنسان والحياة.

وقد سعت هذه الدراسة إلى قراءة الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي وخلصت إلى النتائج التالية:

- تعد رواية غالب هلسا رواية شخصية؛ فقد اهتمت بالشخصيات وتصوير عالمها الداخلي الواسع، ولم يكن الحدث هو هدفها، بقدر ما سعت إلى تحليل رؤية الشخصيات العصرية الواقعية، بغية الوصول إلى فهم خاص للأحداث التاريخية، التي مرت بالأمة في النصف الثاني من القرن العشرين، وتفسير أسباب الهزيمة العسكرية والسياسية والنفسية التي ألمت بالمثقف العربي في تلك الفترة.
- سخر هلسا قلمه في خطابه الروائي المشتبك مع رؤيته الفكرية والسياسية، في خدمة الدفاع عن الحريات والحقوق العربية المهدورة، ولم يدخر وسعا في نقد سلطات القمع والقهر في العالم العربي أيا كان مصدرها، وذلك من خلال فضح تصرفات الجلاد، والضحية أيضا، بصفتها تأخذ دور الجلاد في بعض الأحيان، وقد دفع في سبيل ذلك ثمنا باهظا، في كل الأقطار التي عاش فيها، سواء من قبل سلطات الجهل والظلام، أو المجتمع الذي لم يعرف الأهداف الحقيقية لكتاباته.

- مثلت الشخصية الإشكالية الجزء الأكبر من خطاب غالب هلسا الروائي، فكانت الشخصية الرئيسية في كل الروايات تقريبا هي شخصية إشكالية، وقد مثلت مراحل من حياة غالب هلسا نفسه، ومن هنا فإن الدخول إلى عالم غالب هلسا الروائي يقتضي النظر إلى شخصية هلسا نفسه، حيث تبرز أبعاد شخصيته: مفكرا ومصلحا اجتماعيا وناقدا ومترجما وسياسيا، وقد بدت شخصياته الإشكالية مسكونة بالإبداع والثورة وهاجس التغيير، مع سمات إنسانية رقيقة المشاعر، ومصارحات حميمة قريبة من الواقع.
- بالرغم من الربط الوثيق بين سيرة غالب هلسا الذاتية وشخصياته الإشكالية، إلا أن من أبرز خصائص خطابه الروائي هي مقدرته الفائقة على ابتعاث اللحظات والمشاهد والشخوص بحيث يبث فيها حياة مجازية نصية، قد تكون أقوى وأحفل من أية حياة واقعية، ولذلك فإن الواقع المجازي - كما يرى كثير من النقاد- يبهر القارئ ويثيره ويمتعه، فكرا وانفعالا ومشاركة، وذلك من خلال تفصيلات دقيقة، يقظة، مفاجئة، تضع القارئ على حد النصل، وتجعله مشاركا في اتخاذ القرار، ولذلك فقد تبين للباحث أن الربط بين أحداث روايات هلسا وحياته بهدف استنتاج عقد نفسية منذ الطفولة أمر خاطئ، ولا يوجد له أي قيمة نقدية.
- جاءت الشخصية الثورية في خطاب غالب هلسا الروائي منسجمة مع الواقع، فقد بدت شخصية ذات أبعاد إنسانية معقولة في الحياة الواقعية، وقد نأى بها هلسا عن التحميد والتطبيل والتمجيد، بل أوسع في نقدها وبيان نقاط ضعفها وتراجعها، وأوضح بعض نقاط إشراقها وإنجازاتها.
- تشكل المرأة جسما رئيسيا في خطاب غالب هلسا الروائي؛ فالرغبة عنده تشمل جميع النساء، وقد كانت المرأة على الدوام شخصية رئيسية، وظلت العلاقة معها مجالا رئيسيا لإيضاح فكرته الأساسية، فالمرأة عنده ليست

نصف المجتمع كما يقول معظم المفكرين وعلماء الاجتماع، وإنما هي عنده عصب الحياة الرئيسي، وهي أقرب إلى تفاصيل الحياة الدقيقة، ويمر بها من المشاعر والأحاسيس ما لا يمكن لرجل أن يدركه، وقد ظل هلسا في خطابه الروائي يبحث عن المرأة الكلية الكاملة غير المتجزئة؛ فهي الأم والحلم والرمز والحبيبة ولها دورها الاقتصادي والعقلي والسياسي في الحياة، وقد عالج هلسا قضايا المرأة من خلال دورها: أما وحلما ورمزا وحبيبة مقموعة أو بغيا.

- نتيجة للقهر والظلم الذي تعرض له الإنسان العربي، والهزائم والكوارث العظيمة التي ألمت بالأمة، بعد تردي حقوق الإنسان، وامتهان كرامته، والاعتداء على حقوقه الشخصية والسياسية الاجتماعية، فقد تشظت شخصية الإنسان وبدا في خطاب هلسا في بعض الأحيان متشظيا مشوشا، لا يستطيع أن يتخذ قرارا، أو يدافع عن نفسه وحقوقه المهدرة.
- أخذت الشخصية الانتهازية جزءا مهما في خطاب غالب هلسا الروائي، وبالرغم من أن الانتهازية بدت جزءا لا يخلو منه إلا القليل من الشخصيات، إلا أنها كانت دافعا مرضيا مستشريا مؤثرا في فعل الشخصيات، وقد أصبحت الانتهازية تمتلك على مستوى المجتمعات مؤسسات تقوم بشكل مستمر بإنتاج شخصيات انتهازية، مع مبررات تسوغ أعمالها وانتهاكاتها بحق الإنسان والمجتمع والمال العام.
- اتخذ غالب هلسا من حياته الشخصية وحياة قريته الأولى، ومجتمعاته التي عاش فيها، ومن حياة أصدقائه ومعارفه، ورفقائه في العمل السياسي، وزملاء العمل ورفقاء الطفولة والمدارس، ومن قراءاته ومطالعاته الواسعة، مصادر لتشكيل شخصياته المختلفة.

- تعددت وظيفة الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي، فقد جاءت فاعلة للحدث، وعنصرا تجميليا، ومجالا للتحليل النفسي واكتشاف مكنونات الشخصيات، ومتكلمة بالنيابة، ووسيلة لإدراك الآخرين والعالم.
- تنوعت مستويات الشخصية في خطاب غالب هلسا الروائي، فعلى مستوى اللغة وجد الباحث أن هلسا راوح في لغته بين اللغة الحوارية التي جاءت محكية، ومتناسبة مع وضع الشخصية، وبلهجات: أردنية ومصرية وعراقية، في حين جاءت لغته فصيحة واقعية معبرة عن حياة الشخصية في لغة الراوي، كما تنوعت مستويات الشخصية فجاءت سياسية ومثقفة وشعبية وطبقية.
- استخدم غالب هلسا التقنيات الروائية الحديثة في تشكيل شخصيات خطابه الروائي، وبالرغم من أنه لم يسع للتجريب كهدف في أعماله الروائية، وإنما كتب بالأسلوب الذي ناسب روايته، فإنه قد استخدم تقنيات تيار الوعي والاسترجاع والتداعي الحر للأفكار، والحلم بنوعية: اليقظة وفي المنام.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- هلسا ،غالب : الضحك (1970م)، الأعمال الروائية الكاملة، أزمنة للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى والبنك الأهلي الأردني،عمان ،2003م.
- هلسا، غالب : الخماسين (1975م)، الأعمال الروائية الكاملة، أزمنة للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى والبنك الأهلي الأردني،عمان ،2003م.
- هلسا ، غالب :السؤال (1979م)،الأعمال الروائية الكاملة، أزمنة للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى والبنك الأهلي الأردني،عمان ،2003م.
- هلسا ، غالب : البكاء على الأطلال (1980م)، الأعمال الروائية الكاملة، أزمنة للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى والبنك الأهلي الأردني، عمان،2003م.
- هلسا ، غالب : ثلاثة وجوه لبغداد (1984م)، الأعمال الروائية الكاملة، أزمنة للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى والبنك الأهلي الأردني، عمان،2003م.
- هلسا ، غالب : سلطانة (1987م)،الأعمال الروائية الكاملة، أزمنة للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى والبنك الأهلي الأردني، عمان،2003م.
- هلسا، غالب : الروائيون (1988م)، الأعمال الروائية الكاملة، أزمنة للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى والبنك الأهلي الأردني، عمان، 2003م.

ثانيا: المراجع العربية:

- إبراهيم، عبد الله: **السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة**، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب، 2003م.
- أبو نضال، نزيه: **غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية**، من إصدارات وزارة الثقافة، عمان، 2002.م.
- أبو نضال، نزيه: **علامات على طريق الرواية في الأردن**، أزمنة للنشر والتوزيع، بدعم من وزارة الثقافة ، عمان ، 1996.
- الأزرعي ، سليمان :**الرواية الجديدة في الأردن**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بدعم من وزارة الثقافة، عمان،1997.
- الأزرعي ، سليمان: **العبور إلى الحاضرة دراسة في تحولات المجتمع الروائي**، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 2005م.
- الأزرعي، سليمان: **البحث عن وطن، دراسة في رواية ما بعد حزيران**، أمانة عمان، عمان، الأردن، 2005م.
- برادة، محمد وآخرون، **الرواية العربية واقع وآفاق**، دار ابن رشد للطباعة والنشر، 1981م.
- حتر، ناهض: **مصطفى وهبي التل(عرار) مختارات**، أمانة عمان، المطابع المركزية، عمان،2002م.
- حداد، نبيل، **الرواية في الأردن فضاءات ومرتكزات**، إصدارات وزارة الثقافة عمان، 2002.م.
- خريس، أحمد :**المغترب الأبدي يتحدث**، حوارات مع غالب هلسا، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2004م .

- خضيّر، ضياء: **حكاية الصبي والصندوق، الجنس عند غالب هلسا**، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان ،2003م.
- خليل، إبراهيم، **الرواية في الأردن في ربع قرن 1968- 1993**، دار الكرمل للنشر، نشر بدعم من وزارة الثقافة، عمان، 1994م.
- خليل، إبراهيم: **فصول في نقد النقد**، وزارة الثقافة، عمان، 2005م.
- نينات، خلف عبد الله: **نقد الشخصية العربية**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2004م.
- رابطة الكتاب الأردنيين، **وعي الكتابة والحياة قراءات في أعمال غالب هلسا**، دار أزمنة للنشر والتوزيع،عمان، 2004م.
- رابطة الكتاب الأردنيين، **غالب هلسا مفكرا**، منشورات البنك الأهلي الأردني، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان، 2005م.
- رضوان عبد الله، **البنى السردية – 2 نقد الرواية**، دار اليازوري، الدار العلمية للنشر والتوزيع،عمان 2003م.
- الرويلي، ميجان وسعد البازعي: **دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002م.
- الزعبي، باسم: **الرواية في الأردن أوراق ملتقيات عمان الإبداعية، ملتقى الرواية في الأردن**، إشراف وتحرير باسم الزعبي ومحمد جمال عمرو، منشورات اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربية 2002، عمان، 2002م.
- زيتوني، لطيف، **معجم مصطلحات نقد الرواية عربي إنجليزي فرنسي**، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، بيروت، 2002م.

- السعافين، إبراهيم، **تحولات السرد دراسات في الرواية العربية**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1996م.
- السعافين، إبراهيم، **الرواية في الأردن**، منشورات لجنة تاريخ الأردن، سلسلة الكتاب الأم في تاريخ الأردن.
- السعافين، إبراهيم: **تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام 1870-1967م**، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1987م.
- سماحة، فريال كامل، **رسم الشخصية في روايات حنا مينا**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م.
- شعبان، هيام: **إشكالية المؤلف-السارد- البطل في أعمال غالب هلسا القصصية والروائية**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 2006م.
- شعث، أحمد جبر: **شعرية السرد في الرواية العربية المعاصرة**، مكتبة القادسية للنشر والتوزيع، خان يونس، فلسطين، 2005م.
- الشيخ، خليل: **السيرة والمتخيل، قراءات في نماذج عربية معاصرة**، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2004م.
- صالح، صلاح: **سرديات الرواية العربية المعاصرة**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م.
- الصالح، نضال: **سميحة خريس، قراءات في التجربة الروائية**، أمانة عمان، عمان، الأردن، 2005م.
- العبادي، عيسى، **مضامين الرواية الأردنية (1967- 1990)**، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان،2005م.
- عباس، محمود جابر: **رؤى الحداثة وآفاق التحولات في الخطاب الأدبي الأردني الحداثي، سيكولوجية القراءة وجمالية التلقي في نصوص أدبية أردنية**

حداثية ومعاصرة، منشورات أمانة عمان الكبرى، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، 2004م.

- عبد الحميد، شاكر: **الفكاهة والضحك رؤية جديدة**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2003م.
- عبد الله، محمد حسن: **الريف في الرواية العربية**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م.
- عثمان، بدري: **بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ**، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1986م.
- عبيد الله، محمد: **الرواية القصيرة في الأردن وفلسطين، بنية الرواية القصيرة، دراسة، نصوص، أنطولوجيا، ببلوغرافيا**، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2006م.
- عليان، حسن، مرايا الحرية والإبداع في أعمال غالب هلسا الروائية، نشر بدعم من وزارة الثقافة، مطبعة الأجيال، عمان 2003م.
- فريحات، مريم جبر: **التجليات الملحمية في رواية الأجيال العربية**، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 2005م.
- الفيومي، إبراهيم: **دراسات في الرواية والقصة القصيرة**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 1997م.
- القصراوي، مها حسن: **الزمن في الرواية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، 2004.
- القواسمة، محمد عبد الله: **البنية الزمنية في روايات غالب هلسا من النظرية إلى التطبيق**، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 2006م.
- الكركي، خالد، **الرواية في الأردن مقدمة**، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، عمان، 1986م.

- مراشدة،عبد الرحيم : **الفضاء الروائي، الرواية العربية في الأردن نموذجا**،وزارة الثقافة عمان ،2002. م.
- مرتاض، عبد الملك : **في نظرية الرواية،بحث في تقنيات السرد**،،سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م.
- **الموسوي**، محسن جاسم:**الرواية العربية ، النشأة والتحول**، منشورات مكتبة التحرير ، بغداد ،1986م.
- مجموعة من الكتاب: **الرواية الأردنية وموقعها من خريطة الرواية العربية**، أوراق ملتقى عمان الثقافي الأول 22-1992/8/24، منشورات وزارة الثقافة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1994م.
- منـدور، محمد:**الأدب ومذاهبه**، دار نهضة مصر للطبع والنشر،القاهرة، 1977م.
- مؤسسة عبد الحميد شومان، **عالم غالب هلسا، نصوص الندوات التي أقيمت في منتدى شومان ضمن أسبوع غالب هلسا (21- 1992/12/24)**، عمان، 1996م.
- الماضي، شكري وهند أبو الشعر، **الرواية في الأردن**، منشورات جامعة آل البيت، المفرق، 2001م.
- **المرزوقي**، سمير وجميل شاكر: **مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا**، دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، بغداد، 1996م.
- نجم، محمد يوسف: **فن القصة**، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1966م.
- النصير، ياسين، **التجربة والوعي دراسة في القصة الأردنية المعاصرة**، دار الكرمل، نشر بدعم من وزارة الثقافة، عمان، 1994م.
- هلال، محمد غنيمي، **النقد الأدبي الحديث**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997.م.

- هلسا، غالب: **أدباء علموني أدباء عرفتهم**، جمع وتحقيق ناهض حتر، دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،عمان، ط1، 1996م.
- هلسا، غالب، **الهاربون من الحرية**، إعداد وتقديم ناهض حتر، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2001م.
- هلسا، غالب، **دراسات نقدية**، أعداد وتقديم موفق محادين، دار الكنوز الأدبية، بيروت، نشر بدعم من وزارة الثقافة، عمان، 2002م.
- هلسا ، غالب : **زنوج وبدو وفلاحون** ،أزمنة للنشر والتوزيع،عمان ، ط ،2002م
- هلسا ،غالب : **وديع والقديسة ميلاده وآخرون**، أزمنة للنشر والتوزيع،ط 2، 2002.
- هلسا، غالب: **قراءات في أعمال يوسف الصايغ، يوسف إدريس، جبرا إبراهيم جبرا، حنا مينه، المومس الفاضلة ومشكلة حرية المرأة**، دار بن خلدون، بيروت، 1981م.
- هلسا، غالب: **اختيار النهاية الحزينة، يوميات الصراع الطبقي في الساحة الفلسطينية في عقد الثمانينات**، جمع وتحقيق ناهض حتر، المحروسة بالتعاون مع دار الكرمل- عمان، 1994م.
- ياغي، عبد الرحمن : **مع روايات في الأردن، في النقد التطبيقي**، أزمنة للنشر والتوزيع،بدعم من وزارة الثقافة،عمان،2002.م.
- ياغي، عبد الرحمن: **في الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفوظ**، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الصفاة، الكويت، ط2، 1987م.

ثالثا: المراجع المترجمة:

- أولتبنيرند، لين، وليزلي لويس: **الوجيز في دراسة القصص**، ترجمة عبد الجبار المطلبي، منشورات دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، 1983م.
- ألبيريس، ر.م، **الاتجاهات الأدبية الحديثة**، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات عويدات، بيروت،ط2، 1983.
- إيجلتون، تيري: **النقد والأيديولوجية**، ترجمة فخري صالح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م.
- باختين، ميخائيل: **الخطاب الروائي**، ترجمة: محمد باردة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م.
- باختين، ميخائيل: **الكلمة في الرواية**، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1988م.
- باشلار، جاستون: **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ، بغداد، (د.ت).
- برين، جون: **كتابة الرواية**، ترجمة مجيد ياسين، مراجعة وجدي الدويري، دار الشؤون الثقافية"آفاق عربية" ، بغداد، 1993.
- بوتور، ميشال، **بحوث في الرواية الجديدة**، ترجمة فريد أنطونيوس، دار منشورات عويدات، بيروت، 1971م.
- بورنوف رولان وريال اونيليه، **عالم الرواية**، ترجمة نهاد التكرلي، مراجعة: فؤاد التكرلي ومحسن الموسوي، دار الشؤون الثقافية العامة"آفاق عربية"، بغداد، 1991م.
- ديتشس، ديفيد: **مناهج النقد الأدبي**، ترجمة محمد يوسف نجم، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1997م.

- ريكاردو، جان: **قضايا الرواية الحديثة**، ترجمها وعلق عليها صياح الجهيم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977م.
- فرويد، سيجموند: **مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي**، ترجمة جـــورج طرابيشي، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1982م.
- كندي، جون: **الموسوعة النفسية: النرفزة حذار من الهم**، دار إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1988م.
- لوكـاتش، جـورج: **دراسـات فـي الواقعيـة**، ترجمـة نـايف بلـوز، ط2، وزارة الثقافة، دمشق، 1972م.
- لوبـوك، بيرسـي: **صـنعة الروايـة**، ترجمـة عبـد السـتار جـواد، ط2، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2000م.
- مجموعة من النقاد: **دراسات في الرواية العربيـة المعاصرة**، ترجمة وتحرير عنيد ثنوان رستم، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 1989م.
- موير، أدوين: **بناء الرواية**، ترجمة إبراهيم الصيرفي، مراجعة عبد القادر القط، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- هالبرين، جون: **نظرية الرواية (مقالات جديدة)**، ترجمة محي الدين صبحي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1981م.
- همفري، روبرت، **تيار الوعي في الرواية الحديثة**، ترجمة محمود الربيعي، دار المعارف بمصر، 1974م.
- ولسـن، كـولن: **فـن الروايـة**، ترجمـة محمـد درويـش، دار المـأمون للترجمـة والنشر، بغداد، 1986.
- ويلك، رينيه وأوستن وارين: **نظرية الأدب**، ترجمة محي الدين صبحي، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985م.

رابعا: الدوريات:

- أبو فخر، صقر: غالب هلسا: البدوي المشرد طريد المنافي وربيب التخوم، مجلة أفكار، العدد206، كانون الأول 2005م، عمان، ص47.
- أبو نضال، نزيه: عالم غالب هلسا، مجلة أفكار، العدد 108، كانون أول 1992م، ص90.
- الباردي، محمد: الشخصية الروائية والقناع في أعمال جبرا إبراهيم جبرا، مجلة فصول، المجلد15، العدد الرابع، شتاء 1997م، ص 33.
- الخراط، إدوار: ثلاثة وجوه لغالب هلسا روائيا، مجلة فصول، المجلد 12، العدد الأول، ربيع 1993م، ص 249.
- دراج، فيصل: الاغتراب بين رواية هلسا ورواية مؤنس الرزاز، مجلة أفكار، العدد 113، عمان، ص5.
- دياب، قايد: المسألة الميتافيزيقية في الحرافيش، فصول، عدد خاص، العدد 69، 2006م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص124.
- الديب، علاء: شموع من أجل غالب هلسا، مجلة فصول، المجلد 12، العدد الأول، ربيع 1993م، ص240.
- رضوان، عبدالله: الإحالة المرجعية حول الأردن في إبداع غالب هلسا، مجلة أفكار ،العدد(108) ،1992،ص (101).
- السامرائي، ماجد: رواية الثمانينات في الأردن، الرؤية ومسارات التحول، مجلة أفكار، العدد 107، تشرين ثاني 1992م، ص136.
- الصايغ، مي: غالب هلسا وقضية المرأة، مجلة أفكار، العدد195، كانون الثاني 2005م، عمان، ص 112.

- عبد اللطيف، همام: المفكر الاشتراكي في أدب نجيب محفوظ، للمؤلف حسن يوسف، فصول، عدد خاص، العدد 69، 2006م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص357.
- العلاق، علي جعفر: الروائي ناقدا، دراسة في نقد غالب هلسا، مجلة فصول، المجلد 12، العدد الأول، ربيع 1993م، ص 263.
- العمد، سلوى: هاجس المكان عند غالب هلسا، مجلة أفكار، العدد188، حزيران 2004م، عمان، ص40.
- العيد، يمنى: غالب هلسا كما عرفته، مجلة أفكار، العدد206، كانون الأول 2005م، عمان، ص42.
- فياض، سليمان: المغترب الأبدي، مجلة فصول، المجلد 12، العدد الأول، ربيع 1993م، ص 243.
- القواسمة، محمد عبدالله: المرجعية الفكرية لروايات غالب هلسا، مجلة أفكار، العدد(189)، 2004م، ص(26).
- القواسمة، محمد عبد الله: تنويعات الموت وصوره في روايات غالب هلسا، مجلة أفكار، العدد 210، نيسان 2006م، عمان، ص32.
- القواسمة، محمد عبد الله: المرجعية الفكرية لروايات غالب هلسا، رواية السؤال نموذجا، مجلة أفكار، العدد 189، تموز 2004م، عمان، ص 26.
- محادين، موفق: غالب هلسا، البحث عن الزمن الأمومي المفقود،مجلة أفكار العدد(108)، ص (114)، 1992م.
- مشالي، عزة: السفاح بين نجيب محفوظ وغالب هلسا، العصور الجديدة، العدد11، يوليو 2000م، ص 218.
- المصلح، أحمد : رواية سلطانة، تشكيل الواقع من خلال تحطيم مكوناته السلطوية، مجلة أفكار، العدد(108) 1992، ص(124).

- الموسى، خليل: التحولات النفسية والذهنية في الشخصية الروائية، المعرفة،العدد 395، آب 1996م، ص109.
- ياغي، عبد الرحمن: رؤية غالب هلسا النقدية، المجلة الثقافية، ص 116.
- يوسف، مجدي: في التحولات الاجتماعية والأدبية: الآداب العربية والآداب الحديثة نموذجا، ترجمة حسام نايل، فصول، عدد خاص، العدد 69، 2006م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص272.

ABSTRACT

Characters Transformation in Discourse of Novelistic Gahleb Halasa

Amer Mohammad Gharaibeh

MA in Arabic Language-Literature & Criticism-Yarmouk University

2007

Supervisor

Prof. Dr. Khalil Al Sheikh

This is a study on characters of novelist Ghaleb Halasa, whose discourse was very impressive on vision and formulation levels not only in Jordan but also in the wider Arab or even global levels as some of his works were translated into other languages. The study surveyed characters in Gahleb Halasa seven works of "*Laughing*", "*Khamasine*", "*Asking*", "*crying on remains*", "*Three Faces of Baghdad*", "*Sultana*", and "*Novelists*". The researcher categorized characters discoursed by novelist Ghaleb Halasa investigating character configurations in his seven works. The prelude was centered on novel contextualized character in terms of functionality, patterns, and features. The researcher found that novel characters for Ghaleb Halasa were subsumed under almost five types of characters where the character with the problematic pattern had the lion share among his novel characters representing the protagonist in each of his novels that was represented more his own biography. A revolutionary character pattern was also found that Halasa introduced as neutral and realist far away from praise.

As to the Feminist pattern which had a pivotal role in novel discourse of Ghaleb Halasa, the researcher identified six types including woman as mother, beloved, dream, figure, repressed, and good prostitute through Halsa identified women problems in the Arab community regarding freedom, participation in community activities and being influential.

The researcher identified fragmented character pattern which was a reflection of an Arab literate state in the modern time that is overwhelmed by defeats and misfortunes happened to the nation leaving him a fragmented and mysterious picture. An opportunistic character pattern also formed a major part of Ghaleb Halasa discourse which had some virtues that was destined by poor conditions to this inevitability.

The researcher studied and analyzed novel character configurations in Gahleb Halasa, surveying character development, functionality, levels in terms of linguistic, dialogue, cultural and social levels as well as techniques of character development in Gahleb Halasa, particularly the technique of dream, consciousness, incidental identity of ideas. The conclusion showed major study findings.